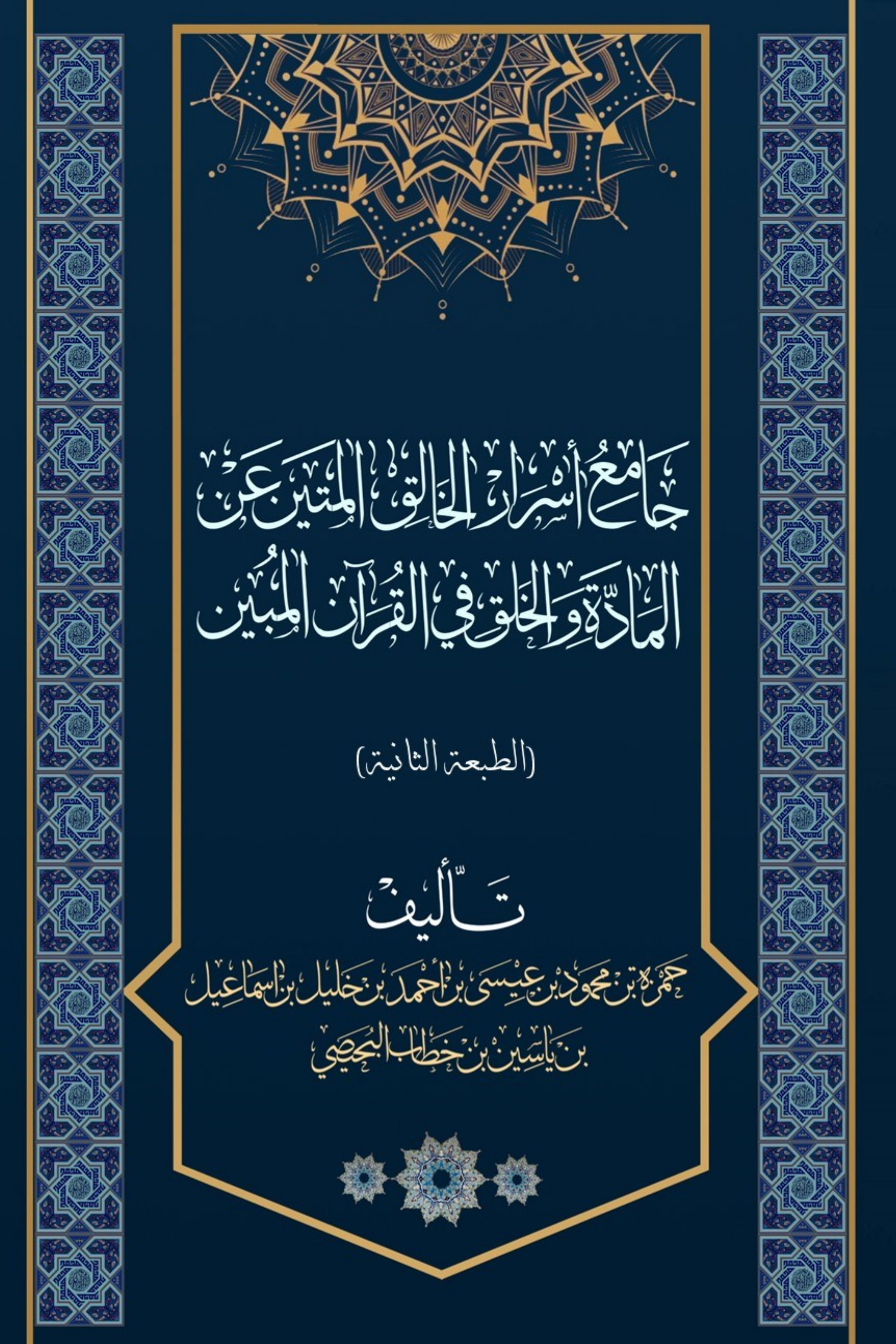

جامع أسرار الخالق المتين عن
المادة والخلق في القرآن المبين
(الطبعة الثانية)
تأليف
حمزة بن محمود بن عيسى بن أحمد بن خليل بن إسماعيل
بن ياسين بن خطاب البحيصي

جَامِعُ أسْرار الخَالِقِ المَتِين عن المادّةِ والخَلْقِ في القُرآن المُبِين

تـأليف

حَمْزَة بنُ مَحْمُود بن عِيْسَى بن أَحْمَد بن خَلِيل بن إسْمَاعِيل بن يَاسِين بن خطاب البحيصي

الطبعة الثانية

إصدارات دار إي-كتب

لندن 2024

BY: Hamza Elbuhaisi

Published by e-Kutub Ltd
Distribution: TheBookExhibition.com & Associates

ISBN: 9781780587738
Second Edition
London, 2024

** * **

الطبعة الثانية،
لندن، 2024
جامع أسرار الخالق المتين عن المادة والخلق في القرآن المبين
المؤلف: **حمزة البحيصي**
الناشر: e-Kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024

التوزيع: TheBookExhibition.com

يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
hamza.elbuhaisi@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}

{المجادلة: 11}

الفهرس

الفصل الثالث: مركزية (التراب والطين والصلصال الفخار والحمإ المسنون) في نشأة وديمومة الكائنات الحية (آدم والنباتات والحيوانات)........239

مقدمة المؤلف

فكرت مراراً في هذا السؤال، هل يمكن وضع تفسير مادي تاريخي للقرآن الكريم؟ لكنني عدت وفكرت في أصل ودورة حياة المادة في التاريخ منذ خلقها الأول بأمر الله، وتأملت حركة المادة ودورتها في الكون والطبيعة، وكذلك دلالة معانيها وتأويلاتها وسياقها التاريخي في القرآن، وإذا قلنا سياق تاريخي، فإننا بذلك نتوقع زمناً محدداً لخلق بداية أو أول المادة، علماً بأن خلق أول المادة ليس له زمن وفق التقديرات الآدمية الدنيوية لأن تحديد زمن خلق أول المادة يعني الاشتراك مع الخالق (الله) في تحديد زمن خلقها، وبالتالي تحديد زمن خلق الكون بشكل دقيق، إذا اعتبر أن خلق المادة مرتبط بخلق الكون وليس قبلها، علماً بأن زمن خلق أول المادة بأمر الله لا يشترك في معرفة وجوده الابتدائي وآلية نشأته أحد إلا الله سبحانه وتعالى، وهو في علم الغيب الإلهي غير المعلوم بالنص القرآني والمجهول بالصورة لقوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم.." {الكهف: 51}، وكل ما هو معلوم بالنص القرآني هو زمن خلق السماوات والأرض لقوله تعالى: "هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش.." {الحديد: 4}. لأسباب ما في الغيب حول خلق أول المادة، فإن الغموض والتردد -بالنسبة لكثير من العلماء الملاحدة أو اللادينيين- لا يزال يكتنف بداية وعُمر نشوء الكون والمجموعة الشمسية بكاملها، أما بالنسبة لعلماء اليقين فهو أمر معلوم مسلّم به لله وحده. ومما يعرفه العلماء والباحثون أن "الكون بدأ بالوجود قبل حوالي 13 مليار سنة بانفجار هائل"، [1] وفي رواية ثانية

---

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص31.

تقول إنه نشأ منذ 14 مليار عام [1]، وفي رواية ثالثة تقول إن عمر الكون قد يكون ضعف التقديرات الحالية، بافتراض نحو 26.6 مليار سنة [2]، لكن لا أحد يعرف شيئاً عن زمان وجود المادة قبل خلق الكون أو الانفجار العظيم المعروف نظرياً باسم (Big Bang).

كما أنني فطنت بعد طول نظر وقراءة متخصصة في كتب تفسير القرآن منذ عهد النبي محمد (ﷺ) وحتى كتب التفسير الحديثة في مطلع القرن الواحد والعشرين، وكتب علوم المادة عند فلاسفة اليونان القدماء، وكتب علوم الطبيعة، وبالتحديد نظرية عالم الأحياء الطبيعي والجيولوجي البريطاني تشارلز داروين وما بُني على إثرها، وما لاقته من قبول عند عالم الأحياء الإنجليزي توماس هكلسي وغيره، فطنت أنه لا يمكن تفسير القرآن تفسيراً مادياً، لأنَّ المادة جزء من موضوعه وليس كل موضوعه، وكذلك الطبيعة جزء من موضوعه وليس كل موضوعه، لكن المادة والطبيعة (ويشكلان الكون معاً) موضوعان مركزيان ومتأصلان في نص القرآن وفي حياة المخلوقات، وأهم المخلوقات في نص القرآن وفي الواقع هو خلق آدم (عليه السلام) باعتباره أول الخلق الإلهي الإحيائي الروحي، وكذلك عيسى (عليه السلام) باعتباره آخر الخلق الإلهي الإحيائي الروحي.

لقد وجدت في هذا الكتاب إمكانية التأسيس لمقدمة نظرية عن الفلسفة المادية الإسلامية في قراءة الآيات القرآنية التي تتعلق بالمادة والخلق، لكنني قررت أن تقدم هذه القراءة ضمن النظر الفلسفي المادي الإحيائي بحسب ما تقرر في واقعه من مادية إحيائية أو إن شئنا تسميتها "مادية حركية" لأنها تقوم بوظيفة الإحياء والانبعاث وتشتمل على الحركة في خلق الخلق خلقاً إحيائياً روحياً أو إحيائياً مادياً أو إحيائياً نشورياً.

---

[1] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص11.

[2] https://academic.oup.com/mnras/article/524/3/3385/7221343?login=false

يعتبر القرآن أقدم من خلق المادة لأنه كلمة الله المنزلة عبر الوحي، وكلمة الله أقدم من خلق المادة لأنها هي التي أنشأتها وأطلقتها، ومادة خلق الوحي أقدم منه، ولأن خالق المادة هو الله، ولأن كلمة الله أقدم من خلق المادة ومن خلق الوحي وخلق الكون وتنزيل القرآن، فيكون أصل خلق المادة لغة أمر وكلمة الله العليا هي أمر، وقد عبَّر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" {يس: 82}. قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شيء لأنه يقول لما أراده "كن فيكون" فهو قبل القول له كن لا يكون، وهو في تلك الحالة شيء موجود لا معدوم [1]. بينما قالت الكرامية لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى: "إذا أراد" ووجه دلالته من أمرين: (أحدهما) من حيث إنه جعل للإرادة زماناً، فإن "إذا" ظرف زمان، وكل ما هو زماني فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله "كن"، وقوله "كن" متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال "فيكون" بفاء التعقيب لكن الكون حادث، وما قبل الحادث متصل به حادث [2]. أما نحن فنقول إن الأمر أو افعل عند الله تابع لإرادته وهو أقدم منها لأن الأمر سبقه "إنما" وهي مكونه من "إن" للإثبات و "ما" للنفي، فهو أراد أن يقول إن أوامره إما إثبات أو نفي، وهو في حال الآية "إنما" للحصر، فالإرادة أسبق من الإثبات والنفي، فإذا جعل الله للإرادة زماناً وهي محدثة كما تقول الكرامية، فإن أمره تابع متصل بـ "كن" وأمره متصل بـ "يكون" وبالتالي فإن الإرادة في قوله تعالى: "إذا أراد" والقول في قوله تعالى: "أن يقول له" يقعان بين الأمر ونتيجة تنفيذه، فتكون نتيجة تنفيذه محدثة. بالتالي فإن الحصر في الأمر يكون لله وحده. عندما وضعت نص الكتاب فكرت

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص110.

[2] المصدر السابق، ص111.

برويَّة وحكمة بالغة بشأن العلاقة بين القرآني (الديني) والمادي (الطبيعي) في نص القرآن، وفكرت مراراً بنزع السياق (الديني) عن المادي (الطبيعي)، وتقديم كل ما يتعلق بالمادة والطبيعة بصيغة أبدو معها كأنني أنكر أو أستنكر الديني وعلاقته مع المادة والطبيعة، وبالتالي أتنكّر للنص القرآني كمنهج حياة فيه تشريعات وتكليفات، ولكن ذلك لم يحدث أبداً. لقد وجدت تطابقاً تاماً بين القرآني (الديني) والمادي (الطبيعي). وعندما فكرت بالمادة المجردة قبل وعند وبعد لحظة خلق السماوات والأرض (الكون)، وتلك المادة الموجودة في المجرة والمذكورة في القرآن الكريم، وجدت أنه لا فكاك بين المادة ونص القرآن الكريم من ناحية أهمية وضرورة تدبّر مادة الخالق (أي المادة التي صنعها الله)، ومادة خلق الله (أي مادة تكوين مخلوقات الله بما فيها آدم وعيسى عليهما السلام). لذلك نقلت في هذا الكتاب مجمل الآيات التي تتعلق بالمادة وخلق آدم وعيسى (عليهما السلام) الوارد ذكرها في القرآن الكريم، والتي تعتبر في جوهر صناعة السماوات والأرض (الكون)، وهي تدل على أن القرآن الكريم ينطق بلسان حال المادة والطبيعة، كما أن المادة هي التي تعلل العلاقة بين العقل والروح وعلاقتهما باللوح المحفوظ، وعلاقة اللوح المحفوظ بالخالق. لقد ساعدني فهم العلاقة بين الخالق (الله) والمادة واللوح المحفوظ على تقديم (اجتهاد) جديد في طريقة فهم الآيات القرآنية. ولإتمام الكتاب على أكمل وجه في النظر إلى التخصص في طرح موضوع المادة والخلق، اطلعت بالدرجة الأولى وبشكل مركزي ومكثف على أبرز ستة تفاسير: وهي التفسير بالرأي الجائز لفخر الدين الرازي، والتفسير الفقهي لأبي عبد الله القرطبي، والتفسير بالرأي الجائز أيضاً لناصر الدين الشيرازي البيضاوي، وتفسير الزيدية لمحمد بن علي الشوكاني، والتفسير بالمأثور لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، وتفسير المعتزلة لأبي القاسم الزمخشري الخوارزمي، وذلك بحسب

إدراكي لأهمية هذه التفاسير كما تم شرحها في تاريخ كتب التفسير في ثلاثة أجزاء بعنوان: (التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي) [1].

هذه التفاسير التي اخترتها للبحث والتقصي مرتّبة حسب أهميتها وأولويتها بالنسبة لي وفق قناعتي بخصوصية الرؤى وجدية وكثافة الطرح المنطقي والأخلاقي والعلمي في هذه التفاسير وتعدد التخصصات ومنه المنقول (النقلي) -وهو التفسير بالمأثور- أو المعقول (العقلي) -وهو التفسير بالرأي ويشمل ذلك على الفقه-. علماً بأن ابن خلدون صنف التفسير إلى صنفين: تفسير نقلي مسندٌ إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. أما الصنف الآخر من التفسير فهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب [2]. يُعرف أن الفرق بين الصنفين جوهري لأنه يميز بين ما تم نقله عن الصحابة والتابعين مع حفظ النص المنقول كما تمت روايته وفق الأصول وهو يتطلب التحري، وما تمت صناعته بحسب حذاقة اللسان العربي وإبداعيته وتفرده في إقامة الحجة في التفسير. لم يقل ابن خلدون إن التفسير الثاني الخاص باللسان العربي هو تفسير عقلي، بل جعل خصوصيته متعلقة بإجادة اللغة العربية وقواعها وعلومها، لكن مع تطور هذا النوع من التفسير صار يُعرف بالتفسير العقلي نظراً لتبحره في علوم اللغة العربية. بالنسبة لي أرى أن محتوى كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) وبحثينا (الفلسفة الإنسانية لمفهوم "الفداء" في النص القرآني من منظور عقلاني) وبحث (فهم تأويلي لمسألة "تعدد الزوجات" في النص القرآني) جميعها مقدمة للبرهان على الاتجاه (الفقهي اللغوي المفاهيمي) في

---

[1] محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، 2، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1976)، ص173، 206، 211، 304، 336.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ج2، (دمشق: دار يعرب، 2004)، ص175، 176.

تفسير القرآن باستخدام النظر (التأمل) العقلي، عبر الاختصاص بالنظر اللغوي عبر التأسيس الفقهي للمفهوم في نص القرآن من خلال التحليل العقلاني الفلسفي لمعاني ودلالات المفهوم. أما بالنسبة لمادة هذا الكتاب، فهي امتداد لهذا المشروع الذي يتأكد من خلاله إضافة فرع آخر داخل الاتجاه (الفقهي اللغوي المفاهيمي) في التفسير، وهو فرع نسبي، ونسبيته تتعلق بحصر الآيات القرآنية التي تتناول موضوعي المادة والخلق، ولذلك لا نقول إنه اتجاه مادي في التفسير، بل نقول إنه تفسير فقهي لغوي (للمفاهيم المادية) في النص القرآني. وهذا الأمر يجعلنا نقول بوجود تفسير فقهي لغوي للمفاهيم الاجتماعية، وتفسير فقهي لغوي للمفاهيم التشريعية والعرفية، وتفسير فقهي لغوي للمفاهيم الأخلاقية، وتفسير فقهي لغوي للمفاهيم السياسية وهكذا، وهي جميعها تندرج تحت التفسير (الفقهي اللغوي المفاهيمي) أو تفسير (فقه لغة المفهوم) ولهذا التفسير رؤية أو مقدمة تأسيسية في كتاب خاص تحت عنوان (المفاهيم الأخلاقية القرآنية وتطوير الدرس التفسيري المعاصر - الإصلاح الاجتماعي أنموذجاً).

لقد اخترنا نقل الآراء العقلانية المنطقية في شرح كل آية بما يتناسب مع رؤيتنا (اجتهادنا) في تأويل النص القرآني من منظور خلق المادة والمخلوقات، وقد استثنينا كثيراً من الآراء التي لم يثبت صوابها حتى ولو بشكل نسبي، ومع ذلك رجحنا أهم الآراء التي ثبت صحتها والتي كانت معززة بالدليل المنطقي، ما يعني أننا نقدم في هذا الكتاب جوهر ما يمكن فهمه عن خلق المادة والمخلوقات، وأهمها آدم وعيسى (عليهما السلام) كما هو مذكور في نص القرآن الكريم. وهنا وجبت الملاحظة أننا أضفنا رأينا الفقهي التأويلي في مجمل الآيات تقريباً، وقد أشرنا إلى هذا الرأي غالباً بكلمة (نقول)، اعتقاداً جازماً منا بأن هذا القول هو قول إنسي روحي خالص، وما هو بقول إلهي ولا قول جني أو شيطاني، وحجتنا في أنه قول روحي إنسي (آدمي) يعود إلى قوله تعالى في سورة (ق): "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به

نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (16) إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (17) ما يُلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (18)". إن الآية تجمع بين قول الإنسان ورقابة الملائكة، وهذا ما يفسر وجود ارتباط شديد بين هذين الجنسين المخلوقين، وهو محور أساسي في فهمي لخلق مادة الإنسان ومادة الملائكة، وعلاقة الروح بين الاثنين، وبالتحديد الانتقال الذي يحدث لروح الإنسان المعززة بالملائكة لتكون هي ذاتها روحاً ملائكية ويُصرف عنها أرواح شياطين الجن والإنس. ورغم أن القول في الآية (18) هو قول روحي إنسي بامتياز، فإنه قول له تقاديره في قسطاس العدل الإلهي الذري، فإما أن يكون القول والفعل من الشياطين أو الوسواس الخناس، وهذا مستبعد في أقوال وأفعال الأرواح الإنسية للأنبياء والعلماء الأتقياء والعارفين الزاهدين الصالحين أو يكون قولاً إنسياً تقليدياً عادياً، أو إنسياً لكنه ملائكي بفعل ما ائتمرتْ به الروح داخل العقل، وفعل ما انتهت عنه في الحياة الدنيا والآخرة، وإن صيغة لغة الأمر والنهي شريعة قرآنية إلهية، فيكون في الخطاب الإلهي كرامات وتجليات وتمكين لجوهرة المعرفة من الله، فيكون جولان الفكر والروح في عالم الملكوت، ويخترق بهما الطوق الدنيوي السفلي والعلوي. لقد آثرنا كتابة كلمة (نقول) بصيغة الجمع (عند كل إشارة إلى رأينا أو تأويلنا داخل نص الكتاب) على كلمة (أقول) بصيغة المفرد، وذلك حرصاً وإقراراً بأن كل قول مفرد له روحية وإحاطة علوية إلهية تختلف عن غيرها، فتكون مجموع الأقوال بصيغة (نقول) هي الروح الملهمة في حالة تعدد انشغالاتها الفكرية، وذلك إثباتاً منا بأن الروح مصدرها العقل، والعقل محل التفكير، والتفكير أسبقيته مُجازة بالقول قبل الكتابة، والقول متعلق بالكلام، والكلام متعلق بعضو النطق وهو اللسان، والنطق مرتبط بالإدراك، وعند الإدراك تكتمل دائرة النوع الآدمي (الإنسان) لأن الإدراك مرتبط بالعقل، والعقل مرتبط بالتفكير، والتفكير مرتبط بالخلق، والخلق مرتبط بالأرض، والأرض مكونة من

مادة التراب والطين والماء، وجميعها خلق بأمر من الله، فجُعل بهذه المواد كل شيء حي، وإن الخلق أمر من الله، بالتالي فإن علاقة الخالق بآدم (عليه السلام) بدأت من خلقه بصيغة الأمر (كن) في قوله تعالى: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون {يس: 82} ثم تعليمه بصيغة الأمر (اقرأ) في قوله تعالى: اقرأ باسم ربك الذي خلق {العلق: 1} ثم إحيائه بصيغة الأمر (قل) في قوله تعالى: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين {الأنعام: 162}، والقول إما أن يكون خُلقياً علوياً تعززه إرادة الخالق عبر الوحي، أو أرضي معزز بإرادة العقل البشري، فهو إن كان خُلقياً سيغادر إلى دائرة الأرواح العلوية نحو لوازم ومقتضيات الخواطر الملكية الربانية، وإن كان أرضياً لا يغادر دائرة النفس والهوى والبدن.

لقد جمع الله بين سبب الخلق في أمرين وهما (الفعل الأرضي الدنيوي) و (التأمل الخلقي العلوي) من خلال ذكر كل أنواع النباتات التي مصدرها الأرض والتراب والطين والماء التي خلق منها آدم (عليه السلام) وذكر كلمة (يتفكرون) في آية واحدة لقوله تعالى: "يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون" {النحل: 11}. فأراد بكلمة (يُنبت) الفعل الأرضي الدنيوي، وأراد بكلمة (يتفكرون) التأمل الخلقي العلوي. ونلاحظ في آية أخرى كيف أن التفكير ورد ذكره مصاحباً للمادة وحالتها ولضرورة التأمل في الرسالة السماوية التي نزلت على النبي محمد (ﷺ)، باعتبار أن هذا الخطاب الذي أنزله الوحي جبريل على النبي محمد (ﷺ) من الله عزوجل هو خطاب للعقل الإنسي (الآدمي) لأنه متعلق بخلق آدم (عليه السلام) أصلاً، وذلك في قوله تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" {الحشر: 21}. لأننا قلنا إن التفكير مرتبط بالخلق، وبأن خلق آدم (عليه السلام) مرتبط بالأرض، والأرض مصدر (التراب والطين والماء) والماء هو أول مادة لإحياء

الخلق، وجب القول بأن العبرة من إنزال القرآن على جبل هو توكيد وترسيخ لعلاقة كلمة الله وشريعته بالطبيعة ومادتها وحالتها، والآية تدل على حالة خشوع الجبل وكثرة مادته وهي (التراب). ولذلك إذا فهمنا معنى ودلالة القول، سوف نفهم أن أصل الرسالات السماوية كانت قولاً عبر الوحي. لذلك لاحظنا أن فاعلية الخطاب القرآني تبرهن على ضرورة القراءة الشرعية والعلمية، ولم تنفك المعرفة الشرعية عن المعرفة العلمية ولا حتى عن المعرفة الخالصة التي تنتج عن الوعي والإدراك وفهم الحقائق من خلال التجارب والمهارات. والدليل على ارتباط الشرعي بالعلمي قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علّم بالقلم (4) علّم الإنسان ما لم يعلم" (5). نلاحظ في الآية أن لغة الأمر في قوله تعالى: (اقرأ) جاءت مصاحبة لضرورة القراءة عن الخلق، أي اقرأ كيف خلق الله المادة وخلق منها المخلوقات، وتدبّر دلالة هذا الخلق ولماذا خلق؟ وكيف خلق؟!، لذلك قام بالإرشاد والتوجيه في الخطاب القرآني من خلال تعيين نوع القراءة في قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق" (2)، أي النطفة أو الخلية، كأن الله يقول إن القراءة يجب أن تكون في أصل الخلق الذي بدأ (باسم ربك) أي باسم الخالق. وأما إشارته إلى القلم، وأنه علّم الإنسان ما لم يعلم فهذه تعتبر دعوة إلى التأمل في الحقائق الإلهية، وإشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع [1]. لذلك نقول إن الفرد الواحد (الطبيب)، أو المُقبل على تعلم الطب، يحتاج خمس إلى سبع سنوات تقريباً كي يتعلم تخصصاً واحداً في جسد الإنسان، كأن يختص في الدماغ، أو العظام، أو الباطنة، أو القلب، أو الصدر، أو العيون، أو الأنف وأذن وحنجرة، وغيرها. فماذا لو أراد إنسان

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص17.

واحد أن يتعلم كل ما سبق بالتفصيل والدراية؟ نقول لن يكفيه كل عمره، لأن الله يعلم أن الإنسان الواحد لا يستطيع أن يجمع في علمه كل شيء، فلا عالم إلا الله، وأما البشر مهما بلغوا مراتب من العلم فهم ناقصون في علمهم، كما أن الإنسان يسمى "عالم" ولا يسمى "عليم" لأن العليم هو الله، لقوله تعالى: "نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم {يوسف: 76}. أما العالِم فله ثلاثة علوم: علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد" وفي رواية أخرى: وعلم هو سر بين الله وبين العالم هو حقيقة إيمانه لا يظهره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن [1]. والعليم كماله أن يُحيط بكل شيء علماً، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته. ثم يكون العلم في ذاته، من حيث الوضوح والكشف، على أتم ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه، ثم لا يكون مستفاداً من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه [2]. ولذلك نحن لا نقول إن للعبد حظ من وصف العليم كما قال الغزالي، لأن الله هو سر السر "أي ما تفرد به الحق عن العبد، كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحَديّة وجمعها واشتمالها على ما هي عليه، لقوله تعالى: "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" {الأنعام: 59} [3]. ومع ذلك نؤيد قول الغزالي بفارق علم العبد عن علم الله تعالى في الخواص الثلاث: إحداها: المعلومات في كثرتها، فإن

---

[1] أبي حامد الغزالي، تحقيق موسى محمد علي، قواعد العقائد، ط2، (بيروت: عالم الكتب، 1985)، ص116.

[2] أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2003)، ص86.

[3] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، معجم التعريفات، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص102.

معلومات العبد، وإن اتسعت، فهي محصورة في قلبه، فأنى يناسب ما لا نهاية؟!

والثانية: أن كشفه وإن اتضح، فلا يبلغ الغاية التي لا يكمن وراءها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق. ولا تُنكرن درجات الكشف، فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر. وفرق بين ما يتضح في وقت الإسفار وبين ما يتضح صحوة النهار.

والثالثة: أن علم الله سبحانه وتعالى، بالأشياء غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه، وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها [1]. ولذلك، لا يعرف أحد حقيقة علم الله عز وجل إلا من له مثل علمه. وليس ذلك إلا له، فلا يعرفه أحد سواه. وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه. وعلم الله عز وجل لا يشبه علم الخلق البتة، فلا يكون معرفة الخلق به معرفة تامة حقيقية، بل إيهامية تشبيهية [2]. لذلك نحن نؤصل على سبيل التشريف ما ذكره الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن في قوله إن "الأصل في الشرائع السماوية أنها نزلت، لا لنشر العلم فحسب، بل لنشر المعرفة" [3]، فنقول إنها نزلت في الأصل لنشر العلم، والعلم أصل في القرآن، وإن كل ما هو معرفي يعتبر نسبياً إلى ما هو علمي، والعلمي لا يلغي المعرفي، بل يبرهنه ويؤكده. بمعنى دقيق آخر نقول إن العلم أخروي وإفاضته علوية، والمعرفة دنيوية وانشغالاتها أرضية "مادية"، لأن الأصل أن الله وشريعته تُعلّم الخلق قبل أن تُعرّف الخلق، فنحن نقول "علوم الدين" ولا نقول "معارف الدين". لهذه الأسباب السابقة عدلت عن كتابة كلمة "نظرية" أو ما يدل عليها في عنوان الكتاب لأن أمر الله ليس نظرية، ولأن النظرية تفسر ظاهرة طبيعية، وإن الله لا يتساوى مع الظاهرة الطبيعية لأنه

---

[1] أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2003)، ص87.

[2] المصدر السابق، ص87.

[3] طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017) ص100.

خالق المادة، والمادة تصنع الظاهرة، والمادة والظاهرة جزء من النظرية، بالتالي لا يكون خالق المادة جزء أو كل من النظرية، بل هو أعلى من النظرية والمادة أو مادة النظرية، ولأن اسم "النظرية" دنيوي وليس علوياً، ولأننا نرى أن الإنسان لا يختص بالنظر (التأمل) العقلي قبل الاختصاص بالتعلم، ولا يختص بالتعلم قبل الاختصاص بالاستخبار، ولا يختص بالاستخبار قبل الاختصاص بالتفقه، ولا يختص بالتفقه قبل الاختصاص بالتربي، فالعالم قبل المفكر، والمفكر قبل الفقيه، والفقيه قبل الشيخ والشيخ قبل مريده، والمريد قبل المُربي، والمُربي قبل التلميذ. ولذلك لم أقتنع بجدوى اعتبار مادة الكتاب نسف لنظرية داروين لأسباب مركزية، منها أن المحتوى الذي أطرحه أقدم بكثير من نظرية داروين التي تشرح التطور البيولوجي لأنواع الكائنات الحية من خلال عملية الانتقاء الطبيعي للطفرات الوراثية، ولأن ما أقدمه أقدم من موضوع التطور، وهو موضوع خلق الكائنات الحية وأهمها خلق آدم وعيسى (عليهما السلام)، وكذلك علاقة خلق كافة الكائنات الحية بالمادة، علماً بأنه ثمة فرق بين الخلق والتطور، فالخلق أسبق من التطور، ما يعني أنني أضع تأسيساً يسبق نظرية داروين وكل ما تلاها من النظريات المشابهة، ولكنه تأسيس يخالف النظرية من ثلاث مسارات (علمية وأخلاقية ودينية)، **لماذا؟**

لأن كيفية نشأة الحياة على الأرض تثير التساؤل، حيث تقول الفرضية الأولى إن الكائنات الحية نشأت من خلال عملية التطور، أي وفقاً لنظرية التطور ورائدها تشارلز داروين، وذلك من خلال بدأ الحياة عبر أول خلية حية تكونت بمحض المصادفة أو من خلال قوانين طبيعية افتراضية قائمة على "التنظيم الذاتي" نتيجة المصادفة والقوانين الطبيعية. أما الفرضية الثانية فهي من خلال "الخلق" وهذا هو مجال بحثنا في هذا الكتاب. "لا يوجد اليوم ادعاء أو فرضية ثالثة فيما يتصل بكيفية نشأة الحياة. ووفقاً لقواعد المنطق، إذا ثبت خطأ إحدى إجابتين محتملتين بديلتين لسؤال ما، فلا بد أن تكون الإجابة

الأخرى هي الإجابة الصحيحة. ويطلق على هذه القاعدة، التي تعتبر إحدى القواعد الأساسية في علم المنطق، اسم الاستدلال التخييري disjunctive inference modus tollendo ponens. ويتفق العلماء الداعمون لنظرية التطور على عدم وجود بديل ثالث [1]. وقد كان لرجلٍ إنجليزي، هو فرانسيس بيكون، تأثير كبير على أسلوب تطوُّر البحث العلمي. يستخدم علماء اللاهوت أسلوب الاستنتاج؛ فيبدءون باعتقادٍ ما ثم يستنتجون العواقب المترتبة على هذا الاعتقاد. أما بيكون فقد اقترح أن يعمل العلماء بطريقة مختلفة أطلق عليها اسم (الاستقراء). يبدأ الاستقراء بملاحظات، يطلق عليها أيضاً أدلة أو(بيانات) ثم يخترع العلماء تفسيراً يطلق عليه (فرضية) من أجل تفسير هذه الملاحظات، ثم يختبرون هذه الفرضية عن طريق التوصل إلى مزيد من الملاحظات، أو عن طريق إجراء تجارب، في حالة علوم مثل الكيمياء والفيزياء والأحياء. وأسلوب الاستقراء هذا في التعامل مع الأشياء هو الطريقة التي يفترض بالعلوم المتضمنة في أبحاث تطور الإنسان استخدامها. لخص بيكون اقتراحاته بشأن الطريقة التي يجب دراسة العالم بها في مجموعة من الحكم، عرضها في كتاب بعنوان "Novum Organum" أو "اقتراحات واقعية لتفسير الطبيعة"، نشر في عام 1620. كانت رسالته فيه بسيطة: لا تكتف بالقراءة عن تفسير في أحد الكتب؛ فعليك الخروج وتسجيل ملاحظات والبحث في الظاهرة بنفسك، ثم وضع فرضيات واختبار هذه الفرضيات [2]. يقبل عالم الأحياء المعروف دوغلاس فوتويما (Douglas Futuyma) الحقيقة فيقول "إن الخلق أو التطور هما التفسيران الوحيدان حول أًصل الأنواع؛ فالأحياء إما أن تكون قد ظهرت كاملة وتامة ودون نقص إلى الوجود وإما ألا تكون. فلو لم يكن

---

[1] هارون يحيى، هدم نظرية التطور في عشرين سؤالاً، ص21.

[2] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص17.

هذا هو الواقع لكان من الضروري أن تكون قد تطورت من بعض الأنواع الأخرى السابقة نتيجة مراحل التغير، ولكن إن كانت قد ظهرت بشكل كامل وتام إلى الوجود ففي هذه الحالة لا بد وأنها قد خلقت بواسطة قوة وقدرة لا نهائيتين" [1]. وكذلك نورد ما ذكره د. ميشيل والكير الأنثروبولوجي التطوري من جامعة سيدني الذي قال "يجب علينا أن نعترف بأن السبب الوحيد للكثير من العلماء وخبراء التكنولوجيا بأن يكونوا خادمين بألسنتهم لنظرية التطور، هو أن إنكار هذه النظرية يفيد بوجود الخالق" [2]. في هذا الكتاب أتجاوز الخلق باعتباره نوعاً من الإيمان يُعتقد به، وأرى أن الخلق جزءاً من العلم، على عكس كل ما يقال بأن الخلق لا يمكن اعتباره جزءاً من العلم. وهذه القناعة موجودة أصلاً عند عدد من الباحثين، وهو ما نجده مثلاً في عنوان رئيسي (العلم يجد الله) (Science Finds God) الذي استخدمته مجلة نيوزويك Newsweek الشهيرة في عددها التاريخي الصادر في 27 تموز/يوليو 1998، للكاتب شارون بيغلي Sharon "Begley" [3]. وهذا هو السؤال الذي طرحه الأمريكي المختص في فيزياء الجسيمات فيكتور جون شتينجر (Victor John Stenger) في كتابه (هل وجد العلم الله؟) (Has Science Found God?). وكذلك كتاب (علم الله) (The Science of God) للفيزيائي والعالم النووي الأميركي جيرالد شرودر (Gerald Schroeder). ومنها النشرة الصادرة عام 1713 بعنوان "دلائل الطبيعة على وجود الإله" لمؤلفها فرانسوا فينيلون اللاهوتي الفرنسي الليبرالي وعضو

---

[1] Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, 1983, p. 197

[2] Dr. Michael Walker, Quadrant, Ekim 1982, p.44

[3] https://www.washingtonpost.com/wp-srv/newsweek/science_of_god/scienceofgod.htm

الأكاديمية الفرنسية [1]. ولكن في المقابل، نلاحظ عندما سئل بيتر ميداوار العالم الإنجليزي الحائز على جائزة نوبل عما إذا كان يعتقد بوجود الإله أجاب بدون تردد "بالطبع لا، إنني عالم" [2]. كما أن عالماً جينياً معروفاً من جامعة هارفارد وفي الوقت نفسه هو من أقوى أنصار نظرية التطور، وهو رتشارد لوينتن (Richard Lewontin)، يعترف بأنه مادي في المقام الأول ثم رجل علم بعد ذلك حين يقول "نحن نؤمن بالمادية، وإيماننا هذا أمر محدد مسبقاً، والذي يدفعنا إلى الإيمان بالتفسير المادي للوجود ليس هو القواعد العلمية ومستلزماتها، بل على العكس من هذا، فإن ارتباطنا بالمادية بفكر مسبق هو الذي يسوقنا لاختراع ووضع طرق وأساليب بحث تفسر العالم من زاوية مادية. وبما أن المادية حقيقة مطلقة لذا لا يمكننا السماح لأي تفسير إلهي بأن يدخل إلى المسرح العلمي" [3]. في المقابل "لم ير إسحاق نيوتن تعارضاً بين العلم والدين، وكتب أن الكون لا يمكن أن يعمل دون وجود إله، وأنه لولا الرعاية الربانية المستمرة لتوقف الكون ثم لانهار وتفجر بسبب من اندفاع الكواكب والمذنبات والنجوم معاً كجزء من الجائحة النهائية الماحقة التي وردت في النبوءات" [4].

نحن لا نقول إن الله لا يوجد إلا في الجزء غير المفسر من الكون والعالم، بل نقول إن الله يوجد حقاً وصدقاً وبرهاناً في الجزء المفسر وغير المفسر من العلم لأن وجهة النظر تقوم على فرضيات معللة وليس أحكاماً مسبقة، ومادة هذا الكتاب خير دليل على ذلك. في

---

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص98.

[2] المصدر السابق، ص100.

[3] Richard Lewontin, "The Demon-Haunted World", The New York Review of Books, 9 Jan 1997, p. 28.

[4] جيل كريستيانسن، تعريب مروان البواب، إسحاق نيوتن والثورة العلمية، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2005)، ص30.

المحصلة، نقول إن العلم أسبق من الدين من منظور إلهي، لأن العلم الإلهي أسبق من وجود الدين، بينما الدين أسبق من العلم من منظور بشري. يقول المؤرخ والناقد الاجتماعي برتراند راسل "لقد برزت أهمية الدين منذ نشأة تاريخ الفكر على الأرض، في حين برزت أهمية العلم فجأة في القرن السادس عشر" [1]. هذا صحيح لكن أهمية العلم بالنسبة للمسلمين برزت منذ لحظة وجود الدين، لأن العلم والدين في الإسلام لا ينفصلان. إن لله تعالى كتابين: كتاباً مخلوقاً وهو الكون، وكتاباً منزلاً وهو القرآن ولا يغني أحدهما عن الآخر [2]. إن الكتاب المخلوق الأول هو العلم، والثاني -في غالبيته- هو تدوين ماهية هذا العلم.

بالإضافة لما سبق، نقول إن علم التوحيد أو الفقه الأكبر يختص بالنظر والاستدلال ضمن العقيدة، وأوجب المسائل التي يستحق النظر فيها هي إدراك ما وراء الطبيعة، وسر الوجود واشتماله على المادة والطاقة كأبرز مكونات لهذا الوجود. ويعتبر فهم خمس مسائل ضرورية في الحياة هي الجزء الأصيل من العقيدة، كما يلي:

- فهم الخالق وأوامره وإرادته
- فهم المادة التي خلقها الله (مادة هذا الكتاب)
- فهم خلق الكون ونشوء الطبيعة من الله
- فهم خلق الملائكة وإبليس وآدم وذريته وعيسى (مادة هذا الكتاب)
- فهم الوحي المحمدي النبوي (وهذا كتبت فيه كتاباً بعنوان: الجلي النقي في معرفة الوحي)

معلوم بين العلماء أن القرآن مقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول: معتقدات، والقسم الثاني: أحكام وتشريعات، والقسم الثالث: قصص وأخبار. نقول إن هناك قسم آخر وهو (البديهيات) ويتفرع منه نوعين آخرين وهما: أولاً: خلق المادة، وتشتمل على (الكوني والآدمي).

[1] برتراند راسل، ترجمة رمسيس عوض، الدين والعلم، (دار الهلال)، ص3.
[2] محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، (الكويت: عالم المعرفة، 1984)، ص110.

وثانياً: خلق الطبيعة، وتشتمل على (النباتي والحيواني)، وجميعها تسمى (المادة والطبيعة الكونية) بكل ما خلق الله فيها من مكونات. ونقول إن كل ما هو مادي يخدم الكوني، وكل ما هو كوني يخدم بقية الأقسام، يليه الآدمي ثم النباتي ثم الحيواني. يتغذى بنو آدم (عليهم السلام) على كل ما هو نباتي وحيواني، كلاهما أو أحدهما، ويتغذى الحيواني على النباتي، بينما تتغذى النباتات على المياه والأسمدة بأنواعها سواء كانت عضوية أو غير عضوية. أما الماء فهو منتج إلهي ولا يمكن صناعته بأيد بشرية، ومن الماء خُلق كل شيء، ولذلك قال الله عز وجل في ذكر الماء: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30}، أما الأسمدة فهي منتجة من مواد موجودة في الطبيعة وكثير منها قابل للتحلل. إن كل ما سبق يخدم الشرائع السماوية، ومن بينها الشريعة الإسلامية، أي أن المادي والكوني يخدمان الإنسان في إتمام دينه لأن المادي والكوني أصلهما علمي شرعي، وإذا كان المادي والكوني يخدمان الإنسان في دينه وهو شرعي، فإن النباتي والحيواني يفعلان ذلك أيضاً بتصرف من الإنسان، فكيف يخدم بعض ما هو كوني الدين الإسلامي؟

نقول إن تعاقب الشمس والقمر يخدمان ثلاث فرائض وهي: الصلاة، والصوم، والحج، لمعرفة مواقيتها، فلا يمكن الصلاة بدون معرفة شروق وغروب وتعامد الشمس، لقوله تعالى: "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً" {النساء:103}، وكذلك قوله تعالى: "أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً" {الإسراء:78}، ولا يمكن الصيام من دون رؤية هلال رمضان في اليوم التاسع والعشرين من أيام شهر شعبان وأول ليلة من رمضان لقوله تعالى: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" (البقرة: 185}، وكذلك الحج وفق توقيت معلوم وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "الحج أشهر معلومات" {البقرة: 197}. كما لا يمكن أن تتم الصلاة أو تصح من دون صحة شروطها، ومن شروط الصلاة

الطهارة، والطهارة لا تجوز إلا باستخدام مكونين، إما الماء أو التراب، لقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً {النساء: 43}، وكلاهما (أي الماء والتراب) موجودان في الكون والطبيعة على سطح الكرة الأرضية، وهما مادة خلقها الله عند خلق الكون. لذلك نقول إن المادة وخلق الكائنات الحية هما جوهر القرآن وحقيقته التي يُبنى عليها كل شيء، وهما دليل ومرجع بني آدم (عليه السلام) إلى الحياة الآخرة.

أخيراً، نقول إننا اعتمدنا في كثير من الأحيان داخل هذا الكتاب على طرح الأسئلة والإجابة عليها، وشرح الأفكار من خلال الآيات القرآنية التي تخص موضوع من مواضيع المادة أو المخلوقات باستخدام المنهج التحليلي عبر إحصاء وتصنيف الآيات القرآنية، حيث لكل آية شرح وأسئلة وإجابات عن التفاصيل التي تتعلق بالمادة والخلق، وليس من خلال الاعتماد على الموضوعات العلمية المادية بشكل منفصل، لأن الآيات القرآنية فرضت نفسها على منهجية الكتاب. ونشير إلى الإحاطة بخصوصية الشرح وأهمية الأسئلة المطروحة في الفصل الثالث والرابع والخامس.

الفصل الأول

الخطاب القرآني في تعليل أنواع الخلق الأساسية والفرعية

المراتب التصنيفية في القرآن "فصيلة وأطوار وسلالة"

بالنسبة للقرآن ورد فيه ثلاث مفاهيم تشير إلى المراتب التصنيفية ضمن المستويات النسبية في هرم المراتب بالمعنى الحديث، وهي أسبق من التصنيفات الحديثة لعلاقتها بخلق الله ومسؤولية الخالق عن خلق الكائنات الحية، وأهم أنواع الخلق "الإنسان" ككائن حي آدمي، وأهم وأول خلق إنسان هو آدم (عليه السلام). هذه المفاهيم هي "فصيلة وأطوار وسلالة"، وهي مرتبطة بالدرجة الأولى بخلق النوع البشري الذي بدأ بآدم (عليه السلام) وذريته، وهي على صلة بتطور الجنس البشري. نقول: إن "الفصيلة" هي تعبير عن أول الخلق، أي آدم (عليه السلام)، و "أطوار" تعبير عن تطوّر الخلق وتغير هيئاتهم وألوانهم وأحجامهم، و "سلالة" تعبير عن تعدد النسل والأعراق والجماعات والأقوام والقبائل. بعد أكثر من أحد عشر قرناً ميلادياً، أي منذ عصر نزول القرآن على النبي محمد (ﷺ)، جاء الأسلوب الذي صمد على مرِّ السنين وقد اخترعه عالم سويدي يُدعى كارل فون لينيه (1707م)، ويُشتهر أكثر بصيغته اللاتينية كارولوس لينيوس. يحدد نظام تصنيف لينيوس سبعة مستويات هي المملكة، يليها الشعبة والطائفة والرتبة والفصيلة والجنس، ثم النوع، وهو الفئة الرسمية الأصغر على الإطلاق والأقل شمولاً. توسع نظام لينيوس الأصلي المكون من سبعة مستويات بإضافة فئة (القبيلة) بين الجنس والفصيلة، وأيضاً عن طريق إدخال كلمة (فوق) على اسم الفئة ووضع الفئة الجديدة فوقها، وإدخال كلمتي (تحت) و (دون) على اسم الفئة، ووضع الفئتين الجديدتين تحتها؛ وهكذا زادت هذه الإضافات العدد المحتمل للفئات تحت مستوى الرتبة إجمالاً إلى 12. يُطلق على المجموعات الموجودة في كل مستوًى من التسلسل الهرمي للينيوس اسم (المجموعات

التصنيفية)، ويُطلق على كل مجموعة مميزة اسم (أصنوفة) الجمع (أصنوفات) [1].

أولاً: (الفصيلة):

ورد مفهوم "فصيلته" مرَّة واحدة في القرآن [2]. سوف نذكر الآيات التي سبقته والتي تلته لأهمية إبراز معنى "فصيلته" وذلك في قوله تعالى في سورة المعارج: "يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه (11) وصاحبته وأخيه (12) وفصيلته التي تؤويه (13) ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه (14)". أولاً سوف نذكر ما قاله المفسرون في مفهوم "فصيلته". قال الشوكاني: أي عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب، أو عند الشدائد، ويأوي إليهم. قال أبو عبيد: الفصيلة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون. قال المبرد: الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد. وسميت عشيرة الرجل فصيلته تشبيهاً لها بالبعض منه. وقال مالك: "إن الفصيلة هي التي تربيه" [3]. وقال الرازي: المراد من الفصيلة المفصولة، لأن الولد يكون منفصلاً من الأبوين. قال محمد (ﷺ) "فاطمة بضعة مني"، فسميا فصيلة لهذا السبب، وكان يقال للعباس فصيلة النبي محمد (ﷺ)، لأن العم قائم مقام الأب [4]. و(الفصال) هو فطم المولود و (الفصل) الحاجز بين الشيئين. و (يوم الفصل) يوم القيامة. و (فصل الخطاب) الفصل بين الحق

---

[1] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص21.

[2] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص338.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1529.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص126، 127.

والباطل. و (الفصيلة) أنثى الفصيل وطبقة من طبقات أنساب العرب وعشيرة الرجل. و (الفيصل) الحاكم. و (المفصل) كل ملتقى عظمتين من الجسد وجمعه مفاصل [1]. نقول: إن فهم مفهوم "الفصيلة" في الآية يمكن أن يتم من خلال فهم ما سبق ذكره في الآيات السابقة، لأنه جاء على ذكر "بنيه" و "صاحبته" و "أخيه" ثم بعد ذلك جاء على ذكر "فصيلته" أي للمجرم، ما يعني أنه جاء على ذكر الأخص ثم الأعم، وبالتالي فإن الفصيلة تشتمل على "البنوة" و "الأخوة" و "الصاحبة"، فهي تابعة للفصيلة لأنها أخص منها. وأيضاً فإن الفصيلة تشتمل على الجنس في الترتيب الهرمي للتصنيف البيولوجي، بالتالي فإن الجنس تحت مرتبة الفصيلة، وكذلك النوع هو مجموعة من الكائنات الحية القادرة على التزاوج فيما بينها وإنتاج نسل خصب [2]، وبالتالي فإن النوع تحت الفصيلة. كما أن التسلسل في موضوع الخلق في القرآن جاء محكماً بحسب توصيف تطور نوع آدم (عليه السلام)، ومن بين هذا التسلسل خلق آدم من التراب/الطين والماء، بالتالي فإن كل ما هو مخلوق من تراب وطين وماء تابع للفصيلة. بالنسبة لنا هناك أمر هام في الآية وهو ارتباط مفهوم "الفصيلة" بالمجرم كما ورد ذكره في الآية: "يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه (11)، بمعنى أن هذا المجرم يود لو يفتدي من العذاب بأربعة أنواع من الناس (الأجناس القريبة والبعيدة) وهم بنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته. قيل "المجرم هو الكافر، وقيل إن الكلمة تتناول كل مذنب" [3]. وقوله تعالى: "ثم ينجيه" في الآية (14) فيه وجهان (الأول) أنه معطوف على يفتدي، والمعنى: يود المجرم لو يفتدي بهذه الأشياء ثم ينجيه (والثاني)

---

[1] محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط3، م7، (بيروت: دار الفكر، 1971)، ص291.

[2] https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص126.

أنه متعلق بقوله: "ومن في الأرض" والتقدير: يود لو يفتدي بمن في الأرض ثم ينجيه، و "ثم"، لاستبعاد الإنجاء، يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه [1].

فطرة الإنسان السليمة، والإكراه على الإجرام داخل فصيلته

إذا فهمنا من هو المجرم، سوف نفهم لماذا يفتدي بفصيلته وكل من تم ذكرهم في الآيات القرآنية. المجرم هنا هو الحالة الشاذة عن الأقرباء ومنهم الوالدين والأبناء والأخوة والأعمام وكذلك الأصحاب والفصيلة ككل، وهو الشخص الذي لا تنسجم طباعه مع الفطرة التي فطر عليها، ولا ينسجم مع النسق الاجتماعي الذي تربى فيه ولا ينسجم مع مادة خلقه من الماء والتراب/الطين الذي خلقه الله بها. كما أن المجرم هو الشخص الذي لا يتناغم مع طبائع فصيلته من ناحية سلوكية سواء كانت بمحض إرادته أو بالإكراه والتي قد تكون أدت إلى ارتكابه للجريمة. لقد كان القتل أول جريمة في الأرض عندما قتل قابيل أخيه هابيل، ولهذا الجرم علاقة بالقربان الذي قرباه بحيث أن هذه القصة تشير إلى علاقة آدم (عليه السلام) وذريته بأصل شهوة الغذاء والمادة التي خلقوا منها، والسبب الذي نزلوا من أجله إلى الأرض بعد وسوسة الشيطان لأبيهما آدم (عليه السلام) في الجنة، وهذه المسألة يتضح معناها أكثر عند شرح وفهم معنى "الصلصال الفخار" أي المادة التي خلق منها آدم (عليه السلام) في سورة {الرحمن: 14} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص324}. ورغم وقوع القتل في بداية تاريخ خلق نسل آدم (عليه السلام) لأسباب تتعلق بشهوة الغذاء، وهي الفتنة الأولى

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص127.

التي أنزلت آدم (عليه السلام) إلى الأرض، إلا أننا نجزم بأن الإنسان العاقل الحكيم هو المخلوق الوحيد من بين الكائنات الحية غير المفترسة الذي لا يشتهي القتل، أي أنه لا يقتل وهو بعقل واعٍ أو بفعل منطقي، وإذا فعل الإنسان العاقل ذلك فيكون لسبب وجيه من خلال التزامه بشريعة مضادة للإجرام أو القتل، كأن يكون هدفه إقامة حد من حدود الله، أو تنفيذ شريعة إلهية ملتزماً بدستور أو قوانين، وهذه الحدود والشرائع لها ضوابط قاسية، وهو لا يسمى قتلاً في الأعراف القانونية الإسلامية، بل قصاصاً أو عقاباً كما ورد في القرآن لقوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون" {البقرة: 179}. **سوف أورد أهم ثلاث آيات ورد فيها العقاب الإلهي للقاتل أو المجرم بحسب ما نصت عليه الشريعة الإسلامية السماوية، وسوف أستثني العقوبات الدنيوية لأن العقوبات الإلهية الأخروية أوجه وأشرف وأكثر قسوة كما يلي:**

العقاب الإلهي الأخروي للقاتل/المجرم في ثلاث آيات مركزية

الآية الأولى: قوله تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً" {النساء: 93}.

قال الشوكاني: ذهب أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عمد، وشبه عمد، وخطأ. وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين: عمد، وخطأ ولا ثالث لهما [1]. ونقل عن ابن عباس أنه قال: توبة من أقدم على القتل العمد غير مقبولة، وقال جمهور العلماء: إنها مقبولة، ويدل عليه وجوه:

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص319.

الحجة الأولى: أن الكفر أعظم من هذا القتل فإذا قبلت التوبة عن الكفر فالتوبة من هذا القتل أولى بالقبول.

الحجة الثانية: قوله تعالى في آخر سورة الفرقان: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (68) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (69) إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً" (70)، وإذا كانت توبة الآتي بالقتل العمد مع سائر الكبائر المذكورة في هذه الآية مقبولة: فبأن تكون توبة الآتي بالقتل العمد وحده مقبولة كان أولى. الحجة الثالثة: قوله تعالى: "إن الله لا يَغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.." {النساء: 48} هو وعد بالعفو عن كل ما سوى الكفر، فبأن يعفو عنه بعد التوبة أولى [1]، نقول: إن "من" في قوله تعالى: "من يقتل" شرط، وجوابه قوله تعالى: "فجزاؤه"، والشرط هنا مرتبط بثلاثة أمور: أولاً: الشروع في القتل. ثانياً: أن يكون القتل لإنسان مؤمن. ثالثاً: أن يكون متعمداً، بالتالي يجب أن تتحقق الشروط الثلاثة قبل إقرار الجزاء، وقد تم إقرار الجزاء لأن قاتل المؤمن يحمل صفات نقيضة له، فليس كل مسلم هو مؤمن لأن الإيمان درجة عالية رفيعة، والإيمان يحتاج إلى صدق وتصديق، فالقاتل يكون موصوفاً بأنه أبعد عن الله ما يكون من غيره، وقد لا يكون مسلماً أصلاً، فكثيراً ما يتساوى فعل الشرك أو الكفر مع فعل القتل. أما الجزاء فهو مكون من أربعة أجزاء: الأول: جهنم خالداً فيها. ثانياً: غضب الله عليه. ثالثاً: لعنه. رابعاً: أعد له عذاباً عظيماً. بالتأكيد فإن لكل واحد من أجزاء هذه العقوبات الإلهية شرح مطول في نص القرآن، فإذا كان غضب ولعنة الله ثابتين؛ فإن جهنم لها درجات كثيرة موصوفة في القرآن. قال رسول الله: "قتل المؤمن

---

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج10، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص246.

أعظم عند الله من زوال الدنيا. ورُوي عن عبد الله قال: قال رسول الله: "أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء [1]، عموماً سوف نشرح علاقة القتل بإحياء النفس الإنسانية في الأرض خلال شرحنا لسورة {فصلت: 39} في موضوع الإحياء والإخراج من الأرض وعلاقة الإحياء والإخراج بالخلق والنبات والأمن الغذائي {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص118} حيث إن إحياء البشر في الأرض مرتبط بعمارة الأرض وزراعتها بالنباتات وإغنائها بالأشجار وإعدام الفساد فيها سواء كان فساداً مادياً أو غير مادي، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً" {المائدة: 32}.

الآية الثانية: قوله تعالى: "ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً" {الكهف: 49}.

قوله تعالى: "ووضع الكتاب" معطوفة على "عرضوا على ربك" في الآية التي قبلها. وقوله تعالى: "فترى المجرمين مشفقين مما فيه" أي: خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع [2]، وقيل: خائفين من ظهور أعمالهم الخبيثة لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون "مال هذا الكتاب لا يغادر

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج7، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص38، 39.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص863.

صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها" [1]. نقول: إن الإشفاق ليس من عذاب الله، ولكن من الدقة في عنصر المفاجأة، والدقة في رؤية كيف أن الله أحصى أعمالهم كبيرها وصغيرها، وهذا ما عبّر عنه الله في قوله تعالى: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً" {الإسراء: 13} ومن جملة ما يحصيه الله من كبيرة وصغيرة، كل طعام يأكله الإنسان، وكل شراب يشربه، وكل مال يجمعه، وكل فعل يفعله، وكل كلام ينطق به.. إلخ.

الآية الثالثة: قوله تعالى: "إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى" {طه: 74}.

إن قوله تعالى: "من يأت ربه مجرماً" يعني بأن يموت على كفره وعصيانه [2]، و "من" في الآية هي معرض الشرط وتفيد العموم بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها [3]، ومعنى: "لا يموت فيها ولا يحيى" أنه لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه. قال المبرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحي ويبلغ به حال الموت في المكروه إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت إذا كان غير منتفع بحياته [4]. قيل: نفس الكافر معلقة في حنجرته، كما أخبر الله تعالى عنه، فلا يموت بفراقها،

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص135.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج16، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص398.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص90.

[4] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص916.

ولا يحيا باستقرارها [1]. نقول: إن عدم موت أو إحياء المجرم في الآخرة هو دليل على أنه سلك في الأرض مسالك الإجرام والقتل دون أن ينام في الأرض مطمئناً، ودون أن يحيا حياة السعداء بل الأشقياء، فكان له ألا يموت في جهنم ولا يحيا فيها، ما يعني أنه يعيش حالة الوعي واللاوعي بضرورة ألا يموت وألا يحيى في جهنم، وهذا أقسى أنواع العذاب، لأنه تعدى على حد من حدود الله. ومن الأهمية هنا أن نوضح الفرق بين الجريمة/المجرم، أو القتل/القاتل، أو القتال/المقاتل، أو الجهاد/المجاهد في سبيل الله. أراد الله بهذه العقوبات أن يثبت بأن الإنسان لم يخلق لغرض القتل. لذلك قيل "إن البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان، حيث إن الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش "اجتماعي" [2].

الإنسان كائن غير مستوحش وغير قابل للتدجين

إذا كان الإنسان كائناً غير مستوحش أو اجتماعي، فإنه بذلك يثبت تضاد تصرفاته، ومنطق تفكيره مع الكائنات الحية الأخرى وأهمها الحيوانات، وأبرزها نوعين من الحيوانات المفترسة التي ورد ذكرهما في القرآن، وهما الأسود والذئاب لقوله تعالى في سورة المدثر: "كأنهم حُمر مستنفرة (50) فرّت من قسورة (51)". وقوله تعالى: "قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون" {يوسف: 13}. نلاحظ أن (القسورة) الأسد، وهو حيوان مفترس من فصيلة السنوريات، وكذلك الذئب حيوان مفترس من فصيلة الكلبيات. في كثير من الأحيان نلاحظ وجود حيوانات مفترسة تم تدجينها ومنها

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص107.

[2] محمد شحرور، الكتاب والقرآن، (دمشق، الأهالي للنشر والتوزيع)، ص281.

الذئاب، وهذا ما دفع داروين إلى القول بأن هذه "الحيوانات المدجنة تتمايز بشكل أكبر عن تلك الموجودة في البيئة الطبيعية، ويبدو أن ذلك راجع إلى التنوع والتغيير في طبيعة الظروف التي خضعت لها. من هذه الناحية فإن الأعراق المختلفة التابعة للإنسان، تماثل الحيوانات المدجنة" [1]. نخالف قول داروين بأن الأعراق المختلفة التابعة للإنسان تماثل الحيوانات المدجنة، لأن بيانه هذا فيه افتراض غير منطقي وغير أخلاقي بأن الإنسان أصله مفترس ومجرم وتم تدجينه ليكون منتشر حول الأرض في أعراق مختلفة تم تدجينها لتتشابه مع الحيوانات التي كانت في الغابة وتم تدجينها. ونقول إن الأعراق المختلفة في الأصل كلها تابعة لآدم (عليه السلام)، وهو أول مخلوق (كائن حي) عقلاني غير مستوحش، ولم يتم تدجينه، لأن الله خلقه في أفضل هيئة وأحسن تقويم وفق حسابات الطول والعرض والارتفاع والحجم للإنسان العاقل القديم، ومن نسل آدم (عليه السلام) خلق الله كافة الأنبياء والرسل، ومنهم عيسى (عليه السلام) وشبهه بخلق آدم (عليه السلام) كما سأبين بالشرح والتحليل في الكتاب {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص554}. خلال تأملي لآيات القرآن استدللت على آية تربط بين الإجرام والعقاب بنوع من الحشرات، وعلى وجه الخصوص (بالدم) الموجود في هذه الحشرات وهي قوله تعالى: "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين" {الأعراف: 133}. نلاحظ ذكر كلمة "مجرمين" في الآية، وذلك في وصف قوم موسى مع إرسال خمسة أنواع من العذاب إليهم، منها ثلاثة أنواع تتعلق بالحشرات ثم الدم. وهنا نسأل، **لماذا استخدم الله "الجراد والقمل والضفادع والدم" في العقاب أو هذا النوع من العذاب وما علاقة ذلك بالجريمة؟**

---

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص133.

العقاب الإلهي بالحشرات المتغذية على الدماء، وعلاقتها بالمجرمين

بالنسبة لسبب العذاب وكيفية وقوعه، فإن الله أرسل عليهم الجراد، فأكل النبات وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً، فأكلت النبات، فصرخ أهل مصر، فدعا موسى (عليه السلام) فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد فألقته في البحر، فنظر أهل مصر إلى أن بقية من كلئهم وزرعهم تكفيهم، فقالوا: هذا الذي بقي يكفينا ولا نؤمن بك. فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل. سبتاً إلى سبت، فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلا أكلته؛ فصاحوا وسأل موسى (عليه السلام) ربه، فأرسل الله عليها ريحاً حارة فأحرقتها، واحتملتها الريح فألقتها في البحر، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك فخرج من البحر مثل الليل الدامس، ووقع في الثياب والأطعمة، فكان الرجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضفادع، فصرخوا إلى موسى (عليه السلام)، وحلفوا بإلهه لئن رفعت عنا هذا العذاب لنؤمن بك، فدعا الله تعالى فأمات الضفادع، وأرسل عليها المطر فاحتملها إلى البحر، ثم أظهروا الكفر والفساد، فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دماً فلم يقدروا على الماء العذب، فصرخوا وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار بني إسرائيل فجعل يدخل الرجل منهم النهر فإذا اغترف صار في يده دماً ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلا الدم [1]. نقول: ثمة علاقة بين استخدام هذه الحشرات كعقاب مع استكبار قوم موسى وإصرارهم على الإجرام، وذلك لأن هذه الحشرات تتغذى في الغالب على الدم أو

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص227.

تمتصه فيكون غذاؤها ذو طبيعة دموية، رغم قلة قطرات الدماء التي تمتصها نتيجة صغر أحجام بطونها. على سبيل المثال: القمل، يوجد في فروة الرأس، ويتغذى على دماء الرأس، علماً بأن طول القملة الواحدة حوالي (3) مليمتر، ما يعني أن حجم بطنها يكون أقل من مليمتر، وهذا دليل على دقة الوصف الإلهي في اختيار نوع العذاب، من ناحية استصغار قوم موسى من خلال استصغار نوع العذاب، ودقة اختياره للعقاب رداً على قولهم إنهم لا يؤمنوا بآيات رسول الله موسى، لقولهم: "وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين" {الأعراف: 132}، فجاءهم الرد الإلهي مباشرة من خلال إرسال الحشرات عليهم والطوفان والدم، واستخدام هذا النوع من العذاب هو رفع لشأن موسى (عليه السلام). وهنا نسأل، **لماذا ذكر الاستكبار قبل الإجرام في الآية لقوله تعالى: فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين" {الأعراف: 133}؟** نقول: لأن الاستكبار مرتبط بالفخر بأنفسهم، والفخر مرتبط بالفخار، والفخار مرتبط بالمادة التي خلق منها نوع بني آدم (عليه السلام) لقوله تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" {الرحمن: 14} {انظر شرح الآية وكلمة فخار في الفصل الثالث، ص324}. إذا فهمنا هذه العلاقة سوف ندرك أن الاستكبار مرتبط بنمط التفكير العقلي لدى قوم موسى والطبيعة التربوية الشهوية الغذائية لهم، لأن الله خاطبهم قبل ثلاث آيات في نفس السورة بقوله تعالى: "ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكَّرون" {الأعراف: 130}. بالتالي فإن الدماء في رأس قوم موسى التي تدفعهم نحو الإجرام عندما تتفاعل وتسخن في رؤوسهم فتستكبر من خلال الميل إلى شهواتهم ونزعاتهم فتتطابق مع غذاء الحشرات، وهو الدم، أو تفوقه، وهذا معقول إذا أدركنا أن شهوة الغذاء (ومصدرها وسوسة الشيطان لآدم وحواء في الجنة) سبقت غريزة القتل منذ لحظة خلق آدم (عليه السلام) كما في قصة هابيل وقابيل، سبقت شهوة الغذاء القتل. بمعنى صريح، نقول: إن النمط الغذائي

للإنسان أو السلوك الآدمي الإنسي اليومي في السعي نحو طلب الغذاء يتصل بشكل أساسي بحركة الجسد ونشاط الدورة الدموية ودرجة حرارة جسم الإنسان وسرعة ضربات القلب وكمية الهرمونات المفروزة في جسمه الذي يدفعه نحو إدارة ذاته أو اضطراب كيانه، وهذا مدخل أساسي نحو دفع الإنسان إلى الاستقرار أو ارتكاب الجرائم.

التكريم والتفضيل لفصيلة بني آدم

بالعودة إلى رأي تشارلز داروين حول التشابه بين تدجين الحيوانات والإنسان، والذي خالفناه، نقول: إن الله جعل نسل بني آدم (عليه السلام) أهم نوع مكرّم ومفضّل ومقدّم على سائر الكائنات الحية لقوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70}. نلاحظ التمييز في الآية بين بني آدم (عليه السلام) وغيرهم من المخلوقات في أكثر من ناحية، الأولى: "الكرامة" في قوله تعالى: "كرّمنا". والثانية: "الحَمْل" في قوله تعالى: "وحملناهم". والثالثة: "الرزق" في قوله تعالى: "ورزقناهم". والرابعة: "التفضيل" في قوله تعالى: "وفضلناهم". سوف نشرح فقط معنى "التكريم" و "التفضيل" لعلاقة التوصيفين بالمحتوى والسياق المتعلق بالفصيلة، أي فصيلة بني آدم (عليه السلام). نقول الكرامة اسم يوضع للإكرام [1]، والإكرام فعل أخلاقي أو جهد إنساني تطوعي غائي، لأن التكريم يقوم إما مكافأة على جهد أو تحفيزاً للجهد، وآدم (عليه السلام) لم يقم بأي جهد، **فلماذا كرّمه الله؟**

[1] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، ج42، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص3862.

نقول: كرمّه باعتباره أول خلقه وأهم نوع في مخلوقاته (كائناته الحية)، أي أنه بداية النسل البشري، وأول من اصطفاه في الدنيا وآخر من تقوم به الساعة وتطوى به الأرض. وقد حقق الله التكريم لآدم (عليه السلام) حتى تكون فيه صفة الكرم، فيكون جواداً كريماً، تماماً مثل الخالق، لأن "الكريم من صفات الله وأسمائه الحسنى، وهو الكثير الخير، الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وهو الكريم المطلق" [1]، وقيل إن التكريم الإلهي كان بحسن الصورة، والمزاج الأعدل، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالنطق، والإشارة، والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقفُ الحصر دون إحصائه [2]. وقال بعضهم هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم (عليه السلام) بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون. ومن كان مخلوقاً بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل، وكان أكرم وأكمل، ولما جعلنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل [3]. أما "التفضيل" في قوله تعالى: "وفضلناهم"، فهو إما أن يكون فضل في مسار التمكين والتثبيت للإنسان أو يكون في زيادة التفضيل بين أمرين أو أكثر، ويقال في الوصف "الأفضلية في الأمر أو الشيء". ومن الفضل الإلهي على الإنسان أنه ميّزه بالعلم على سائر المخلوقات فأمره به كما ورد في خطابه للإنسان لقوله تعالى: "اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم" (5)". قيل: الفضل هو الزيادة عن الاقتصار، وذلك ضربان: محمود كفضل العلم والحلم، ومذموم؛

---

[1] المصدر السابق، ص3861.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص311.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص16.

كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفضل في المحمود أكثر استعمالاً، والفضل إذا استُعمل لزيادة أحد الشيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب: فضل من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان على جنس النبات، وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان. وفضل من حيث الذات كفضل رجل على آخر. فالأولان جوهريان كفضل رجل على آخر. وهما جوهريان لا سبيل للناقص فيهما أن يزيل نقصه، وأن يستفيد الفضل كالفرس والحمار لا يمكنهما أن يكتسبا الفضيلة التي خص بها الإنسان، والفضل الثالث قد يكون عرضياً فيوجد السبيل على اكتسابه، ومن هذا النوع التفضيل المذكور في قوله تعالى: "والله فضل بعضكم على بعض في الرزق" {النحل: 71} وقوله تعالى: "لتبتغوا فضلاً من ربكم" {الإسراء: 12} يعني المال وما يكتسب. وقوله تعالى: "بما فضل الله بعضهم على بعض" {النساء: 34} فإنه يعني بما خص به الرجل من الفضيلة الذاتية له والفضل الذي أعطيه من المكانة والمال والجاه والقوة. وقال تعالى: "فضّل الله المجاهدين على القاعدين" {النساء: 95} وكل عطية لا تلزم من يُعطِي يقال لها فضل نحو قوله تعالى: "واسألوا الله من فضله" {النساء: 32} وقوله تعالى: "ذلك فضل الله" {المائدة: 54} [1]. نقول: إن التفضيل في قوله تعالى: "فضلناهم" يجوز أن يعود إلى قوله تعالى: "حملناهم في البر والبحر"، **لكن كيف ذلك؟** الجواب: يكون تفضيل المقصود هو تفضيل على كل شيء حمله الله في البر والبحر، أي فضّلنا بني آدم (عليه السلام) على كل شيء حملناه في البر والبحر، فيكون آدم (عليه السلام) وذريته أعلى وأسمى في النوع والمرتبة من كل الذي حمله الله في البر والبحر. قال ابن عباس في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وفي البحر على السفن. ولأنه تعالى سخّر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه.

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص493.

وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم (عليه السلام) [1]. ونقول: إن الفضل في الآية هو فضل متعدد ومتنوع منذ خلق آدم (عليه السلام) حيث يكون التفضيل لكل ما جاء بعد إتمام خلقه في الأرض، فكان أول وأهم تفضيل قبل العلم وقبل التمايز عن الآخر، هو تفضيله في ماهية الخلق ومنه العقل، وما يشتمل على ذلك من تفضيل في مادة الخلق والهيئة والحواس وغير ذلك. كما أن التفضيل يكون في مجموعة من الصفات العلوية التي لا توجد لدى البهائم مطلقاً، كالتفضيل في الأخلاق والقدرة على الصبر وأداء الأفعال السلوكية المقررة في النصوص السماوية أنها أفعال إرادية، أي تتعلق بإدارة العقل لها. نقول صفة الأخلاق لأنه مشتقة من نفس الجذر اللغوي "خلق"، وفي الفرق بين الخَلق والخُلق، ذكر طه عبد الرحمن "أن الخَلق (بالفتح) هيئة، وكذلك الخُلق (بالضم) هيئة؛ كما أن الخَلق هيأة للجسم، فكذلك الخُلق هيأة للروح، كما أن الخَلق هيأة ناتجة عن فعل محله الجسم، فكذلك الخُلق هيأة ناتجة عن فعل محله الروح؛ وهذا يعني أن الأخلاق هي عبارة عن هيئات ناتجة عن أفعال روحية" [2]. ونلاحظ هنا أن الأفضلية كانت في العدد، حيث كان آدم (عليه السلام) مقابل كافة المخلوقات (الكائنات الحية) على الأرض لأن الله فضّله على كثير من الخلق، والكثرة في الخلق في قوله تعالى: "كثير ممن خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70} تعني التعدد والتنوع خارج النوع الإنسي، أي خلق الحيوانات والرئيسيات، سواء كان تنوع الخلق فيه ما يشبه الإنسان ومن فصيلته أو ليس مشابهاً للإنسان وليس من فصيلته، مثل رتبة الرئيسيات والتي منها القرود، والتابعة للمملكة الحيوانية، وهي خسئ إلهي، ولذلك لم يُكرّم أي

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص16.

[2] طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ط1، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013)، ص100.

مخلوق على وجه الأرض مثل الكرامة الإلهية التي مُنحت لنوع بني آدم (عليه السلام).

لأن الجدل يدور حول تسلسل علاقة القرد بالإنسان، فإننا سوف نذكر أبرز ما توصل إليه العلماء في هذا السياق، لاسيما كل ما أثبت خطأً التسلسل الموضوع حول كون بعض القردة أسلافاً لبعض، وذلك لإثبات كرامة وأفضلية الإنسان كمخلوق (كائن حي) آدمي على أنواع القردة كمخلوقات (كائنات حية) حيوانية.

يزعم التطوريون أن مرحلة التطور قد بدأت قبل أربعة أو خمسة ملايين سنة، وأن مخلوقات كانت تشكل المراحل الانتقالية بين الإنسان الحديث وتلك المخلوقات الشبيهة بالقردة قد عاشت خلال تلك السنوات. ووفقاً لهذا السيناريو، تم وضع قائمة بخمس "فئات" أساسية من هذه المخلوقات هي:

1. القرد الجنوبي، أو الأوسترالوبيكوس (Australopithecus)
2. الإنسان الذي يستخدم الأدوات، أو الهوموهابلس (Homo Habilis)
3. الإنسان منتصب القامة، أو الهوموإركتوس (Homo erectus)
4. الإنسان العاقل أو النياندرتال (Homo neanderthalensis)
5. الإنسان العاقل العاقل، أو الهوموسابينس (Homo Sapiens) [1]

لقد قادت الدراسات المكثفة التي قام بها عالما التشريح المشهوران على النطاق العالمي (اللورد سولي زوكرمان (Solly

[1] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص29، 55، 56. انظر أيضاً: محمد شحرور، القصص القرآني، قراءة معاصرة، ج1، ط3، (بيروت: دار الساقي، 2015)، ص233.

Zuckerman) من بريطانيا [1]، والبرفسور تشارلز أوكسنارد (Charles Oxnard) من الولايات المتحدة) [2] على جماجم الأوسترالوبيكوس (Australopithecus) إلى نتيجة واحدة، وهي أن هذه الجماجم تعود إلى نوع من القردة المنقرضة وأنها لا تحمل أي سمات أو خصائًص إنسانية. ويعترف أرنست ماير (Ernst Mayr) (وهو من أشد المدافعين عن نظرية التطور) بأن السلسلة الممتدة إلى (هوموسابينس) (Homo Sapiens) (أي الإنسان العاقل) مفقودة في الحقيقة [3]. وعندما يضع التطوريون قائمة في قمتها (الأوسترالوبيكوس) (Australopithecus)، وبعدها (الهوموهايلس) (Homo Habilis)، ثم (الهوموإركتوس) (Homo erectus) وأخيراً (الهوموسابينس) (Homo Sapiens) يوحون للناس بأن كل نوع من هذه الأنواع يُعد سلفاً للنوع الذي بعده. غير أن المكتشفات الحديثة لعلماء البالوتولوجيا قد أظهرت بأن الأنواع الثلاثة الأولى من الأربعة السابقة قد كانت تعيش في الفترة نفسها وفي العهد نفسه في أنحاء مختلفة من العالم [4]. وقد أثبتت الأبحاث التي أجراها كل من الأمريكي البرفيسور تشارلز أوكسنارد (Charles Oxnard) [5] والبريطاني اللورد سوللي زاخرمان (Solly

[1] Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970, pp. 75-94.

[2] Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258, p. 389

[3] J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, Dec 1992.

[4] Alan Walker, Science, vol. 207, 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Antropology, 1st ed., New York: J. B. Lipincott Co., 1970, p. 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 272

[5] Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258, p. 389

(Zuckerman [1] (وكلاهما من أشهر علماء التشريح) على قرد الجنوب، "أن هذا الكائن الحي ما هو إلا نوع منقرض من القرود ولا علاقة له بالإنسان مطلقاً". وقد قاد هذا الأمر العالم البالانتولوجي ستيفن جاي غولد (Stephen Jay Gould) من جامعة هارفارد إلى شرح هذه المشكلة التي سقطت فيها نظرية التطور (مع كونه من المدافعين عنها) إذ يقول "ماذا حل بسلمنا إذا كانت هناك ثلاث سلالات من الكائنات الشبيهة بالإنسان (القردة الجنوبية الإفريقية والقردة الجنوبية القوية والإنسان القادر على استخدام الأدوات) تعيش معاً في نفس الفترة الزمنية، ومن الواضح أن أياً منها لم ينحدر من الآخر؟ وفوق ذلك، لا تبدي أية سلالة من السلالات الثلاث أية ميول تطورية أثناء فترة بقائها على الأرض" [2]. لقد توصل اللورد سولي زوكرمان (Solly Zuckerman) (وهو يعد من أشهر العلماء البريطانيين ومن دعاة التطور) بعدما بحث هذا الموضوع لسنوات عديدة وصرف خمس عشرة سنة في تدقيق متحجرات القردة الجنوبية، توصل أخيراً إلى عدم وجود أي شجرة نسب تمتد من أحياء شبيهة بالقرود إلى الإنسان. وقد وضع زوكرمان تصنيفاً ملفتاً للنظر للعلوم، إذ وضع تسلسلاً للعلوم التي يراها تحتوي على معلومات قطعية وفي آخره العلوم التي يرى أنها لا تملك هذه القطعية. وقد جعل هذا العالم الكيمياء والفيزياء في رأس العلوم القطعية، ثم تأتي بعدهما علوم الأحياء، ومن بعدها العلوم الاجتماعية. ووضع في نهاية هذه القائمة التخاطر والحاسة السادسة (أي كل ما هو خارج عن الحواس الخمسة)، أي أنه عدها خارج العلوم. والملفت للنظر أنه وضع (تطور الإنسان) ضمن هذه القائمة التي عدها خارج العلوم [3]!

---

[1] Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970, pp. 75-94.

[2] Stephen Jay Gould, Natural History, vol. 85, 1976, p. 30

[3] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص176، 177.

بالإضافة لما سبق، هناك ثلاثة متنافسين على لقب أشباه البشر الأوائل المحتملون والمرجحون. الأول: هو إنسان تشاد السواحلي (Sahelanthropus tchadensis)، ومن حفرياته التي اكتشفها مايكل برونيت وفريقه منذ عام 2001، في موقع يسمى توروس-مينالا في تشاد في غربي وسط أفريقيا، لكن لا يقتنع جميع علماء الحفريات البشرية بأن إنسان تشاد السواحلي أحد أشباه البشر؛ فتُوجد وجهة نظر، يكاد خطؤها يكون مؤكداً، أنه حفرية غوريلا [1].
الثاني: هو الأورورين توجينسيس (Orrorin tugenensis)، حيث يقول المنتقدون، أولاً: إن تكوين عظمة فخذ الأورورين توجنسيس لا يختلف كثيراً عن تكوين عظمة الفخذ الموجودة لدى الرئيسيات التي تتحرك على الأشجار. ثانياً: لم يثبت لدى الرئيسيات العليا أن مينا الأسنان السميكة حكرٌ على فرع أشباه البشر الحيوي. وثالثاً، كما اعترف مكتشِفاه، بريجيت سينوت ومارتن بيكفورد؛ عالما الحفريات البشرية اللذان يعملان في مؤسسة كوليج دو فرانس في باريس، فإن معظم تكوين أسنان الأورورين توجنسيس (شبيه بالقردة) [2].
الثالث: هو أرديبيتيكوس (Ardipithecus) ولا يوجد تشابه مورفولوجي إلا ضئيل بين الحفريات الموجودة ضمن هذه المجموعة وأشباه البشر القدامى، ويوجد مجموعة ثانية من حفريات أرديبيتيكوس تسمى أرديبيتيكوس راميدوس (Ardipithecus ramidus). من حيث الحجم فإن كلاً من أرديبيتيكوس كادابا وأرديبيتيكوس راميدوس يشبهان شمبانزي بالغاً حديثاً صغير الحجم، يبلغ وزنه نحو 70 – 80 رطلاً [3]. إن الجدل المستمر حالياً يستند إلى أربعة أنواع للإنسان قبل الحديث وهي هومو إجاستر (Homo ergaster) (الإنسان العامل)،

---

[1] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص71.
[2] المصدر السابق، ص73.
[3] المصدر السابق، ص74.

والإنسان المنتصب (Homo erectus)، وإنسان هايدلبيرج (Homo heidelbergensis)، وإنسان نياندرتال (Homo neanderthalensis).

بالإضافة لما سبق، فإن تشارلز داروين (Charles Darwin) لم يقدم دليلاً واحداً في كتبه على التشابه بين نوع بني آدم (عليه السلام) والحيوانات المفترسة في طبائع العيش والصفات الأخلاقية وكل ما يتعلق بالنهم العصبي والافتراس، ولم يجزم بأن الإنسان العاقل أصله قرد، ورغم تقدم العلم لم يستطع أحد أن يثبت علمياً في التاريخ المعاصر تحوّل قرد من الطبيعة إلى إنسان عاقل أو إمكانية تطوير أو تعديل القرد كي يصبح إنساناً عاقلاً يلتزم بكافة القواعد النظامية السلوكية والأخلاقية للإنسان العاقل، وهذه هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين، أي عدم التوصل إلى معرفة كيفية تطور القرود إلى بشر. لم يكن ذلك معقولاً منذ خلقت القرود، ما يعني أن تلك الدائرة المفقودة بين الإنسان والقردة تمثل نموذجاً للاختلاف الحقيقي والواقعي، حتى لو كان اختلافاً بسيطاً أو ملحوظاً، ولذلك فنحن لسنا مع الرأي القائل بوجود حلقة مفقودة أو ناقصة بين القرد والإنسان أو كائن مشترك بينهم، ولكننا نقول: إن القردة هي إحياء مادي وليس إحياءً خلقياً، والإحياء المادي هو إحياء دنيوي وليس علوياً. كل ما ورد في كتاب داروين "أصل الأنواع" هو مقاربته للعلاقة بين الإنسان والقردة، حيث ذكر بأن "الإنسان يشترك مع الشامبانزي في تكوين هبائي (Moleculaire) متطابق مع تكوين القرد بنسبة 98 ٪ وهو ما يقتضي وجود أصل مشترك انحدر منه كلاهما. ففي المستوى الصبغي أو الكروموسومي يشترك الإنسان مع الشامبانزي والغوريلا في عدد من الصبغيات، إحدى عشرة منها لم يمسها تبدل، وسبع منها شهدت تغيراً في الموضع ذاته [1]. وأوضح داروين بأن الإنسان

---

[1] جان شالين، تعريب الصادق قسومة، الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، من نظرية داروين إلى مكتشفات العلوم الحديثة، ط1، (دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2005)، ص21.

والشامبانزي إجمالاً يرجعان إلى أصل واحد مشترك من الرئيسيات، فكلاهما منحدر من كائن واحد قديم، حيث أفاد بأنهما إذن ابنا عمومة متباعدان في المظهر المورفولوجي ومتقاربان في التكوين البيوكيميائي. فالإنسان لا ينحدر من القرد، ولكنه يشترك معه في سلف واحد قديم أصله كائن من الرئيسيات، وبهذا المعنى يمكن أن يُعتبر الإنسان ابن عم الشمبانزي (وليس حفيداً له) [1]. **السؤال هنا: هل الإنسان من نفس رتبة الحيوانات؟**

(الرتبة) للرئيسيات (والمرتبة) للآدميات

نقول: إن داروين يخالف الوصف الذي تم منحه لـ (إنسان النياندرتال) وهو وصف العقلانية المعروف باسم (إنسان النياندرتال العاقل) (Homo sapiens neandertalensis)، وهذا المسمى في حد ذاته يعتبر تمييزاً أخلاقياً بين الكائن الحي (الإنسان العاقل) وباقي الكائنات الحية. لقد صنّف النياندرتال (الإنسان العاقل) (Homo sapiens neandertalensis) على أنه فصيلة من رتبة الرئيسيات، وكذلك الحالي مع الإنسان العاقل العاقل، أو الهوموسابينس (Homo Sapiens) تم اعتباره من رتبة الرئيسيات، رغم أننا لا نعتقد بصواب أو دقة الجمع بين كافة أنواع (الرئيسيات) تحت رتبة واحدة في سلسلة المراتب الثماني الرئيسية للتصنيف الحيوي، بل يلزم أن يكون النياندرتال (الإنسان العاقل) (Homo sapiens neandertalensis)، وكذلك الإنسان العاقل العاقل، أو الهوموسابينس (Homo Sapiens) خارج تصنيف (الرتبة)، فيكون الإنسان العاقل ضمن (المرتبة) على أن يضاف هذا المسمى إلى (سلسلة المراتب)، أي أن يتم تمييز (الرتبة عن المرتبة) وذلك لأن

[1] المصدر السابق، ص22.

(المرتبة) أعلى من (الرتبة)، حيث تطلق (الرتبة) على الرئيسيات كلها باستثناء النوع البشري الإنسي الذي يجب أن يصنف ضمن (المرتبة) أو يطلق عليه اسم (مرتبة الآدميات) (Adanismo) وليس الإنسانيات (Hominninae)، لأن الإنسانيات فصيلة من الثدييات تتبع قردة عليا، ولأن الأنسنة تنطبق على كافة الكائنات الحية، لكن لا تنطبق الآدمية إلا على النوع البشري، والآدمية مقترنة بالعقل وقدرته على الإدارة والتحكم، وهي ثابتة، لأنها تبدأ بنوع إنسي واحد وتنتهي إليه وهو آدم (عليه السلام) سواء كان في الجنة، أم في الأرض، أم عند البعث، أم عند الرجوع إلى الأرض، فهو واحد في مرتبته، وهي مرتبة علوية أخلاقية. وإن علوية مرتبة نوع بني آدم (عليه السلام) تؤكدها كماليته الإحيائية من خلال درجة "الإدراك" في العقل الغريزي (الهيولاني/ المادي) والموجود لدى النوع الآدمي، وهو إدراك إحيائي خلقي وليس إحيائياً مادياً مثلما هو في الحيوانات. كما أن أهم ما يدل على (المرتبة) هو أن العقل الآدمي الذي يمثله آدم (عليه السلام) هو عقل له إرادة على ذاته ونسميه (عقل تشريعي) أو هكذا مقرر له أن يكون وفق توصيفات الشريعة الإلهية، وليس فقط عقل غرائزي متعلق بوساوس الشياطين. أما (الرتبة) فهي حيوية أفقية لأنها دنيوية أرضية، وهي شديدة الغرائزية ومعدومة الفكر والعقلانية، فالحيوانات (البهائم) الأرضية ليس لها وجود في الجنة، حيث لا دليل من القرآن وأما السنة فالأحاديث مجملها بإسناد ضعيف، لأن البهائم وُجدت لخدمة بني آدم (عليهم السلام) في الأرض، وهي لم تنزل إلى الحياة الدنيا مثل آدم وحواء (عليهما السلام). لذلك مهما ارتفعت (الرتبة) أو انخفضت سوف تظل أرضية. أما (المرتبة) مهما ارتفعت أو انخفضت فسوف تظل علوية لأن المرتبة تابعة للدرجة، والدرجة مرتبة قرآنية لقوله تعالى: "هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات.." {الأنعام: 165}. لذلك، صح قول تشارلز داروين أن الإنسان لا ينحدر من القرد، ولكن لا يصح قوله إنه يشترك معه في

سلف واحد قديم أصله كائن من الرئيسيات لأسباب كثيرة ذكرت بعضها ومنها الاختلاف الذي وضحته بشأن (الرتبة) و (المرتبة). بالتالي فإن القرود وبني آدم (عليهم السلام) ليسوا أبناء عمومة، فإذا كان داروين اعترف بأنهما متباعدان في المظهر المورفولوجي (من حيث الشكل والبنية والخصائص)، فإن هذه المسألة أصيلة من عدة جوانب (عضوية، وجمالية، وأخلاقية)، وذلك لأن الإنسان موصوف في القرآن الكريم أنه مخلوق في أحسن هيئة وصورة وتقويم، وهذه المسألة سوف تتضح خلال شرحنا في الكتاب لماهية الخلق والمادة التي خلق منها آدم (عليه السلام). بالتالي فإن التباعد في المظهر المورفولوجي يؤكد أن (الرتبة) للرئيسيات غير (المرتبة) للآدميات. **نسأل هنا ماذا عن التقارب في التكوين البيوكيميائي؟ وهل يجعلهما في نفس الرتبة أو المرتبة؟**

التقارب البيوكيميائي بين (الرتبة) للرئيسيات و(المرتبة) للآدميات

نقول: إن التكوين البيوكيميائي متصل بالخلايا الحية التي يعود أصلها إلى طبيعة النظام الغذائي. كما أن التكوين البيوكيميائي له علاقة بقواعد السلوك العام، ونشاط الإنسان في الحياة التي تتطلب عقلاً يفكر، أو عقلاً إدارياً، مثل التوريث عند الإنسان والوصية والدفن، والكثير من الصفات السلوكية. وعندما يتعلق الأمر بأهم تمييز بين بني آدم والقرود غير المذيلة، يكون (العقل التشريعي) هو الفيصل المطلق بين الاثنين، ولهذا يقول داروين إنه "تم في الأصل التأكيد، وإعادة التأكيد، بإصرار زائد على أن الدماغ الخاص بجميع القرود غير المذيلة، حتى الأعلى منها، يختلف عن ذلك الخاص بالإنسان، في الغياب الخاص بمثل تلك التراكيب الواضحة كالفصوص الخلفية الخاصة بنصفي الكرة المخية، مع احتواء القرن الخلفي الخاص بالبطين المخي الوحشي وقرن آمون المخي الصغير، في داخل تلك

الفصوص، وهي التي تكون في غاية الوضوح في الإنسان" [1]. نقول: إن هذا الاختلاف بين عقل القرود غير المذيلة والإنسان هو الذي يجعل قيمة الإنسان في (دماغه الشرعي المعقلن)، حيث لا نظير لأساسات عقله، وذلك لا ينفي عن الإنسان اشتراكه مع كثير من الكائنات الحية في عدد محدود جداً من الصفات أو الاستجابة للمؤثرات المحيطة، مثل اشتراك الأطفال عند بلوغ مراحل النطق الجزئي بالتقليد اللساني مع طائر الببغاء، لكن ذلك لا يعني تشابه نوع الجنسين مطلقاً، علماً بأننا نعتقد من ناحية بيولوجية بوجود علاقة بين ألسنة الببغاوات وألسنة السكان في المناطق التي تنتشر فيها الببغاوات بكثرة مثل جنوب شرق آسيا وأميركا اللاتينية والهند. أما بالنسبة لاشترك الإنسان مع الشامبانزي في التكوين الهبائي فهو نسبي وغير مأصول، والنسبي إلى المتطابق لا يجعله مثيلاً له أو يحاكيه لأن الطابع الخلقي التكويني من المادة (مادة الخلق) تختلف بين آدم (عليه السلام) وكافة المخلوقات (الكائنات الحية). أما من ناحية أخلاقية فإن آدم (عليه السلام) تم ستر عورته باللباس وتمت أخلاقه وصفاته في الأرض بشكل مغاير تماماً للمخلوقات كلها، وهو ما لم يحدث للقردة أو أي حيوان من الرئيسيات، وذلك كما ورد في قوله تعالى: "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير من آيات الله لعلهم يذكرون" {الأعراف: 26}. أما القردة فقد ورد ذكرها ثلاث مرات في القرآن، وجاءت مرتين مصحوبة بوصف "خاسئين" للقردة. **نسأل هنا، ما هي علاقة أمر الخسء الإلهي بشهوة الغذاء، وكيفية ارتباطه بالقردة والخنازير كرتبة ونوع حيواني في الآيات القرآنية الثلاثة التالية؟**

معنى الخسء للقردة، وعلاقته بالنوع الآدمي في ثلاث آيات قرآنية

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص444.

- قال تعالى: "قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل" {المائدة: 60}.

- قال تعالى: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" {البقرة: 65}.

- قال تعالى: "فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين" {الأعراف: 166}.

سنقوم بشرح الآيات الثلاثة مع بعضها البعض؛ لأنها تحمل نفس المعنى والمقصد الدال على هوية القردة والخنازير. نلاحظ في الآية الأولى أنها ذكرت نوعين من الكائنات الحية (الحيوانات) وهم القردة والخنازير، وأن الخطاب جاء موجهاً للبشر، وقيل إن هؤلاء البشر هم أصحاب السبت: اليهود الذين مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير لأنهم خالفوا أمره بأن اصطادوا يوم السبت، وهم أنفسهم الذين تم ذكرهم في الآية الثانية في قوله تعالى: "الذين اعتدوا منكم في السبت" {البقرة: 65} وكذلك هم ذاتهم الطائفة التي اعتدت في السبت وتقدمت على استحلال ما حرم الله عليها وذكرت في الآية الثالثة {الأعراف: 166}. والخنازير هم كفار مائدة عيسى كما قال فخر الدين الرازي [1]. قال سفيان الثوري: عن علقمة بن مرثد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المعرور بن سويد، عن ابن مسعود قال: سُئل رسول الله (ﷺ) عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله تعالى؟ فقال: إن الله لم يهلك قوماً -أو قال لم يمسخ قوماً- فيجعل لهم نسلاً ولا عِقباً (عاقبة)، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك" [2]. وقال ابن عباس: "ما كان للمسخ نسل"، وقال الضحاك: لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج39، ط12، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص139.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص142.

ولم ينسل [1]. نقول: إنه لا يصح القول بأن الله خلقهم قردة وخنازير، ولكن يصح القول مسخهم، والمسخ غير الخلق مكاناً وزماناً وأمراً، لأن الله لا يخلق مخلوقات (كائنات حية) خاسئة، ولأن المسخ دنيوي بأمر إلهي مقرر ومحقق عقاباً، أما الخلق فهو بأمر علوي إلهي مقرر أمراً ومحقق إكراماً، وهناك فرق بين المقرر أمراً إكراماً والمقرر حقاً عقاباً. كما أن قوله تعالى: "أنبئكم بشر" {المائدة: 60} هو دليل على صدق الخبر والتبليغ في أمر إلهي خاص يتعلق بخسء الكائنات الحية، وهو من خصوصية الله وحده في طريقة عقابه لمخلوقاته. هذا النبأ من عند الله هو نبأ الغضب على نوع من البشر (الآدميين) الذين خلقهم الله ولم يطيعوه أو يسترشدون بشريعته في الحياة الدنيا فجعلهم (خسئهم) إلى قردة وخنازير، والجعل هنا خسء دنيوي، لأن الجعل في كثير من آيات القرآن معناه الخلق، لكن في هذه الآيات تعني أنه غيّر نوعهم من (كائن حي آدمي) إلى (كائن حي حيواني) وذلك يعتبر إنزالاً من المرتبة إلى الرتبة، لأن المرتبة بحسب تقديرنا أعلى درجات من الرتبة، وسبق أن ذكرت أن (الرتبة) تطلق على الرئيسيات كلها باستثناء (النوع الآدمي) الذي يجب أن يُصنّف ضمن (المرتبة) أو يطلق عليه اسم (مرتبة الآدميات) (Adanismo) وليس الإنسانيات (Homininae) لأن الإنسانيات فصيلة من الثدييات تتبع قردة عليا، وبالتالي فإن الله غيّر نوع البشر (اليهود وكفار مائدة عيسى) إلى قردة وخنازير. وكملاحظة: لا نقول بأن كافة مستحاثات القردة التي تم اكتشافها هي خسء، لاسيما أن الخسء حدث في زمن عيسى (عليه السلام) وزمن النبي محمد (ﷺ) وهما بعيدان عن أزمان اكتشاف مستحاثات القردة، ولكننا نقول إن الخسء هو الأمر الوحيد المتوقع حدوثه لنوع من الخلق في أزمان سابقة على الخسء المعروف في زمن عيسى (عليه السلام) وزمن النبي محمد (ﷺ)، وطالماً أننا عرفنا

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص289.

معنى الخسء، بالتالي فإننا تعرفنا على نوع جديد من الحيوانات التي تتحول من بني آدم (إنسان) إلى حيوان (قرد على وجه التحديد).

علاقة أمر الخسء الإلهي للقردة والخنازير بشهوة الغذاء

لقد غيّر الله نوع البشر (اليهود وكفار مائدة عيسى) إلى قردة وخنازير وذلك بعد إقرار سببين في الآية وهما اللعنة من الله والغضب عليهم في أمر يتعلق بالصيد والإفساد في الطبيعة، فكان الخسء متعلقاً أساساً بشهوة الغذاء وهو أساس فتنة آدم (عليه السلام) في الجنة، وإن اختيار القردة والخنازير من بين بقية أنواع الحيوانات لأن لها صفات اجتماعية معيشية وغذائية موغلة في الدنيوية والدناءة الأرضية. لذلك نجد أن الخنازير حيوانات شرهة تتغذى على الجيفة والفضلات والقاذورات، ولذلك فهي حيوانات مترممة نتنة وقد قال تعالى: "قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس" {الأنعام: 145}. وقد سبق أن شرحنا في الصفحات السابقة علاقة الدم في الجراد والقمل والضفادع بالجريمة وارتباط ذلك بالعقاب الإلهي، والدم المسفوح تكرر ذكره هنا في الآية مع الخنزير في دليل على أن كل هذه الأمور المترابطة تتعلق بشهوة الغذاء. أما القردة فهي تعيش وتنام فوق الأشجار في الطبيعة في دليل على دنيوية طباعها، فالقرود حتى وإن كان سلوكها إنساني وعاطفي إلا أنها مخالفة للتعقل والتفكر والصفات الأخرى مثل السكن والنكاح والأخلاق والزهد والصدق والعبادة وكافة الصفات الأخلاقية والشرعية الآدمية، فهذه المخلوقات الحيوانية لا تتبع الدين الذي هو اعتقاد يتكون من نظام شرعي (وهو نظام تشريعي)، ونظام أخلاقي (وهو نظام تربوي). ونظام طبيعي (وهو نظام مادي خلقي إحيائي وروحي). أما قوله تعالى في الآية إن هؤلاء "شر مكاناً" فنقول: إن المكان هنا يقصد به الموضع الذي أنزلهم الله إليه (وهي الرتبة داخل

بيئة الحيوانات، أي الحظيرة أو الغابة أو أي مكان تجتمع فيه هذه الحيوانات وغيرها). وقوله تعالى: "أضل عن سواء السبيل" يقصد به الضلال عن (المرتبة والنوع الآدمي). ولهذه الأسباب السابقة نفهم أن الخسء ربما حدث لأقوام سابقة بعد خلق آدم (عليه السلام) في أحسن تقويم، وبالتحديد حدث هذا الخسء لكل الأعراق والجماعات والأقوام التي لم تلتزم أبداً بالقواعد الأخلاقية الإلهية المقررة في القرآن فيما يتعلق بشهوة الغذاء، ولذلك نحن نخالف ما ذكره عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين عن المستحاثات باعتبارها جزء من تاريخنا، بالإضافة إلى الإنسان الإفريقي (African Hominids)، والسلف الذي يمشي على رجلين (Australopithecus afarensis) الشهير بلوسي (Lucy) حيث قال إن رؤية لوسي تجعلنا قادرين على فهم تاريخنا كبدايات متطورة جداً، ورؤية التيكتاليك (Tiktaalik)، هي كرؤيتنا لتاريخنا كأسماك" [1]. نقول: إن هذه ليست بدايات تطورية وإنما بشكل دقيق وقاعدي صارم إما حيوانات منفصلة عن نوعنا الآدمي الإنساني أو أنها تعتبر خسئاً تاريخياً للجنس الشهوي غير الأخلاقي، الذي لم يلتزم بقواعد الشريعة الإلهية والرسالات السماوية، وآخرها رسالة النبي محمد (ﷺ). مما سبق نستنتج بأن الفصيلة هي كل ما يقوم على الفصل بين ما هو كائن حي إحيائي خلقي روحي علوي، وكائن حي إحيائي مادي دنيوي. كما نستنتج أن الفصل في النوع الجنسي يكون من خلال الدم، أي دم فصيلته آدمية بشرية ودم فصيلته حيوانية.

---

[1] نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص44.

ثانياً: (الأطوار):

يختلف مفهوم (أطواراً) عن كلمة (طور)، وقد ورد مفهوم (أطواراً) في القرآن مرة واحدة [1]، وذلك في قوله تعالى في سورة نوح: "ما لكم لا ترجون لله وقاراً (13) وقد خلقكم أطواراً (14) ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً (15) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس والقمر سراجاً (16) والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً" (18). قيل: الطور في اللغة: المرّة، أي: من فعل هذا وقدر عليه فهو أحق أن تعظموه. وقيل: (أطوراً): صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطوراً أي: أنواعاً: صحيحاً وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنياً وفقيراً. وقيل: إن (أطواراً): اختلافهم في الأخلاق والأفعال [2]، على حين قال الرازي: أي تارات خلقكم أولاً تراباً، ثم خلقكم نطفاً، ثم خلقكم علقاً، ثم خلقكم مضغاً، ثم خلقكم عظاماً ولحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر. وقيل: إن الأطوار فيه وجهان (الأول): قال الليث الطورة التارة يعني حالاً بعد حال، كما ذكرنا أنه كان نطفة، ثم علقة إلى آخر التارات (الثاني): قال ابن الأنباري الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضكم بعضاً [3]. استدل محمد شحرور في كتابه "القصص القرآني، قراءة معاصرة" على هذه الآية (الأطوار) للإشارة إلى قول العلم في تطور البشر وأن تطور البشر كان بشكل شجرة من المجموعات (يقصد منها مجموعات القرود)، وأنها انقرضت جميعها ما عدا سلالة

---

[1] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص153.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج21، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص256.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص139.

واحدة وهي (الإنسان العاقل العاقل) [1]. نقول: إننا لا نؤيد هذا الرأي، لأنه نوع من التلفيق أن ينسب شحرور هذه الآية، ومنها مفهوم "أطواراً" إلى التطور غير البشري، لأنه من غير الممكن أن يتحدث الله عن الوقار وخلق الأطوار ويكون خطابه موجه لهذا النوع الحيواني الأدنى من الخلق، أي القردة، لا سيما أن الآيات السابقة واللاحقة لا تشير من قريب أو بعيد إلى غير بني آدم (عليهم السلام) في مقصود الأطوار. ومرة أخرى في نفس الكتاب أشار شحرور إلى إنسان النياندرتال وقال إنه "عاش قبل ظهور الإنسان العاقل بمئات الآلاف من السنين، وأضاف "لقد أنشأ الله هذا الإنسان من ذرية قوم آخرين وهم البشر" واستدل على ذلك بقوله تعالى: "وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" {الأنعام: 133} [2]. وأضاف في نفس الصفحة أنه "عندما وصل البشر إلى مرحلة من النضج العقلي تؤهله لتأسيس المجتمعات وبناء الحضارات، اصطفى الله من هؤلاء القوم مجموعة آدم لينشئ منه الإنسان الحالي وفق سيرورة تطورية إنسانية. نقول: إن شحرور استخدم التلفيق مرة أخرى بسبب قلة وضوحه وتوضيحه للنص، فهو لم يوضح من الذي أنشأه الله من ذرية قوم آخرين؟ هل هو النياندرتال أم الإنسان العاقل؟ ولو أنه يقصد القول بأن الله أنشأ النياندرتال من الإنسان العاقل، فكيف يمكن للحيوان أن ينشأ من الإنسان العاقل، ولو كان يقصد أن الإنسان العاقل أنشأ من النياندرتال، فهو بذلك يتفوق على تشارلز داروين ويكتشف بدون أدلة أن الإنسان العاقل، آدم (عليه السلام) أصله قرد، وهذا محال! يقول برنارد وود، أستاذ علم أصول الإنسان بجامعة جورج واشنطن "إن تكوين أجسام إنسان نياندرتال متخصص للغاية بحيث لم يكن لهم إسهام ملحوظ قط في التجميعة

---

[1] محمد شحرور، القصص القرآني، قراءة معاصرة، ج1، ط3، (بيروت: دار الساقي، 2015)، ص237.

[2] المصدر السابق، ص258.

الجينية للإنسان الحديث، وإن الاختلافات بينهم وبين الإنسان الحديث كبيرة للغاية بحيث يصعب ضمهم للإنسان العاقل. ويشير إلى أن الاختلافات بينها وبين الحمض النووي الميتوكوندري لدى الإنسان الحديث كبيرة وواضحة [1]. بالتالي فإن شحرور مخطئ في فهمه بالمقاربة بين النياندرتال والإنسان العاقل. كما أن الله تعالى ذكر كلمة "ذرية" في قوله تعالى: "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" {الأنعام: 133}، والذرية لا تكون إلا للنوع الواحد المتسلسل، وليس هناك خلط بين الأنواع، أي ما هو إنسي تابع لبني آدم (عليه السلام) وما هو قردي تابع لرتبة الحيوانات. وأخطأ شحرور عندما قال إن البشر تم اصطفاؤهم من الله عندما وصلوا إلى مرحلة النضوج العقلي التي تؤهلهم لتأسيس المجتمعات وبناء الحضارات، لأنه يقصد بذلك أن البشر كانوا قروداً أصلاً ولم يكونوا ناضجين عقلياً، ولمَّا نضجوا وأصبحوا بشراً اصطفاهم الله، ما يعني أن الله اصطفى بشراً كان أصلهم قروداً (حيوانات) أو لم يكن لديهم نضوج عقلي، وهذا محال على الله القائل: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" {التين: 4} والقوامة تشمل كل شيء في الجسد، ومنها العقل، أي أن أساس الخلق مبني على القوامة الحسنة، وليس تطوير القوامة من خلال النضوج العقلي، ولا بد من النظر في أصل وحقائق الأشياء من دون الخلط بين ما هو آدمي وما هو حيواني لقوله تعالى: "بل أنتم بشر ممن خلق.." {المائدة: 18}. ونقول: إن ورود قوله تعالى: "وقد خلقكم أطواراً" {نوح: 15} في سورة نوح التي تذَّكر بقصته مع قومه، يعني أن الإشارة إلى مفهوم الأطوار له صلة بالفترة الزمنية التي عاش خلالها النبي نوح (عليه السلام) على الأرض وذريته من بعده، وهي مختلفة تماماً عن أي زمن بالمعنى الطبيعي والاجتماعي، والأهم أنها مختلفة بالمعنى التكويني للإنسان، فإنسان ذلك الزمان ليس كإنسان هذا الزمان

---

[1] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص105، 106.

من حيث بعض التفاصيل الشكلية وليس الجوهرية كالطول والعرض والحجم، فمثلاً "بعض القياسات والتجارب لدى العلماء نتج عنها ملاحظات تفيد بأن هناك تأثيرات محلية معينة تحدث تأثيراً مباشراً على طول القامة" [1]، كل ذلك يرجع لاختلاف نمط وسبل العيش والبناء العمراني ونوعية النباتات، وحركة الإنسان، ووسائل مواصلاته، وإدارته لحياته، لأن علاقة الإنسان بالزمن مرتبطة بالحركة، والحركة أصلها يقوم على الجهد المبذول من الإنسان في بيئته الأولى وهي التفكير، وبيئته الثانية وهي الجهد النفسي، وبيئته الثالثة وهي الجهد الإدراكي الغرائزي الشهوي، وبيئته الرابعة وهي الجهد البدني العضلي، وذلك بمساعدة الموارد التي تتاح له. لذلك فإنني أرى أن الأطوار اسم يطلق على زمن مشغول بحركة النوع الآدمي منذ أول لحظة خلقه من نطفة وحتى موته، أو بمعنى آخر تاريخ مُعمّر بالنوع الآدمي. كما أن الأدوات والموارد الطبيعية لعبت دوراً في توجيه بني آدم (عليهم السلام)، مثل استخدم الإنسان الحطب بغرض الطهي ثم استخدامه للأجهزة العصرية لنفس الغرض حتى لعب دوراً في تغيير نمط حياته، فأصبح ذلك طوراً جديداً من البشر يتعلق بحركة بني آدم (عليهم السلام) وكيفية إدارتهم لشؤون حياتهم، ولذلك فإن كلمة (أطوار) اشتق منها التطوير والتحديث لحركة بني آدم (عليهم السلام).

(الإحيائية الإصلاحية) في القرآن مقابل (الانتخاب الطبيعي) أو (البقاء للأصلح) عند داروين

يوجد علاقة بين تعدد الأطوار والتكيف، لأن كل طور لبني آدم (عليه السلام) ينجو خلال حقبة زمنية/تاريخية محددة يكون قد خطا خلالها خطوات فعالة مع التكيف. لقد بُنيت نظرية داروين على حقائق

---

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص136، 137.

واضحة، منها: "أن كل أفراد الكائنات الحية تختلف عن بعضها البعض، فلا يوجد إنسان مشابه للآخر تماماً ولا توجد يمامة أو ضفدعة أو بقرة مطابقة للأخرى تماماً. وأنه في ظل التكاثر هناك صراع على المكان والغذاء والبقاء. وقد أطلق داروين على هذا الصراع اسم (الانتخاب الطبيعي) (Natural selection)" [1]. ومعنى الانتخاب الطبيعي "أن الأحياء القوية التي تستطيع النجاح في الصراع الموجود في الطبيعة وتستطيع التكيف لملاءمة الظروف والشروط الطبيعية هي التي تبقى" [2]، أو كما قال مات ريدلي "الانتخاب الطبيعي هو ببساطة عملية تتغير فيها أشكال الحياة لكي تتوافق مع ذلك العدد الكبير من الفرص الذي تقدمه البيئة المادية وغيرها من أشكال الحياة الأخرى" [3]. وبمعنى آخر، فالانتخاب الطبيعي يشبه مهندساً يحسن ماكيناته عن طريق التجريب والتعديل، وليس عن طريق الجلوس وتخطيط تصميمات جديدة بالكامل [4]. وقد قبل داروين التعبير الذي أطلقه صديقه هربرت سبنسر (Herbert Spencer) (البقاء للأصلح) (Survival of the fittest) [5]، عموماً تشير جملة (البقاء للأصلح) إلى مسألة هامة في علاقة الإنسان مع محيطه الطبيعي وهي (الانسجام) أو (التكيف الجيد)، إذ لا يمكن أن يتحقق البقاء بدون تحقق شرط التكيف. وقد "استحدث مصطلح التكيف على يد علماء لاهوت في القرن الثامن عشر زعموا أن مظهر التصميم في سمات الكائنات

---

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص22.

[2] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص167.

[3] مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص36.

[4] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص84.

[5] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص22.

الحية يثبت وجود قوة غيبية هي التي قامت بعملية التصميم" [1].
الواضح أن كل الحيوانات والطيور والزواحف وحتى النباتات التي انقرضت لم تستطع التكيف مع البيئات التي نشأت فيها، علماً بأن الإنسان وحده هو الكائن الحي الوحيد الذي عاش منذ قديم الزمان وظل حياً بسبب قدرته المطلقة على التكيف، وهذا ما يسمى الاستخلاف في الأرض بهدف عمارتها لقوله تعالى: "ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" {يونس: 14}، وقوله تعالى: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" {هود: 61}. عموماً، نقول: إن التسمية الأصوب هي "الإحيائية"، وهي تسمية قرآنية ذات بعد ديني اجتماعي وأخلاقي شرعي، وهي تشمل نوعين من الإحياء وهما: الأول: الإحياء الخلقي. والثاني: الإحياء المادي. بالنسبة للإحياء الخلقي يكون من خلال إحياء الإنسان لنفسه من خلال التزاوج والتناكح من أجل استمرار سلالته طوراً بعد طور منذ خلق آدم (عليه السلام). وأما الإحياء المادي؛ فهو إحياء دنيوي، ويكون عبر إحياء الأرض من خلال إصلاحها وزراعتها باعتبار أن المادة أصل في خلق السماوات والأرض، علماً بأن هناك علاقة متماسكة وأصيلة بين التزاوج الجنسي، وتناول الغذاء، وإصلاح الأرض وإعمارها، وإن تكاملهما عبر إحيائهما بالطريقة الطبيعية السليمة سوف ينتج عنها عملية (إصلاحية تكاملية)، وبالتالي تصبح العملية (إحيائية إصلاحية) إذ لا جدوى للإحياء بدون الإصلاح، حيث تلعب الجودة دوراً أساسياً في العملية الإحيائية، ولا يمكن تثبيت هذه الجودة واستمراريتها إلا من خلال ديمومة الإصلاح، لكن الإحياء دائماً يكون سباقاً لأن أول الخلق بدأ بإحياء آدم (عليه السلام). إذا فهمنا هذه العملية "الإحيائية" في الحياة الدنيا سوف ندرك ضرورة ما شرحناه في موضوع الفصيلة من ناحية عقاب المجرم داخل فصيلته، وارتباط ذلك بضرورة

---

[1] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص16.

الإحيائية الإصلاحية، وعلاقة ذلك بتفكير الإنسان وأخلاقياته في التاريخ، ولذلك لا يمكن الالتزام أو النظر بواقعية أخلاقية وجدية علمية إلى قول داروين بأن "الملكات الفكرية والأخلاقية الخاصة بالإنسان قابلة للتمايز وقد تم توارثها، وقد اكتملت وتقدمت من خلال الانتقاء الطبيعي، لأن قضية التطور -بحسب داروين- مفادها أن الإنسان البدائي وجدوده العليا مشابه في بعض صفاته بالقرود غير المذيلة" [1].
صحيح أننا نتفق مع الشق الأول في قوله إن الملكات الفكرية والأخلاقية قابلة للتمايز، وقد تم توارثها واكتمالها وتقدمها بفعل الانتقاء أو الانتخاب الطبيعي، لكن قضية التطور ليس لها علاقة بالتشابه بين الإنسان البدائي والقرود غير المذيلة، بل بالتشابه بين الإنسان البدائي الآدمي المخلوق، ونقيضه الإنسان المتصف عقلياً بالآدمية وسلوكياً بالبهيمية الذي اختلف معه أخلاقياً وانسلخ عنه زمنياً نتيجة لاختلاف شرعي أخلاقي، فيكون للإنسان في كل حقبة زمنية جدود أقدم منه ضمن دائرة (المرتبة) التي تتبع لها كل (الآدميات) وليس (الرتبة) التي تتبع لها (البهيميات). بالإضافة لما سبق ذكره، نلاحظ أن كل ما ذكره الله في الآيات التالية (17) و (18) بعد مفهوم "الأطوار" في قوله تعالى: وقد خلقكم أطواراً (14)، يشير إلى أن أطوار الإنسان لها علاقة بالطبيعة من خلال ذكره عزوجل في سورة نوح: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً" (18). الآيتان تدلان على خلق الإنسان من طين من الأرض ثم موته في الأرض وإعادة إحيائه من الأرض، وتدلان على أن نمو الإنسان كنمو النباتات من الأرض ومن مادة الأرض وهي الطين والماء ثم الهرم بعد الإنبات من خلال المرور بالجهد والبذل الإنساني وصولاً إلى الموت والإحياء بعد الموت. إن الإشارة إلى الأطوار في الآية يدل على أن بدايتها ومنتهاها يكون من خلال خلق النوع من

---

[1] المصدر السابق، ص319.

الأرض، أي التراب/الطين، ونشاط النوع في الأرض، أي التراب/الطين، فمن هذه الأرض بدأ آدم (عليه السلام) وفيها مارس نشاطه، ومنها سوف يعود لأنه قال في البدء "أنبتكم من الأرض"، وقال في العودة إلى يوم الحساب "ويخرجكم إخراجاً" ما يعني أن استكمال دورة الأطوار لم تنته إلا بعد الإخراج من الأرض يوم القيامة، وبهذا تكون دورة حياة الطور انتهت بالنسبة للإنسان الواحد وسوف يحاسب وقتها، فإما يكون في الجنة أو النار.

الطور في السياق الجنسي وعلاقته بالزمن والجغرافيا

في بعض الأحيان يُعبّر الطور عن مرحلة زمنية عابرة للحدود، كأن ينشغل الإنسان بعلاقة حميمية جنسية شرعية خارج السياق الاجتماعي الخاص به، وخارج محيطه الجغرافي، فيشكّل بذلك حالة انتقالية من طور محلي إلى طور إقليمي، أو من طور جنسي طبقي اجتماعي له خصوصية تقليدية شعبية إلى طور طبقي آخر برجوازي اقتصادي، أو من طور جنسي ثقافي نظامي (شرعي) أخلاقي إلى طور جنسي ثقافي غير نظامي انحلالي. وعموماً لا أرى أن تقسيم ديزموند موريس عالم الحيوان البريطاني للأطوار في كتابه "القرد العاري" هو تقسيم منطقي أو أخلاقي لا سيما أنه يربط الأطوار بثلاثة تقسيمات: وهي تشكيل الزوجين، وفترة ما قبل الجماع ثم فترة بعد الجماع، ويقول إنها لا تأخذ الترتيب نفسه، يقصد أن الإنسان يمكن أن يقوم بالجماع ثم يشكل علاقته الزوجية [1]. نقول: إن تقديم الجماع على تشكيل العلاقة بين الزوجين هي مسألة لا تشكل أطواراً أخلاقية، وإنما أطواراً انحلالية شاذة لا تتسق مع أصالة الخلق الذي ابتدأ بآدم (عليه السلام) أو ذريته اللاحقة، ولا مع القيم الأخلاقية الموجودة في أصل

[1] ديزموند موريس، ترجمة: ميشيل أزرق، القرد العاري، دراسة في التطور العضوي والجنسي والاجتماعي للإنسان، ط1، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1984)، ص43.

الإنسان والشريعة الإلهية. كما أن هذا التفسير للأطوار هو تفسير ثقافي جنسي غريزي لا يعبر عن منطق تربوي، أو شرعي، لأن الأصل في الطور أن يبدأ من البذرة الأولى أو نقطة التحول وهي "الخلية أو النطفة" وينتهي إلى مسار من الاستدامة البشرية لنمط محدد من الحياة يشترك فيه ذكر وأنثى ويعبّران من خلاله عن طورهم الخاص في زمن ما وجغرافيا مهمة أو دائمة لهما، ومن ثم يورثان طوراً آخر لأبنائهم أو أبناء أبناءهم في زمن آخر وجغرافية أخرى مختلفة، حيث يلعب كلاً من الزمن والجغرافيا اللذان يتشكلان عبر الحركة بكافة أشكالها دوراً أساسياً في تعريف ماهية الطور منذ النطفة الأولى وحتى الممات.

ثالثاً: (السلالة):

نقول: إن السلالة من التسلسل، والتسلسل يدل على التتابع، والتتابع فيه تلاحق، والتلاحق هو جوهر الاستمرارية، والاستمرارية أصل داخل الحركة؛ لأن الحركة تكون داخل موضع الزمن، والزمن إما سريع أو بطيء أو ثابت معدوم. فإذا كانت الحركة سريعة كان التسلسل سريعاً، وانتشار السلالة أسرع، وإذا كانت الحركة بطيئة كان التسلسل بطيئاً، وانتشار السلالة أبطأ، وإذا كان انتشار السلالة ثابتة معدومة، أي لا أصل ولا وجود لها، أو أنها منقطعة، أي حدث لها انقطاع في النسل نتيجة التوقف عن النكاح، كان التسلسل منتهياً، وكان انتشار السلالة معدوماً. بالتالي فإن للحياة معنيين: حياة السلالة وهي الحياة الحقيقية المستمرة، وحياة الفرد وهي وقتية عرضية. وما حياة الفرد إلا جزء من سلسلة الحياة العامة المستمرة، حياة السلالة [1].

---

[1] نقولا حداد، ذكر وأنثى خلقهم، أو مرشد الشبيبة، (القاهرة: المطبعة العصرية)، ص16.

التسلسل بين الصعود (البداية) والهبوط (النهاية)

إن للتسلسل بداية ونهاية، فأما البداية فهي طائلة فيها فائدة وهي عامرة، وأما النهاية فهي فاجعة فيها نازلة وهي صادمة. فالإنسان يبدأ صعوداً (وتسمى البداية) وينتهي هبوطاً (وتسمى النهاية). فأما الصعود، فهو من نظرته الأولى إلى أعلى ما فوقه، عندما كان على أرض الجنة في نعيمه المقيم، أي نظرة آدم (عليه السلام) إلى شجرة الوسوسة التي أزله الشيطان للمساس بها، فجعلت صعوده إليها (مساسه بها) هبوطاً إلى الدنيا. وأما الصعود أيضاً، فهو من نظرة الإنسان نحو الآخرة، والتي تبدأ من نظرته إلى الدنيا وصولاً إلى عودته نحو الآخرة، فيكون بين الصعود الشهوي القديم والصعود الأخروي النهائي هبوطاً أرضياً طارئاً اسمه "الحياة الدنيا". ومن الصعود أيضاً، الصعود الدنيوي الذي يبدأ من إغماض الإنسان في رحم أمه إلى تفتح عينيه عند الولادة، ومن نظرته الدنيا التي أنتجتها نطفة من شهوة جامحة إلى نظرته العليا التي أنتجتها شريعة الله في الحياة الدنيا والآخرة. ومن أنواع الصعود كذلك، صعوده من نومه اليومي في سبات عميق إلى نهوضه للسعي في الحياة الدنيا كما ورد ذكره في سورة النبأ: "وجعلنا نومكم سباتاً (9) وجعلنا الليل لباساً (10) وجعلنا النهار معاشا (11)"؛ فيكون الليل استعداداً للصعود، والنهار بداية الصعود، والعودة إلى أول النوم نهاية الهبوط، ويكون ما بين الصعود والهبوط الدنيوي "منتصف الليل أو ذروة النوم" وهو ليس صعوداً ولا هبوطاً بل هو إما استقرار مؤقت في دار الدنيا أو موتاً في دار الدنيا لقوله تعالى: "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى" {الأنعام: 60}.
وردت كلمة (سلالة) مرتين في القرآن كما يلي [1]:

[1] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج3، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص158.

- قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}.
- وقوله تعالي: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" {السجدة: 8}.

الفرق بين سلالة (الطين) وسلالة (الماء المهين)

الآية الأولى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}.

قيل إن (من) في قوله تعالى: "من سلالة" ابتدائية متعلقة بخلقنا، وفي "من طين" بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة، أي: كائنة من طين، والمعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أولاً من طين؛ لأن الأصل آدم (عليه السلام)، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني [1]. قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: إن قوله تعالى: "من سلالة من طين" يعني: صفوة الماء. وقال مجاهد: "من سلالة" أي: من مني آدم (عليه السلام). وقال قتادة: استل آدم من الطين [2]. وقيل المراد بالسلالة: ابن آدم؛ قاله ابن عباس وغيره. والسلالة فُعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد. فالنطفة سُلالة، والولد سلسل وسُلالة؛ عنى به الماء يُسَلُ من الظهر سلاً. قال حسان بن ثابت:

فجاءت به عَضْبَ الأديم غضنفراً سُلالة فرج كان غير حصين

وقال آخر: وهل هندُ إلا مهرةٌ عربية سليلةُ أفراسٍ تجلّلها بغلُ

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج18، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص979.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص465.

وقال الكلبي: السلالة: الطين؛ إذا عصرته انسل من بين أصابعك، فالذي يخرج هو السلالة [1]. وقال الرازي: السلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منياً، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى في سورة السجدة: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" (8) وفيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من فضل الهضم وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهي إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء، فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين، ثم إن السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً [2]. وقيل: السلالة: الصفو الذي يُنتزع برفق. وقيل: سُميت النطفة سُلالة لأنها مستخلصة من الغذاء [3]. نلاحظ هنا الإشارة في الآية إلى الإنسان كنوع، والسلالة كمجموعة لهذا النوع، والطين كمادة لهذا النوع، والنسل كمجموعة محددة داخل السلالة، وسُميت بذلك لأنها تنسل منه، أي تنفصل عنه [4]. وعندما نقول: إن السلالة كمجموعة داخل النوع، فإن السلالة ضمن النوع الذي هو مجموعة من المخلوقات التي تستطيع التزاوج بين بعضها البعض وإنتاج النسل، والنسل متعدد الجماعات والأقوام والقبائل، ويطلق على أفراد هؤلاء المتسلسلون جميعهم اسم (ذرية)

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج85، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص23.

[3] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج3، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص158.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج70، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص21.

وهي تكون للفرد الواحد، ويُسمى نوع من ذرية آدم (عليه السلام)، وبشكل عملي "لما بيّن الله خلق الإنسان، بيّن أنه لما خلقه، ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه" [1].

الآية الثانية: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" {السجدة: 8}.

هذه الآية جعلت السلالة متعلقة "بالماء المهين"، في حين أن السلالة في الآية السابقة كانت متعلقة "بالطين"، **فما الفرق؟**

نقول: إن السلالة الأولى من الطين هي سلالة آدم (عليه السلام) لأنه وحده هو الذي خلق من الطين مباشرة مع الماء. أما السلالة الثانية من "ماء مهين" فهي سلالة ذرية آدم (عليه السلام) وثمة فرق بين خلق آدم (عليه السلام) وخلق ذريته. قيل "النسل" هو الذرية [2]، وسميت الذرية نسلاً لأنها تنسل منه، أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل [3]. وقال ابن كثير: أي يتناسلون من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة [4]. ولأننا نتحدث عن الماء المهين، يستوجب الإشارة إلى الماء العادي الذي منه يتكون الماء المهين بشكل نسبي، فنقول: لما بدأت نشأة الكون بانفجار عظيم بسرعة الضوء، كان ذلك ناتجاً عن احتكاك ذرتي هيدروجين مع ذرة أكسجين، واللتان كونتا الماء، وبالتالي كان الماء أول ما وصل إلى

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص111.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج21، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص70.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج21، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص842.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص360.

الكرة الأرضية عند عملية إنشائها "فتق الرتق" ولهذا السبب كانت نسبة مياه الأنهار والبحار تشكل 71% من مساحة كوكب الأرض، في حين أن نسبة اليابسة تشكل 29% من مساحة الكوكب. في هذا السياق، يسترشد نيك لين (Nick Lane) بمساحة المياه على ظهر كوكب الأرض ويقول "كان من الأفضل أن يُسمَّى الكوكب باسم كوكب (البحار)" [1]. بالتالي نقول: إنه من الطبيعي الجزم بأن خلق المخلوقات بدأ من المناطق التي تلتقي فيها مناطق الماء مع اليابسة. وإذا قلنا إن الحياة بدأت من سمكة أو من النباتات فإن ذلك يعني أنها بدأت من طبيعة الغذاء، لأن السمك والنباتات هما غذاء في الأصل، وهذه فتنة آدم (عليه السلام) التي أنزله الله بسببها إلى الأرض وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (36)".

علاقة السلالة بالنسل والذرية

نلاحظ أنه ذكر كلمة "نسل" قبل كلمة "سلالة" في الآية لقوله تعالى: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" {السجدة: 8}، وهو ما يعني أن النسل أخص من السلالة، والنسل يأتي تحت ترتيب النوع، وفي النوع يقع الإنسان العاقل، وهو النوع الوحيد الذي لم ينقرض بحكم الاصطفاء والاستخلاف لآدم (عليه السلام). أما "السلالة" فهي النوع أيضاً باعتبار أن النوع مجموعة أو سلسلة من الكائنات الحية التي تتزاوج فيما بينها وتكون قادرة على إنتاج نسل من خلال إثبات قدرتها على الخصوبة، وهذا في الأساس يرجع إلى قدرتها الطبيعية

---

[1] نيك لين، ترجمة محمد عبد الرحمن إسماعيل، ارتقاء الحياة، الاختراعات العشرة العظيمة للتطور، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2015)، ص25.

المستمدة من بيئة النباتات وأصلها الماء والتراب اللذان خلق منهما آدم (عليه السلام). بالتالي نقول: إن النسل يبدأ من المني أو النطفة التي يغرسها الرجل في القرار المكين داخل رحم المرأة. أما السلالة فهي تبدأ من مادتي الماء والطين اللتين خلق منهما النوع، وهو آدم (عليه السلام) أو الإنسان الأول في هذه الحالة.

قيل إنه في القرن السادس قبل الميلاد، قال طاليس Thales بعد دراسة للحياة في بحر إيجه "إن مياه البحر هي الأم التي نشأت منها كل أنواع الحياة" وقال زميله وصديقه أناكسمندر Anaximander "إن الحياة قد نشأت من الطين على شكل سمكة مزودة بأشواك خارجية". بل وقد افترض أرسطو أن الحياة قد بدأت بالنبات وتطورت إلى "النباتات الحيوانية" ثم الحيوانات ثم بخطوات متطورة وئيدة إلى الإنسان [1]. ووفقاً للسيناريو التخيلي للتطور فإن الطحالب أو أشنيات البحر هي أسلاف نباتات الأرض ويُقترح أن نشأتها كانت منذ 450 مليون سنة في العصر القديم، لكن المستحاثات التي اكتشفت في السنوات الماضية أسقطت كل سيناريوهات دعاة التطور وشجرة عائلتهم التطورية، حيث اكتشف في غرب استراليا عام 1980 مستحاثات لحيد بحري عمره يتراوح بين 3,1 إلى 3,4 بليون سنة، تألفت من طحالب ذات لون أخضر مزرق وعضويات تُذكر بالجراثيم. خلق هذا الاكتشاف أسوأ نوع من الفوضى للتطوريين، حيث يجب أن تكون الطحالب تبعاً لهذه الشجرة قد ظهرت من 410 مليون سنة في العصر القديم. وهناك نقطة أخرى وهي أن أقدم طحلب مُكتشف له نفس التركيب المعقد لطحالب اليوم. قال العلماء الذين يبحثون هذه المسألة "إن أقدم طحالب تم اكتشافها حتى الآن هي أشياء مستحاثية في الفلزات وتعود للطحلب الأخضر المزرق الذي يعود عمره لثلاثة بلايين سنة مضت. مهما كانت هذه الطحالب بدائية إلا أنها تمثل إلى

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص20.

حد ما أشكالاً منظمة ومعقدة للحياة" [1]. عموماً لا توجد سلسلة واحدة من المستحاثات لإثبات موثوقية وصحة فرع واحد من شجرة التطور هذه التي تراها في معظم كتب البيولوجيا. توجد سجلات كاملة من المستحاثات للعديد من الكائنات الحية في العالم، لكن لا توجد مستحاثة واحدة وسيطة بين سلالة وأخرى [2]. يدل ذلك على أن السلالة هي جزء مركب من النوع، فيكون النسل الواحد التتابعي كله سلالة، فإذا لم يكن هناك نبات سلفاً لآخر لا يمكن أن نطلق عليه سلالة نباتية، وكذلك الأمر بالنسبة للحيوان.

أنواع الخلق الأساسية والفرعية في القرآن

هناك ثمانية مراحل من الخلق والتكوين ذكرت في القرآن، لكننا سوف نركز على أربعة أساسية منها في هذا الكتاب. أما الأنواع الثمانية من الخلق والتكوين فقد ذكرت كلها في آية واحدة بطريقة متسلسلة إبداعية في الوصف، وذلك في قوله تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5}.

---

[1] هارون يحيى، مراجعة أورخان محمد علي، معجزة النبات، ص145.

[2] المصدر السابق، ص150.

زمن وشكل وعملية إنتاج مراحل الخلق

إن هناك ثمانية مراحل لبدء وتطور عملية الخلق، ولأن كل مرحلة لها زمن، وشكل، وعملية إنتاج فإن كل مرحلة تسمى خلقاً، وهي بحسب الآية: أولاً: الخلق من تراب. ثانياً: الخلق من نطفة. ثالثاً: الخلق من علقة. رابعاً: الخلق من مضغة مخلقة وغير مخلقة. خامساً: الخروج طفلاً. سادساً: بلوغ الأشد. سابعاً: أرذل العمر، "أي الهرم والخرف الذي لا يعقل فيه الإنسان". ثامناً: أنبتت من كل زوج بهيج. وهناك آيات في سورة أخرى من القرآن تناولت جميعها كافة أنواع الخلق بالترتيب. أما الآيتين الأخريين فذكرتا سبعة أنواع من الخلق، وهي قوله تعالى في سورة غافر: "هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مُسمى ولعلكم تعقلون (67)". كما نلاحظ هنا الأنواع السبعة بحسب الآية على التوالي، هي: أولاً: الخلق من تراب. ثانياً: الخلق من نطفة. ثالثاً: الخلق من علقة. رابعاً: الخروج طفلاً. خامساً: بلوغ الأشد. سادساً: لتكونوا شيوخاً. سابعاً: الوفاة أو بلوغ الأجل المسمى. أما آيات سورة المؤمنون فقال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (12) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (13) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" (14). نلاحظ هنا أنواعاً سبعة من الخلق أيضاً، وهي على التوالي بحسب الآية: أولاً: سلالة من طين. ثانياً: نطفة في قرار مكين. ثالثاً: علقة. رابعاً: مضغة. خامساً: عظاماً. سادساً. لحماً. سابعاً: أنشأناه خلقاً آخر. هذه الآيات الثلاثة سوف نشرحها بالتفصيل في هذا الفصل لتبيين مركزية التراب/الطين في نشأة وديمومة الكائنات الحية ومنها آدم (عليه السلام) والنبات والحيوان، وذلك لأن بدء الخلق كان باشتراك عنصر التراب/الطين بعد دخول الماء عليه كعنصر أساسي.

وهنا يجب أن نوضح مسألة مهمة فيما يتعلق بمقصد كلمة خلق، إذ أن الكلمة تبدو للوهلة الأولى أنها محصورة في صورة نموذجية تقليدية واحدة وسياق فعلي يبدأ بحالة الجماع بين الذكر والأنثى وينتهي بولادة الجنين، وهذا كل ما يدركه الإنسان بصرياً أو تقليدياً عن معنى الخلق، لكن القرآن يطرح معنى مختلف للخلق، فيجعل الخلق معنى لمرحلة، والمرحلة تعبير عن زمن، وعلى إثر ذلك تصبح كل فترة زمنية يحدث فيها تحوّل بيولوجي جذري للنوع الإنساني هي مرحلة، والمرحلة هنا تصبح نوعاً من الخلق. إن الخلق مسألة تكوينية إبداعية والتكوين يعتني بالتفاصيل، وفي حال الإنسان لا تسمى تفاصيل وإنما تأصيل للنوع الإنسي الذي يتميز عن بقية الكائنات الحية، وأهم تمييز هو بالعقل.

أربعة أنواع أساسية لخلق الكائنات الحية

رغم علمنا بأهمية تلك المراحل السبعة أو الثمانية في الخلق التي تم ذكرها بحسب الآيات، إلا أننا سوف نختصرها ونلخصها في أربعة مراحل أساسية هي التي أشار إليها القرآن في كثير من المواضع، وهذه الأنواع الأربعة في مسارات خلق الإنسان هي، أولاً: التراب/الطين مع الماء. ثانياً: الخلية/النطفة، فأما الخلية فهي أول ما خلق منه آدم (عليه السلام) كنتيجة لجبل الماء بالتراب، والنطفة هي خلق نسل بني آدم جميعهم (عليهم السلام). ثالثاً: الإنشاء/التصوير، وهذا يشتمل على مراحل العلقة والمضغة والخروج طفلاً وبلوغ الرشد، أي جمعناها كلها في النوع الثالث من الخلق. رابعاً: البعث/الإحياء، ومنه إحياء الأموات من القبور، وهذا يحدث يوم القيامة، وفي النوع الرابع من الخلق، يدخل أرذل العمر لأن الإنسان يهرم ويذبل وربما يفقد عقله، وهو في ذلك يُعد كالميت أو كالجنين الذي لا يعقل، وكأنه عاد من جديد إلى أول الخلق، ولكن في صورة

الهرم وليس الصغر، أي صورة الانتهاء وليس الابتداء. لقد عبّرت واحدة من الآيات القرآنية عن ثلاث من هذه المراحل في آية واحدة في قوله تعالى: "قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً"{الكهف: 37}. نلاحظ أن المسار الأول: ونسميه الخلق الأول، وهو خلق آدم (عليه السلام) من تراب/طين، ومن ثم إحياءهما في الأرض. والمسار الثاني: ونسميه الخلق الثاني "من خلية/نطفة"، وهو مسار تناكح آدم (عليه السلام) وحواء وتناسلهم وتكاثرهم. لكل مسار من هذين المسارين سردية مختلفة من ناحية البناء البيولوجي الحيوي. فمسار الخلق من التراب/الطين هو مسار طبيعي تأسيسي خلقي يحظى بخصوصية إلهية، وأما مسار التناكح بين آدم (عليه السلام) وحواء فهو مسار إنشائي تكويني ثم تراكمي، ويحظى بالتزام معرفي عن طريقة الأداء الواجب نحو تحقيق الإنجاب، وقد عبر القرآن عن هذه العملية بقوله تعالى في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من الصلب والترائب (7)". والمسار الثالث: ونسميه الخلق الثالث، وهو مسار "الإنشاء/ التصوير" في رحم المرأة باعتبار أن نمو الأعضاء واكتمالها إنما هو خلق لهذه الأعضاء بصيغة النمو، وفيه مراحل متعددة. والمسار الرابع: نسميه الخلق الرابع، وهو "البعث/بعث الروح في الجسد"، وهو من المسارات التي تعتبر من خصوصية الإله، ويكاد يكون أصعب المسارات فهماً من ناحية تطبيقية، لأنه لم يقع بعد، وهو في علم الغيب، لكنه مذكور صراحة في القرآن الكريم في كثير من المواضع. نقول: إن كل تفاصيل أنواع الخلق يرجع أصلها إلى المادة وأنواعها في الطبيعة منذ لحظة خلق الكون، حيث تتعدد أنواع المادة بتنوع الهيولات؛ والهيولات من أصولها أجناس مختلفة. واختلف أصحاب الطبائع في هذا: فمنهم من زعم أن الأجسام في الأصل أربعة أجناس، فهي الأرض، والماء، والنار، والهواء، وسائر الأجسام مركبة منها. ومنهم من قال بجنس

خامس وهو الريح، وزعم أن الريح غير الهواء المتحرك [1]. هذا صحيح لكن العناصر التي تتكون منها الأجناس تسبق الأجسام، فعنصري الماء، وهما (الهيدروجين والأوكسجين) يسبقان الماء نفسه. وكذلك الحال مع بقية العناصر الموجودة في الطبيعة منذ لحظة خلق الكون. وعموماً، هذه الأجناس الأربعة هي التي شكلت هيئة آدم (عليه السلام) وهي المواد الأساسية في خلقه. أما بالنسبة للكائنات الأخرى فهي أيضاً مخلوقة من نفس المواد، ولكن في ظروف وعملية مختلفتين. ولذلك قيل في رواية أخرى، إن الأجسام المركبة نوعان: نام وغير نام. أما الذي ينمو ويزيد على مجرى العادة نوعان: حيوان ونبات. والنبات نوعان: نجم وشجر. والشجر ما نبت على ساق والنجم ما نبت على غير ساق. والحيوان نوعان: أحدهما محسوس لنا في العادة، والثاني: غير محسوس الآن لنا مع جواز رؤيتهم في الآخرة وفي بعض الأحوال. أما الحيوان المحسوس في العادة فأربعة أنواع: أحدها: حيوان ماش إما على رجل أو رجلين أو على أرجل. والثاني: حيوان يطير بجناحين أو أكثر. والثالث: حيوان يغوص في الماء. والرابع: حيوان يدب على بطنه كالحية والدود ونحوهما [2]. نقول: إن الآية التي عبرت عن هذه الأنواع من الكائنات الحية الحيوانية هي قوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}. على حين قال الرازي: إن أجسام هذا العالم إما بسائط وإما مركبات، أما البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار. والإنسان ينتفع بكل هذه الأربع. وأما المركبات فهي إما الآثار العلوية، وإما المعادن والنبات، وأما الحيوان والإنسان كالمستولي على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل

---

[1] أبو منصور التميمي البغدادي، تحقيق أحمد شمس الدين، أصول الدين، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، ص73.

[2] المصدر السابق، ص57.

أقسامها. تنقسم المخلوقات إلى أربعة أقسام إلى ما حصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة، وإلى ما يكون بالعكس وهم البهائم وإلى ما خلا عن القسمين وهو النبات والجمادات وإلى ما حصل النوعان فيه وهو الإنسان، ولا شك أن الإنسان بوصفه مستجمعاً للقوة العقلية القدسية المحضة، وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية [1]. نقول: إن المركبات والبسائط أصلها كلها (مادة) والمادة مخلوقة، وخالقها هو الله، وأصلها الله نور السماوات والأرض، والنور من توصيفاته لدينا أنه شرارة بوابة الجنة. إن أول مادة خلقت في الجنة هي النور (الضوء)، وأول من خلق من هذه المادة هم الملائكة. وثاني مادة خُلقت في الجنة هي (النار)، وأول من خلق بهذه النار هو الشيطان، فوضع الله نعيم الجنة ورغيدها، ووضع الشيطان فيها بالتزامن، فكان الشيطان مخلوقاً لهدفه وهو الوسوسة لبني آدم (عليهم السلام) في الجنة للتمتع بكل شيء يحل له وفق أوامر الله، وينتهي عما حرّم الله أن يقترب منه وفق أوامر الله. وثالث مادة خلقت هي (الهيدروجين والأوكسجين)، وأول ما تشكل من هذه المادة هو الماء. ورابع مادة خلقت بعد الهيدروجين والأوكسجين هي (التراب/الطين)، وأول ما خلق من (التراب/الطين) ويدخل فيه الماء هو المخلوقات الأرضية بأنواعها وأولها آدم (عليه السلام). نقول: إن الذي أشعل النار في الجنة، أي الشيطان، هو ذاته الذي دبَّر حدث خروج آدم (عليه السلام) من الجنة، وذلك من خلال الوسوسة ضمن عملية سوف نسميها عملية "خروج المارد اليائس"، ويتم ذلك من خلال الاشتعال الذي يتطلب ثلاثة عوامل تسمى (مثلث النار)، وهي وجود مادة وقود قابلة للاحتراق (كالخشب، الوقود أو الفحم) ومادة مُؤكسِدة

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص14، 15.

(كالأوكسجين من الهواء، ومُؤكسِدات أخرى) وحرارة عالية. نقول: إن المادة القابلة للاحتراق في الجنة هي الشجرة أو كل مادة قابلة للاشتعال، وتكون قابلة للاشتعال بسبب وجود مادة داخل جسد الإنسان تنسجم مع المادة القابلة للاشتعال (أي الشجرة)، وهذه المادة التي في جسد الإنسان هي الشيطان الداخلي (المارد اليائس) الذي يتكوّن من مادة النار، وأحد عناصر المادة المساعدة على الاشتعال هي الأوكسجين وهو متوفر في مادة النيتروجين الثالثة التي خلقت بعد النيتروجين.

الفصل الثاني

ماء الله وجنته تحت عرشه، وناره درك أسفل أرضي

ذكر في القرآن ثلاثة أنواع من الماء، وهذه الأنواع كلها في الأصل ماء واحد، وهو الذي استوى فوقه عرش الله، وهذا الماء هو الذي أحيا به الله السماوات والأرض وكافة المخلوقات بما فيها آدم (عليه السلام). إن الماء هو في الأصل مادة مكونة من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، ما يعني أن خلق الكون هو خلق مادي، لكن الذي يحول دون اعتبار الحياة مادية هو العملية الإحيائية ثم وجود الروح في الإنسان، ووجود الشريعة الإلهية التنظيمية للخالق الذي لا يتساوى مع المادة التي خلقها.

الآيات التي وردت فيها كلمة (ماء) في القرآن بحسب الأنواع الثلاثة للماء

الأول: ماء خلق وإحياء النوع البشري وهو أربعة أنواع:

أولاً: ماء خلق آدم وذريته:

الآية الأولى:

قال تعالى: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً" {الفرقان: 54}.

سنتناول بالشرح معنى كلمة "الماء" وكلمتي "نسباً وصهراً" في الآية. قال البيضاوي: الماء يعني الذي خمَّر به طينة آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتُبشر وتسلس وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة، أو النطفة. "فجعله نسباً وصهراً" أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكور يُنسب إليهم، وذوات صهر، أي إناثاً يُصاهر بهن كقوله تعالى: "فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى" [1]. وقال الشوكاني: ماء

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج19، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص527.

النطفة أي: خلق من ماء النطفة إنساناً، فجعله نسباً وصهراً، وقيل: المراد بالماء الماء المطلق الذي يُراد في قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" {الأنبياء: 30}[1]. وذكروا في هذا الماء قولين (أحدهما): أنه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان، وهو الذي عناه بقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء" (والثاني): أن المراد النطفة لقوله تعالى (خلق من ماء دافق)، (ومن ماء مهين)[2]. نميل إلى رأي البيضاوي باعتبار أن ذكر الماء جاء متوافقاً مع ذكر النوع وهم البشر، فلما كان أول البشر آدم (عليه السلام)، كان الماء جزءاً أصيلاً من خلق آدم (عليه السلام)، فيكون معنى الماء في الآية هو الماء الذي خلق منه آدم (عليه السلام)، ثم بعد ذلك تم تعيين نوع الماء فصار بعد ذلك يسمى ماء مهين أو ماء دافق، وهو الذي ينتج عن عملية النكاح بين الذكر والأنثى. أما قوله تعالى: "فجعله" أي فسيَّره إلى علاقة وهي النسب والصهر. بالتالي تسمى مادة خلق الإنسان الأولى خلقاً، فيكون الماء مخلوقاً باعتبار أنه أصل وليس فرع. وأما قوله تعالى: "فجعله نسباً وصهراً" فهي تعود على الماء، أي جعل من الماء نسلاً متوارثاً في الأجيال عبر التناكح، ومنه النسب والمصاهرة، والنسب أخص، والمصاهرة أعم. ولما جعل الله من الماء مادة لخلق البشر، فإنه وضع في قالب هذا النوع البشري شيئاً كثيراً من الماء، فجعل الإنسان لا يحيا إلا به، فكان الإنسان مخلوق من ماء، والماء أصل في تكوينه. وإن طباع الإنسان في برودة ودفء وحرارة دمه وجسده كلها تتعلق برابطته الحيوية مع الماء. فالماء هو الذي يجعل الإنسان مستأنساً غير متثاقل أو متشيطن إذا شربه، أو خلطه، أو اغتسل به، أو توضأ به، أو

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1045.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص101.

سبح فوقه، أو غاص فيه، أو شرب من فاعليته أو خيراته، على تعدد أشكاله وأنواعه وحالاته السائلة والصلبة والغازية.

الآية الثانية:

قال تعالى في سورة السجدة: "وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" (8).

قال الرازي [1]، وابن كثير [2]، والشوكاني الماء المهين هو النطفة [3]. وقيل: إن المني هو ماء الرجل، والسياق القرآني يفترض أن (الخلق) قد أتى بعد أن كان منياً ثم علقة [4]. نقول: إن الماء المهين المذكور في الآية هو المخصوص لذرية أو نسل آدم (عليه السلام). كما أن الماء يكون وصفاً لماء الشرب الذي هو موجود أصلاً في الطبيعة منذ خلق الكون، وهو أيضاً وصف للمني الذي يتكون في صلب الرجل، ويجب التمييز بينهما، فالماء هو المادة الأولى التي دخلت على التربة التي تحوّلت مع الوقت بفعل كثير من العوامل إلى طين ثم صلصال، وهو الماء الذي تكوّن منه آدم (عليه السلام)، ثم أصبح العنصر الذي وُجد في جسد آدم (عليه السلام) بعد أن سخّره الله لآدم (عليه السلام) ولبقية الكائنات الحية ومنها النباتات والزواحف والحيوانات فيما بعد. بعد ذلك صار الماء هو مني الرجل، وأصبح ماءً مشتركاً بين الذكر

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص174.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص360.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1149.

[4] معاذ بني جابر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015)، ص32.

والأنثى، والعملية الاستيلادية هي عملية تقوم على طرفي معادلة انبنائية بدءاً، ما يعني أن غياب أحدهما يعني غياب الآخر" [1].

الآية الثالثة:

قال تعالى في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خُلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من بين الصلب والترائب" (7).

نقول: إن الآيتين تشيران إلى الماء باعتبار أنه يحمل صفتين عندما ينغرس في رحم المرأة، فالصفة الأولى أنه مخلوق لأن الله طلب من الإنسان التأمل والنظر بصيغة السؤال في الآية: "فلينظر الإنسان مم خلق" {الطارق: 5}. أما الصفة الثانية فهي للماء حيث قيل إنه دافق في قوله تعالى: "خلق من ماء دافق". إن الدفق للماء (المني) لا يعني أنه يحدث بطريقة سهلة، وإنما يكون نتيجة جهد أو حركة سريعة خلال عملية النكاح ينتج عنها طاقة. قيل إن أحد التصورات عن التوالد أنه يأتي من الرأس: فهو يتكون في الدماغ، ثم ينزل عبر مخ النخاع إلى الأجزاء السفلى من الجسد. وذلك هو، حسب المبدأ العام للتصور الفيثاغوري: ففيه، كان المني يعتبر "نطفة من المخيخ تحوي في ذاتها بخاراً ساخناً"؛ ومن هذه الشذرة من المادة المخية يتكون بعد ذلك مجموع الجسد بـ "العروق، واللحم، والعظام، والشعر"؛ ومن النفس الحار الذي تحتويه هذه الشذرة قد تتكون نفس الجنين والإحساس [2]. كما يقصد "بالماء الدافق" ذلك الماء الذي خلقت منه ذرية أو نسل آدم (عليه السلام) حتى يومنا هذا، فيكون معنى الدفق دالاً على استمرارية النكاح عند النوع البشري، واستمرارية التناسل والتعدد في الذرية. فيكون "ماء دافق" يعني "ماء مستمر في العطاء". كما أن الآيتين تفهمان بشكل مترابط ومتسلسل، فأولها الدعوة الإلهية للإنسان بهدف

---

[1] المصدر السابق، ص32.

[2] ميشال فوكو، ترجمة محمد هشام، تاريخ الجنسانية، استعمال المتع، الجزء الثاني، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2004)، ص126، 127.

النظر في طبيعة مادة الخلق الخاصة بالذرية أو النسل، وليس في مادة خلق آدم (عليه السلام) من ماء وتراب، وذلك في قوله تعالى: "مم خلق"، وهو استفهام، أي: من أي شيء خلق الإنسان وليس آدم (عليه السلام)؟ أي الماء المهين المتكون في جسد الذكر نتيجة النظام الغذائي الذي يتبعه، لأن الله تعالى قال صراحة "خلق من ماء دافق" وقد ذكر في سورة عبس قوله تعالى: "من أي شيء خلقه (18) من نطفة خلقه فقدره" (19). وبالتالي فإنه لم يقصد ماء آدم (عليه السلام)، لأن ماء آدم (عليه السلام) الذي تكون فيه عندما اختلط مع التراب كان ماءاً طبيعياً خالصاً وليس منياً، قال الفراء والأخفش: "من ماء دافق" أي: مصبوب في الرحم. ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما. وعن عكرمة عن ابن عباس: "دافق": بمعنى لزج [1]. وقيل: المعنى: فلينظر نظر التفكر، والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته، ثم بيّن سبحانه وتعالى ذلك فقال: "خلق من ماء دافق" والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والماء: هو المني [2]. وقال الزمخشري: إنه لم يقل ماءين لامتزاجها في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه [3]. أي أن الماء الدافق هو القادم من صلب الرجل، وهو منبع القوة، أي الحيوانات المنوية أو ما يعرف بالنطف، والرحم منبع استقبال ماء الرجل، ومنبع غرس أو زراعة واستقرار البويضة نفسها. عندما يتم إنتاج البويضة المخصبة من أحد المبيضين أو كلاهما تنزل عبر قناة فالوب نحو الرحم لكي تنتظر دخول الماء. تدخل الحيوانات المنوية

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص206.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1608.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج30، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1194.

بعدد كبير متجهة نحو الرحم بكميات هائلة، فالحيوان المنوي الأقوى والسليم يتجه بسرعة لكي ينغرس داخل البويضة. عندما ينغرس هذا الحيوان المنوي داخل البويضة تقوم البويضة بتشكيل غلاف عازل حولها لمنع دخول حيوان منوي آخر. فتبدأ هنا رحلة انقسام البويضة لتشكيل أولى الخلايا المكونة للجنين، في عملية تسمى بعملية الانقسام المنصّف بحيث تنقسم الخلية الأولى والتي تسمى البويضة المخصبة أو اللاقحة الزيجوت (Zygote) أو البيضة المُلقحَة لتعطي خليتان متشابهتان في جميع الخصائص، ثم تنقسم الخليتان إلى أربعة ثم الأربعة إلى ثمانية، وهكذا بشكل تدريجي لكي يتم تشكيل أعضاء الطفل أو الجنين. وبصورة تدريجية يتكون النسيج ثم الأعضاء التي تكون الأجهزة وتجتمع هذه الأجهزة معاً لتشكيل الجنين الكامل. على حين قال الرازي: الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وقال آخرون إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، واحتج صاحب القول الثاني على مذهبه بوجهين: (الأول): أن ماء الرجل خارج من الصلب فقط، وماء المرأة خارج من الترائب فقط، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب، وذلك على خلاف الآية. (الثاني): أنه تعالى بيّن أن الإنسان مخلوق "من ماء دافق" والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج، يعني هذا الدافق من بين الصلب والترائب، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط (أجاب) القائلون بالقول الأول عن الحجة الأولى: أنه يجوز أن يقال للشيئين المتباينين أنه يخرج من بين هذين خير كثير، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، فحسن هذا اللفظ هناك، وأجابوا عن الحجة الثانية: بأن هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل، فلما كان أحد قسمي المني دافقاً أطلق هذا الاسم على المجموع، ثم قالوا: والذي يدل على أن الولد مخلوق من مجموع الماءين أن مني الرجل وحده صغير فلا يكفي، ولأنه روى أنه (عليه

السلام) قال: "إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبهه إليه وإلى أقاربه، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلى أقاربها يعود الشبه" وذلك يقتضي صحة القول الأول [1].

الآية الرابعة:

قال تعالى: الآيات من سورة القيامة: "أيحسب الإنسان أن يترك سدى (36) ألم يك نطفة من مني يُمنى (37) ثم كان علقة فخلق فسوى (38) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى" (39).

قيل: الجملة في قوله "ألم يك نطفة من مني يُمنى مستأنفة: أي ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يُراق في الرحم، وسُمي المني منياً لإراقته، والنطفة: الماء القليل، يقال نطف الماء إذا قطر [2]. وقال ابن كثير: هي نطفة ضعيفة من ماء مهين [3]. نقول: إن المقصود بالنطفة في الآية هو نطفة الإنسان أو النوع البشري بشكل عام، وهم جميعاً من ذرية آدم (عليه السلام). كما أن النطفة أخص من المني، والنطفة هي أول الماء، وعلى وجه الدقة، النطفة هي أول الذرات التي يتكون منها الماء، وهما ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وندرك أن الرجل يطلق ما يقارب عشرات الملايين من الحيوانات المنوية في كل عملية قذف، لكن بويضة المرأة داخل الرحم تحتاج إلى حيوان منوي واحد لتخصيبها، ولذلك نرى بأن هذا الحيوان المنوي يتكون من الماء الذي فيه ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، ويحتوي أيضاً على خلايا حيوانات وبلازما منوية، ويتكون من مواد غذائية وهرمونات تفرزها

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج31، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص130.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1561.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص283.

الغدد الجنسية، وهذا كله ينعكس على تكون الجنين، فالجنين المعافى تماماً يكون قد تخصّب من حيوان منوي فيه ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين وهرمونات سليمة ونظام غذائي صحي، وإن أي اختلال في نسبة الذرات المئوية أو الهرمونات أو طبيعة النظام الغذائي يؤدي إلى اعتلال الجنين. واحداً من أكثر الاكتشافات الجينية إثارة للاهتمام والجدل والخلاف الحاد هو إعلان دين هامر (Dean Hamer) في عام 1993 أنه عثر على جين موجود بالكروموسوم إكس له تأثير عظيم في الميل الجنسي، أو كما أسرعت وسائل الإعلام بتسميته (جين المثلية الجنسية). كانت دراسة هامر واحدة من عدة دراسات نشرت في وقت واحد تقريباً وكلها تشير إلى نتيجة مفادها أن المثلية الجنسية مسألة (بيولوجية)، وليست نتاجاً للضغوط الثقافية أو الاختيار الواعي [1]. في ذات السياق نشير إلى إحدى الدراسات العلمية التي أثبت من خلالها باحثون في جامعة دورهام (Durham University) في شمال شرق بريطانيا، أن نتائج الدراسة التي أجروها كانت أول دليل مباشر على أن الأطفال يتفاعلون بشكل مختلف مع الروائح والأذواق المتعددة قبل ولادتهم، وهو الأمر الذي يظهر على وجوههم بوضوح. وقام فريق من العلماء بدرس نتائج التصوير الشعاعي الرباعي الأبعاد لـمائة امرأة حامل واكتشفوا أن وجوه الأطفال الذين تذوقوا نكهة الجزر بدت إشارات "ضاحكة" على وجوههم. أما الذين تذوقوا نكهة الكرنب الأجعد، فبرزت على وجوههم إشارات البكاء والانزعاج [2]. نشير هنا إلى السائل السلي (Amonitic Fluid) الذي يُحضّر بشكل خاص للطفل كي يسهل استعمال الأعضاء فيما بعد الولادة. ويقوم الطفل بنوع من التمرينات في هذا السائل للتهيؤ للعالم الخارجي

---

[1] مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص131.

[2] https://www.durham.ac.uk/research/current/research-news/fetuses-/react-to-taste-and-smell-in-the-womb

والتكيف له، فيشرب هذا السائل بشكل منتظم، وهكذا يتعود لسانه على تذوق المالح والمر والحلو والحامض [1].
يفسر أرسطو المني على أنه المنتوج المتخلف عن الغذاء. منتوج نهائي مكثف في كميات صغيرة، ونافع كما هو شأن مبادئ النمو التي تستخلصها العضوية الحية من الغذاء. وبالفعل، فإن التبلور النهائي، بالنسبة لأرسطو، لما تقدمه التغذية إلى الجسد يوفر مادة ينسحب طرف منها على كل أجزاء الجسد ليجعلها تنمو بكيفية غير محسوسة كل يوم، فيما ينتظر الطرف الآخر إخراجاً سيمكنه، حالما يستقر في رحم المرأة، من تكوين الجنين [2]. نقول: الدفق يكون للنطفة والتكوين يكون للعلقة، ولذلك جاء ذكر النطفة قبل العلقة، كدليل على الترتيب، لأن النطفة تسبق العلقة. إن دفق النطفة هو دفق غذائي عادي من جهة أو دفق غذائي عضوي بيولوجي من جهة أخرى. ويذكر هنا أن النطفة أو (السائل المنوي) سائل معقد يحتوي على مواد عديدة معقدة مثل: الفركتوز، والفسفورنكلولين، والأركوفيفوئين، وحامض الأسكوربيك، والفلادينات، والبروستاغلانات، وحامض الستريك، والكولسترول، والفوسفولبيرات، والفيبرونوليزين، والقصدير، والفوسفات، والهيالوردنيداز [3].

تنتج النطفة بعد نضوجها نتيجة تفاعل طويل الأمد لكل إنسان مع شهواته ورغباته تجاه نوعية الطعام الذي يقرر تناوله، مع الأخذ بعين الاعتبار سلسلته الوراثية التي تلعب دوراً أساسياً في عملية إدارة النطفة. ولهذا السبب فإن "كل شيء حي نشأ من بعض المعلومات الوراثية الأبوية. إن هذه الصيغة تحدد الأبوة بطريقة تصل حتى الآليات الحيوية للوراثة، وتسمح لنا بتطبيقها على كائنات كالبكتيريا،

---

[1] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص134.
[2] ميشال فوكو، ترجمة محمد هشام، تاريخ الجنسانية، استعمال المتع، الجزء الثاني، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2004)، ص128.
[3] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص38، 39.

التي لا تتناسل بالطريقة التي نفعل" [1]. أما العلقة فهي للتكوين، ولذلك جاءت كلمة "علقة" في الآية متبوعة بقوله تعالى: "فخلق فسوى"، أي أن الخلق يبدأ من العلقة وليس من النطفة، فليس كل النطف صالحة لبدء علقة الإنسان. نلاحظ هنا قوله تعالى: "خلق الإنسان من علق" {العلق: 2}. هذا التعبير القرآني يتضمن أن القدرة الإلهية هي المسيطرة على حركة الكون بقانون عِلّي تكون فيه العلقة، وهي أصغر الأشياء وأقلها قيمة سبباً للإنسان وهو أعظم الكائنات وأرفعها، وهكذا الأمر فيما يحدث في الكون من أصغر عناصره إلى أعظمها [2]. نقول: إن العلقة أو خلق الإنسان من علق هو فعل تقديري يتعلق بالظرف والزمن، فهو لما قال تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي" {الحجر: 29} في إشارة لآدم (عليه السلام) كان يقصد أن التسوية زمن والنفخ لحظة من الزمن. ولأن آدم (عليه السلام) لم يُخلق من نطفة، فقد كانت التسوية هي المعادل الموضوعي للعلقة. فكان الخلق واقعاً بين التسوية والعلقة. لذلك قيل "بين الخلق والتسوية توجد أداة "إذا" في الآية وهي ظرف لما يستقبل من الزمن" [3].

الآية الخامسة:

قال تعالى: "ألم نخلقكم من ماء مهين" {المرسلات: 20}.

يقصد بالماء المهين في الآية هو الماء الذي نسلت منه ذرية آدم (عليه السلام). قال الشوكاني: ماء ضعيف حقير، وهو النطفة [4]. وقال

---

[1] نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص245.

[2] د. عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط2، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993)، ص40.

[3] محمد شحرور، الكتاب والقرآن، (دمشق، الأهالي للنشر والتوزيع)، ص281.

[4] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1561.

البيضاوي: من نطفة مذِرة ذليلة [1]. نقول: إن تحقير النطفة التي هي أول المني بإطلاق توصيف "ماء ضعيف حقير" أو "نطفة مذرة ذليلة" كما أورد الشوكاني والبيضاوي هو في غير محله وهو إساءة لأصل الخلق، وبالتالي إساءة للخالق، لأن فيه إنكار أو انتقاص من أهمية التناكح والتناسل في الإسلام. بشكل تفصيلي، إذا كانت النطفة مكونة من الماء (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين)، وخلايا حيوانات وبلازما منوية، ومواد غذائية وهرمونات تفرزها الغدد الجنسية فإن تحقيرها وتذليلها هو تحقير وتذليل للمادة، أي مادتي الهيدروجين والأوكسجين، وهو تحقير أو تذليل للغذاء أو لأصل الشهوة في الإنسان، ومنها الشهوة الجنسية، علماً بأن شهوة الإنسان الجنسية لها مساراتها الأخلاقية الشرعية، لأن الإنسان يتميز بالإدراك الغريزي عن بقية المخلوقات، ولذلك فإن هذا التحقير والتذليل يطال أيضاً المسارات الأخلاقية الشرعية للشهوة وهو غير جائز، لأن معنى ماء مهين أي ماء سهل قليل ضعيف ولكن ليس حقيراً أو ذليلاً كما قيل. أما البهائم فشهوتها الغريزية غير منضبطة. ولهذا السبب روى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال: ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار [2]. وقيل إن تمتع الحيوان يكاد ينحصر في شهوته التناسلية ولا يتخطاها. أما تمتع الإنسان يتخطاه إلى تمتعات عديدة لا تكاد تحصى، وكلها تحبب بالحياة وترغب في استمرار النوع ونموه وتفوقه على سائر الأنواع [3]. إذا فهمنا إضعاف وتذليل وتحقير المادة في الآية، سوف نفهم علاقة ذلك بالحياة الطبية والأدوية وأبرزها المواد الكيميائية التي يتم تصنيعها من المواد الطبيعية. على سبيل المثال سوف نلاحظ كيف يعمل دواء مثل: سيبروتيرون أسيتات

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج29، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص484.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج1، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص110.

[3] نقولا حداد، ذكر وأنثى خلقهم، أو مرشد الشبيبة، (القاهرة: المطبعة العصرية)، ص12،

(Cyproterone acetate) اختصاراً (CPA)، المعروف أيضاً باسم أندروكور (Androcur) الذي يعالج كافة المسائل الخاصة بالنسل والجنس والهرمونات الذكورية والأنثوية والشذوذ الجنسي ورمزه الكيميائي يشير إلى أنه يتكون من 24 ذرة كربون C و29 ذرة هيدروجين H وذرة كلور CL و4 ذرات أكسجين O، ومن هنا نفهم سبب ارتفاع نسبة الهيدروجين في الدواء لأنه ينظم عملية الغذاء، وبالتالي ينظم النشاط الجنسي، لأن النشاط الجنسي عند الإنسان مرتبط بالمخ، وهو بذلك ينظم عملية التفكير عند الإنسان، فيعالج الاعتلال عند البشر وفي سلاسلهم الوراثية بشكل عام. لهذا السبب ذكر داروين في الباب الثاني من كتابه أصل الأنواع بعنوان "التمايز في الطبيعة" أن هناك "ما يُسمى الشواذ في الخلقة"، ومعناه الانحراف الكبير في التركيب، الذي يكون على وجه العموم ضاراً، أو غير مفيد للنوع [1]. يقصد داروين الكائنات الحية غير الإنسان، لأن النباتات والحيوانات في الطبيعة -وهو مجال بحث داروين الأساسي- هي التي تنعكس في نشاطها الدنيوي على حياة الإنسان. بالتالي فإن الشذوذ في خلقة الكائنات الحية يقصد به الشذوذ في الخلايا الأساسية أو على نحو دقيق، خلل في الخلية الأولى الصغيرة، أو في السائل اللزج داخل الخلية الذي يُسمى البروتوبلازما (Protoplasm) الذي يسبح داخل النواة، وذلك يكون ناتجاً عن خلل في الوظائف الحيوية وطريقة التفاعل مع الحرارة الأرضية والماء وكل ما من شأنه أن ينبت النبات، وهذا كله ناتج عن خلل في سعي البشر وفسادهم في الأرض، وأقل خلل في موضوع الفساد في الأرض مثلاً: سقاية النباتات بمياه غير صالحة للري وهو ما يؤثر على السائل اللزج المسمى "بروتوبلازما"، ويمكن أن ينتقل الخلل إلى الألياف والأوعية والأنسجة (كالنسيج الخلوي والليفي والوعائي)، وهذا الخلل في الطبيعة ناتج عن فساد الإنسان فيها، وفساد

---

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص110.

الإنسان ناتج عن خلل في طريقة تفكيره وإدارته لذاته في الطبيعة ولما هو حوله أو يحيط به. لذلك فإن "كل الكائنات متساوية في أنها غير مثالية كما يجب أن تكون بالنسبة إلى الظروف المحيطة بها" [1]. على سبيل المثال، مما ذكره داروين في كتابه أصل الأنواع أنه "عندما سأل بعض العاملين في المزارع في ولاية فرجينيا كيف تأتي أن جميع خنازيرهم سوداء اللون، فإنهم أخبروه بأن الخنازير قد أكلت من جذور نبات الصبغة (نبات الصابوغ) الذي تسبب في اكتساب عظامهم اللون الأحمر الوردي كما تسبب في تساقط حوافر جميع الخنازير فيما عدا الضروب السوداء منها" [2]. نقول: إن حياة النباتات تنعكس على حياة الحيوانات، وبالتالي على حياة الإنسان. لذلك فإن أي خلل في السائل اللزج داخل نواة النبات، سببه الأصلي طريقة تفكير الإنسان. لذلك سوف يعود الخلل أو الضرر الذي يلحق بالنبات أو ينتجه النبات على الحيوانات وعلى الطبيعة نفسها، وبالتالي على عقل الإنسان الذي لن يستطيع تناول طعامه من النباتات أو الحيوانات، ولن يتمكن من التمتع في الطبيعة، وهذا كله يعود إلى عدم قدرة الإنسان على إدارة عقله في كيفية رعاية النباتات والحيوانات، وبالتالي رعاية ما حوله في الطبيعة. وهذا يعني أن عقل الإنسان الأول، أي عقل آدم (عليه السلام) لم يكن عقلاً شاذاً ولم يكن تفكيره شاذاً لأنه خلق في أحسن تقويم، ولأن الطبيعة لم يكن فيها أي فساد أو إفساد، حيث لم يبدأ وقتها الإنسان في تعمير الأرض، ولم يكن هناك بشر غير آدم (عليه السلام) وذريته الأولى، لكن تراكم الفساد الذي نتج عن التعمير التراكمي العشوائي، وأفعال ذريته اللاحقة، هو الذي أدى إلى حالة تدمير طبائع العقل البشري والطبيعة معاً. رغم كل ما سبق، وحرصاً على العدالة والمنطق في التفكير نقول: إن الذي يجعل هذا التحقير والتذليل للماء

---

[1] المصدر السابق، ص336.

[2] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص68، 69.

المهين غير عادل هو الروح التي ينفخها الله في الإنسان عند لحظة خلقه، والروح غير ممكنة بدون الأوكسجين والنيتروجين، والأوكسجين من الماء، والماء أصل في خلق الكون وفي بقاء كل الكائنات حية لقوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30} والنيتروجين مادة مخلوقة قبل خلق عناصر الماء، وعندما نقول إن الروح غير ممكنة بدون الأوكسجين، فذلك يعني أننا نجيب بشكل جزئي عن معنى الروح بشكل علمي، من خلال إثبات مادة إحيائها، وذلك إجابة على السؤال القرآني: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً"{الإسراء: 85}. ونقول: إن الروح عندما تنفخ في جسد الإنسان يكون نفخها في العقل داخل المضغة والتي تكون قطعة من اللحم، وبها تكون ثم تتكون بذرة العقل الأولى، وهذه البذرة هي منبع الروح. في هذه المسألة قال عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين عن الجوهر في الأجنة "لا أحد يبدأ حياته برأس: الحيوان المنوي والبويضة يجتمعان لإنشاء خلية مفردة. وبين لحظة الإخصاب والأسبوع الثالث الذي يليها، نتحول من خلية واحدة إلى كرة من الخلايا، ثم إلى مجموعة من الخلايا تشبه الطبق الطائر (Frisbee)، ثم إلى شيء يبدو كأنبوب بشكل غريب يتضمن أنواعاً مختلفة من الأنسجة. بين اليومين الثالث والعشرين والثامن والعشرين بعد الإخصاب، يغلظ الطرف الأمامي من الأنبوب وينطوي على الجسد، بحيث يبدو الجنين ككرة كبيرة. تحمل قاعدة هذه الكرة أساس كثير من التنظيم الأساسي لرأسنا. تظهر أربع انتفاخات صغيرة حول المنطقة، التي ستتطور لتصبح الحنجرة. وبعد عمر ثلاثة أسابيع تقريباً، يمكننا أن نرى أول اثنين، ثم يظهر الاثنان الآخران بعد أربعة أيام تقريباً. كل انتفاخ يبدو كأنه حدبة صغيرة للخارج، انتفاخ بسيط ينفصل عن التالي بأخدود صغير. عندما تتبع ما يحدث لهذه الانتفاخات، والأخاديد، يمكن أن تبدأ بمشاهدة نظام

الرأس وجماله، بما في ذلك العصب ثلاثي التوائم، والعصب الوجهي. ومن بين الخلايا الموجودة ضمن كل واحدة من هذه الانتفاخات، المعروفة بالأقواس، سيشكل بعضها أنسجة العظم، وأخرى العضلات، والأوعية الدموية [1]. وبالنسبة لغوتة فإن الرأس ينشأ من فقرات تلتحم، وتنمو على شكل حجرة؛ لتحمل أدمغتنا وأعضاءنا الحسية. لقد كانت هذه فكرة ثورية؛ لأنها وصلت بين الرؤوس والأجسام بوصفهما نسختين من المخطط الأساسي ذاته [2]. نقول: حتى نفهم العقل والروح لا بد أن نفهم القرآن، والقرآن ليس مادياً، ولكنه ينطق بلسان حال المادة، وهو أقدم وأعلى منها، ولذلك نجزم بأن اللوح المحفوظ يقع فوق المادة، وهو موجود قبل خلقها، ولأن القرآن في اللوح المحفوظ وهو أمر الله وكلامه، فإن أمر الله وكلامه أقدم من المادة، ولأن صفة علو شأن القرآن من شأن علو الله وصفته الأولى وهي "الخالق". ونقول: إن اللوح المحفوظ هو العقل والروح العلويتين في أسمى تجلي نبوي علمائي لهما، وإن العقل والروح هما أمر الله الذي لا يماثلهما شيء ولا يُعرف عن طريقة خلقهما الأولى شيء، وخاصة مادة الروح. قال الجرجاني: اللوح "هو الكتاب المبين والنفس الكلية". وقال أيضاً "إن الألواح أربعة: لوح القضاء السابق على المحو والإثبات، وهو لوح العقل الأول، ولوح القدر: أي لوح النفس الناطقة الكلية التي يفصل فيها كليات اللوح الأول ويتعلق بأسبابها، وهو المسمى اللوح المحفوظ، ولوح النفس الجزئية السماوية التي ينتقش فيها كل ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره، وهو المسمى بالسماء الدنيا، وهو بمثابة خيال العالم، كما أن الأول بمثابة روحه، والثاني بمثابة قلبه، ولوح الهيولي القابل للصور في عالم الشهادة [3]. **نسأل هنا:**

---

[1] نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص126، 127.

[2] المصدر السابق، ص129.

[3] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، معجم التعريفات، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص162.

إذا كان الهيدروجين هو من ذرات العناصر المكونة للماء، فهل لذلك علاقة بالروح؟

نقول: إن الهيدروجين يدخل في تكوين الماء، وفي تكوين الشمس بالإضافة إلى الهيليوم، وهو من أبرز عناصر الغلاف الهوائي الخارجي وليس الأرضي، ومع ذلك فإن نسبة هيدروجين الماء أكبر من نسبة هيدروجين الشمس؛ لأن الماء موجود قبل خلق الكون، وبالتالي قبل وجود الشمس، وقبل وجوده في الأرض وفي الغلاف الأرضي وفي الفضاء الخارجي وهذه حقيقة. إذا كان الهيدروجين يدخل في تكوين الماء، والماء هو الأساس في خلق الكائنات الحية ومنها آدم (عليه السلام) بالتالي فإن للهيدروجين علاقة بالروح عبر الماء.

ثانياً: ماء إحياء الإنسان

الآية الأولى:

قال تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16}.

قيل في معنى قوله تعالى: "لأسقيناهم ماءً غدقاً" أي لوسعنا عليهم الرزق، وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر؛ لأنه أصل المعاش والسعة [1]. وقال مقاتل: ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعاً لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر [2]. نقول: الماء الغدق هو ماء من السماء، وإن هذه الآية تدل على وجود

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج29، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص456.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1571.

نوعين من الماء، وهما الماء الطبيعي الذي يشربه الإنسان، والماء الذي يتحول إلى مادة أخرى ويُستخدم في إنتاج السلاح النووي. إذا فهمنا ذلك سوف ندرك الربط الإلهي بين الاستقامة والماء، كدليل موضوعي على تكافئ هذا الربط مع مسألة أخرى وهي العمل الصالح مع الشر أو الخير لقوله تعالى في سورة الزلزلة: "فمن يعمل ذرة خير يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (8). نقول إن الذرة هي من الجذر اللغوي (ذرر) ومنه الذرية، والجسيمات تتكون منها الذرة وهي البروتونات والإلكترونات والنيترونات، وهي على ثلاثة أقسام رئيسية (اللبتونات والكواركات والبوزونات). والنيوترونات جسيم تحت ذري، وهي تعمل على انشطار أنوية اليورانيوم أو البلوتونيوم فتتولد طاقة حرارية، والانشطار النووي يعتبر عملية انقسام لنواة ذرة ثقيلة إلى قسمين أو أكثر. بالتالي فإن النيوترونات كجسيم أصغر من الذرة وتصنف على أنها ذرية، تستخدم في تخصيب اليورانيوم في صنع القنابل النووية. في عام 1938م تمكن عالم كيمياوي ألماني هو أوتو هان (Otto Hahn) أن يشطر ذرة اليورانيوم بقذف النواة بنترون حيادي يستطيع أن يمر دون أن يتأثر بالإلكترون السلبى أو البروتون الإيجابي، وعند صدمه لقلب النواة اختل التوازن فتحولت الذرة إلى مادة جديدة، فبعد أن كانت يورانيوم أصبحت مادتين جديدتين مختلفتين تماماً بخواصهما هما الباريوم والكريبتون [1]. بمعنى آخر فإن الذي يستقيم أو يكون صراطه مستقيماً تماشياً مع قوله تعالى في الآية محل الشرح: "لو استقاموا على الطريقة". أو كما في قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" {الفاتحة: 6} فإنه سوف يسقى ماءً غدقاً، وإن الذي لا يستقيم في حياته ومنها أفعاله وأقواله وكذا التزامه بالمنهاج الشرعي الإسلامي، فإنه سوف يحاسب محاسبة أصغر من الوحدة الذرية، وهي النيوترونات كجسيم تحت ذري، أي سيحاسب

---

[1] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص111.

محاسبة نيوترونية وفق أفعاله وأقواله، وهذا هو الحساب الإلهي للإنسان تثبيتاً لقوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خير يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (8). **نسأل هنا: ما علاقة الماء بالذرة والعناصر المكونة لها أو الجسيمات التي هي أصغر منها؟**

علاقة الماء بالذرة والعناصر المكونة لها

نقول: إن الماء الثقيل يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين يسمى ديوتيريوم (Deuterium) ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي، علماً بأن الماء العادي يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين. وتبلغ كتلة ذرة الديوتيريوم حوالي ضعف كتلة ذرة الهيدروجين العادي. ولهذا السبب تختلف خواص الماء العادي عن خواص الماء الثقيل، لكنه في النهاية ذات الماء وذات العناصر مع اختلاف مقاديرها وطريقة استخدامها، ما يعني أن الماء ذاته الموجود قبل خلق الكون وعناصره المكونة له هي ذاتها المعيار الإلهي في الحساب والعقاب.

من خواص الماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين ويسمى ديوتيريوم (Deuterium) أنه لا تنبت فيه البذور ولا تعيش فيه الحيوانات، وهذا عكس إرادة الله في خلق الكون، وعكس فكرة الإحياء الوارد ذكرها في القرآن، وعكس رحمة الله بعباده، وعكس فكرة العيش التي أوجدها الله في الإنسان مع الأخذ بعين الاعتبار الفتنة التي بسببها نزل آدم (عليه السلام) إلى الأرض، وهي شهوة الغذاء، ما يعني أن كل إنسان غير موحد بالله وغير ملتزم بأحكام الشريعة التي أنزلها الله في القرآن هو إنسان لا يقر بقوة وإرادة الله وبالمادة التي خلقها، وبالروح التي أوجدها في المخلوقات ومنها روح آدم (عليه السلام)، وهو إنسان معارض لما يتحتم عليه فعله في الأرض لإبقائها حية وإنهاء الفساد فيها لقوله تعالى: "ثم جعلناكم

خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" {يونس: 14}.
هذا يعني أن صناعة النووي أو النار التي توقد بفعل تمكين الله للإنسان من العلم هي أولاً وأخيراً نار إلهية، وإنه كلما زاد فعل الخير والإصلاح في الكرة الأرضية كلما قلت الحاجة إلى استخدام هذه النار، وكذلك قلت الحاجة للمفاعلات النووية التي تزهق أرواح البشر. لذلك نرى أن كل إنسان ملتزم بالشرائع الدينية الأخلاقية يهدف في حياته للحفاظ على الطبيعة في الكرة الأرضية باعتبار أن ذلك يشكل حماية الإنسان فيها، والكرة الأرضية بالمعنى السيناوي (نسبة إلى ابن سينا) تعتبر جسماً مثل الشمس والقمر والنجوم وباقي الأجسام في الكون الواسع. يقول ابن سينا: إن هذه الأجسام عظيمة ولها قوة، وكلما كانت أعظم صارت قوتها أشد، وكانت أفعل وزمانها أقصر، فيجب من ذلك أن يكون فعل غير متناهي لا في زمان، وقد فرض في زمان" [1]. ما يقصده ابن سينا هو أن فاعلية الأرض بما فيها من نشاط حيوي مستمر وضاغط، وما يصدر عن هذا الكوكب من انبعاثات كله يجعل من زمان هذا الجسم الكبير أقصر، ويُعرضه للخطر. لذلك، كلما قل النشاط الصناعي والبشري زادت فرصة تحسين الحياة وإطالة عمر الكرة الأرضية. في سياق متصل، يعتقد بعض العلماء أن التوسع الحالي للكون آخذ في "الانكباح". عندما ينكبح التمدد سيأتي يوم خلال مليارات السنين تصل فيه حركة الهروب إلى التوقف ثم تنقلب بعدئذ في الاتجاه المعاكس. خلال عملية الانكماش سوف تتزايد باستمرار سرعة الكتل المندفعة باتجاه بعضها البعض. وأخيراً سترتطم كل هذه المجرات التي لا حصر لعددها والتي تتألف كل واحدة منها من مائة مليار أو أكثر من الشموس التي تحتوي كل واحدة منها على ملايين وملايين الكائنات الحية بأشكال حياتية لا حصر لعددها، سترتطم

[1] أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، تحقيق سعيد زايد، الشفاء، الطبيعيات، السماع الطبيعي (قم المقدسة: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1984)، ص224.

جميعها مع بعضها البعض وتنصهر مجتمعة في أتون اصطدام هائل. عندئذ سيتحطم الكون بكامله بانفجار هائل لا مثيل له. لكن هذا الانفجار سيكون ثانية بعد عدة مليارات من السنين بداية جديدة [1].

بالعودة إلى نشاط وتأثير المفاعلات النووية، يستوجب ذكر الفتوى التي أصدرها المرشد الأعلى في إيران السيد علي خامنئي عام 2003 وأُعيد التأكيد عليها في عام 2005، وذلك خلال مسار إيران في السعي للحصول على سلاح نووي. تفيد هذه الفتوى بضرورة حظر استخدام سلاح الدمار الشامل في ظل الإسلام. وقد نشرت هذه الفتوى على موقعه الرسمي باللغات العديدة، وتبين معارضته لصناعة الأسلحة النووية من الناحية القانونية والأخلاقية والدينية والإسلامية [2]. نقول: إن فتوى خامنئي كانت سياسية في جانب منها، وهي تتعلق بالظروف التي تمر بها الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالدرجة الأولى ثم إنها رأي شخصي نابع من الرابطة الدينية الأخلاقية والعاطفية مع الدين والمحيط الإسلامي، لكن الفتوى لم تأت على ذكر التبريرات أو البرهان الشرعي والحجج الفقهية حول ضرورة عدم استخدام السلاح النووي أو جدوى استخدامه كأداة إعداد أو قتال أو جهاد في الإسلام. لذلك فإن تفاصيل مادة هذا الكتاب تعتبر السند الشرعي والفقهي والأخلاقي الإسلامي الدال على حُرمة استخدام الأسلحة النووية. في هذا السياق، سوف أتحدث عن مسألتين تخصان معاني الجهاد والقتال في الإسلام والضوابط والمواقيت والضرورات التي تجيز استخدام السلاح ضد الأعداء كما يلي:

المسألة الأولى: تعدد أدوات وأنواع السلاح المستخدم للجهاد أو القتال في التاريخ.

---

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص34.

2 https://web.archive.org/web/20170815101448/http://farsi.khamenei.ir/treatise-content?id=228

المسألة الثانية: الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور قرآني.

تعدد أنواع السلاح في الجهاد/القتال في التاريخ

المسألة الأولى: تعدد أدوات وأنواع السلاح المستخدم للجهاد أو القتال في التاريخ

السلاح قديماً يختلف عن السلاح حديثاً وهو على ثلاثة أنواع في التاريخ:

الأول: السلاح الأبيض قديماً (ويشمل السكاكين والخناجر والسيوف والرماح وغيرها).

الثاني: السلاح الناري حديثاً (ويشمل البنادق والسلاح البيولوجي والكيميائي).

الثالث: سلاح الفناء (وهو السلاح النووي في أقصى حالات تطوره وانتشاره في الكرة الأرضية).

لن نشرح التفاصيل والفرق بين أنواع الأسلحة، لأن هذه مسألة اختصاصية عسكرية وتتطلب بحثاً منفصلاً، لكننا سوف نخصص الشرح للمسألة الثانية باعتبارها أكثر أهمية واتساقاً مع محتوى الكتاب.

الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور قرآني

المسألة الثانية: الفرق بين الجهاد والقتال والعنف في منظور قرآني.

نقول: إن أهم رأي نتفق معه وينسجم مع محتوى كتابنا في موضوع سؤال العنف والجهاد هو رأي الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن في كتابه النوعي "سؤال العنف- بين الائتمانية والحوارية" لكن لدي

ملاحظة ابتدائية وهي أنه ذكر في بداية كتابه الآيات 27 – 30 من سورة المائدة وهي تتعلق بقصة جريمة القتل التي وقعت بين هابيل وقابيل في بداية التاريخ بعد خلق آدم (عليه السلام). أراد طه عبد الرحمن تأصيل مفهوم "القتل" في السياق التاريخي من حيث ابتدأت الجريمة؛ لكننا نقول: إن دوافع أول "جريمة" تاريخية مختلفة نسبياً عمّا يطرحه طه عبد الرحمن في كتابه، فهي لا تدخل في سياق المفاهيم الثلاثة التي يناقشها وهي "العنف أو الجهاد أو القتال"، لكنها تدخل في سياق الدوافع الإجرامية الكامنة في النفس البشرية، وهي جريمة قتل قابيل لهابيل والتي تتعلق بشهوة الغذاء الذي قسّمته إلى نوعين: النوع الأول: النباتات (الغذاء الأول) وهو الشهوة الصغرى، والنوع الثاني: الحيوانات (الغذاء الثاني) وهو الشهوة الكبرى، وهما مختلفان عن شهوة الجنس (النكاح). عموماً، سوف نستعرض أهم التفاصيل التي ذكرها طه عبد الرحمن حول مفاهيم "العنف والجهاد والقتال" قبل تقديم رأينا في هذه المسألة. يقول طه عبد الرحمن "إن الجهاد الذي دعت إليه الشريعة الإسلامية يضاد العنف على أكمل وجه بموجب خاتميته، إذ يضاده لا باعتباره جهلا وظلماً فحسب، بل باعتباره إيغالاً في الجهل والظلم، والإيغال في الجهل هو نسيان المعاني الملكوتية التي تخص بها المعرفة، وضد المعرفة هو الجهالة. هناك التباس بين الجهاد والعنف عند بعض المسلمين، إذ إن الفرق بين الجهاد والعنف غاية في الدقة. المحاربون المسلمون الذين وقعوا في العنف فاتهم القيام بشروط الأصل الذي يوصل إلى المعاني والخيرات الملكوتية، ألا وهو الروح! فالتبس عليهم الأمر فخاضوا الحرب، ظانين أنهم يخضونها بنوايا روحية، والحق أنهم كانوا يخوضونها بنوايا نفسية، والنوايا النفسية تجعل المحاربين ينسبون إلى أنفسهم جهادهم، ويقدمون استيفاء حقوقهم على الإيفاء بواجباتهم، ويأتون من البطش ما تسعه قدرتهم، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الحالة في قوله تعالى: "ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً

وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين" {التوبة: 25}. إن القتال يكون جهاداً متى استوفى الشروط الروحية، ويكون عنفاً متى لم يستوفها؛ كما يمكن أن يكون مشتبهاً. إذ يكون بعض المقاتلين قد دخلوا الحرب بنوايا روحية تصلهم بعالم الملكوت؛ وبعضهم دخلها بنوايا نفسية تشدهم إلى عالم المُلك كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف "سئل رسول الله عن الرجل الذي يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أيُ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله. وواضح أن الشجاعة والحمية والرياء صفات نفسية في حين أن "إعلاء كلمة الله" صفة روحية بحق. وأوضح أن العنف جهد نفسي صريح؛ والجهد النفسي باطش، بينما الجهد الروحي راحم؛ وهذا الجهد الروحي الراحم الأقصى ليس ضرباً واحداً، بل ضروباً مختلفة، وليس رتبة واحدة، بل رتباً متعددة. العلماء والنظار اختزلوا الجهاد في نوعين "جهاد الدفع" و "جهاد الطلب" مع حمل اسمه على معنى "القتال"؛ والحال أن هذا الاختزال ضيق ما يعلمون أن القرآن الكريم وسعه بموجب الآية 25 من سورة الفرقان المكية "فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً"؛ فالظاهر أن ضمير الغائب في هذه الآية يعود على القرآن، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن نستنبط من هذه الآية حقيقتين:

الأولى: أن لفظ الجهاد استعمل بصدد "الجهاد بالقول" أو قل "جهاد القول" قبل أن يُستعمل بصدد "الجهاد بالفعل" أو قل "جهاد الفعل"، والجهاد ينقسم إلى قسمين كبيرين "جهاد اعتقاد" و "جهاد اشتغال" فيكون "الجهاد بالقرآن" جهاد اعتقاد.

والثانية: أن الجهاد بالقرآن هو جهاد بملكوتية القرآن، وقد ذكرت أن الملكوتية قسمان روحيان: معرفة وإحسان، فيكون الجهاد بالقرآن "جهاد بالروح" أو "جهاد روح". فيلزم من هاتين الحقيقتين أن الأصل في الجهاد أن يكون "جهاد اعتقاد روحي" أو قل "جهاد الاعتقاد الروحي" وهو الأصل الذي ينبغي أن تتفرع عليه كل ضروب الجهاد

الأخرى، فلا تعد ضروباً جهادية حقة، حتى تكون قد قامت بشروطه. ويقول طه عبد الرحمن بالنسبة لجهاد الاعتقاد على سبيل المثال: "جهاد الإيمان" سمي "إخلاصاً" و "جهاد الرأي" سمي "اجتهاداً" و "جهاد الفكر" سمي "تفكراً" و "جهاد العلم" سمي "تعلماً"؛ وهناك بالنسبة لجهاد الاشتغال على سبيل المثال "جهاد العبادة" سمي "مجاهدة" و "جهاد التربية" سمي "تزكية" و "جهاد المال" سمي "إنفاقاً" و "جهاد الصناعة" سمي "إتقاناً" و "جهاد النفس" سمي "قتالاً". الفارق بين الجهادين: الاعتقادي والاشتغال هو أن الغاية التي يُبذل لها أقصى الجهد الاعتقادي هو "محو الجهل" وأن الغاية التي يُبذل لها أقصى الجهد الاشتغال هو "إزالة الظلم". وخير دليل على تفرد هذا الاشتغال جهاد القتال كما حددته وصية أبي بكر للجيش قبل فتح الشام، إذ جاء فيها: "وإنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم في الصوامع، فاتركوهم وما حبسوا له أنفسهم، ولا تقتلوا كبيراً، ولا امرأة، ولا وليداً، ولا تخربوا عمراناً، ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع، ولا تعقرن بهيمة إلا لنفع، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغدر، ولا تمثل، ولا تجبن، ولا تغلل". فلولا أن العنصر الروحي الناتج عن المعرفة والإحسان الملكوتيين قد يشتد في باطن المجاهد، وهو يقاتل عدوه إلى حد أن يسوي بين البشر والشجر، وبين الإنسان والعمران، ما كان ليتسع شعوره بالأمانة لكل الكائنات [1]. نقول: إن العنف ليس له ذكر في القرآن أو الشريعة الإسلامية وهو مسألة طارئة على المجتمعات الإسلامية وغالباً ما يكون العنف مستورداً من مجتمعات أخرى لأسباب تتعلق بالتلاحم والاختلاط غير المبرر شرعياً، أي أنه يكون اختلاطاً ثقافياً، علماً بأنه ليس لزاماً على المسلمين أن يبرروا أنفسهم ثقافياً، لكنه إلزام عليهم أن يبرروا أنفسهم علمياً وشرعياً بشكل متلازم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هناك فرق بين التقديم والتبرير

---

[1] طه عبد الرحمن، سؤال العنف، الإئتمانية والحوارية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017) ص85-108.

الدعوي البحث أو التقديم والتبرير العلمي الشرعي المتزامن، والإسلام يحض على السياقات العلمية الشرعية أكثر من السياقات الدعوية الخيرية الإصلاحية الخالصة، لكن كل ما هو خيري إصلاحي يعتبر داخلاً في الشرعي، وهو جزء أصيل منه، لكنه ليس أهم؛ لأنه تفصيلي خاص وعام، فحتى لو وقع المحاربون الإسلاميون في العنف في أي زمن دون إرادة منهم بنوايا أو دوافع نفسية كما يقول طه عبد الرحمن، فإنه لن يدخل بأي طريقة في ضرورات تبريره لأن تبريره -حتى وإن كان سلبياً- من خلال القول عليه إنه نفسي أو غير نفسي يعني تبرير للجريمة أو مجتمع الجريمة الداخلي وهو المجتمع الصغير الطارئ على المجتمع الكبير، ويسمى المجتمع الأول (مجتمع الأسرة) والثاني (مجتمع الأمة). بالتالي فإن العنف بالنسبة لنا يدخل في مفهوم "الجريمة" لكن طه عبد الرحمن حاول التخفيف من حدة التوصيف فقال بوجود دوافع نفسية، وفي الحقيقة هي دوافع جنائية إجرامية لها أسباب ومسببات، ويُستثنى من كلامنا كل الحروب الإسلامية التي قامت ضد أعداء الإسلام بهدف "كلمة التوحيد". وهنا نُذكر بشرحنا لموضوع علاقة "فصيلة" بني آدم (عليه السلام) منذ خلق الكون بالإجرام أو ارتكاب الجريمة، وذكرت ثلاث آيات تتعلق بتوصيف المجرمين والعقاب الإلهي لمرتكبي الجرائم في مجتمعاتهم. {انظر الشرح في الفصل الأول، ص35}. نقول: إن الذي يضبط كل المسائل المتعلقة بالجهاد أو القتال بأي طريقة، وفي أي زمن، وضد أي فرد أو جماعة، ولأي سبب شرعي، ليس رجال الدين أو الشيوخ أو المجاهدين أو العلماء، وإن كان للعلماء والفقهاء دور نسبي في التوجيه والإرشاد، لكن الذي يضبط كل ذلك هو "المسؤولية"، والمسؤولية تنقسم إلى نوعين "مسؤولية ملائكية" و "مسؤولية روحية".

المسؤولية "الملائكية" والمسؤولية "الروحية" في مسائل الجهاد/القتال

الأولى: (المسؤولية الملائكية): وهي مسؤولية كبرى عظيمة ومطلقة، وهي لله وحده لا شريك له فيها أحد. والمسؤولية الملائكية تُبني على فاعلية لغة "الأمر" في الشريعة الإلهية والتي يمثلها "القرآن" الذي أنزله الوحي. ومن أوجه المسؤولية الإلهية عن الملائكة قوله تعالى: "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" {الأنفال: 9}، وقوله تعالى في سورة آل عمران: "إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين (124) بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" (125). قيل أمدهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف [1]. وعن علي (رضي الله عنه) أنه خطب الناس، فقال: بينما أنا أمتح من قليب بدر، جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط، ثم ذهبت، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها، قال: وأظنه ذكر: ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الريح الأولى جبريل، نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله (ﷺ)، وكانت الريح الثانية ميكائيل، نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله (ﷺ)، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الريح الثالثة إسرافيل، نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله (ﷺ) وأنا في الميسرة [2]. وفي "صحيح" مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر؛ نظر رسول الله (ﷺ) إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وسبعة عشر رجلاً، فاستقبل

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج4، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص293.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص297.

نبي الله (ﷺ) القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام؛ لا تُعبد في الأرض". فما زال يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلَ القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سُينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" {الأنفال: 9} .[1]

الثانية: (المسؤولية الروحية): وهي مسؤولية صغرى ونسبية، وهي للإنسان المستخلف في الأرض منذ خلق آدم (عليه السلام)، ولم أرَ أعظم وأكثر شمولاً من التوصيف الإلهي للمسؤولية الروحية في القرآن، وهي عموماً مسؤولية دنيوية، لكننا قلنا إنها روحية، **فما الذي يجعل الروحي دنيوي؟** نقول: إن أقصى بلوغ لهذه المسؤولية في القرآن هو "المسؤولية عن الأمانة" والتي عبر عنها الله في قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً" {الأحزاب: 72}. قال فخر الدين الرازي: "الأمانة هي التكليف، ولكن التكليف ليس في السماوات والأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط" [2]. نقول: إننا نخالف فخر الدين الرازي في نفيه موضوع التكليف لأنه داخل في الأمانة، والتكليف كلي لأن الأمانة تشمل كل شيء خُلق قبل آدم (عليه السلام)، والكون خُلق قبل الإنسان وفيه كل شيء، والإنسان هو الجزء داخل الكل،

---

[1] المصدر السابق، ص296، 297.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص235.

فيكون الكل أعظم من الجزء، وبالتالي يكون الإنسان وهو الجزء ضعيفاً أمام تحمل مسؤولية الكل. ونقول: إن السماوات والأرض تدخل في التكليف لأن الإنسان مسؤول عن الحفاظ عليهما. يقول الله تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.." {الروم: 41}. في حين قال القرطبي: الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال. وقيل: هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد. وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال. وقال أُبي بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها إلا بحق. فإن حفظتها حفظتك، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له [1]. نوافق قول القرطبي في جميع ما ذكر، لكننا نقول إن أمانة المال تدرج تحت أمانة شهوة الغذاء وهي على نوعين: النباتات (الغذاء الأول) شهوة صغرى، والحيوانات (الغذاء الثاني) شهوة كبرى، وكلا النوعين يعتبر خلقاً، وهذه تعتبر جزءً من الكون، وبالتالي هي جزء من الكل. أما قول عبد الله بن عمرو بن العاص بأن أول ما خلق الله من الإنسان فرجه فإننا نخالف هذا الرأي، حيث لم يكن أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، بل أول ما خلق الله في الإنسان (خليته /نطفته) التي تتدفق من صلب الرجل (وهي مادية وأصلها من الماء وجزيئاته الهيدروجين والأوكسجين) ثم بداية تشكل بنيته بعد (العلقة) ثم (المضغة) وهي التي يتم إحياء (الروح) فيها بأمر الله، لكن حديثه عن خلق الفرج أولاً يتعلق بمصدر خروج المني، وهو يقصد

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص244، 245.

بذلك أن الذرية أو السلالة أصلها يتكون من فرج الرجل وفرج المرأة المسؤولان عن عملية الجماع. بالتالي جَعَل تكوّن الفرج أمراً لا يتعلق بخلق آدم (عليه السلام) أو خلقاً في رحم المرأة، ولكنه خلقاً متصلاً بالنسل والتكاثر. نقول: إن "الأمانة" في الآية هي تمثيل للمسؤولية أو القدرة على المسؤولية الكبرى المطلقة عن الخلق (الكائنات الحية وشؤون الكون كلها (وهي لله الذي خلقها)، حيث وضعها الله أمام بني آدم (الجنس البشري) وتحت تصرفهم وفق إرادته، ولأن الله هو الذي خلق النوع البشري كله ابتداءً بآدم (عليه السلام) فإنه يعرف مدى ضعف نوع بني آدم (عليهم السلام) وقدراتهم المحدودة وحياتهم القصيرة الفانية، ولذلك قال تعالى: "يريد الله أن يخفف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفاً" {النساء: 28}. والمسؤولية والحرية متلازمتان، فلا حرية بدون مسؤولية، فقد كانت الأساس في اشتراط الأهلية المتمثلة في العقل وبلوغ سن الرشد، لتحمل المسؤولية. إنه بمقدار أهلية الإنسان لتحمل المسؤولية تكون حريته. ففاقدو الأهلية من المجانين تصادر حرياتهم، وناقصو الأهلية من السفهاء والمبذرين يحجر عليهم، ومن لم يبلغوا سن الرشد من القاصرين يولى عليهم [1]. **من هذا الواقع نفهم من جوهر معنى المسؤولية الروحية أنها تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: المسؤولية المباشرة: تبدأ هذه المسؤولية من الأعلى إلى الأسفل، وتُستهل بالاصطفاء العلوي أو الاختيار الدنيوي، والاختيار غير ممكن بدون الاتفاق، والاتفاق غير ممكن بدون الشورى، والشورى تقوم على الأعلمية، والأعلمية تقوم على الاجتهاد، والاجتهاد يُصدق بالإجماع، فإن لم تكن مجتهداً لن تكون مسؤولاً أو تكن مسؤوليتك نسبية محدودة، والاجتهاد في الأمة الإسلامية نسبي في القرون الحديثة لأسباب مادية جذرية.

---

[1] محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، (الكويت: عالم المعرفة، 1984)، ص146.

القسم الثاني: المسؤولية غير المباشرة: تبدأ هذه المسؤولية من الأسفل إلى الأعلى، وتُستهل في السنوات الأولى من عمر الإنسان، ولذلك نسميها "مسؤولية تأسيسية" وهي مسؤولية تربوية وتمثل الصعود نحو المسؤولية المباشرة، وهي أكثر دقة وأهمية من المسؤولية المباشرة، لأن أي خلل في المسؤولية التأسيسية سوف يظهر أثره في المسؤولية المباشرة، وبالتالي يكون تأثيره بيّناً وفادحاً. تقول المعادلة في كلا النوعين من المسؤولية (المباشرة وغير المباشرة) أنه كلما زاد عدد الأشخاص الواقعين تحت مسؤولية الإنسان، سوف تكثر مهامه وتزيد أعباؤه، وبالتالي تزيد لديه الأمانات، فالمسؤولية "الروحية الصغرى" نسبية ضعيفة وتظل "أمانة دنيا"، والمسؤولية "الملائكية الكبرى" مطلقة عظيمة وتظل "أمانة عليا"، أي أن الأمر والنهي فيها قائم وحتمي مهما تراوحت الأوامر والنواهي بحسب طبيعة الظروف (بدايتها ونهايتها). عموماً سواء كانت هذه الأمانات تابعة للمسؤولية المباشرة أو المسؤولية غير المباشرة فإن الأصل فيها أنها أمانات للخالق (الله)، ويستوجب الحفاظ عليها في الأرض، وإن السبيل لصون أمانات الله هي من خلال الالتزام بالشريعة التي أنزلها الله في القرآن، ولذلك وجبت المحاسبة (الثواب والعقاب) على هذه (المسؤولية الروحية) بنوعيها المباشرة وغير المباشرة وفق أحكام الشريعة.

الآية الثانية:

قال تعالى: "وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً" {المرسلات: 27}.

قال الزمخشري: "ماءً فراتاً" ليحتمل إفادة التبعيض لأن في السماء جبالاً. قال تعالى: "وينزل من السماء من جبال فيها من برد.." {النور:

43} وفيها ماء فرات أيضاً، بل هي معدنه ومصبه [1]. وقيل: الفرات هو الغاية في العذوبة. كما قال تعالى: "وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج" {الفرقان: 53} [2].

نقول لقد وردت الإشارة إلى مسألتين في آيات سابقة من نفس السورة، الآية الأولى في قوله تعالى: "ألم نخلقكم من ماء مهين" {المرسلات: 20} والثانية والثالثة قوله تعالى: "ألم نجعل الأرض كفاتاً (25) أحياءً وأمواتاً" (26) ، وكلتا الآيتين تشيران إلى أنه قد تم ذكر الماء المهين أولاً، وذكر الأرض ثانياً، وذكر الأحياء والأموات ثالثاً، وجميعها مصدراً لخلق آدم (عليه السلام)، فهو خلق من الماء والتراب/الطين الذي في الأرض، ثم أنه يحيا في الأرض ثم يموت فيدفن فيها، وفي النهاية يبعث منها. قيل: ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها، والأموات في باطنها تضمهم وتجمعهم. وقيل في معنى "وأسقيناكم ماءً فراتاً" أي: عذباً، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به. قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث [3]. رغم كل ما تقدم إلا أنه يستوجب القول بأن مصدر هذا الماء الفرات هو الجبال الرواسي، وهو أحد مصادر الماء في الأرض.

الآية الثالثة:

قال تعالى: "ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر" {القمر: 28}.

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج29، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1169.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص274.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1571.

قال الشوكاني في تفسيره: أي نبئهم أن الماء قسمة بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله تعالى: "لها شرب ولكم شرب يوم معلوم" {الشعراء: 155} وقال: "نبئهم" بضمير العقلاء تغليباً، و "كل شرب محتضر" هو الحظ من الماء. ومعنى "محتضر": أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون [1]. نلاحظ أنه استخدم الفعل نبئهم مع الماء، ولم يستخدم الفعل أخبرهم لأن الخبر العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر [2]. ولأن الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب [3]. نقول: لأن الماء هو من عند الله وهو حق، جاز استخدام مفردة "نبئهم" على سبيل أن الخبر معلوم وصادق لأنه خبر إلهي. وقد استخدمت بعض الآيات معنى الإخبار في تحرى الصدق من الكذب وذلك في قوله تعالى: "قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله" {التوبة: 94}. وقوله تعالى: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم" {محمد: 31}. أما كلمة "نبئهم" فهي من الجذر اللغوي "نبأ"، ومنه النبوءة والنبوة، وإذا كان الأمر كذلك فالنبوة هي التصديق الكامل، وقد شرحنا علاقة الصدق بالنبوة وكيف أن صفة الصدق كانت سابقة على اصطفاء الأنبياء في كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) [4]. ولأن آيات الله ليس فيها كذب فقد استخدمت كلمة "نبئهم" وهي دالة على توكيد الصدق في التبليغ، والأسبقية في التبليغ، وكذلك العلم ببواطن الأمور. قيل: تنبأ الشخص بالأمر: أخبر به قبل وقوعه، وأخبر

---

[1] المصدر السابق، ص1430.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص188.

[3] العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص84.

[4] حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023)، ص282.

بالغيب. قال تعالى: "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم" {الحجر: 49} وقال تعالى: "ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون" {الجمعة: 8}. وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" {الحجرات: 6} وقال في سورة النبأ: "عم يتساءلون (1) عن النبأ العظيم" (2) [1]، إذا أردنا استيضاح الآيات السابقة فنقول: إن الله حين ينبئ عباده بالمغفرة والرحمة فالنبأ هنا حق وعدل وليس صدقاً فحسب. أما إقرار الله بأنه سوف ينبئ عباده بأفعالهم يوم القيامة بصفته العالم للغيب وللمعلوم، فذلك إظهار للقوة والإرادة الإلهية وإبراز لمقتضى الرجوع والحساب والحق والعدل، وكل ذلك فيه صدق. وكذلك بالنسبة لضرورة تبيّن النبأ الصحيح من النبأ الكاذب إذا نقله شخص فاسق؛ وذلك لأن صحة النبأ من عدمه قد يُبنى عليه الكثير من الأمور وليس أقلها أن يكون النبأ بمثابة شهادة زور، أو كذب، أو افتراء محض، أو نميمة، أو ظن سيء.

ثالثاً: ماء إحياء الموتى

الآية الأولى:

قال تعالى: "والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون" {الزخرف: 11}.

قيل أي: بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرائعكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص2153.

عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى [1]. قال ابن عباس: أي لا كما أُنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق، ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم [2]. وقيل: يعني بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفاناً [3]. وقال ابن كثير: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم [4]. أو كما قال البيضاوي: بمقدار ينفع ولا يضر [5]. نقول: إن الآية دالة على أن الفاعل في أمر تنزيل الماء هو الله، وذلك في الإشارة إليه بـ "الذي". وقوله تعالى: "نزّل" وليس "ينزل" في الآية يدل على أن الأمر الإلهي محتوم في تقدير الماء وإدارته في الكون، وأن فعل إنزاله بدأ مع خلق السماوات والأرض واستمر حتى يومنا هذا لأنه عيّن مكان النزول وهو "السماء" ولم يقل الماء المتفجر من الأرض. وإن قوله تعالى: "بقدر" يدل على تعاقب نزول الماء في فصل الشتاء. كما أنه وضّح نتيجة إصابة الماء للأرض، فذكر إحياء الأجساد وإخراجها، وهذا تأكيد على أن الإنسان يعود كما خلق أول مرّة من نفس المادة التي أحيي بها وهي الماء وتراب/طين الأرض.

الآية الثانية:

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج25، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1335.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص10.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج25، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص985.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص220.

[5] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج25، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص246.

قال تعالى: "ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" {فصلت: 39}.

نقول: إن الماء في هذه الآية له علاقة بما ذكر قبله وبعده في الآية، فأولاً: له علاقة بكلمة "آياته". وثانياً: له علاقة بالأرض الخاشعة. وثالثاً: له علاقة باهتزاز وربت الأرض. ورابعاً: له علاقة بالقدرة على إحياء الأرض مثل إحياء الموتى.

أولاً: نقول: إن كلمة "الآيات" أو "الآية" الوارد ذكرها في غالبية آيات القرآن تتعلق بأفعال وصفات وأسماء الله الحسنى المذكورة في القرآن وأكثر من ذلك. على سبيل المثال: آية الله أنه مبدئ الخلق ومعيده، وأنه محيي ومميت وأنه محصٍ وحق، وأنه وكيل وباعث، وأنه واحد صمد، وأنه قادر مقتدر، وأول وآخر وباطن وظاهر وتواب ومنتقم وعفو ومقسط وجامع وباقٍ وهو ذو الجلال والإكرام ...إلخ. وفي هذا الموضع من الآية قيل: إن الخطاب لكل عاقل، أي: "ومن آياته" الدالة على أنه يحيي الموتى [1].

ثانياً: قوله تعالى: "ترى الأرض خاشعة" أي خشوع الأرض قبل نزول الماء. قال القرطبي: خاشعة: أي: يابسة جدبة، هذا وصف الأرض بالخشوع. والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغبرة لا منزل بها [2]. قال الزمخشري: استعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها الله في قوله تعالى: "وترى الأرض هامدة"، وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص425، 426.

[2] المصدر السابق، ص425.

الانتفاخ إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه [1]. نقول: هذه المسألة تأخذنا إلى علاقة خشوع الأرض بسجود الإنسان على الأرض، وهو ما سنشرحه بالتفصيل في قوله تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً" {الإسراء: 61}. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص289} لقد جعل الله الأرض خاشعة من دون الماء، أي أن ذلك توصيف لطبيعة الأرض في أول خلقها بعد خلق السماوات والأرض حيث لم يكن الماء قد نزل عليها، وبالتالي فقد كانت جافة يابسة. **وهنا يبرز لدينا سؤالين كما يلي:**

أولاً: لماذا جعل الله الخشوع للأرض مع الجفاف واليبوس من دون الماء؟

ثانياً: ما علاقة خشوع الأرض في حالتها قبل نزول الماء عليها وبعده بسجود آدم (عليه السلام) وذريته لله خلال أداء الصلوات؟

علاقة خشوع الأرض بالجفاف واليُبوسة من دون الماء

نقول: إن الإنسان عندما يسجد على الأرض، فإنه يسجد لأصل الأرض وأصلها ما بين رطب وجاف، لأن خلق الكون بدأ من خلال انفجار الماء الذي هو أكبر من نسبة اليابسة في الأرض، وهذا يعني أن آدم (عليه السلام) المخلوق أو المتكون جسده لحظة خلقه من التراب/الطين والماء والرياح التي تكونت بفعل حرارة الشمس لا يسجد -بالمواد الثلاثة المتكون منها- إلا على مادة التراب التي خلقها الله بصفته خالق السماوات والأرض، والتراب مادة لها أهمية حيث خلق منها آدم (عليه السلام) ومنها تنبت الزروع، وفيها يحتفظ الماء.

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج24، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص970.

بالتالي فإن خشوعها قبل نزول الماء عليها هو إقرار بأهمية خلق مادتها عند الله ودورها في الطبيعة.

إن الجفاف واليبوسة حدثان أرضيان بسبب عدم نزول المطر أو لوجود الجفاف واليبوسة في مناطق صحراوية أصلاً، وهذا ما يفسر قوله تعالى في الآية: "فإذا أنزلنا عليها الماء" أي بعدما كانت خاشعة في يبوسها تنتظر إحياءها لإحياء الكائنات الحية ومنها النوع البشري وأوله آدم (عليه السلام) ثم النباتات والحيوانات. بمعني آخر تعتبر هذه المسألة، أي التقديم والتأخير في خلق المواد في الكون وفي آدم (عليه السلام) دالة على وحدانية وإبداعية الله في الخلق. كما أنه يستحيل أن يسجد الإنسان بمكونات مادته الثلاثة "التراب، والماء، والرياح" لمكونات الطين والماء الذي نزل بفعل حركة الرياح إلى الأرض، ولكن يُقبل أن يسجد الإنسان بمكونات مادته الثلاثة للأرض في حالتها الأصلية الترابية. لذلك نقول: إن الإنسان في حالة السجود يسجد للأرض التي خلقها الله في حالتها الأصلية من غير وجود الماء فيها. ومن هذه المسألة نفهم كيف أن إبليس رفض السجود لآدم (عليه السلام) زاعماً أنه (أي آدم) مخلوق من طين، في دليل على أن مادة خلق إبليس -وهي النار- لا تجتمع مع مادة خلق آدم (عليه السلام) -وهي التراب الذي تحوّل إلى طين بفعل الماء- لأن التراب والماء يطفئان نار إبليس، وهكذا يفعل المسلم عند وضوئه لإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم يطفئ بها نار إبليس، وكذلك في حالة سجوده بمادته التي خلق منها على التراب فإنه يلتحم مع مادته فيكون أكثر إطفاءً لنار إبليس. علماً بأن إبليس موجود في الأرض قبل آدم (عليه السلام) وقبل خلق الأرض أو تزامن وجوده مع خلقها لأنه مخلوق من نار، والأرض تكونت من الانفجار العظيم الذي نتج عن وجود قوة نارية هائلة، وإبليس مخلوق من هذه النار باعتبار أنه قاد عملية الوسوسة لآدم (عليه السلام) في الجنة فأنزله إلى الأرض، ولهذا السبب يأتي القرآن على ذكر آيات كثيرة تطلب من الإنسان المسلم

التعوذ من إبليس ومجابهته خلال عمليات العبادة. قال ابن جُريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أمرني رسول الله فقال: "إذا رقدت فأغلق بابك، خمِّر إناءك، وأوكِ سِقاءك، وأطفئ مصباحك، فإن الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يكشف إناء، ولا يحل وكاء، وإن الفأرة الفويسقة تحرق أهل البيت [1]. بالتالي فإن أي أرض ميتة، هي ميتة بفعل فاعل بشري، سواء بتركها وعدم إصلاحها أو إعدامها منها حباً فمنه يأكلون" {يس: 33}. **وهنا يبرز سؤال: لماذا قال الله إن الأرض خاشعة ثم قال في آية أخرى إنها ميتة؟**

الفرق بين الأرض الخاشعة والأرض الميتة

نقول: إن خشوع الأرض هو تمثيل لوجودها مع إمكانية إحياءها وهي حية خاشعة في ذاتها. أما الأرض الميتة فهي الأرض غير الإحيائية التي لا قدرة لأحد على إحياءها سوى الله. وأيضاً في الآية الأولى {فصلت: 39} التي ذكر فيها أن الأرض خاشعة قال في بداية الآية "ومن آياته" ويعني بذلك أن واحدة من آياته أن يبرر مسألة علاقة السجود بالخشوع، وبما يتضمن ذلك من مسائل تتعلق بالساجد (وهو آدم وذريته بكل عناصر خلقهم) والخاشعة (وهي الأرض بكل عناصر وآلية خلقها) كما سبق ذكره. أما في سورة {يس: 33} فقال "وآية لهم" ولم يقل "من آياته" وهذا دليل على أن موت الأرض آية من آيات الله، وهنا نقول: إن قوله تعالى: "أحييناها وأخرجنا" بصيغة الجمع يعود على الملائكة التي أمرها الله بإنفاذ أمره في خلق السماوات والأرض وإنزال المطر. وكذلك تعودان على الإنسان.

نسأل هنا: هل الإنسان قادر على الإحياء والإخراج علماً بأن هذا فعل إلهي بامتياز؟

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص121.

قدرة الإنسان على الإحياء والإخراج وعلاقته بالدور الإلهي

نقول: إن اثنين من بني البشر مكّن لهم الله القدرة على إحياء الموتى والطير بعد اصطفائهم كرسل وليس بصفتهم كباقي البشر، والاصطفاء له خصوصيته في التعيين والطريقة، وهما عيسى وإبراهيم (عليهما السلام). أما عيسى (عليه السلام) فقد كانت معجزته القدرة على إحياء الموتى والطير لقوله تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص564}. وأما إبراهيم (عليه السلام) فقد كانت معجزته القدرة على إحياء الطير كما في قوله تعالى: "وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم" {البقرة: 260}. نقول: بالنسبة لآدم (عليه السلام) أو ذريته فهم مأمورون من الله بإحياء الأرض من جهة العمل بها، والإحياء البشري على نوعين: الأول: إحياء حيوي، والثاني: إحياء معنوي، فالحيوي هو نشاط الإنسان في الأرض، والمعنوي هو إحياء لحياة الناس بالاستقامة والعدل عبر ترسيخ الصفات الأخلاقية فيهم، ما يعني أن الإحياء الحيوي والمعنوي سوف ينعكسان على حياة بقية الناس سواء كانوا مرضى أم أصحاء أم أحياء أم أموات. بالتالي فإن الإنسان مأمور من الله باستخدام أدوات الخلق كالماء والطين، وهذا لا يجعله يتساوى مع الخالق في خلقه، لأن الله قال في بداية الآية "وآية لهم" في قوله تعالى: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون" {يس: 33} وهذه تكفي

أن يكون كل ما عداها أو ذكر بعدها هو من خلق الله وإرادته. بالتالي من الصواب القول إن الإحياء والإخراج هو بسبب عمل الإنسان في الأرض، أي فلاحته فيها، وليس خلقه للنبات أو تقديره لكيفيه إنباته لأن الله تعالى قال: "أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون" {الواقعة: 64}، لكنه قال مخاطباً ذرية آدم (عليه السلام) أو كافة البشر في قوله تعالى: "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً" {المائدة: 32}، نلاحظ هنا أن الإفساد في الأرض هو نقيض إحيائها، فيكون الإحياء في الأرض إحياءً للبشر مجازاً عقلياً، لأن الفعل الأصلي للإحياء هو بقدرة الله وهو أحياء روحي، لكن إحياء الأرض بيد البشر هو إحياء على سبيل مساعدة الناس للبقاء على قيد الحياة، وإتمام عيشهم والعمل على استقرار حياتهم في الدنيا وهو إحياء مادي، ولذلك يعتبر غرس النباتات بهدف إطعام الناس سبباً لإحياء النوع البشري، وأما قتل النباتات وحرقها فهو سبب لقتل النوع البشري، ولذلك فإن الاعتداء على الطبيعة هو قتل للنوع والجنس الآدمي واعتداء على تحذير من محاذير الله بشكل مباشر.

ثالثاً: استكمالاً لشرح {فصلت: 39}. نقول: إذا فهمنا كل ما سبق سنفهم أن عملية خلق الكون بالتسلسل، مثل عملية خلق آدم (عليه السلام) بالتسلسل، وكذلك مثل عملية إحياء الأرض بالتسلسل، وأول خطوة في سلسلة إحياء الأرض هو إنزال الماء عليها، ولما حدث ذلك اهتزت وربت، والاهتزاز فعل من الإنعاش تماماً كما هو نفخ الروح في آدم (عليه السلام) وفي ذريته وباقي البشر في أرحام أمهاتهم قبل ولادتهم، أيضاً يعتبر الاهتزاز في هذا الموضع نفخ للروح في الأرض بنزول ماء المطر عليها بفعل حركة الرياح. لكن المفسرين استبقوا ولم يذكروا هذه الخطوة الإحيائية للأرض التي جعلت فيها الأوكسجين كي تتنفس، وذهبوا للقول بأن اهتزت: يعني تحركت بالنبات، وهو ما

قاله الشوكاني [1]. وكذلك قال مجاهد: أي: اهتزت بالنبات. يقال: اهتز الإنسان، أي: تحرك [2]. أما قوله تعالى: "وربت" فهي تعني بدء تحرك البذرة ونشوئها وتكونها الذي يؤدي مع الوقت إلى انتفاخ الأرض وتشقق التراب أو إزاحته لخروج الساق. ولذلك قال الزمخشري: وربأت أي ارتفعت لأن النبت إذا همَّ أن يظهر ارتفعت له الأرض [3]. وقال مجاهد: "وربت" أي: انتفخت وعَلَت قبل أن تنبت. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: ربت واهتزت. والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربوها ارتفاعها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً. وقرأ أبو جعفر وخالد: "وربأت" ومعناه: عظُمت؛ من الربيئة. وقيل: "اهتزت" أي: استبشرت بالمطر "وربت" أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقت بالنبات: وُصفت بالضحك، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الربو والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات [4].

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1317.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص425، 426.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج24، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص970.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص425، 426.

رابعاً: إحياء الماء للموتى مثل إحياء الأرض. قال البيضاوي: المقصود في قوله تعالى "إن الذي أحياها" أي بعد موتها. "لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" من الإحياء والإماتة [1].

نقول: إن قوله تعالى: "إن الذي أحياها" يدل على أمرين: الأول: أن الأرض كانت خاشعة ولا نقول ميتة كما قال البيضاوي وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقاً، ولأن الله لا يخلق شيئاً ميتاً، باعتبار أن ذلك انتقاص من قدرته ويدل على عجزه، وهو قادر وليس عاجزاً، ولأن الماء كان متوفراً وسابقاً على وجود الأرض وتكونها، والماء مخلوق بواسطة الله وهو تحت ظل العرش، والأرض أنشئت كنتيجة لوجود الماء، فإنه يستحسن القول إن الأرض انفجرت حية؛ لأن الماء كان جاهزاً وسابقاً على انفجارها أو وجودها.

بالتالي وجب القول إن الله أحياها بعد خشوعها وليس بعد موتها لأنه خالقها، وخشوعها من خشوع وإحيائية الماء المخلوق قبلها، وإن الله بشكل مأصول لم يخلق الأرض ميتة بل حية تامة؛ لأن الله كامل في عدله وفي صدقه. بالتالي فإن أي أرض ميتة، هي ميتة بفعل فاعل بشري، سواء بتركها وعدم إصلاحها أو إعدامها بالمواد السامة وغيرها.

رابعاً: ماء العقاب يوم القيامة

نقول: إن أنواع العقاب يوم القيامة غالبها دنيوية أرضية، ولا يكون العقاب عقاباً أخروياً فقط، فالإنسان يُعذب في الدنيا حتى يصل إلى الآخرة وقد اكتمل حسابه، وإن لم يكن مكتملاً في الدنيا فإنه يعود لاكتماله في الآخرة، أي أن هناك عقاب دنيوي وأخروي.

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج24، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص227.

الآية الأولى:

قال تعالى في سورة إبراهيم: "واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (15) من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد" (16).

قال البيضاوي: هو عطفٌ على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يُلقى ويُسقى من ماء. وقوله تعالي: "صديد" عطف بيان لماء، وهو ما يسيل من جلود أهل النار [1]. وقيل: اشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته، وهو دم مختلط بقيح [2]. وقال القرطبي: هو ماء يسيل من فروج الزناة والزواني. وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عُبيد الله بن بُسر، عن أبي أُمامة، عن النبي في قوله تعالى: "ويُسقى من ماء صديد يتجرعه" قال: "يُقرَّب إلى فيه فيكرهه، فإذا أُدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شرِبه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دُبره، يقول الله: وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم" {محمد: 15} [3]، وذكر ابن كثير: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: هذا فليذوقوه حميم وغساق {ص:57} [4]. نقول: إن الماء الصديد ارتبط بالجبروت والعناد لأن الإنسان يكون في حالة غير سوية من ناحية نفسية، فالجبار قد يكون له صفات أخرى كأن يكون طاغية أو قاتلاً أو مصمماً ومعانداً في كفره، ولذلك جعل الله عذابه أو خيبته في السقيا من الماء الصديد حتى يدخل في جوفه فيكون عذاباً مساوياً لصفتيه وهما الجبروت والعناد لقوله تعالى: "كل جبار عنيد".

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص219.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص742.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص121.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص485.

الآية الثانية:

قال تعالى: "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً" {الكهف: 29}.

قيل: الماء المهل هو: الحديد المذاب. قال الزجاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب، وقيل: هو دردي الزيت. وقال أبو عبيدة والأخفش: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس. وقيل: هو ضرب من القطران [1]. وقال القرطبي: المهل ماء غليظ مثل دُردي الزيت. وقال مجاهد: القيح والدم. وقال الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سُود. وقال أبو عبيدة: هو كل ما أُذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص، ونحاس وقزدير، فتموج بالغليان، فذلك المُهل. قال سعيد بن جبير: المهل ضرب من القطران، يقال: مَهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السم [2]. نقول: إن الله لما جعل للإنسان حرية في الإيمان والكفر، كذلك أكد على أن الله حق، وأن الحق يكون منه وهو من تمام عدله، وجعل الظلم من صفات الكفار، من خلال إنكار وجود الله أو الشرك به، وهذا الأمر فيه تحدي لله ولما خلقه وأوجده في الكون. ونلاحظ أن العذاب هو النار لقوله تعالى: "أعتدنا للظالمين ناراً". أما ماء المهل فهو زيادة في العذاب، بل هو العذاب الذي يجعل الاستغاثة من الكفر والشرك والرجوع عنها مستحيلة يوم القيامة، ولهذا جاء

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص857.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص262.

التعبير القرآني في قوله تعالى في نهاية الآية: "بئس الشراب وساءت مرتفقاً".

الآية الثالثة:

قال تعالى: "ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمها على الكافرين" {الأعراف: 50}.

قال البيضاوي: معنى أفيضوا علينا من الماء: أي: صبوه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار [1]. وقال الشوكاني: الإفاضة يعني التوسعة، يقال أفاض عليه نعمة طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء، أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أو الأطعمة، فأجابوا بقولهم: "إن الله حرمها على الكافرين" أي: الماء وما رزقهم الله من غيره [2]. وقال الرازي: إنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بطونهم من الاحتراق واللهيب لسبب شدة حر جهنم [3]. بين القرطبي أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. وقال: في هذه الآية دليل على أن سَقيَ الماء من أفضل الأعمال. وقد سُئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة: "أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله". وروى أبو داود أن سعداً أتى النبي فقال: أي الصدقة أعجب إليك؟ قال: "الماء". وفي رواية: فحفر بئراً فقال: "هذه لأم سعد". وعن أنس قال: قال سعد: يا رسول الله، إن أم سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج8، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص546.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص477.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص98.

أن أتصدق عنها؟ قال: "نعم، وعليك بالماء". وفي رواية: أن النبي أمر سعد بن عبادة أن يسقى عنها الماء. فدّل على أن سقي الماء من أعظم القُربات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين: من كَثُرت ذنوبه فعليه بسقي الماء. وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه. وفي حديث عائشة عن النبي: "ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء، فكأنما أحياها"، خرجه ابن ماجه في "السنن" [1]. نقول: إذا أدركنا أن الله جعل الجنة فوق النار، فيكون ذلك من خلال إدراكنا أن الجنة أسفل عرش الرحمن لأنه سبحانه وتعالى قال: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7} فيكون الترتيب هكذا، الله أولاً، ثم عرشه، ثم الفردوس الأعلى، ثم درجات الجنة، ثم النار ودرجاتها، ما يعني أن أعلى درجات الجنة أو الفردوس الأعلى يكون أكثر قرباً من الله، أي على حافة عرش الرحمن والماء، وهذا ما عبّر عنه الله في سورة القيامة لقوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة (22) إلى ربها ناظرة" (23). ثم يكون من درجات الجنة ما هو في الماء نفسه، وهذا ما عبّر عنه الله في قوله تعالى: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خُمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسُقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم" {محمد: 15} وهذه الآية تدل على اختلاف أنواع وطعم وأشكال ودرجات الماء في الجنة، ثم تتدرج باقي الدرجات بعد ذلك، فيكون درجة على حافة الماء أو أسفل منه بقليل حتى يكون أقربها درجة قريب من النار، ولذلك قال الله تعالى: "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص233، 234.

الغرور" {آل عمران: 185} يعني أن النار موصولة بالحياة الدنيا، ولذلك كلما زادت النار بُعداً عن الجنة كلما كانت دنيوية أرضية، وهذا ما نقرؤه في قوله تعالى: "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً" {النساء: 145}. قيل: "الدرك الأسفل من النار" هو الطبقة التي في قعر جهنم. وسُميت طبقاتها السبع دَرَكات لأنها متداركة بعضها فوق بعض [1]. وقيل الدرك الأسفل هي: الهاوية، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى جميعها الطبقة العليا [2]. وقيل الدركات: أي: طبقات ومنازل، إلا أن العرب استعملوا لكل ما تسافل: أدراك. يقال: للبئر أدراك. كما أن أعلى الدركات: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية [3]. سأل الخوارزمي: لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ وقال: لأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم [4]. وقوله تعالى: "ولن تجد لهم نصيراً" يعني لن يخرجهم منها [5]. نوافق القرطبي بأن للنار سبع درجات وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، لكننا نقول إنها تصنف إلى درجات أساسية ودرجات ثانوية، فنقول إن الدرجات السبع هي من الدرجات الأساسية ويضاف إليها ثلاث درجات أخرى وهي: (ماء المُهل/أو ماءً حميماً – الصواعق –إعصار

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج6، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص404.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص339.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج7، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص195، 196.

[4] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج5، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص267.

[5] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج6، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص404.

فيه نار) -وهي درجات أساسية يوم القيامة- فيصبح مجموعة الدرجات الأساسية عشر درجات. أما الحرارة (وهي درجة ثانوية لكنها دنيوية) كما سنشرحها وفق آيات القرآن. نقول: بالنسبة للحر أو الدفء فهو موجود في الحياة الدنيا عبر طاقة الشمس، وهي درجة أو نوع دنيوي من العذاب بامتياز يكون المرء فيه حياً شاهداً على هذا النمط من العقاب المؤجل لقوله تعالى: "فرح المُخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون" {التوبة: 81}. قال الشوكاني: المعنى: أنكم أيها المنافقون كيف تفرّون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حراً مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الآبدين ودهر الداهرين [1]. أما بخصوص الدرجات الأساسية الثلاثة التي أضفناها ومنها (ماء المُهل/ماءً حميماً – الصواعق –إعصار فيه نار) فهي التي تقع بين دركات أو منازل النار السبعة، ودليل وجود تلك الدرجات الثلاثة كدرجات أساسية ورود كلمة "زحزح" في قوله تعالى في الآية: "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز" {آل عمران: 185}. كما وردت كلمة "مزحزحه" في موضع يتحدث عن العذاب في آية أخرى لقوله تعالى: "ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون" {البقرة: 96} أو كلمة "أزلفت" في قوله تعالى: "وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد" {ق: 31}. نلاحظ أن الله استخدم تعبير "الزحزحة" مع النار والعذاب، في حين استخدم تعبير "الإزلاف" مع الجنة، **فما الفرق؟ ولماذا؟ أو ما السبب؟**

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج10، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص589.

الفرق بين الزحزحة عن النار والإزلاف للجنة

قال الأصفهاني في معنى: "زُحزح عن النار" يعني أزيل عن مقره فيها [1]. لكننا نرى أن الزحزحة لا تعني الدخول أو الانتقال من مكان إلى آخر، ولا نرى أن هناك عامل فجائي في هذه المسألة لأن كلمة زحزح في سورة {آل عمران: 185} سبقها حرف "من" وهو يفيد التبعيض، كأنه أراد القول "من عمل صالحاً جعله يتزحزح عن النار فدخل الجنة"، كأن "مَن" يُقصد بها الأشخاص المؤهلون لدخول الجنة. لذلك نحن نتفق بأن معنى زحزح: أي تحرك تحركاً ضئيلاً [2]. يعني ذلك أن "الزحزحة" تتعلق بعدم وجود حدود فاصلة بشكل دقيق تماماً بين الجنة والنار، وكذلك بين أنواع النيران السبعة نفسها يوم القيامة، ما يثبت صحة قولنا إن ما بين الجنة والنار هو ما يقع بين أسفل عرش الرحمن مباشرة، وما هو دنيوي أرضي بامتياز، ويكون الدنيوي على شكل الهاوية، أي بقاء الإنسان في الأرض خالداً مخلداً فيها أبداً متبعاً لأهوائه وشهواته وجرائمه. أما كلمة "أزلفت" فقيل: أزلف الشيء يعني قرّبه. قال الزجاج: تأويله أي قُرب دخلوهم فيها ونظرهم إليها. ومزدلفة والمزدلفة: موضع بمكة؛ قيل: سُميت بذلك لاقتراب الناس إلى منى بعد الإفاضة من عرفات [3]. وقيل: الزُلفى يعني الحظوة، قال تعالى: "ليقربونا إلى الله زُلفى" {الزمر: 3} والمزالف: المراقي [4]. نوافق قول الأصفهاني بأنها حظوة، ونقول إن معنى القرب هو أقل وصف لكلمة "أزلفت"، لأن المراد لهم دخول الجنة هم المتقين كما

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص280.

[2] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص975.

[3] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م1، ج2، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1853.

[4] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص283.

في الآية، ويستحيل تأخير شخص تقي عن دخول الجنة، لاسيما أن الآيات التالية كلها تتحدث عن صفات المتقين واستحقاق دخلوهم الجنة كقوله تعالى في استكمال الآيات من سورة (ق): "هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (32) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (33) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (34) لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد" (35). بالنسبة لدرجات الجحيم، نقول إن أول الدرجات الأساسية التي أضفناها هي (ماء المُهل) التي ورد ذكرها في أحد الآيات، لكن نلاحظ أولاً أن الآية التي شرحناها تتضمن طلباً على لسان الكفار: "ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله" {الأعراف: 50}. **ماذا كان الجواب؟**

نقول: كان الجواب في نفس الآية على لسان أهل الجنة: "قالوا إن الله حرمها على الكافرين" {الأعراف: 50} لكن هناك إجابة مباشرة من الله على كفرهم تتضمن العقاب بماء المُهل في آية أخرى حيث قال تعالى: "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً"{الكهف: 29}.

نستنتج مما سبق أن ماء أهل الجنة غير ماء أهل النار لأن سؤالهم "أفيضوا علينا من الماء" {الأعراف: 50} يقصد به ماء أهل الجنة. أما الرد الإلهي فقوله تعالى: "يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه" {الكهف: 29} فيقصد به ماء أهل النار، وبالتالي نقول: إن درجة "ماء المهل" يوم القيامة تقع أسفل أو على مقربة من آخر درجة في الجنة، وهذه الدرجة من الجنة ليست الفردوس الأعلى، بل هي درجة دنيوية أو شبه أرضية، وقد يكون ماء المهل دنيوي لكل الخطائين بحسب درجاتهم والذين أرادوا تخليد أنفسهم كأحياء عطشى في الدنيا يبحثون عن ماء يشفيهم، لكن الله يقول في الآية: "بئس الشراب وساءت مرتفقاً" {الكهف: 29}. ولأننا سبق أن أشرنا إلى أن سقيا الماء هو أفضل الأعمال والصدقات، إلا أن ذلك لا يعني أن كل صدقة ماء هو

مثل ماء أصحاب الجنة، فقد يكون كماء المُهل أو ماء يغلي لا ينفع المتصدقين من الناس، حيث ورد في سبب إبطال الصدقات آيتين: "قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم" {البقرة: 263} وقال أيضاً: "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى" {البقرة: 264}. ولأننا نتحدث عن موضوع الصدقات استوجب ذكر النوع الثاني المشابه لماء المُهل، وهو نفس نوعه لكن وصفه مختلف وهو "ماء الحميم" لقوله تعالى: "كمن هو خالد في النار وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم" {محمد: 15}. قيل في معني قوله تعالى: "فقطع أمعاءهم" أي من شدة الحرارة [1]. وفي آيات أخرى للذي لا يحض على طعام المسكين قال تعالى: "فليس له اليوم ههنا حميم (35) ولا طعام إلا من غسلين" (36). قيل: الحميم: هو الماء الحار الشديد الغليان [2]. نقول: هذا "الماء الحميم" هو مخصوص لمن اتبع شهواته في الأكل، أي شهوة الطعام، وهي أول فتنة في الجنة لآدم (عليه السلام)، وآخر فتنة في الأرض لذرية آدم (عليه السلام). كما أن هناك ارتباط بين الخلود في النار والسقاية من الماء الحميم بهدف تقطيع أمعاء الخالدين في النار، وهذا الارتباط يتعلق بما ورد في نفس الآية وفي الآية التي قبلها. أما في نفس الآية فقد ورد ذكر المتقين الذين يدخلون الجنة ويُسقون من أنواع مختلفة من الماء، وفي الآية التي قبلها ورد ذكر نوع من الأشخاص هم الذين يسقون من الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، وهم الذين زُين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم، لقوله تعالى: "أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سُوء عمله واتبعوا أهواءهم" {محمد: 14}. وسوف نشرح معنى الهوى واتباعه في الصفحات التالية عند ذكر كلمة "الهاوية". وللتوضيح فإن مقابل

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج26، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص287.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1374.

"ماء المُهل" و "ماء الحميم" لأصحاب النار، هناك "الماء الغدق" لأصحاب الجنة لقوله تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16}. {انظر شرح الآية في هذا الفصل، ص98}.
وهنا نسأل، ما هي علاقة الشهوة ومساس آدم (عليه السلام) وزوجته بشجرة الجنة التي أنزلتهما إلى الأرض بـ "ماء المُهل" المتعلق بالشراب، و "ماء الحميم" المتعلق بالطعام؟

علاقة شهوة الغذاء بـ (ماء المُهل) و (ماء الحميم)

نقول: إن الشهوة متعلقة بالغريزة، والغريزة متعلقة بالرغبة، والرغبة متعلقة بالقرار، والقرار إما متعلق باليقين أو بالوسوسة، والوسوسة من الشيطان، والشيطان مثل إبليس مخلوقان من نار لكنهما مختلفان، فالشيطان هو الذي وسوس لآدم (عليه السلام) وزوجته وهو الذي أخرجهما من الجنة، لكن الذي رفض السجود لآدم (عليه السلام) هو إبليس. أما الشيطان فأصله جن لكنه جن له أوصاف، لأن الجن على مراتب، فإذا ذكروا الجِني سالماً قالوا: جني. فإذا أرادوا أنه ممن سكن مع الناس قالوا: عامر. وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح. فإن خبُث أحدهم وتعرّم فهو شيطان. فإذا زاد على ذلك فهو مارد، قال الله تعالى: "وحفظاً من كل شيطان مارد" {الصافات: 7} فإن زاد على ذلك في القوة فهو عفريت، والجميع عفاريت، قال تعالى: "قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين" {النمل: 39} فإن طَهَر الجنى ونظف ونقى وصار خيراً كله فهو مَلَك، وهنا يذكر قوله تعالى: "كان من الجن ففسق عن أمر ربه" {الكهف: 50} على أن الجن في هذا الموضع الملائكة. وقال آخرون: كل مستجن فهو جني، وجان، وجنين. وكذلك الولد قيل له

جنين لكونه في البطن واستجنانه. وقالوا للميت الذي في القبر جنين [1].
وأما الخابل والخبل، فإنما ذلك اسم للجن الذين يخبلون الناس بأعيانهم.
قالوا: وإذا تعرضت الجنية وتلونت وعبثت فهي شيطانة، ثم غول.
والغول في كلام العرب الداهية. ويقال: لقد غالته غول [2]. نقول: إن الشيطان يختص بالوسوسة والاستدراج والإغواء والاستمالة والتحريض والعبث والقدح والتخريب والفتنة. وعموماً إن أصل الإغواء أو الانجذاب متعلق بالنظر، ثم يتحوّل إلى النفس فيصير نحو الطمع والجشع، ثم يصير نزعة شهوية في الإنسان فيتحوّل إلى نهم.
رووا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سأل المفقود الذي استهوته الجن: ما كان طعامهم؟ قال: الفول. قال: فما كان شرابهم؟ قال الجدف [3]. وقيل إن الشيطان يعزز النزعة الشهوية عند الإنسان ويحارب نزعته الروحية، فمن الشياطين التي تحارب النزعات الروحية، شيطان مخصوص لحفظة القرآن. قيل في الحديث أن الشيطان قد تفرّد بحفظة القرآن يُنسيهم القرآن، ويُسمى خَّزَب، وهو صاحب عثمان بن أبي العاص [4]. عموماً، نلاحظ وجود آيتين في القرآن تربطان بين الشجرة (أي شهوة الغذاء) والشياطين (أي الوسوسة) والعذاب (أي الجحيم)، وذلك في قوله تعالى في سورة الصافات: "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (64) طلعها كأنه رؤوس الشياطين" (66) . قيل في الشجرة صفتين: الأولى: إنه تخرج في أصل الجحيم، وقيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج6، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص190.

[2] المصدر السابق، ص195.

[3] المصدر السابق، ص210.

[4] المصدر السابق، ص194.

دركاتها. والثانية: أن طلعها كأنه رؤوس الشياطين [1]. قال القرطبي: "طلعها" أي: ثمرها؛ وسُمي طلعاً لطلوعه "كأنه رؤوس الشياطين"، قيل: يعني الشياطين بأعيانهم، شبهها برؤوسهم لقُبحهم، ورؤوس الشياطين متصوّر في النفوس وإن كان غير مرئي [2]. على حين قال الرازي: إن الشياطين حيّات لها رءوس وأعراف، وهي من أقبح الحيّات، وبها يُضرب المثل في القبح، والعرب إذا أرادت منظراً قبيحاً قالت كأنه شيطان الحماطة، والحماطة شجرة معينة (قيل هي التين) ولما ذكر الله تعالى هذه الشجرة وذكر صفتها، بيّن في الآية التالية من نفس السورة فقال: "فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون" (66) [3]، نقول: إن هذه الشجرة تختلف عن شجرة الجنة، فهي شجرة أرضية بامتياز وتسمى "شجرة الزقوم" كما ورد ذكرها في نفس السورة في الآية (62) حيث اعتبرت هذه الشجرة هي فتنة الأرض كما هنالك فتنة شجرة السماء. أما أصل الجحيم، ففيه ثلاثة وجوه: (الوجه الأول) أن يكون ذلك إشارة إلى الشجرة السماوية، أي شجرة الجنة التي فتنت آدم (عليه السلام) وزوجته، ووجه المقاربة في ذلك أن قوله تعالى: "تخرج" في إشارة للشجرة، ثم قوله تعالى في الآية التي تليها: "رؤوس الشياطين" دليل على أن الشجرة كانت مصدراً أو عنصراً للجذب بواسطة ظهور غواية الشيطان، فيكون أصل الجحيم هو بداية إنبات أو نمو الشجرة وبداية غواية الشيطان، والذي دفعهما، أي آدم (عليه السلام) وزوجته والشيطان إلى النزول إلى الأرض، فتحوّلت

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص142.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص43.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص142.

الجحيم من بداية نمو النبات التي رافقها شهوة وغواية في السماء إلى مصدر حقيقي لهذا الجحيم في الأرض. (الوجه الثاني) أن يكون متعلق بالمادة التي خلق منها الشيطان، كأن الله أراد القول إن الشيطان مخلوق من نار، والشجرة مصدر شهوة الغذاء، وإن كانت خضراء، مصيرها أن تتحول إلى حطب يوقد فيه النار، ثم تتحوّل إلى رماد، فتتساوى مادة الشيطان والمادة التي تنتهي إليها الشجرة، فيكون طبع الإنسان في اللهاث وراء شهوة الغذاء إنما هو لهاث وراء غواية نار الشيطان، وعلى هذا، فإن كل من يحذو وراء غواية الشيطان سيكون مصيره اللحاق بالنار أو الذهاب إليها. (الوجه الثالث) أن يكون أصل الجحيم هو الهاوية، وهي أعتى وأكثر درجات النار قعراً في الأرض، وهذا دليل على أرضية الشهوة وأرضية العقاب.

عموماً، لو بحثنا في كثير من الآيات لوجدنا علاقة جذرية بين الشهوة والمال والغنى بالشياطين ووسوساتهم، على سبيل المثال:

- قوله تعالى: "الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا" {البقرة: 275}.

- وقوله تعالى: "قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين" {الأنعام: 71}.

أما إبليس فهو نوع من الشياطين يختص بخطاب الكبرياء لأسباب تتعلق بالمادة التي خلق منها، حيث سنلاحظ أن بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر إبليس كانت تتعلق برفضه السجود لآدم (عليه السلام). أما الدرجة الثانية التي أضفناها إلى الدركات الأساسية فهي (الصواعق) وهي تكون داخل أي نوع من أنواع العذاب أو منفردة وحدها، لقوله تعالى: "ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء" {الرعد: 13}. ذكر الفراهيدي: أن الصعاق: الشديد الصوت.

والصاعقة: صيحة العذاب أو الوقع الشديد من صوت الرعد، يسقط معه قطعة من نار، ويقال إنها من صوت الملك [1]. كما ورد في المعجم المعاصر: صعق الناس: أي هلكوا. قال تعالى: "ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أُخرى فإذا هم قيام ينظرون" {الزمر: 68} وقيل صعق الشخص: أي أصابه أمر عظيم، وغشي عليه، وذهب عقله من صوت يسمعه كالهدة الشديدة. قال تعالى: "فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون" {الطور: 45}. والصاعقة: جسم ناري مشتعل يسقط من السماء في رعد شديد وهو ناجم عن تفريغ كهربي بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين مكهربتين، وهي نار من السماء، وعذاب مُهلك، وصيحة العذاب. قال تعالى: "فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون" {الذاريات: 44}. والصعقة: الصيحة التي يُغشى منها على من يسمعها أو يموت [2]. أما الدرجة الثالثة التي أضفناها إلى الدرجات الأساسية فهي (إعصار من نار) كما ورد في قوله تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" {البقرة: 266}. قيل: الإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود [3]. وقال الحسن: ريح فيها برد شديد. وقال الزجاج: الإعصار في اللغة: الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، وهي التي يقال لها: الزوبعة. قال الجوهري: الزوبعة رئيس من رؤساء الجن، ومنه سُمي الإعصار

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص397.

[2] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م3، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص1297.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص226.

زوبعة. ويقال: أم زوبعة، وهي ريح تثير الغبار، وترتفع إلى السماء، كأنه عمود. وقيل: الإعصار: ريح تثير سحاباً ذا رعد وبرق [1]. نقول: إن الإعصار يمثل اللحظة الحاسمة للإنسان يوم القيامة، فالإنسان قد يعمل صالحاً لكن إعصاراً من نار قد يجعل كل شيء يحترق ويتحول إلى رماد. بالتالي استوجب أن يكون الإعصار درجة من درجات العقاب المفاجئ أو العقاب الذي يكشف عن الباطل بعد ادعاء فعل الحق. ونقول: إن كل إنسان سواء كان مسلماً أو غير مسلم، مهما كثرت أعماله أو قلّت سوف يعبر عن درجة من درجات النار سواء بالعقاب أو الابتلاء أو المرض أو أي طريقة أخرى تناسب أعماله السيئة في الدنيا، ولذلك فإن "الصراط المستقيم" يبدأ منذ خلق الإنسان في الحياة الدنيا، وكل خير أو صلاح أو عبادة تسمى صراطاً مستقيماً، فالعبور عن "الصراط المستقيم" يبدأ منذ وعي الإنسان الأول تجاه الدين وإقامة أركان الإسلام، لذلك تكون الهداية للصراط المستقيم هداية دنيوية بالعبادة لقوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" {الفاتحة: 6}. قال الفُضيل بن عياض: "الصراط المستقيم" طريق الحج. وقال محمد ابن الحنفية: هو دين الله الذي لا يُقبل من العباد غيره [2]. نقول: إن طريق الحج هو جزء من طريق الاستقامة والهداية وهو أهمها، ولذلك فإن طريق الحج جزء من الصراط المستقيم وليس كله. وأما الدين فنحن نوافق ابن الحنفية أنه هو الصراط المستقيم كله، لقوله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام" {آل عمران: 19}، وقوله تعالى: "إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون" {البقرة: 132}، فيكون دين الإسلام معادل للصراط المستقيم، طالما أن الله نهى عن الموت إلا على رسالة الإسلام، أي ليكون نهاية صراطنا

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص341.

[2] المصدر السابق، ج1، ص227.

المستقيم هو الشهادة بأنا مسلمون. ونقول: إن دليلنا أن الصراط المستقيم للإنسان يشمل كل شيء يصدر عنه من أقوال أو أفعال منذ أن أصبح مكلفاً هو قول الله تعالى في خطابه للنبي محمد (ﷺ) في سورة يس: "إنك لمن المرسلين (3) على صراط المستقيم (4). أي أنك مرسل ومعك كافة سبل الهداية والرشاد والاستقامة، ولذلك يبدأ صراط النبي محمد (ﷺ) منذ لحظة تكليفه الدنيوي بالنبوة، فيكون صراطه نبوي مستقيم، أي مجموع أقوله وأفعاله وفق تكليفه. ولذلك رأينا كيف أن فخر الدين الرازي قال: "إن المراد بقوله "اهدنا الصراط المستقيم" هو الاقتداء بأنبياء الله في الصبر على الشدائد والثبات عند نزول البلاء" [1]. وقال تعالى: "ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم" {الشورى: 52}. نقول: إن الهداية بالكتاب والإيمان لا تحدث على الصراط المستقيم بمعناه المادي يوم القيامة، لأنه من غير المعقول أن يهتدي الإنسان بالكتاب ويؤمن في ظرف وقت سريع وهو على الصراط الأخروي، بل تحدث الهداية بالكتاب والإيمان في الحياة الدنيا من خلال العلم بالكتاب ومعرفة الطريق إلى الإيمان لأنه قال في الآية: "وإنك لتهدي" أي: تدعو وترشد "إلى صراط مستقيم" دين قويم لا اعوجاج فيه [2]. لذلك قال فخر الدين الرازي: "إن الله تعالى بيّن أنه كمال أن القرآن يهدي فكذلك الرسول يهدي، وبيّن أنه "يهدي إلى صراط مستقيم" وبين في الآية التالية أن ذلك الصراط هو "صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض" [3]. وذكر القرطبي: إن

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج1، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص259.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص515.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص192.

"صراط الله" هو القرآن. وقيل: الإسلام كما رواه النواس بن سمعان عن النبي (ﷺ) [1]. كما قال تعالى: "وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.." {الأنعام: 153}. هذه الآية معطوفة على الآية السابقة بما فيها من نهي وأمر وتحذير عن اتباع غير سبيل الله، ويلاحظ في الآية لفظ "فاتبعوه" في إشارة إلى الصراط المستقيم، والاتباع لا يحدث للصراط بمعناه المادي المحسوس، بل الاتباع يكون لطريق أو منهج أو سبيل أو غير ذلك. ولهذا قال الرازي في معنى قوله "هذا صراطي مستقيماً" دخل فيه كل ما بينه الرسول (ﷺ) من دين الإسلام وهو المنهج القويم [2]. بناءً على ما سبق ذكره، فإن رأينا عن الصراط المستقيم يخالف رأي الغزالي في الحديث الذي جاء فيه أن "الصراط المستقيم هو جسر ممدود على متن جهنم، أحد من السيف، وأدق من الشعر، تزل عليه أقدام الكفار بحكم الله سبحانه وتعالى فتهوي بهم إلى النار، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار [3]، وهذا هو قول الحشوية في الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف [4]. ونقول إن هذا التفسير للصراط هو تفسير أخروي مادي بحت، وقد يكون تصويراً لماهية وقوع الحساب، أي كيف يكون يوم القيامة، ولكن الأصوب ألا يُعرف الصراط المستقيم بهذا التعريف المادي، ونقول إن الصراط المستقيم هو أعمال الإنسان عندما تعرض عليه يوم القيامة، فهو إما أن يقف عندها للعقاب فيذهب

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص516.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص4.

[3] أبي حامد الغزالي، بداية الهداية، ط1، (بيروت: دار المنهاج، 2004)، ص284. انظر أيضاً: أبي حامد الغزالي، تحقيق موسى محمد علي، قواعد العقائد، ط2، (بيروت: عالم الكتب، 1985)، ص66. انظر أيضاً: أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2005)، ص109.

[4] القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسدآبادي، حققه عبد الكريم عثمان، ط3، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1996)، شرح الأصول الخمسة، ص737.

إلى النار أو للثواب فيتجاوزها إلى الجنة. أما الصراط المستقيم بحسب وصف الغزالي فنقول: هو في علم الغيب الإلهي، وهو غير مذكور في القرآن، ولا سيما في كل الآيات التي ورد فيها ذكر جملة "الصراط المستقيم". ولذلك قال عاصم الأحول عن أبي العالية: "الصراط المستقيم" هو رسول الله (ﷺ) وصاحباه، من بعده. قال عاصم: فقلت للحسن: إن أبا العالية يقول: "الصراط المستقيم" رسول الله (ﷺ) وصاحباه، قال: صدق ونصح [1]. وقالت المعتزلة الصراط هو طريق بين الجنة والنار يتسع على أهل الجنة ويضيق على أهل النار إذا راموا المرور عليه [2]. ونقول: كما يستوجب النظر في لفظ "اهدنا" في قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم" {الفاتحة: 6} والتي يرددها جموع المصلين خمس مرات في اليوم، والهداية هنا للجميع وليس للفرد في قوله "اهدنا"، لأنه لم يقل "اهدني الصراط المستقيم"، ما يعني أن الفرد الواحد يدعو لمن يصلي عن يمينه وعن شماله ولكل من في المسجد ولجموع المسلمين بالهداية. قال القرطبي: "اهدنا" دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب. والمعنى ثَبِّتْنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أُنسك وقُربك [3]. كما أن المصلي يُردد قوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين" {الفاتحة: 5} والعبادة في قوله "نعبد" بصيغة الجمع، والاستعانة في قوله "نستعين" بصيغة الجمع، فمن ذهب إلى المسجد للصلاة، وجب عليه استحضار كل دلالات سورة الفاتحة في علاقته مع مجموع المسلمين، وليس مع نفسه فقط، وفي ذلك إظهار لعلو شأن المجتمع والأمة الإسلامية في الدعوة إلى الهداية والعبادة والاستعانة بالله. وهذه السورة تدلل أنه لا

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج1، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص227.

[2] القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسدآبادي، حققه عبد الكريم عثمان، ط3، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1996)، شرح الأصول الخمسة، ص737.

[3] المصدر السابق، ص226.

يمكن للفرد احتكار العبادة والهداية والاستعانة بالله لنفسه دون غيره، لأن رحمة الله وسعت كل شيء. كما ورد في القرآن حتمية العبور عن الصراط مع تراوح مدة العبور في قوله تعالى في سورة مريم: "وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً (71) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً" (72). قيل: الورود هو الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة، واحتجوا على أن الورود قد يُراد به القرب، لقوله تعالى: فأرسلوا واردهم {يوسف: 19} ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء. قال تعالى: "ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون" {القصص: 23} [1]. وقال الزمخشري: إذا أريد الجنس كله، فمعنى الورود: دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم [2]. على حين كان رأي القرطبي أنه لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم [3]. ونقول: إن معنى "واردها" يعني عابرها أو عابر عنها، فأما عابرها يدخل فيها، وأما العابر عنها فهو لا يدخل فيها، بل يعبر إلى غيرها وهي الجنة. نقول: إن هناك عبور دنيوي وعبور أخروي، أو عبور دنيوي وأخروي أو حساب دنيوي متأخر أو حساب أخروي متأخر أو حساب دنيوي وأخروي متأخر. بعض الناس تعبر إلى الفردوس الأعلى وهم أحياء فيكونون في حياتهم كالملائكة، ومنهم من يعبر إليها منذ اللحظة الأولى للشهادة أو الوفاة، ومنهم من يذهب إلى درجات أدنى في الجنة، ومنهم من يذهب إلى النار فوراً أو يقتل

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص98.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج16، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص644.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص492.

بالنار وهو في الأرض، أو يقتل بالنار وهو في النار. أما بالنسبة للوقت فمنهم من يستغرق سنوات في النار أو شهور أو أيام أو ثوان حسب درجاتها، ومنهم من تلفحهم النار بسرعة، وهذا كله مرتبط بالاستجابة للدين والرسالات السماوية التي أنزلها الله في الأرض، وآخرها الإسلام، وأهم ما فيه الأركان الخمسة، ثم نشاط وأعمال الإنسان المرتبطة بتطبيق أحكام الشريعة في الأرض وإحياء الدين وفهمه لشروط نهضة الأمة الإسلامية. بالتالي يبقى كل إنسان يتراوح ما بين نار الأرض ونار السماء، أو نار السماء والأرض وجنة السماء والأرض، أو جنة الجنان في السماء والأرض حتى تقوم الساعة. أما المكان فالذي يحدده بالإضافة إلى أعمال الإنسان، شهادة الأئمة والصالحين لقوله تعالى: "يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يُظلمون فتيلاً" {الإسراء: 71}. أو كما قال تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.." {البقرة: 143}. كما أن كل إنسان يستقر في مكانه الأبدي إما في الجنة أو النار بعد قيام الساعة، والساعة تقوم عندما يصل الفساد الأخلاقي والمادي إلى ذروته، وتنعدم على إثر ذلك الحياة على سطح الأرض، وذلك من خلال استخدام الأسلحة التدميرية مثل السلاح النووي الذي يحتوي على مادة الديوتيريوم (Deuterium) وأصلها الهيدروجين في أماكن يجعلها غير صالحة لإنبات البذور ولا عيش الحيوانات فيها، وبالتالي عدم قدرة الإنسان على البقاء، وبهذا تكون نار الله في الأرض هي من صنع المادة التي خلقها الله عند نشأة الكون، لكنه لم يخلقها لغرض التدمير، لأن ذلك عكس إرادة الله في خلق الكون، وعكس فكرة الإحياء، وعكس رحمة الله بعباده، بل يكون الإنسان هو من أوقد نار هذه المادة، وذلك يعيدنا إلى فتنة آدم (عليه السلام) الأولى في الجنة بعد وسوسة الشيطان له وأكله من الشجرة. وكذلك يعيدنا إلى حقيقة الفناء المذكورة في قوله تعالى: "كل من عليها فان" {الرحمن: 26}، حيث نقول إن هذا الفناء

لا يكون إلا من خلال فعل الإنسان وإفساده في الأرض، وأبرز فساد من خلال استخدام نظير الهيدروجين المسمى ديوتيريوم (Deuterium) ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي في صناعة السلاح النووي، إلى جانب تسخير سرعة الضوء في استخدام هذه الأسلحة النووية من خلال كثرة تسخين الإلكترونات التي يحفزها إلى مستوى الطاقة الموجودة فيه إلى مستوى طاقة أعلى منه من خلال عملية إثارته الإلكترونات ثم عودتها لمستواها الأصلي لتكون ضوء متكون من جسيمات (فوتونات). إن تكرار هذه العملية بشكل مفرط سوف يؤدي إلى اضطراب مادي، وليس أقله سقوط الإلكترون داخل النواة، حيث ينتج عن ذلك حدوث خلل في بنية النواة، وبالتالي يؤثر على ثباتية الذرة فتفنى وتنعدم من الوجود، وهذا غير ممكن كما ثبت بالتجربة، لكننا نقول إنه ممكن مع الزمن البعيد وعندنا حجة شرعية ومادية عملية سوف نشرحها عند ذكر أنواع الإلكترونات، والفرق بين الإلكترون الحر المغلق (محدود مسار الحركة)، والإلكترون الحر (المفتوح مسار الحركة)، وحالات سقوط الإلكترون في النواة. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص355}. إذا فهمنا موضوع العلاقة بين ما هو سماوي علوي (الجنة ودرجاتها) وأرضي دنيوي (النار ودرجاتها) سوف ندرك مكانة ودور الإنسان ونشاطه في الحياة الدنيا، وما تركه من بعده في الحياة الدنيا لأجل حياة الآخرة أو حياة الخلود. بالتالي نحن لا نوافق الشوكاني في قوله إن جميع درجات النار جميعها تسمى "الطبقة العليا" [1] ولا نوافق قول الجاحظ بأن "النار سماوية علوية" [2]، بل نسميها "الطبقة السفلى" لأن النار سفلية، والجنة علوية، وسفلية النار ليس لأنها تقع أسفل درجات الجنة، بل لأن الحر يعتبر

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج5، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص339.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص94.

درجة من درجات العقاب الإلهي وهو دنيوي طبيعي، ولأن أكثر درجات النار قعراً هي درجة ما دون أرضية وهي الهاوية، وتكون في حفرة عميقة في باطن الأرض فيها نيران كالبراكين وغيرها. نقول: إن النار كلما ارتفعت صارت أكثر خفة حتى تصير كالهواء الحار، وكلما دنت وأسفلت كلما صارت انصهارية ثورانية جامدة ثقيلة. قال الجاحظ: النار جسم صرف غير ممزوج، ومرسل غير مركب، ومُطلق القوى، غير محصور ولا مقصور، والنار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء [1]. نقول: ليست كل النار فوق الأرض كما يقول الجاحظ، بل إن ما هو موجود تحت الأرض يعتبر أكثرها هوّة وتسمى نار الهاوية. كما أن النار ليست فوق الهواء كما ذكر، بل هي أدنى من الهواء، والهواء يحمل سخونة النار ويتفاعل مع لهيبها. إن أفضل وأشمل ما قيل في علاقة الهوى بالهاوية هو عند الأصفهاني، حيث ذكر أن الهوى هو ميل النفس إلى الشهوة. ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سُمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى سقوط من علو إلى سُفل. وقد عَظّم الله تعالى ذمَّ اتباع الهوى فقال تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه" {الجاثية: 23} وقال تعالى: "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب" {ص: 26} وقال تعالى: "ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه" {الأعراف: 176} وقوله تعالى: "ولئن اتبعت أهواءهم" {البقرة: 120} فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثم إن هوى كل واحد لا يتَنَاهى، فإذا اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة، وقال عزوجل: "ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون" {الجاثية: 18} وقال تعالى: "كالذي استهوته الشياطين" {الأنعام: 71} أي حملته على

---

[1] المصدر السابق، ص94.

اتباع الهوى. وقال تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا" {المائدة: 77} وقال تعالى: "قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت" {الأنعام: 56} وقال تعالى: "ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله" {الشورى: 15} وقال تعالى: "ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" {القصص: 50} والهوى ذهاب في انحدار، والهوى ذَهَاب في ارتفاع [1]. نقول: إذا كان الهوى ذهاب في انحدار فهو يتعلق بالنار البركانية الموجودة في باطن الأرض، ويُسمى الدرك الأسفل لأنه ليس دنيوياً أو شبه دنيوي فحسب، بل أقل بكثير من أن يكون دنيوياً، فهو هوى أدنى من الحياة الدنيا في الأرض، وأعلى من الحياة العليا في الجنة، فهو في الأرض هوى مطلق زائد عن الحد الإنساني والأخلاقي، وفي الجنة يفوق هوى آدم (عليه السلام) في اتباعه لوسوسه الشيطان من خلال المساس بالشجرة التي أنزلته إلى الأرض. بالتالي تكون جملة الأصفهاني "الهوى في انحدار" تعبير عن خلود الإنسان في الهاوية وهذه لا نجاة منها أبداً، لأن الإنسان يتحول من خلالها إلى شيطان مارد في الأرض والسماء. إذا أدركنا ذلك، سوف نفهم أن "الهوى في ارتفاع" يقصد به الهوى (المرئي وغير المرئي)، فأما المرئي فهو الذي يتجسد في البشر ولغتهم وتصرفاتهم وأعمالهم على هيئة شياطين، وأما غير المرئي فهو الشياطين المخلوقة من النار والتي توسوس في صدور الناس. بالتالي فإن هذا الهوى بنوعيه (المرئي وغير المرئي) يتراوح بين سطح الأرض وصولاً إلى أدنى وربما أوسط درجات الجنة، وبالتالي يدخل فيه كل درجات النار العشرة التي شرحناها، ويدخل فيه معنى كلمة "زحزح" في قوله تعالى: "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {آل عمران: 185}. وإذا أردنا فهم العلاقة بين "الغرور والشياطين والنار"، لا بد من مراجعة شرحنا لمعنى التفاخر، ودلالة

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص712.

جملة "تفاخر بينكم" في قوله تعالى: "واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مُصفراً ثم يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {الحديد: 20}. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص372}.
نقول: لما ضرب الله مثلاً في الآية على اللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، وقال إن كل ما سبق هو مثل النبات الذي يعجب الكفار في طريقة نموّه ثم وصوله إلى مرحلة الاصفرار ثم إلى الحطام، كان ذلك تعبيراً عن هشاشة الحياة الدنيا، وهي تأكيد على أن كل فعل بني آدم الذي سبق ذكره في بداية الآية هو متعلق أصلاً بفتنة آدم (عليه السلام) الأولى، وهي المساس بالشجرة في الجنة والتي أنزلته إلى الأرض، فتتابعت الفتن عليه وتكاثرت وزادت سوءاً كاللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد. ولقد عبّر الله في آية أخرى عن مكمن الخطورة في العلاقة بين النفس البشرية وبين شهوة الغذاء فقال تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون" {يس: 80}. هذه الآية تدلنا على أن فتنة الشجرة في الجنة، هي ذاتها فتنة الشجرة في الأرض، لأن بداية هذه الشجرة تكون خضراء مثمرة وهي غذاء للإنسان، ونهايتها عند الله هي تحوّلها إلى حطب صالحٍ للإيقاد لأهداف متعددة، منها إنضاج الطعام أو التدفئة مثلاً، وكل ذلك لخدمة الإنسان، فمتى استسلم الإنسان لفكرة أن الشجر العلوي والدنيوي ليس الأصل في دار الخلود الأبدي، صار ذلك حقاً وحقيقة مطلقة. عموماً إن النظرة الإنسية للعلاقة مع الشجرة العلوية والأرضية تتعلق بطبائع البشر ومسلكياتهم في الحياة الدنيا. قال الجاحظ: ليس بين الأرض وبين الإنسان، ولا بين الإنسان والماء، ولا بين الهواء والإنسان، مثل قرابة ما بينه وبين النار. وقال: إنما قضيت لها بالقرابة، لأني وجدت الإنسان يحيا ويعيش في حيث تحيا النار

وتعيش، وتموت وتتلف حيث يموت الإنسان ويتلف [1]. نقول: إننا ننكر هذا الوصف لبعض الأوائل الذين شبّهوا ما بين النار والإنسان، فجعل ذلك قرابة ومشاكلة، لأنهما لا يتشاركان في مادة الخلق، لكن ربما يكون بينهما استقطاب أو تجاذبية خلال عملية الإحياء للأرض لما يتطلبه ضرورة العيش، وهذا يُبنى على الشهوة البشرية. ومن ناحية أخرى فإن الذي ينظم علاقة الإنسان مع النار هو علاقته مع إتباع الهوى، فأما من اتبع هواه وشهوته كان أقرب إلى بيئة النار السفلية، وأما من اتبع سكينته كان أقرب إلى بيئة الحياة الدنيا، وأما من اتبع منطق عقله وعلمه كان أقرب إلى بيئة الفردوس الأعلى من الجنة. بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن الهوى، نقول: إن منه الهواء، والهواء ما بين الأرض والسماء، وقد حُمل على ذلك قوله تعالى: "وأفئدتهم هواء" {إبراهيم: 43} إذ هي بمنزلة الهواء في الخلاء [2]. قيل في معنى: "وأفئدتهم هواء" أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهشة، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء، أي: لا أرى فيه ولا قوة. وقيل: المعنى إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير [3]. نقول: إن الدليل على أن القلوب خالية خاوية، هي أنها لا تعقل ولا تبصر، وعموماً هذا وصف يشمل كل الناس التي تميل إلى الأشياء الحية وغير الحية من دون وعي أو تفكير، أي تميل للشهوة أو للطيش، والشهوة والطيش كلاهما من سوء عمل الشيطان. قيل: إن الإنسان جوهر مركب من النفس والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف الموجودة في العالم السفلي، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي. وتقرير هذه الفضيلة في النفس الإنسانية هي أن النفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث: وهي

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص109.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص712.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص752.

الاغتذاء والنمو والتوليد. أما النفس الحيوانية لها قوتان: الأولى: الحساسة، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. والثانية: الحركة بالاختيار، فهذه القوى الخمسة، أي الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الإنسانية، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي. وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه، وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هي، وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والأرواح المجردة الإلهية، فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل إلى تلك القوى الخمسة النباتية والحيوانية. وقيل في تكريم الإنسان، روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ''كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيديه'' [1]. زيادة على ما سبق، نقول: إن أشرف مراتب الإنسان تكمن في روحه، والروح خمسة أنواع، كلها متكاملة أخلاقياً إلا ما يدخل عليها بفعل صنيع الإنسان، وهي: **الأولى:** روح حارة انفعالية بهيمية أقل من دنيوية تشدها الغرائز الشهوية ما دون الأرضية التي تقع أسفل الحيوانات وفي روث البهائم. **الثانية:** روح دنيوية متاعية مفتونة تقع فوق الأرض وتختص باللهاث وراء الأطماع واللهو والزينة واللعب والشبهات والفتن. **الثالثة:** روح أخلاقية مرتفعة تسمو على الصغائر والكبائر وتحتسب أفعالها وأقوالها عند الله. **الرابعة:** روح جمالية تأملية علوية سماوية تترفع عن الآثام، وتتعلق بالآخرة وتؤدي ما عليها من واجبات دنيوية لدرجة الكفاية والكمال غير المطلق. **الخامسة:** روح نبوية علمائية صادقة طاهرة فوق علوية لا يضاهيها أي روح ولا تنزل إلى أي دنيا أو سماء وهي

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص13.

روح ملائكية، وهي أقرب الأرواح إلى الله. **السؤال هنا، هل يوجد علاقة بين الهواء والماء؟**

نقول: نعم. قيل إن الهواء سريع الاستحالة إلى الماء، وكذلك الماء إلى الهواء، للمناسبة التي بينهما من الرطوبة والرقة وإنما هما غير سيَّارين. كما أن الماء والهواء يتشابهان لسرعة قبولهما للحر والبرد، والطيب والنتن، والفساد والصلاح [1]. ونقول: إن الماء للثبات والهواء للطيش والخفة. كما أن الماء للإحياء والهواء للأخذ بالإحياء. والماء دائم لا ينقطع ودورة حياته لا تنقطع لأنه ينزل من السماء، والهواء منقطع ودورة حياته أقل لولا الأشجار والحياة النباتية.

نسأل هنا، لماذا نقول إن الهوى بنوعيه (المرئي وغير المرئي) يدخل في أدنى درجات الجنة وليس كل درجات الجنة؟

علاقة الهوى (المرئي وغير المرئي) بأدنى درجات الجنة

نقول: أي هوى مرئي وغير مرئي يتعلق بوساوس الشياطين، والشياطين لا توجد في الفردوس الأعلى، ولا تحيط بعرش الرحمن مثل الملائكة، بالتالي لا يوجد الهوى في أعلى أو أدنى درجات الجنة. أما الهواء فهو أخف من الماء في الحركة، وهو أسرع من الماء، ولأن ماء الجنة غير ماء الأرض وغير ماء العذاب، فإن الشياطين ليس لها وجود في ماء الجنة في الفردوس الأعلى، والدليل على ذلك وجود خلود أبدي في الجنة وفق نص القرآن الذي عبر عن ذلك بكلمة "خالدين فيها" في كثير من الآيات والتي جاءت مع ذلك جملة "تجري من تحتها الأنهار" وهذا دليل على أن ماء الجنة يختلف عن أي ماء لقوله تعالي: "فيها أنهار من ماء غير آسن.." {محمد: 15}، فالذي يدخل الجنة ويخلد فيها أبداً، يكون تحته ماء علوي، وليس ماءً دنيوياً،

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص90.

أي أنه ليس كماء المُهل، ولا يشوي الوجوه، وليس كالماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين والذي يُصنع منه السلاح النووي التدميري في الأرض، بل هو ماء فيه خفة النيتروجين ونسمات الأوكسجين العليلة. ومن الآيات التي وردت فيها كلمة "خالدين" في إشارة للأبدية المطلقة، و"الأنهار" في إشارة للماء العلوي الذي يقع أسفل عرش الرحمن ما يلي:

- قال تعالي: "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم" {التوبة: 100}.

- قال تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مُطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً" {النساء: 57}.

- قال تعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً" {النساء: 122}.

- قال تعالى: "لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار" {النساء: 13}.

- قال تعالى: "قل أونبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد" {آل عمران: 15}.

- قال تعالى: "أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين" {آل عمران: 136}.

- قال تعالى: "قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم" {المائدة: 119}.

- قال تعالى: "فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين" {المائدة: 85}.

- قال تعالى: "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم" {التوبة: 72}.

- قال تعالى: "أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم" {التوبة: 89}.

- قال تعالى: "وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام" {إبراهيم: 23}.

- قال تعالى: "جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى" {طه: 76}.

نقول: كل ما سبق يوضح لنا أن غياب الفواصل التي يعيشها الإنسان في حياته الدنيا من خلال مراوحته بين (الكفر والإيمان) أو (الزهد والجشع)، أو (الكرم والبخل)، أو (الفضيلة والرذيلة)، أو (العلم والجهل)، أو (الاعتكاف والسهر) وغيرها، هي نفسها ذات الفواصل التي تتلاشى بين الجنة والنار في الحياة الآخرة. والدليل على علاقة حب الدنيا وشهواتها أو ابتغاء الآخرة ونعيمها من جهة، مع الدرجات التي يكون فيها المؤمن والكافر يوم القيامة من جهة أخرى قوله تعالى: "زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب" {البقرة: 212}.

الثاني: ماء إحياء الأرض (النباتات والحيوانات)

نقول: كل أنواع الماء التي يستخدمها الإنسان والموجودة في الطبيعة مصدرها الأودية والأنهار، وكذلك المياه الجوفية ومياه البحار والبحيرات والمحيطات مصدرها الرواسب التي تنزل من الغلاف الغازي إلى سطح الأرض، وهذه الرواسب: المطر والثلج والبرد والندى. قيل: إن الماء أصله (ماه) فأبدلت الهاء همزة. ويجمع الماء على أمواه ومياه. والماء هو السائل اللطيف الشفاف. ومنه العذب الذي يكون منه الري عند تناوله، كماء السماء وماء الأنهار. ومنه المالح الذي لا يشرب كماء البحار [1].

أولاً: النباتات

الآية الأولى:

قال تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}.

كانت السماء لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السماوات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها. وقيل: "ففتقناهما" بالمطر والنبات [2]. وقال الشوكاني: يعني: أنهما كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما [3]. وهذا ما قاله ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة. وكذلك قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحاً توسطتها ففتحها بها، وجعل السماوات سبعاً والأرضين سبعاً. وقول ثان قاله مجاهد

---

[1] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج6، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص69.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج17، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص677.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص934.

والسدي وأبو صالح: كانت السماوات مؤتلفة طبقة واحدة، ففتقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة، ففتقها فجعلها سبعاً [1]. وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت [2]. وقال رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر، والتقدير: كانتا ذواتي رتق، ومعنى "ففتقناهما" أي: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، وأبقينا الأرض مكانها [3]. وذكر في نهاية الآية قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي". قال القرطبي: فيها ثلاث تأويلات:

أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة، [4] وذكره ابن كثير [5]. الثاني: حفظ حياة كل شيء {حي} بالماء. الثالث: وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي؛ قاله قطرب [6]. وقال الخوارزمي: معنى "وجعلنا" لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله: والله خلق كل دابة من ماء

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص195.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص934.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص197.

[5] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

[6] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص197.

{النور: 45} [1]. وهذا ما ذكره الرازي [2]. وكذلك قال الشوكاني: أي: أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى: أن الماء سبب حياة كل شيء؛ وقيل: المراد بالماء هنا النطفة، وبه قال أكثر المفسرين [3]. نقول: إن قوله تعالى: "جعلنا" أي خلقنا، فالماء كمادة هي من خلق الله، ويعجز الإنسان عن خلقها في الأرض. أما بالنسبة للمعنى فالخلق من ماء في الآية يشمل كل الكائنات الحية ومنها آدم (عليه السلام) والنباتات والحيوانات. ولأننا نشرح علاقة الماء بإحياء النبات فنقول: إن إحياءه يشترك فيه ذات المواد التي خلقت آدم (عليه السلام) وهي الماء والتراب/الطين والحرارة التي نتجت عن الرياح بفعل الطاقة الشمسية. على سبيل المثال: إذا وضعت بذرة قمح في الأرض الصالحة للزراعة وسقيتها بالماء تشربت البذرة بعض ذلك الماء فانتفخت وتنبهت وظائفها الحيوية بالحرارة الأرضية فأخذت في العمل لتكوين النبات. وبالنسبة لمحتويات هذه البذرة، فإن بذرة القمح وكل بذرة من نوعها مكونة من جنين، أي خلية حية موجودة في باطنها، ومن مادة دقيقة مؤلفة من مواد صالحة لتكوين الأجزاء النباتية ومواد صالحة لتوليد الحرارة، أي من مواد آزوتية ومواد أيدروكربونية. ومع هذه المواد الأيدروكربونية التي هي نشوية خميرة تسمى بالدياستاز وظيفتها إحالة النشا إلى مادة سكرية تقبل الذوبان ليمكن أن يتغذى بها الجنين. وأما النشا على حالته العادية فلا يذوب كما هو معلوم فلا يصلح غذاء للنبات، فمتى وضعنا بذرة القمح في الشروط الموجبة للإنبات، أي في أرض صالحة، وسقيناها بالماء

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج17، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص677.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص163.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص934.

تيقظت وظيفة تلك الخميرة فأحالت المادة النشوية إلى سكر ويتخلله ماء السقي فيذوب ويتشربه الجنين فتتولد فيه الحرارة من هذا التحلل والتركيب وتكون المواد الآزوتية قد ذابت أيضاً بماء السقي فيتشربها الجنين أيضاً فيزداد جسمه ويتضاعف ولا يزال يتغذى على هذا الأسلوب وينمو حتى ينفذ المخزون عنده من المادة النشوية (أي الأيدروكربونية) المولدة للحرارة ومن المادة الآزوتية المولدة للأنسجة وإذ ذاك يكون قد نما له جذير يتجه إلى الأسفل وسويق يتجه إلى الأعلى يكونان كفأين لأن يغذيا النبات من الأرض والهواء. فانظر إلى حكمة الله كيف أحاط الجنين وهو الخلية الأولى بحاجته من المواد المولدة للحرارة والأعضاء لعجزه عن تناولها من الأرض والهواء مباشرة، وقدرها تقديراً بحيث تنفذ عندما يوجد له جذير وسويق قادران على اجتلاب الغذاء له من الطبيعة مباشرة. فمتى يتكون للنبات جذير وسويق، يعمد الجذر على امتصاص المواد الأرضية واصعادها إلى جميع أجزاء النبات لتغذيته بعد أن تستحيل إلى مواد صالحة بواسطة الحرارة، ولا يدري إلا الله وحده كيف تستحيل هذه المواد الأرضية إلى أجزاء حية صالحة لأن تكون أجزاء النباتات الغضة، ولا كيف لا يأخذ كل نبات إلا المواد الضرورية له دون سواها مع أن المواد كلها منبثة في التراب على السواء [1].

في سياق متصل حول علاقة الإنتاج للكائنات الحية خلال عملية "فتق الرتق" و "جعل كل شيء حي من الماء" كان العلماء يحتاجون بإلحاح إلى تفسير وجود المركبات العضوية التي تنتجها حصراً الكائنات الحية، الحيوانات والنباتات، كمقدمة لنشوء الكائنات الحية التي لم تكن قد وجدت بعد. في عام 1953 قام طالب يدرس الكيمياء في جامعة شيكاغو اسمه ستانلي ميلر بتجربة حاسمة. قام أولاً بتأمين المواد التي قيل له أنها كانت موجودة في الغلاف الجوي الأول، أي

---

[1] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص6.

أنه أخذ الميتان والأمونياك فقط، وخلطهما مع الماء ثم وضع المحلول في وعاء زجاجي مغلق. كان الآن لم يزل يحتاج إلى منبع حراري، إلى مصدر للطاقة، وقرر عند اختياره لمصدر الطاقة اللازمة لإحداث التفاعل أن يقلد الحالة الأصلية للغلاف الجوي الأول تماماً بقدر ما هو ممكن. ما هي مصادر الطاقة الطبيعية الموجودة على الأرض آنذاك؟ أول ما يخطر على البال هو الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس وتفريغ الشحنات الكهربائية (البرق أو الصعق) الذي كان آنذاك على الأرجح. قرر ميلر أن يستخدم تفريغ الشحنات. لذلك وصل وعاءه الزجاجي بخط للتوتر العالي وأمن ما يلزم لتفريغ شخات كهربائية قوية مسلطة على المحلول الذي يحتوي الوعاء. لقد أدت الطاقة المحضرة بإحداث برق اصطناعي والتي أمد بها هذا المحلول البسيط المؤلف من الأمونياك والميتان والماء خلال 24 ساعة فقط أدت إلى تشكل (بالإضافة إلى سلسلة من الاتحادات الأخرى) ثلاثة من أهم الحموض الأمينية دفعة واحدة: غليزين، آلانين وآسباراجين. هذه الحموض هي ثلاثة من أصل ما مجموعة فقط عشرون حمضاً أمينياً التي تتكون منها جميع أنواع البروتينات البيولوجية الموجودة على الأرض. ويتكون البروتين "كمادة حياتية" مليئة بالأسرار الغامضة بالنسبة لعلماء البيولوجيا، من سلاسل طويلة من الحموض الأمينية المعلقة بجانب بعضها البعض. يمكن أن تتألف السلسلة من 100 حتى 30000 حلقة "حمض أميني" مختلفة [1]. قُدمت هذه التجربة في تلك السنين باعتبارها خطوة كبيرة لصالح نظرية التطور، ولكن تبين بعد سنوات أن الخليط الذي استعمله ميلر لم يكن يطابق الجو الحقيقي للدنيا

---

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص86، 87.

[1]. وبعد صمت طويل اعترف ميلر نفسه بأن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً [2].
لقد أظهرت جميع الأدلة بشكل قوي أن الغازات الطبيعية في الغلاف البدائي كانت ثاني أكسيد الكربون "CO2"ونيتروجين "N2" وبخار الماء "H2O" وليس ميتان وهيدروجين وأمونيا [3]. نقول: إننا نؤيد الطرح القائل بأن النيتروجين هو من الغازات الطبيعية في الغلاف الجوي البدائي لأن النيتروجين له أسبقية في وجوده، ولكننا لا نؤيد استبعاد غاز الهيدروجين لأنه أحد أهم العناصر المكونة للماء، والماء موجود منذ خلق الكون، وهو أحد أسباب تكون الغلاف الجوي للأرض، وبالتالي فإن غاز الهيدروجين وغاز الأوكسجين (عنصرا الماء) كانا من الغازات الطبيعية في الغلاف الجوي البدائي. وقد أثبتت أيضاً تراكمات مؤكدة لليورانيوم والحديد في الأحجار والصخور التي تقدر أعمارها بـ 3,5 مليار عام، وجود الأوكسجين في الغلاف الجوي [4]. وأوضحت الأبحاث أيضاً وصول الأشعة فوق البنفسجية على سطح الأرض أكثر مما توقعه التطوريون بـ 10 آلاف ضعف، وهذا القدر كان كافياً لتحليل بخار الماء وثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، وذلك يؤدي إلى ظهور الأوكسجين [5]. إن وجود النيتروجين والهيدروجين والأوكسجين في الجو كفيل بخلق بيئة لوجود كائنات حية بدائية وحيدة الخلية حقيقية النوى، ولأن الحقيقة تقول بوجود الماء

---

[1] "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, Nov 1982, pp. 1328-1330.

[2] Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, 1986, p. 7

[3] هارون يحيى، معجزة البروتين، ص121، 122.

[4] New Evidence on Evolution of Early Atmosphere & Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, November 1982, p. 1328.1330.

[5] هارون يحيى، معجزة البروتين، ص123.

على شكل (البحار والمحيطات) بعد تشكل الكون والكرة الأرضية، فهذا يثبت وجود كائنات حية وحيدة الخلية حقيقة النوى في هذه البيئات المائية، لأن الماء في العرف الإلهي الشرعي يجعل كل شيء حي لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}.

لذلك يقول التطوريون إن المحيطات هي الأماكن التي تكونت فيها الحموض الأمينية لأنه يستحيل أن يدّعي التطوريون أن الحياة قد تكونت في اليابسة، لأن البيئة الوحيدة التي تحمي الحموض الأمينية التي يفترض تكوينها هي البحار بعيداً عن الأشعة فوق البنفسجية التي سوف تحترق بسبب هذه الأشعة. لكن التحلل المائي والكحولي يجزم بعدم تكون المادة الحية في البحار [1]. نقول: إن استنتاجات علماء التطور تتطابق مع الفهم العقلاني القرآني حول حقيقة علاقة الماء بالكائنات الحية. من ناحية علمية تتم عملية التحلل المائي للأحماض الأمينية وبالتالي البروتينات عن طريق تسخين عينة منها في حمض الهيدروكلوريك ذو التركيز المرتفع (7 مولر) وفي درجة حرارة مقدارها (100 - 110) أو أكثر لمدة 24 ساعة متواصلة. بالإضافة إلى أن الطبيعة الكيميائية للمياه بأنها ذات خاصية أمفوتيرية ومتعادلة تتصرف كالحمض وكالقاعدة، "وأمفوتيرية تعني أن جزيء الماء قادر على فقد بروتون الهيدروجين فيصبح حمض أو قادر على اكتساب بروتون الهيدروجين فيصبح قاعدة"، ودرجة حموضة الماء 7، فحسب هذه الخصائص نثبت بأن ماء "البحار والمحيطات" غير قادر على تحليل الأحماض الأمينية، بل هو وسط كيميائي جيد لحفظها. وتقول الأبحاث "بأن تأثير الأشعة فوق البنفسجية عند سقوطها على مياه البحار والمحيطات فيكون تأثيرها على ارتفاع درجة حرارة سطح الماء" [2]، علماً بأن تأثير الحرارة لا يصل إلى الأعماق اللانهائية

---

[1] المصدر السابق، ص127.

[2] https://pubs.rsc.org/en/content/articlehtml/2015/pp/c4pp90035a

للبحار والمحيطات، وحتى إن وصلت الأشعة فوق البنفسجية إلى أعماق المحيطات فإن هذا التأثير سيكون مؤقت في فترة النهار، وتحلل الأحماض الأمينية يحتاج إلى تسخين عن طريق الحرارة لمدة 24 ساعة أو أكثر، وهو يتنافى مع وجود الشمس في اليوم الواحد، حيث إنها توجد لمدة 12 ساعة في اليوم وليس بذات كفاءتها لعملية التسخين الكافية لتحلل الأحماض الأمينية، وبناءً على التحليلين السابقين فإن مياه البحار والمحيطات وسط مناسب للحفاظ على الأحماض الأمينية.
عندما نتحدث عن المحيطات، لابد وأن نذكر البورفيرين (Porphyrin)، وهي عبارة عن مركبات كيميائية عضوية "لا تذوب في الماء" رباعية الحلقة، أي تتألف من أربع حلقات كربونية متصلة ببعضها البعض وتحمل ضمن كل حلقة ذرة نيتروجين وتعرف هذه الحلقات باسم "Pyrrole Rings". والبورفيرينات قادرة على تشكيل معقدات مع المعادن والعناصر غير العضوية والتي تشكل مركبات كبيرة ذات أهمية بيولوجية في حياة الكائن الحي، مثل ارتباط عنصر الحديد مع البورفيرين الذي يعطينا الهيم "Heme" هو جزيء مبدئي يساهم في تكوين الهيموغلوبين. والهيموغلوبين هو بروتين يتكون من بورفيرين مع معدن "الحديد". وتتواجد ذرة الحديد في منتصف البورفيرين بين ذرات النيتروجين الأربعة. وتعتبر ذرة الحديد هي الصلة الواصلة بين البورفيرين والبروتين ضمن بنية الهيموغلوبين. والبورفيرينات تساعد الأحماض الأمينية في تكوين البروتينات [1].
يقول الفيزيائي الألماني هويمارفون ديتفورت -وهو من أنصار نظرية التطور- "إذا كان البورفيرين قد وجد بغزارة نسبية بين جزيئات المحيطات الأولى فإننا نستطيع أن نفترض أن بعض الخلايا التي نشأت آنذاك قد استخدمته كمادة أولية في تركيبها. يعترف هويمارفون أن هذا حصل بالصدفة المحضة ولم تكن له في البداية أية أهمية تذكر.

---

[1] https://www.youtube.com/watch?v=zpkZd6YDtm8

غير أن هذه الحالة تغيرت فوراً عندما بدأت الأزمة الغذائية الأرضية الأولى كنتيجة لاختلال التوازن بين امدادات الجزيئات العضوية الجديدة المتشكلة بطريقة لا بيولوجية وبين حاجة الخلايا الناشئة لتوها لهذه الجزيئات. يملك البورفيرين، مرة أخرى بالصدفة البحتة، خاصية امتصاص، "ابتلاع" الضوء المرئي في المجال الطيفي "أي في المجال الذي يصل عملياً بدون إعاقة إلى سطح الأرض تحت جميع الشروط الجوية". لكن بما أن الضوء، شأنه شأن جميع الموجات الكهرطيسية، ليس سوى شكل من أشكال الطاقة الخاصة، فإن هذا يعني أن جزيئات البورفيرين تستطيع امتصاص الطاقة الموجودة في ضوء الشمس المرئي. بذلك منحت الخلايا التي تحتوي في جسدها بالصدفة جزيئات البورفيرين فرصة رائعة لم تكن تحلم بها، إذ تحولت الآن فجأة، كنتيجة للتبدل العميق في شروط الوسط المحيط، ملكيتها "كميات البورفيرين"، التي كانت حتى ذاك الوقت بدون قيمة، إلى ميزة حاسمة. بينما كانت زميلاتها، التي لا تحتوي على البورفيرين، تتعرض لخطر الموت جوعاً، وبدأت بدون شك التهام بعضها البعض كلما سنحت الفرصة بذلك. ويخلص هويمارفون إلى أنه "ما من أحد يعرف حتى اليوم ما هي بالتفصيل العمليات الكيميائية والأنزيمية التي مكنت الخلايا التي تحتوي على البورفيرين من استغلال الطاقة الضوئية" [1].

الآية الثانية:

قال تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص147.

وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" {البقرة: 164}.

هذه الآية قدم لها فخر الدين الرازي شرحاً طويلاً هاماً، لكننا سنذكر ما أشار إليه الرازي فيما يتعلق بالماء، ونزيد عليه ما لم يذكره الرازي وغيره من المفسرين. نقول: إن الآية مقسمة إلى أقسام، وهي أولاً: خلق السماوات والأرض. ثانياً: اختلاف الليل والنهار. ثالثاً: الفلك التي تجري في البحر. رابعاً: إنزال الماء من السماء لإحياء الأرض بعد موتها. خامساً: بث الدواب في الأرض بفعل الماء. سادساً: تصريف الرياح والسحاب في الأرض بعد نزول الماء. والأهم من كل ما سبق أن الخطاب القرآني جاء على ذكر كل هذه المسائل، ثم أكد في نهاية الآية بأن كل هذه المسائل هي "آيات لقوم يعقلون" أي أن الله جعل لكل آية من آياته منفردة كحدث لها زمان ومكان وقانون ومادة.. إلخ، ثم إنه جعل من الأهمية للقوم، أي البشر عموماً أن يعقلوا هذه الآيات، واستخدام العقل يعني التفكر والإبصار في ماهيتها. سوف نذكر تفاسير المفسرين الخاصة بكل ما يتعلق بالماء، ومنها الفلك والرياح والسحاب وأثره على الأرض. قال البيضاوي: "والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس" أي ينفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفُلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيث الفُلك لأنه بمعنى السفينة. من الأولى للابتداء، والثانية للبيان. والسماء يحتمل الفلك، والسحاب، وجهه العلو. "فأحيا به الأرض بعد موتها" بالنبات "وبث فيها من كل دابة" عطف على أنزل، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو عطف على أحيا فإن الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث يعني النشر والتفريق [1]. وقال

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج2، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص154.

القرطبي في شرح: "وما أنزل الله من السماء من ماء" يعني بها الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عُدة للانتفاع في غير وقت نزوله؛ كما قال تعالى: "فأسكنه في الأرض" {المؤمنون: 18} [1]. وقيل: البث: النشر، والظاهر أن قوله: "بث" معطوف على قوله تعالى: "فأحيا" لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر. والمراد بتصريف الرياح: إرسالها عقيماً، وملقحة، وصراً، ونصراً، وهلاكاً، وحارة، وباردة، ولينة، وعاصفة، وقيل تصريفها: إرسالها جنوباً، وشمالاً ودبوراً، وصباً، ونكباً وهي التي تأتي بين مهبي ريحين، وقيل تصريفها: أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر. والسحاب سُمي سحاباً لانسحابه في الهواء، وسحبت ذيلي سحباً، وتسحب فلان على فلان: اجترأ. والمسخر: المذلل، وسخره: بعثه من مكان إلى آخر، وقيل تسخيره: ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد، ولا علائق [2]. سُئل الزمخشري في شرح معنى "وبث فيها" هل هي عطف على أنزل أم أحيا؟ وقال: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لأن قوله تعالى: "فأحيا به الأرض" عطف على "أنزل" فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة، ويجوز عطفه على "أحيا" على معنى فأحيا بالمطر الأرض، وبث فيها من كل دابة لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا [3]. وقيل: معنى "وبث فيها من كل دابة" أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها،

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص497.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج2، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص107.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج2، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص106.

وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" {هود: 6} [1]. على حين قال الرازي: إن الدلالة على الصانع من وجوه (أحدها) أن تلك الأجسام، وما قام بها من صفات الرقة، والرطوبة، والعذوبة، ولا يقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى، قال سبحانه: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين" {الملك: 30} (وثانيها): أنه تعالى جعله سبباً لحياة الإنسان، ولأكثر منافعه، قال تعالى: "أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون" {الواقعة: 68} وقال تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30} (وثالثها): أنه تعالى كما جعله سبباً لحياة الإنسان، جعله سبباً لرزقه، قال تعالى: "وفي السماء رزقكم وما توعدون" {الذاريات: 22}، (ورابعها): أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة، التي تسيل منها الأودية العظام تبقى معلقة في جو السماء وذلك من الآيات العظام (وخامسها): أن نزولها عند التضرع واحتياج الخلق إليه مقدار بمقدار النفع من الآيات العظام، قال تعالى حكاية عن نوح في سورة نوح: "فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (10) يرسل السماء عليكم مدراراً" (11) (وسادسها): ما قال (فسقاه إلى بلد ميت) وقال تعالى: "وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5} فإن قيل: أفتقولون: إن الماء ينزل من السماء على الحقيقة أو من السحاب، أو تجوزون ما قاله بعضهم من أن الشمس تؤثر في الأرض فيخرج منها أبخرة متصاعدة فإذا وصلت إلى الجو البارد بردت فثقلت فنزلت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز، فاتصلت فتولدت من اتصال بعض تلك الذرات بالبعض قطرات هي قطرات المطر. أما قوله تعالى: "فأحيا به الأرض بعد

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج1، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص475.

موتها" فاعلم أن هذه الحياة من جهات، (أحدها): ظهور النبات الذي هو الكلأ والعشب وما شاكلها، مما لولاه لما عاشت دواب الأرض (وثانيها): أنه لولاه لما حصلت الأقوات للعباد (وثالثها): أنه تعالى ينبت كل شيء بقدر الحاجة، لأنه تعالى ضمن أرزاق الحيوانات، بقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها"، (ورابعها): أنه يوجد فيه من الألوان والطعوم والروائح وما يصلح للملابس، لأن ذلك كله مما لا يقدر عليه إلا الله، (وخامسها): يحصل للأرض بسبب النبات حسن ونضرة ورواء ورونق فذلك هو الحياة. واعلم أن وصفه تعالى ذلك بالإحياء بعد الموت مجاز، لأن الحياة لا تصح إلا على من يدرك ويصح أن يعلم، وكذلك الموت، إلا أن الجسم إذا صار حياً حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء، والنشور والنماء، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء، وهذا من فصيح الكلام الذي على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة. واعلم أن إحياء الأرض بعد موتها يدل على الصانع من وجوه: (أحدها): نفس الزرع لأن ذلك ليس في مقدور أحد على الحد الذي يخرج عليه، (وثانيها): اختلاف ألوانها على وجه لا يكاد يحد ويحصى (وثالثها): اختلاف طعوم ما يظهر على الزرع والشجر، (ورابعها): استمرار العادات بظهور ذلك في أوقاتها المخصوصة [1]. نقول: إن الله بدأ الآية بحديثه عن خلق السماوات والأرض وهو فتق الرتق "الانفجار العظيم للكون"، والذي نتج عنه وجود الأرض والشمس والقمر والنجوم وباقي الكواكب، وقد جعل الله الليل والنهار في الكون نتيجة تعاقب الشمس والقمر، ثم كان للبحر نصيب من الذكر من خلال الإشارة إلى كونه ماء فيه خيرات نافعة للإنسان، ثم تلا ذلك إنزاله للماء من السماء كنتيجة تابعة لخلق السماوات والأرض ودورة الليل والنهار وما في النهار من ظهور

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص219، 220.

للشمس، ثم بث في الأرض الدواب، ثم صرّف الرياح والسحاب بين السماء والأرض. بناءً على ما سبق، يكون الله قد جعل لكل خلق خَلَقه وذَكَره في الآية دوراً في خدمة الإنسان، فالليل جعله للسكون والراحة والنوم، وجعل النهار للمعيشة والعمل والسعي في مناكبها، على حين جعل البحر للإنسان كي يُجري فيه الفلك وينتفع من خيراته، ثم جعل إنزال المطر لإحياء الأرض بإنبات النبات ثم جعل لنزول الماء دوراً في بث الدواب في الأرض. إن الزمخشري عطف قوله تعالى: "وبث فيها" على قوله "أنزل الله من السماء" لكننا نقول: إنها معطوفة على كلمتي "أنزل" و "أحيا" **لماذا؟** لأن الإنزال للمطر وله دور في إحياء الأرض التي تلعب دوراً في إحياء الكائنات الحية ومنها النباتات والحيوانات، فكان الإنزال والإحياء لهما نفس العمل مع التتالي، أي الأول فالثاني.

الآية الثالثة:

قال تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار" {إبراهيم: 32}.

قال الشوكاني: المراد بالسماء هنا جهة العلو، ويدخل فيه السحاب عند من قال: إن ابتداء المطر منها، وتدخل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح. وتنكير الماء هنا للنوعية، أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو ماء المطر [1]. وقيل: لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب. وقوله تعالى: "وأنزل من السماء

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص748.

ماء" فيه قولان: (الأول): أن الماء نزل من السحاب، [1] وهذا ما قاله القرطبي [2]. وسمي السحاب سماء اشتقاقاً من السمو، وهو الارتفاع. (والثاني): أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قمة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطراً عليهم، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً بالبصر كان النزاع فيه باطلاً [3]. نقول: إن غالبية الآيات التي ذكر فيها الماء سبقها ذكر السماوات والأرض، وتلاها ذكر إحياء الأرض والنبات والحيوان والإنسان، ما يدل على أن هذا الترابط هو من دقة إدارة الله لما خلقه. كما أنه استحال إنزال الماء قبل خلق السماوات والأرض، علماً بأن وجود الماء سابق على وجود السماوات والأرض.

الآية الرابعة:

قال تعالى: "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون" {الأنعام: 99}.

قال الرازي: (المسألة الأولى): يقتضي نزول المطر من السماء، وعند هذا اختلف الناس، فقال أبو علي الجبائي في تفسيره: أنه تعالى ينزل الماء من السماء إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض. قال

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص129.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص144.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص129.

لأن ظاهر النص يقتضي نزول المطر من السماء والعدول عن الظاهر إلى التأويل، إنما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أن إجراء اللفظ على ظاهره غير ممكن، وفي هذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من السماء، فوجب إجراء اللفظ على ظاهره. وأما قول من يقول: إن البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض. ثم تصعد وترتفع إلى الهواء، فينعقد الغيم منها ويتقاطر، وذلك هو المطر، فقد احتج الجبائي على فساده من وجوه: (الأول): أن البرد قد يوجد في وقت الحر، بل في صميم الصيف، ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد، وذلك يبطل قولهم. ولقائل أن يقول: إن القوم يجيبون عنه فيقولون: لا شك أن البخار أجزاء مائية وطبيعتها البرد، ففي وقت الصيف يستولي الحر على ظاهر السحاب، فيهرب البرد إلى باطنه، فيقوى البرد هناك بسبب الاجتماع، فيحدث البرد، وأما في وقت برد الهواء يستولي البرد على ظاهر السحاب، فلا يقوى البرد في باطنه، فلا جرم لا ينعقد جمداً بل ينزل ماء، هذا ما قالوه. ويمكن أن يجاب عنه بأن الطبقة العالية من الهواء باردة جداً، والهواء المحيط بالأرض أيضاً بارد جداً، فوجب أن يشتد البرد، وألا يحدث المطر في الشتاء البتة، وحيث شاهدنا أنه قد يحدث فسد قولكم، والله أعلم. (المسألة الثانية): مما ذكره الجبائي أنه قال: إن البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت تفرقت وإذا تفرقت لم يتولد منها قطرات الماء، بل البخار إنما يجتمع إذا اتصل بسقف متصل أملس كسقوف الحمامات المزججة. أما إذا لم يكن كذلك لم يسل منه ماء كثير، فإذا تصاعدت البخارات في الهواء، وليس فوقها سطح أملس متصل به تلك البخارات، وجب ألا يحصل منها شيء من الماء. ولقائل أن يقول: القوم يجيبون عنه: بأن هذه البخارات إذا تصاعدت وتفرقت، فإذا وصلت عند صعودها وتفرقت إلي الطبقة الباردة من الهواء بردت، والبرد يوجب الثقل والنزول، فبسبب قوة ذلك البرد عادت من الصعود إلى النزول، والعالم كروي الشكل، فلما رجعت من الصعود إلى النزول، فقد رجعت من

فضاء المحيط إلى ضيق المركز، فتلك الذرات بهذا السبب تلاصقت وتواصلت، فحصل من اتصال بعض تلك الذرات بعض قطرات الأمطار، (المسألة الثالثة): ما ذكره الجبائي قال: لو كان تولد المطر من صعود البخارات، فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار، فوجب أن يدوم هناك نزول المطر، وحيث لم يكن الأمر كذلك، علمنا فساد قولهم. قال: فثبت بهذه الوجوه، أنه ليس تولد المطر من بخار الأرض، ثم قال: والقوم إنما احتاجوا إلى هذا القول، لأنهم اعتقدوا أن الأجسام قديمة، وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزيادة والنقصان فيها، وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلا اتصاف تلك الذرات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى، فلهذا السبب احتالوا في تكوين كل شيء عن مادة معينة، وأما المسلمون، فلما اعتقدوا أن الأجسام محدثة، وأن خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد، فعند هذا لا حاجة إلى استخراج هذه التكلفات، فثبت أن ظاهر القرآن يدل في هذه الآية على أن الماء إنما ينزل من السماء، ولا دليل على امتناع هذا الظاهر، فوجب القول بحمله على ظاهره، ومما يؤكد ما قلناه: أن جميع الآيات ناطقة بنزول المطر من السماء. قال تعالى: "وأنزلنا من السماء من جبال فيها من برد" {النور: 43} فثبت أن الحق هو أنه تعالى ينزل المطر من السماء بمعنى أنه يخلق هذه الأجسام في السماء، ثم ينزلها إلى السحاب، ثم من السحاب إلى الأرض. ونقل الواحدي في البسيط عن ابن عباس: يريد بالماء ههنا المطر ولا ينزل نقطة من المطر إلا ومعها ملك، والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالة في تلك الجسمية الموجبة لذلك النزول، فأما أن يكون معه ملك من ملائكة السماوات، فالقول به مشكلة والله أعلم [1]، نقول: إنه لا حاجة لفهم كيفية سقوط المطر إذا فهمنا ثلاثة أمور: أولاً: التسليم بوجود

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص111، 112.

الماء قبل خلق الكون، وبالتالي إمكانية تسييره وفق إرادة إلهية في الكون تماماً مثلما كانت الإرادة الإلهية نافذة في خلق الكون. ثانياً: إن الماء هو مادة وعنصرها هو ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين، فإذا فهمنا المادة سوف نعرف كيفية حالاتها في الطبيعة، والماء له حالة صلبة وسائلة وغازية، وإذا فهمنا ما سبق سوف نفهم حركته في الكون، وبالتالي نفهم عملية إدارته لإحياء الأرض والكائنات الحية ومنها النباتات والحيوانات. بالنسبة للآية نلاحظ أن ذكر الماء جاء أولاً؛ لأنه يُبنى عليه كل شيء، ولذلك قال تعالى في الآية: "فأخرجنا به نبات كل شي"، ما يعني أن لا شيء ينبت من دون الماء أو من دون إحدى مكوناته أو تفاعلاته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لأن هذا تضاد مع أصل المادة ودورها في الطبيعة، وبالتالي تضاد مع أصل إرادة الله في خلق المادة وتسخير دورها في الطبيعة. قال الرازي: الذي لا نبات له لا يكون داخلاً فيه [1]. لكننا نقول: كل شيء تم إخراجه من الأرض سواء كان نباتاً أو مخلوقاً كآدم (عليه السلام) يعتبر داخلاً فيه. أما قوله تعالى: "فأخرجنا" بصيغة الجمع، فيقصد به أن الإخراج يكون بواسطة الملائكة الموكلة بالسحاب وإنزال المطر وإنبات الزروع بأمر الله، فيكون أصل الكلمة "فأخرج" أي الله وحده لا شريك له، وقد وردت كلمة "أخرج" بصيغة المفرد في موضع مشابه في قوله تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار" {إبراهيم: 32}. قال جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة إن بطبع الأرض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى: "لنحيي به بلدة ميتة"؛ فإن الباء

[1] المصدر السابق، ص113.

في "به" تقضي أن للماء تأثيراً في ذلك [1]. **هنا يستوجب أن نسأل لماذا ذكر كلمة "فأخرجنا" في الآية مرتين لقوله "فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً.. {الأنعام: 99}؟**

نقول: الأولى "فأخرجنا" بصيغة الماضي، ما يعني أن أصل كل نبات يعود إلى إنزال الماء، وهو ما ذكره الله في بداية الآية، وأصل إنزال الماء يعود إلى خلق السماوات والأرض، وأصل خلق السماوات والأرض يعود إلى وجود الماء قبل خلق السماوات والأرض، والأصل أن الله استوى عرشه على الماء، فكان هو خالق الماء، وبالتالي هو خالق مادة الماء وعناصره. أما الثانية "فأخرجنا" فهي أيضاً بصيغة الماضي لكنها لا تعود على الماء، بل على أثر الماء والنبات معاً، أي باشتراك الماء مع النبات في الإنبات داخل التربة أخرجنا ما هو خضر من النبات، ولأن إخراجه بفعل وجود المادة -وهي الماء والتربة المخلوقتان بفعل إلهي- قد تم إنجازه وشمل فيه كل شيء، لأنه قال "فأخرجنا به نبات كل شيء"، وكل شيء هنا للإحاطة بالمجموع الكامل اللامتناهي لأنواع النباتات. كما أن كلمة فأخرجنا الثانية تعود على كل عامل على إنبات النبات، وهو في هذه الحالة الإنسان، وهذه المسألة تتطابق مع ما شرحناه سابقاً في سورة {فصلت: 39} حول القدرة على الإحياء والإخراج ما بين الله والإنسان. {انظر الشرح في هذا الفصل، ص121}. هذه المسألة تجعلنا نفهم كل ما عدده الله بعد قوله تعالى: "فأخرجنا" الثانية حيث ذكر ما في النبات من خضر، ومنه ما هو حب متراكب، ومنه النخل وما في طلعه من قنوان دانية، ثم الأعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه. قال ابن عباس: الحب المتراكب يريد به القمح والشعير والسلت والذرة والأرز [2]. وقيل

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص91.

[2] المصدر السابق، ص113.

إنه تعالى قدّم ذكر الزرع على ذكر النخل، وهذا يدل على أن الزرع أفضل من النخل. وهذا البحث قد أفرد الجاحظ فيه تصنيفاً مطولاً [1].

نقول: ليس هناك أفضلية بين الزرع والنخل من ناحية الفائدة أو النفع أو من ناحية الذكر في القرآن لأن النخل ورد ذكره مرات عديدة في مواضع تشير إلى أهميته كقوله تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب" {البقرة: 266}. وقد كان ثمر النخيل طعاماً لمريم (عليها السلام) كما ذكر في قوله تعالى: "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً" {مريم: 25} وغيرها من الآيات. مع ذلك فإن وجه المقارنة هو من ناحية الأقدمية، حيث أن الزرع أقدم من النخل، والزرع أول النباتات، والبذور أول الزرع، والتربة بيئة البذور، والماء أول حياة النبات، والضوء سابق على الماء في هذه العملية البنائية، ومنه تتم عملية البناء أو التمثيل الضوئي التي تقوم من خلالها النباتات بتحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية، وهذه العملية تنتج الأوكسجين وسكر الجلوكوز، والأوكسجين والهيدروجين (وهما عنصرا الماء)، ثم تمتصهما النباتات بمساعدة الطاقة الناتجة عن حرارة الشمس في الأرض وتفاعل حركة الرياح، وكنتيجة لهذه العملية، تُعيد النباتات تدوير المادة التي خلقها الله في الماء، وهي الأوكسجين، فتطلق النباتات الأوكسجين في الغلاف الجوي عبر الثغور، على حين تستخدم الهيدروجين لصنع طعامها، ولهذا السبب نجد أن الهيدروجين والأوكسجين هما أكثر العناصر الموجودة في جسم الإنسان. "ويحصل التفاعل بين الهيدروجين والأوكسجين بشغف كبير مطلقاً حرارة. إن الاستعداد الموجود على الأخص لدى الأوكسجين ليتحد بهذا الشكل مع الهيدروجين كبير إلى درجة أن التفاعل يحصل بمجرد مدّهما بمقدار ضئيل نسبياً من الطاقة، وكلاهما نشيط كيميائياً، كما يعبر المختصون. إن العملية بكاملها هي ببساطة

---

[1] المصدر السابق، ص114.

احتراق أو "تأكسد" الهيدروجين" [1]. هنا نشير إلى مسألة ذات أهمية تتعلق بالطبيعة، وأساس صراع الغذاء بين البشر، وهو أصلاً فتنة آدم (عليه السلام) التي نزل من خلالها إلى الأرض، وذكرت في القرآن لقوله تعالى في سورة البقرة: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" (36). إن الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء (عليهما السلام) في الجنة بقيت تعتبر في اليهودية والمسيحية "خطيئة أصلية" تلاحق بني آدم منذ ارتكابها إلى يوم القيامة، ومن منظور قرآني هي مجرد معصية ارتكبها آدم وزوجته بصفتهما الفردية وأن الله قد محاها وأبطل مفعولها بقبول توبة آدم (عليه السلام). وهذا يعني أن إغراء إبليس أو الشيطان لـ "الإنسان" هو إغراء للفرد وليس للنوع. وفي هذا يقول تعالى في سورة البقرة: قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (38) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (39) [2]. نلاحظ أن الله نهى آدم (عليه السلام) الاقتراب من الشجرة باعتبارها تمثيل لمصدر نوع واحد من الغذاء، لكنه لم يمتثل للأمر الإلهي وأصر على الاقتراب منها فأصبح ظالماً، فيكون الظلم وقع على نفس آدم (عليه السلام) لسببين: الأول: وسوسة الشيطان له، والثاني: هو الأكل من نوع من الفاكهة (الشجرة) منهي عنها، فهو لم يستمع لأمر الله في لغة النهي، واستمع لوسوسة الشيطان في نفسه، وعلى إثر ذلك أصبح ظالماً فأنزله

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص85.

[2] محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ج1، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص393.

الله مع وساوسه إلى الأرض، ولهذا قال له الله في الخطاب القرآني: "ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" {الأعراف: 24}.
وفي هذا المستقر ذكر الله -في كثير من الآيات ومنها آية {الأنعام: 99}- كيف أنه أكرم ذرية آدم (عليهم السلام) بأنواع كثيرة مختلفة من الأعناب والزيتون والرمان والتين وكل أنواع الفاكهة، لكن الإنسان هيّن ضعيف لا يدرك مكانته من مكانة المادة ولا يدرك أن الله كرمه بالعقل والروح وجعل المادة في خدمته. على سبيل المثال نأخذ مادة الهيدروجين. نقول: إن الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، أي أن نسبة الهيدروجين أكبر، وأن الشمس تتكون من عنصري الهيدروجين والهيليوم، والهيدروجين هو أبرز عناصر الغلاف الخارجي بالإضافة إلى النيتروجين والهيليوم، كما أن الهيدروجين يستخدم كعنصر مادي أساسي في صنع طعام النباتات لنفسها كي تنمو، والهيدروجين هو العنصر الأبرز والأكبر الموجود في جسم الإنسان، نقول: إذا أدركنا أن مادة الهيدروجين تدخل في كل ما سبق وهي متداخلة في خلق الماء (وهو أصل خلقها وأكبر نسبة فيه)، ثم الشمس، ثم الغلاف الجوي، ثم النبات، ثم النطفة، وبالتالي في الإنسان، فإننا سنفهم أن خالق هذه المادة -وهو الله- يقدر على إطفاء الشمس بالماء من خلال عملية استعادة "فتق الرتق" التي بدأ بها خلق الكون لأن وجود الماء أسبق من وجود الشمس، وبهذه الطريقة نفهم بشكل جزئي يوم القيامة، وهو الذي عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين" {الأنبياء: 104}.

الخلاصة هي أن دورة إحياء أو خلق النباتات في الطبيعة متطابقة تماماً مع دورة إحياء أو خلق الدواب، وهو متطابق مع دورة إحياء الإنسان في هذه الأرض. **إذا فهمنا كل ما سبق، استوجب أن نسأل ما يلي: هل يمكن أن يصير الإنسان المؤمن ملاكاً في الجنة أم أنه يحمل صفات الملائكة فقط؟**

الإنسان المؤمن ملاكاً في الجنة، أم يحمل صفات الملائكة

إجابة على السؤال: نقول: عندما كان آدم (عليه السلام) في الجنة، لم يكن مخلوقاً من نفس المادة التي خلق منها في الأرض قبل المساس بالشجرة التي أنزلته إلى الأرض، لأن الله خلقه من مادة الأرض من تراب/طين، وماء، وحرارة الشمس، بعد خلق السماوات والأرض، ونزوله إلى الأرض، ومادة الأرض لم تكن موجودة من قبل، والجنة لم تكن على هيئة الأرض، وعلم مادة خلق الجنة هو علم غيبي عند الله، أما العلم بما هو موجود فيها فهو علم معلوم بالنص القرآني، ولكنه مجهول بالصورة لعدم وقوع يوم القيامة. بالتالي لم يسقط جسد آدم (عليه السلام) من السماء على هيئة بشر، رغم أن ذلك ممكن بالنسبة للقدرة الإلهية، لكنه غير واقعي وغير منطقي، وإن الله هو كل الواقع والمنطق، لأن الله جعل آدم (عليه السلام) على هيئة حالة الإغواء والوسوسة التي أنزلته من الجنة إلى الأرض لقوله تعالى: "فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يَبلى" {طه: 120} فجعل الله مادة آدم (عليه السلام) التي خلق منها مشابهة لمادة طعامه من الشجرة التي مسها من بعد تحذير، وقد أوجدها الله له في الأرض. بالتالي نقول لم يكن آدم (عليه السلام) ملاكاً أو يحمل صفات الملائكة قبل إنزاله إلى الأرض، ولو كان يحمل صفات الملائكة لما قام بالمساس بالشجرة وأنزل إلى الأرض، ولكن من بني آدم (بعد دخول الجنة) من يحملوا بعض صفات الملائكة، أي الذين انتهوا عما نهى الله واتبعوا الهدى الإلهي، لكن الذي أنزل إلى الأرض هو الذي عصى الله فأنزله إليها وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" {البقرة: 36}. وكذلك في الآخرة بعد قيام الإنسان للحساب يوم القيامة، فإن كل من

يدخل الجنة سوف يحمل من بعض صفات الملائكة. كما أن الدليل على أن الإنسان في أعلى مراتب الجنة يكون ملائكياً أنه لا يكون له ذرية أو نسل، ولا يتغوط ولا يبول، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، ولا يتغوطون ولا يبولون. ومن جملة العلاقة بين الروح والملائكة في الجنة قوله تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً"{النبأ: 38} وقد ذكر القرطبي ثمانية أقوال في الروح [1]، لكننا نرجح أنها روح كل تقي من بني آدم (عليهم السلام)، ونقول: إن الإنسان المؤمن التقي على وجه الخصوص الذي يقوم صفاً مع الملائكة ويؤذن له بقول الصواب تكون قد تساوت روحه وصفاته الملائكية مع بعض صفات وطباع الملائكة الذين قاموا بجانبه. أما البشر الذين زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة فهؤلاء هم من صنف بني آدم (عليه السلام) الذين كانوا في الحياة الدنيا يشبهونه في الاستماع لوساوس الشياطين. إن الخلود في الجنة يكون للإنسان الذي تكون طباعه ملائكية كما كانت مشابهة لطباع الملائكة في الحياة الدنيا، ويحمل صفات ملائكية؛ لأن هذا الصنف من بني آدم (عليهم السلام) أطاعوا الله في الأرض وعبدوه وفق شريعته المذكورة في القرآن، وكذلك فعلت الملائكة التي نفذت أوامر الله منذ خلق السماوات والأرض، فالإنسان المؤمن التقي حقاً وصدقاً والملائكة يتساوون في الطاعة والعبودية المطلقة.

بالتالي لا يكون البشر عموماً من جنس الملائكة في الجنة، ولكن من بعض صفاتهم ومادة خلقهم، إلا أن الملائكة تحف رسل وأنبياء الله من جهة وعباده الله المؤمنين الصادقين الأتقياء الذين لديهم صفات النبوة. كما نشير بأن المادة التي تجمع بين خلق آدم (عليه السلام) والملائكة هي الريح كما سوف نشرح في سورة {الرحمن: 14}

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص30.

وذلك خلال إجابتنا على سؤال **هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟** والإجابة تتضمن تفاصيل عن الملائكة، وكذلك وصفهم في القرآن بأنهم "عباد مكرمون" أو أنهم "عباد الله" {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص367}، بالإضافة إلى ما ذكر حول ذات المسألة في شرح معنى سورة {الرعد: 38} {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص419} وشرح معنى "وسراجاً منيراً" في سورة {الأحزاب: 46} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص366}.

الآية الخامسة:

قال تعالى: "وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً" {الفرقان: 48}.

قال الزمخشري: "طهوراً" بليغاً في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً ويعضده قوله تعالى: "وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به" وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة [1]. وكذلك روي عن أبي حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، واستدل لذلك بقوله تعالى: "وسقاهم ربهم شراباً طهوراً" {الإنسان: 21} [2]، وقال العلماء: وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات، كالغل والحسد، فإذا شربوا هذا الشراب، يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة، فجاؤوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج19، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص748.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1044.

لهم حينئذ: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين {الزمر: 73} [1]. ومن المعلوم أن المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة، على اختلاف ألوانها وأرياحها، حتى يخالطها غيرها. والمخالط للماء على ثلاثة أضرب: ضرب يوافقه في صفتيه جميعاً {وهي: الطهارة، والتطهير}، فإذا خالطه فغيّره لم يسلبه وصفاً منهما، لموافقته لهما، وهو التراب. والضرب الثاني: يوافقه في إحدى صفتيه، وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيّره؛ سلبه ما خالفه فيه، وهو التطهير، كماء الورد وسائر الطاهرات. والضرب الثالث: يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيّره؛ سلبه الصفتين جميعاً؛ لمخالفته له فيهما، وهو النجس [2]. نقول: إن قوله تعالى: "وأنزلنا من السماء" عطف على قوله تعالى في الآية: "أرسل الرياح بُشراً"، وبذلك صار نزول الماء الطهور باعتباره نتيجة للبشرى أو فكان هو البشرى التي جاءت بها الرياح، فتكون البشرى للرياح ولنزول الماء الطهور.

الآية السادسة:

قال تعالى: "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون" {العنكبوت: 63}.

قال البيضاوي: هو اعتراف بأنه تعالى الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها [3]. نقول: إن الإجابة على السؤال داخل الآية فيه اعتراف صريح متبوع بالشكر، وهو دليل على أن كل من أقر بأن الله

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج15، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص423.

[2] المصدر السابق، ص425.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج21، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص42.

هو الذي نزل من السماء ماء موصوف بالعقلانية، وأما أكثر الذين لم يعترفوا بذلك هم لا يعقلون كما وصفتهم الآية.

الآية السابعة:

قال تعالى: "والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون" {النحل: 65}.

لقد تكرر ذكر نزول الماء من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها في كثير من الآيات، كما في الآية السابقة. نقول: المعنى أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سبباً لحياة الأرض، والمراد بحياة الأرض نبات الزرع والشجر والثمر بعد أن كان لا يثمر، وينفع بعد أن كان لا ينفع [1].

الآية الثامنة:

قال تعالى: "ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون" {البقرة: 74}.

نقول: إن الآية فيها تشبيه ومقارنة، فالمقارنة بين نوع من البشر موصوفين بقسوة القلب والحجارة، أي بين ما هو مادي روحي (قلب الإنسان) مع ما هو مادي فقط (الحجارة). أما التشبيه فهو بين قسوة القلوب وقسوة الحجارة أو شدة قسوتها، ما يعني أن الله شبَّه القلب الذي يحيا به جسد الإنسان النابض حيَّاً بالروح، بالمادة التي تتكون منها الحجارة. كما أن الله عندما وصف القسوة بدقة متناهية قال إن من الحجارة (وهي مكونة من المادة) ما يخرج منها الماء (وهو مكون من

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج20، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص65.

المادة أيضاً)، لكن الفرق بين المادتين أن العناصر المكونة للحجارة هي الأوكسجين والسيليكون، والكربون، والكالسيوم، وغيرها، على حين العناصر المكونة للماء هي ذرتي الهيدروجين والأوكسجين، وهما اللتان جعلتا كل شيء حي في الطبيعة ومنها آدم (عليه السلام) وذريته والنباتات والحيوانات، آخذين بعين الاعتبار أن الأرض في مرحلة ما خضعت لحدث الأكسدة العظيم (Great Oxidation Event) "جي أو إي" (GOE)، حيث تطورت ميكروبات المحيطات لإنتاج الأوكسجين عبر عملية التمثيل الضوئي. وهنا نسأل، **إذا كان الأوكسجين يجعل الإنسان على قيد الحياة، وبالتالي يجعل فيه الروح، فلماذا شبه الله قسوة قلب الإنسان بالحجارة التي تتكون من عنصر الأوكسجين الذي يجعل الإنسان حياً وفيه روح؟**

الشبه بين قسوة قلب الإنسان والحجارة المكونة من عنصر الأوكسجين

نقول: إن التشبيه في الآية على نوعين، الأول: "كالحجارة" والثاني: "أو أشد قسوة". أما التشبيه الأول فهو تشبيه حيوي، لأن الأوكسجين من العناصر المادية المكونة لكل من الحجارة والماء، فهو يعتبر المادة الأساسية لبقاء كافة الكائنات الحية على قيد الحياة، فجعل أجساد البشر القاسية قلوبهم تتنفس الأوكسجين، أي أنها في حالة مادية، ولكن على قيد الحياة، وفي هذه الحالة تكون الروح موجودة في جسد الإنسان الموصوف بقسوة القلب، لكنها روح معطوبة وغير حيوية، وفي هذه الحالة تكون شبه ميتة، جسد بلا روح. أما التشبيه الثاني فهو تشبيه مادي بحت، فالأشد قسوة من الحجارة هو الصخور البركانية الناتجة عن الحمم البركانية وهي الأعلى سعراً مقارنة مع الصخور الأخرى، مثل الصخور الرسوبية، والصخور المتحولة، وتعتبر الصخور البركانية الأكثر جودة بين الصخور مثل الجرانيت

والبازلت، والديوريت، لكن الصخور البركانية تشتمل على تركيبات معدنية وفيها عناصر مشعة مثل الثوريوم واليورانيوم، وأتربة مثل التنتالوم والنيوبيوم والتيتانيوم. إذا أدركنا هذه المسألة سنفهم أن هذا النوع الأشد من الحجارة ليس فيه عنصر الأوكسجين أو الهيدروجين، وبالتالي لا يتضمن أي عناصر مادية إحيائية للإنسان ككائن حي على الأقل. وأكثر من ذلك، لأن عناصر الصخور البركانية أصلها من نار، وتكون درجة حرارة النار مرتفعة جداً، بحيث تكفي لعملية صهر المعادن الموجودة في باطن الأرض، بالتالي تكون الصخور البركانية على شكل صهير ذائب ثم ترتفع وتخرج نحو سطح الأرض، حيث تتحول الصخور البركانية إلى صخور نارية، وتنخفض درجة حرارتها لكي تصبح جاهزة للاستخدام، مع العلم أن الصخور البركانية لا تنشأ على سطح الأرض لأنه يكون بارداً، وسوف نشرح سبب عدم ظهور النار على سطح الأرض، أي لماذا لا توجد بطبيعتها على التراب/الطين والماء إلا في المناطق التي تتفجر بها البراكين، ونشرح علاقة ذلك بموضوع سجود الإنسان على الأرض خلال الصلاة، ولماذا رفض إبليس السجود لآدم (عليه السلام)، وذلك في شرح سورة {الإسراء: 61}. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص289}. ولمَّا قلنا إن الصخور البركانية مكونة من نار درجة حرارتها مرتفعة، فإن النار هي مادة خلق إبليس/الشيطان. ولهذا السبب يكون الإنسان الموصوف قلبه بالأشد قسوة كأنه شيطان مخلوق من نار. وقيل: الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور [1]. فلما جعل الله تفجر الأنهار من الحجارة وتشققها لخروج الماء وهبوط بعض الحجارة من السماء من خشية الله، فإنه أراد بكل ذلك أن يجعل للإنسان صورة عن أصل المادة

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص497.

التي خلقه منها، وهي الماء، والمصدر الذي خرجت منه، فكأنه يقول إني خلقتك من الماء الذي يخرج من الحجارة المادية الصماء الذي بعضها ناري، بينما أنت لا يلين قلبك القاسي. جاء في تفاسير المفسرين للآية قول القرطبي أن "الصلابة والشدة واليُبس" هي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. قال أبو العالية وقتادة وغيرهما: المُراد: قلوب جميع بني إسرائيل. وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القتيل. روى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: "لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي". وفي مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله: أربعة من الشقاء: جُمود العين، وقساء القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا" [1]. وقيل إن الآية فيها تعليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل، فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى. والتفجر التفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد [2]. وقال الخوارزمي: المعنى: أن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً [3]. وفي معنى التفجر، قالت الحكماء إن الأنهار إنما تتولد عن أبخرة تجتمع في باطن الأرض فإن كان ظاهر الأرض رخواً انشقت تلك الأبخرة وانفصلت، وإن كان ظاهر الأرض صلباً حجرياً اجتمعت تلك الأبخرة ولا يزال يتصل تواليها بسوابقها حتى تكثر كثرة عظيمة فيعرض حينئذ من كثرتها وتواتر مدها أن تنشق الأرض وتسيل تلك المياه أودية وأنهاراً. أما في قوله تعالى: "وإن منها لما

---

[1] المصدر السابق، ص204، 205.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج1، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص112.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص83.

يشقق فيخرج منه الماء"؛ أي من الحجارة لما ينصدع فيخرج منه الماء فيكون عيناً لا نهراً جارياً أي أن الحجارة قد تندى بالماء الكثير وبالماء القليل، وفي ذلك دليل تفاوت الرطوبة فيها وأنها قد تكثر في حال حتى يخرج منها ما يجري منه الأنهار وقد تنقل، وهؤلاء قلوبهم في نهاية الصلابة لا تندي بقبول شيء من المواعظ ولا تنشرح لذلك ولا تتوجه إلى الاهتداء [1]. وقيل في معنى يشقق؛ أصله: يتشقق، أُدغمت التاء في الشين. وهذه عبارة عن العيون التي لم تَعظُم حتى تكون أنهاراً، أو عن الحجارة التي تتشقق وإن لم يجر ماء منفسح. وقرأ ابن مُصرِّف: "ينشقق" بالنون، وقرأ "لمَّا يتفجر"، "لمَّا يتشقق": بتشديد "لمّا" في الموضعين. وهي قراءة غير متجهة. قال قتادة: عَذَر الحجارة ولم يعذر شَقيَّ بني آدم. و "ما" في قوله تعالى: "لما يتفجر" في موضع نصب، لأنها اسم "إن" واللام للتأكيد. وقوله تعالى: "وإن منها لما يهبط من خشية الله". يقول: إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج الماء منها وترَدِّيها. قال مجاهد: ما تردَّى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا خَرَج منه ماء إلا من خشية الله، نزل بذلك القرآن الكريم [2].

الآية التاسعة:

قال تعالى: "وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون" {الأعراف: 57}.

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج3، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص139.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص207.

نقول: إن الجزء الأول من الآية تكرر في آية سابقة شرحناها وهي قوله تعالى: "وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته" {الفرقان: 48} مع وجود فارق وحيد وهو استخدام كلمة "أرسل" في الماضي و "يرسل" في الحاضر، والأخيرة دليل على الاستمرارية في إرسال الرياح أو نقول دليل على دورية إرسالها لأن السحاب هي التي تنزل الماء، والماء أصل وليس فرعاً وهو سابق على وجود الرياح، وكذلك على وجود الكائنات الحية، وكذلك سوف يكون هو الأصل في إعادة إخراج الموتى من الأرض وإحيائهم. قال البيضاوي: "سحاباً ثقالاً" أي بالماء. وقوله تعالى: "سقناه" أي السحاب. وقوله تعالى: "لبلد ميت" أي لأجله، أو لإحيائه، أو لسقيه. وقوله تعالى: "فأنزلنا به الماء" أي بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح. وقوله تعالى: "من كل الثمرات" أي من كل أنواعها. وقوله تعالى: "كذلك نخرج الموتى" الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت، أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس [1]. على حين قال الزمخشري: "نخرج الموتى لعلكم تذكرون"، أي: فيؤديكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه [2]. وقال الشوكاني: أي: مثل ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم [3].

الآية العاشرة:

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج8، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص549.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج25، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص985.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص480.

قال تعالى: "إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام" {الأنفال: 11}.

نقول: إن الماء في الآية هو ماء المطر. أما معنى قوله تعالى "ليطهركم به" قيل: من الحدث والجنابة [1]. وقال الرازي: أي حصول الطهارة الشرعية [2]. أما قوله تعالى: "ويذهب عنكم رجز الشيطان" يعني الجنابة لأنها من تخييله، أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش [3]. وهكذا قال الشوكاني: "رجز الشيطان" أي: وسوسته [4]. على حين قال الرازي: يعني إزالة جوهر المني عن أعضائهم فإنه شيء مستخبث، ثم تقول: حمله على إزالة أثر الاحتلام أولى من حمله على إزالة الوسوسة؛ وذلك لأن تأثير الماء في إزالة العين عن العضو تأثير حقيقي. أما تأثيره في إزالة الوسوسة عن القلب فتأثير مجازي وحمْل اللفظ على الحقيقة أولى من حمله على المجاز [5]. نقول: إن ارتباط الماء بالطهارة وذهاب رجز الشيطان عن الإنسان كله متعلق بالتطهر من النجاسة بهدف الإبقاء على النظافة ويكون ذلك بالغسل، ثم بهدف التطهر للصلاة ويكون ذلك بالوضوء.

الآية الحادية عشرة:

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص10.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص138.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص10.

[4] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج9، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص528.

[5] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص138.

قال تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" {يونس: 24}.

قيل إن معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي: صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء، أي: مثل ماء، فالكاف في موضع رفع [1]، نقول: إن الماء هو الأصل الذي يُبنى عليه اختلاط نبات الأرض، وأكل الناس من النبات، وكذلك أكل الأنعام منه. وإن هذا الماء الذي يجعل الأرض حية عامرة بإذن الله، يمكن أن يجعلها الله حصيداً مستأصلاً أو هالكاً أو غير قابل للإنبات بأمره، وبالتالي يمكن أن يكون الماء أداة من أدوات العقاب الإلهي.

الآية الثانية عشرة:

قال تعالى: "وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل وصنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" {الرعد: 4}.

نقول: إن السقيا بماء واحد تثبيت لمسألة واحدة وهي أن الماء هو ذاته لا يتغير ولا يُستبدل ولا تتغير عناصره، وهو ذاته المادة التي أوجدها الله منذ خلق الخليقة ويسقى به النبات ويشرب منه الإنسان والحيوان (كافة المخلوقات).

الآية الثالثة عشرة:

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج10، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص477.

قال تعالى: "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" {الرعد: 17}.

نقول: إن نزول الماء من السماء معلوم، وأن يسيل فيصبح ماءاً في الوادي فهذا أيضاً مفهوم، لكن الذي يستوجب تعليله هو **كيف احتمل السيل زبداً رابياً، أو زبد مثله مما يوقدون عليه في النار؟ أو ما الفرق بين الزبد الأول والثاني؟ ولماذا يذهب الزبد جفاءً؟**

قال القرطبي: ضرب تعالى مثلين للحق والباطل؛ فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويَعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فذلك الكفر تُمحَق آثاره. ومثل الحق بالجواهر التي تذاب ليُتخذ منها ما ينفع الناس، فيعلوها الزبد والخَبَث، فأما ما ينفع الناس فيبقى، وأما الخَبَثُ فيذهب [1]، على حين قال الرازي: من حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد في الأطراف ويبطل، سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض، أو ما يحفظ بالماء من الأجسام الخفيفة، ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار [2]. نقول: إن الزبد الأول يصبح زبداً كنتيجة للسيل، أي من فعل الحركة التي تثيرها الرياح، وهذا يحدث في أمواج مياه البحار والمحيطات أو أي سيول مثل الوديان عندما تمتزج الجزيئات الصغيرة من بقايا الكائنات الحية المائية بأنواعها التي تحتوي على دهون ومواد عضوية، مثل بقايا

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص48.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص36.

الأسماك، وقشورها، والطحالب وأجزاء من المرجان التي تتفاعل مع الأملاح الموجودة في البحر وغيرها من الملوثات العالقة في الماء، وتتكون رغوة بيضاء سميكة تطفو على سطح المياه وتسمى الزبد، أي أن الزبد يتكون من مواد عضوية مذابة مع الأملاح الموجودة في الماء. يبدأ الزبد بالاختفاء تدريجياً عندما تقوم الأملاح بإذابة جميع المواد العضوية (الدهون وغيرها) من بقايا الكائنات الحية والطحالب العالقة في الماء. وزيادة على ذلك، من المعروف أن "المحلول المائي للبحار البدائية كان يحتوي على خليط معقد للغاية من الأملاح المعدنية والطين اللازب والأحماض ومزيج ضخم من الكربون والغروانيات الطينية" [1]. أما الزبد الثاني في قوله تعالى: "ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله"؛ فهو زبد النار الذي يخرج عندما يتم سباكة عناصر المعادن مثل الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد وغيرها، فتقوم درجات الحرارة المرتفعة بصهر المعادن وإخراج الشوائب الموجودة فيها على شكل طبقة تطفو على سطح المعدن بعد فصلها عن الجوهر الذي يُنتفع به، على حين تُسمى هذه الطبقة زبد المعادن الذي يُرمى ويذهب جفاءً لأنه لا يُنتفع به، **وهنا يرد سؤالين:**

- **السؤال الأول: ما علاقة المواد الناتجة عن الزبد الأول والثاني بالحق والباطل؟**
- **السؤال الثاني: وما الذي يبقى في الأرض؟**

علاقة المواد الناتجة عن الزبد الأول والثاني بالحق والباطل

إجابة السؤال الأول:

نقول: إن كل الجزيئات والمواد العضوية المذابة التي تكون منها الزبد الأول المذكور في الآية كانت الأصل الذي نتجت عنه كافة

---

[1] عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص26.

الكائنات الحية في أول الحياة بعد نشأة الكرة الأرضية، وينتج عن هذه العملية تفاعل المعادن الموجودة في البحر مع بقايا المواد العضوية (الدهون) الناتجة عن موت الكائنات البحرية، فتتفاعل هذه المعادن مع الدهون للتخلص منها فتشكل رغوة بيضاء أو ما تسمى بالزبد. أما الدهون فهي ناتجة عن كائن حي سابق ميت، لأن الكائنات الحية الدقيقة تتغذى على الجثث من خلال أكل بقايا الكائنات الحية الميتة من خلال عملية تحلل الدهون، علماً بأن الدهون توجد في جسم الإنسان، ومنها الدهن المشبع، وإن أي زيادة غير طبيعية في نسبة الأحماض الدهنية تسبب السمنة. كما أن تراكمها في أجسام الكائنات الحية يحولها إلى كوليسترول، والأحماض الدهنية تنقسم إلى أحماض مشبعة وغير مشبعة. والأحماض الدهنية تتكون من الكربون والأوكسجين والهيدروجين، ومن هذين العنصرين (أي ذرتي الهيدروجين وذرة الأوكسجين) يتكون الماء، ومنه تتكون الخلية الأولى التي خُلق منها آدم (عليه السلام) وكافة البشر، علماً بأن هناك نوعان من الخلايا الحية مثل الخلية النباتية المكونة للنباتات والخلية الحيوانية التي تدخل في تكوين باقي الكائنات الحية، ويوجد في هذه الخلايا طبقة من الليبيدات المفسفرة، وتسمى فوسفوليبيد أو دهن فوسفوري (Phospholipid) والتي تتكون من مجموعة من الأحماض الدهنية. وعموماً فإن الدهن الفسفوري هو المكون للغشاء البلازمي (membrane Plasma) الذي يعتبر من المكونات الحيوية للخلية. ويجب أن نفرّق بين الغشاء البلازمي (Plasma membrane) والشبكة الأندوبلازمية الملساء (Smooth Endoplasmic reticulum) التي يتم تصنيع الدهون من خلالها، والتي تعتبر من المكونات الحيوية للخلية حقيقية النواة. نقول: إن أصل هذه الدهون هو الطعام المتحلل من الجثث، والجثث (أي الأجساد قبل موتها) كانت تتغذى على النباتات والحيوانات التي يوجد بها خلايا، والخلايا أصلها من العناصر المكونة لجزيء الماء وهما ذرتي الهيدروجين وذرة الأوكسجين. عموماً، سوف نشرح

موضوع الدهون التي وجدوها في الأحافير في الحيوانات الأدياكارية، وعلاقتها بالكوليسترول، وعلاقة الدهون بالخلية، ونجيب عن سؤال عما إذا كانت هذه الدهون في الأحافير التي هي بقايا كائنات حية موجودة قبل آدم (عليه السلام) أم لا، وذلك في شرحنا لسورة {آل عمران: 49} {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص564}. نقول: إن الشوائب وبقايا الكائنات الحية التي تحتوي على دهون ومواد عضوية وكذلك أي زيادات غير طبيعية في نسبة الأحماض الدهنية جميعها تعتبر الباطل المادي غير الإحيائي الذي يتسبب بإعطاب الحق غير المادي، وبالتالي هلاك الإنسان. **هنا نسأل ثلاثة أسئلة:**

- **السؤال الأول: إذا كان آدم (عليه السلام) أصله مخلوق من شهوة الغذاء التي لم تعصمه في الجنة وأنزلته إلى الأرض، ثم لحقتها شهوتي المال والجنس، فلماذا قال الله في الآية: "وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض"، وما الذي جعله يمكث في الأرض (في الماضي)؟**
- **السؤال الثاني: ما الذي سيجعله يمكث في الأرض (في المستقبل)؟**
- **السؤال الثالث: لماذا سيمكث في الأرض (السبب)؟**

إجابة على السؤال الأول: وما الذي جعله يمكث في الأرض (في الماضي)؟

نقول: إن في هذه الآية تعبير عن الدنيوية، أي أنها تتعلق بمصائر العباد الذين يعيشون في الأرض، لكنها ليست آية متعلقة بحياة الخلود الأبدي في الفردوس الأعلى. كما أن الذي يمكث في الأرض هو خيرات الطبيعة التي أوجدها الله في الكون بعد خلق السماوات والأرض، وسخرها لآدم (عليه السلام)، وهذا هو الحق الذي أعطاه الله لآدم (عليه السلام) في الماضي. أما الباطل فهو فساد البشر من ذرية آدم (عليه السلام) في الأرض.

أما إجابة على سؤال الثاني: ما الذي سيجعله يمكث في الأرض (في المستقبل)؟

نقول: هو الإحياء الذي يقوم به الإنسان في الأرض، وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى: "ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" {فصلت: 39} حيث أجبنا عن سؤال: **هل الإنسان قادر على الإحياء والإخراج علماً بأن هذا فعل إلهي بامتياز؟** {انظر الشرح في هذا الفصل، ص121}. بالتالي فإن الإحياء والاخراج من الأرض هو الحق، وما دون ذلك، أي الإفساد في الأرض هو الباطل.

أما إجابة على سؤال الثالث: لماذا سيمكث في الأرض (السبب)؟

نقول: لأن من إرادة الله أنه سوف يجعل هذه الخيرات دائمة أبدية في كل دورة حياة يوجد فيها خلقه في الأرض، أي أن دوام هذه الخيرات من دوام واستمرارية وجود ذرية بني آدم (عليهم السلام). وبالتالي فإن نعمة الله وإيجادها أو توفيرها وتقديرها في الأرض هي الحق، وعبث الإنسان بها وتدميرها وحرقها هو الباطل، لأن القرآن يرى الكون يقوم بالحق، وعلى الحق، والخلق ليس عبثاً. قال تعالى: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون" {المؤمنون: 115}، فالكون له بداية، كما أن له نهاية وفق برنامج مقرر مسبقاً. قال تعالى: "وَمَا خَلَقْنَا السّماء والأرض وما بينهما باطلاً" {ص:27}. وقال تعالى: "وما خلقنا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بينهما إلا بالحق" {الحجر: 85} [1]. مما سبق نستنتج أن الزبد الرابي الناتج عن السيل، وهذا الناتج عن سيلان الأودية، وهذا الناتج عن نزول المطر من السماء، تدل جميعها على أن قيمة هذا الزبد ليست أعلى من قيمة الماء، فلما قال تعالى في الآية: "أنزل من السماء ماء"، أفاد ذلك أن الزبد هو

[1] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج1، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص33.

الطارئ على الماء باعتبار أن ماء السماء هو الأصل، وهو الحق الذي ورد ذكره في الآية، ولما قال احتمل السيل زبداً كنتيجة لسيلان الأودية كان ذلك هو الفرع، والفرع هو الباطل الذي ورد ذكره في الآية. أما بالنسبة للزبد الثاني المقصود في قوله تعالى: "ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله" فهو الزبد الذي ينتج عن انصهار المعادن، وهذه العملية تسمى عملية تعدين المعادن، والمعادن لها وزن وعدد ذري، ورمز كيميائي، وكثافة، وحالة فيزيائية، ودرجة انصهار خاصة بكل معدن. فالذي ينتج عن هذه العملية هو تفاعل المعادن مع بعضها البعض، ومع درجة الانصهار تبدأ المعادن بالتخلص من الشوائب المتحدة مع العناصر المعدنية، ومن أبرز هذه الشوائب عنصر الكربون، والأوكسجين، والسيليكون التي تعتبر من مكونات القشرة الأرضية، فالعناصر المعدنية -مثل الذهب والفضة والحديد- تكون مدفونة في باطن الأرض (القشرة الأرضية) فتتفاعل مع هذه الشوائب، أي الكربون والأوكسجين والسيليكون بشكل تلقائي فتكون خامات معدنية غير نقية، فعندما يجدها الإنسان يقوم بعملية تعدين المعادن لإزالة هذه الشوائب والحصول على خام المعدن الأصلي، بالتالي يكون تشكل العناصر المعدنية -مثل الذهب والفضة والحديد- في حالتها الصلبة بعد طرد الزبد هو الأصل وهو الحق، وهذا ما جاء ذكره في القرآن من خلال اعتبار الحُلي المصنوعة من الفضة، مثل الماء في الجنة، أي أنهما يكونان الخلاصة التي ليس فيها زبد أو مخلفات لقوله تعالى: "عاليهم ثياب سُندس واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً" {الإنسان: 21}. **وهنا نسأل: لماذا يوجد عنصر الأوكسجين مع الشوائب التي يتم التخلص منها من المعادن، رغم أن الأوكسجين من مكونات الماء الأصلية، وهو الأصل في إحياء الأرض وخلق الكائنات الحية بما فيها آدم (عليه السلام)؟**

نقول: إن وجود الأوكسجين في الشوائب يكون نسبياً، ولا يفوق نسبة وجود الأوكسجين في الماء، لأن نسبة أوكسجين الماء النقي على سطح الأرض وفي باطنها أعلى بكثير من نسبة الأوكسجين الناتج عن الشوائب، وذلك لأن نسبة الماء في الأرض أكثر من نسبة المعادن الخام الأصلية. وكذلك أنواع السوائل في الجنة لقوله تعالى: "مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم" {محمد: 15}. نلاحظ في الآية أنه ذكر الماء قبل كل شيء، أي قبل بقية السوائل وهي "أنهار من لبن" و "أنهار من خمر" و "أنهار من عسل"، علماً بأن الماء هو الجوهر القابل لجميع القوى. فبضرب من القوى والقبول يصير دُهنا، وبضرب آخر يصير خلاً، وبضرب آخر يصير دماً، وبضرب آخر يصير لبناً. وهذه الأمور كلها إنما اختلفت بالقوى العارضة فيها. فالجوهر المنقلب في جميع الأجرام السيّالة، إنما هو الماء [1].

إجابة السؤال الثاني: وما الذي يبقى في الأرض؟

نقول: إن الفرق بين زبد البحر وزبد المعادن، هو أن زبد البحر يعتبر عملية طبيعية تقوم بها البيئة لتجديد المياه. أما زبد المعادن فهو عملية صناعية يقوم بها البشر في المصانع لتنقية المعادن والحصول على معادن نقية. بالتالي فإن الذي يبقى في الأرض وينفع الناس هو الماء الطبيعي الأصلي الذي خلقه الله وأنزله من السماء وأحيا به الأرض والكائنات الحية كلها بما فيها البشر والنباتات والحيوانات،

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص89.

فيكون وجود هذا الماء في الأرض ضروري بهدف إحيائها سواء كان ماءً عذباً أو مالحاً، وهو يمكث في الأرض بفضل الله وقدرته كي ينفعهم في معيشتهم، وينتهي وجود الماء في الأرض بانتهاء الحياة على سطح الأرض، وذلك من خلال تدميرها كلياً وإنهاء إمكانية العيش فيها للبشر وكافة الكائنات الحية. وقد سبق أن شرحنا هذه المسألة في موضوع ماء إحياء الإنسان في قوله تعالى: "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً" {الجن: 16}. {انظر شرح الآية في هذا الفصل، ص98} وقلنا إن الماء يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين يسمى ديوتيريوم ورمزه الكيميائي D بدلاً من الهيدروجين العادي، وتبلغ كتلة ذرة الديوتيريوم حوالي ضعف كتلة ذرة الهيدروجين العادي، وهذا قد يكون سبباً لفناء الحياة على سطح الأرض، لأن من خواص الماء الثقيل الذي يحتوي على نظير ثقيل من الهيدروجين "ديوتيريوم" أنه لا تنبت فيه البذور ولا تعيش فيه الحيوانات. بالتالي فإن بقاء الإنسان في الأرض يُحتِم عليه عدم استخدام ما هو باطل والاستعانة بما يمكث في الأرض وهو الماء لأنه ينفع الناس، ويعتبر ذلك سراً من أسرار إقامة العدل النسبي في الأرض.

الآية الخامسة عشرة:

قال تعالى: "وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين" {الحجر: 22}.

لقد شرع كارل جوزيف نيكلاس (Karl Joseph Niklas) عالم النبات الأمريكي من جامعة كورنيل (Cornell University) في دراسة النباتات الملقحة بواسطة الرياح. واكتشف نيكلاس وفريقه أن للنباتات الملقحة بالريح أزهار ذات تركيب ديناميكي هوائي "أيروديناميي" تمكنها من جذب كميات كبيرة من غبار الطلع من الهواء. وتستخدم بعض النباتات تركيبها الأيروديناميي بشكل فعال جداً

لكي يستفيد من الريح للتلقيح، وأفضل مثال على ذلك مخاريط الصنوبر [1]. نقول: إن الرياح لا تغني عن أهمية الماء في عملية إنبات النباتات، فالرياح تنقل حبوب اللقاح للمساعدة في إخصاب النباتات والماء يلعب الدور الرئيسي في عملية إنبات ونمو النباتات من خلال عملية البناء الضوئي، وبالتالي يعتبر الماء أولى من الرياح في عملية الإنبات. أما قوله تعالى: "فأسقيناكموه"، قال الشوكاني "أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم" [2]. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: "إلا عندنا خزائنه" إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى. وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له، ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء، إلا أنه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجه منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهياً لأن دخول ما لا نهاية له في الوجود محال [3]. على حين قال الزمخشري: أي فجعلناه لكم سقيا. وقوله تعالى: "وما أنتم له بخازنين" نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله تعالى: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه" كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم، وقوله تعالى: "ونحن الوارثون" أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله [4]. قيل: إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون {مريم: 40} فمُلك كل شيء لله تعالى، ولكن الله مَلَّك عباده أملاكاً، فإذا ماتوا، انقطعت الدعاوى، فكان

---

[1] هارون يحيى، مراجعة أورخان محمد علي، معجزة النبات، ص24، 25.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج14، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص759.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص178.

[4] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج14، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص560.

الله وارثاً من هذا الوجه [1]. نقول: إن الماء مادة منذ أن أوجدها الله احتفظت بنفس التركيب الكيميائي، فلا يمكن أن تتأثر بالمؤثرات الخارجية مثل الشمس والرياح والتراب، وإذا حدث وتعرض الماء لهذه المؤثرات فإنه يتغير تغييراً فيزيائياً وليس تغييراً كيميائي، مثلاً عندما يتعرض الماء للتسخين من درجات حرارة مرتفعة من الشمس فإنه يتحول من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية على شكل بخار ماء، فهذا تغيير فيزيائي، ويبقى الماء محتفظاً بخصائصه الكيميائية المتكون منها. وعندما يختلط التراب بالماء فيمكن بكل سهولة فصل التراب عن الماء، مثلاً الماء الموجود في باطن الأرض سواء كان على شكل آبار ارتوازية أو مياه جوفية فهو ماء صالح للشرب واستعمال الكائنات الحية.

الآية السادسة عشرة:

قال تعالى: "هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون" {النحل: 10}.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: "لكم منه شراب" يفيد الحصر لأن معناه منه لا من غيره. وإذا ثبت ذلك فنقول: لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الأرض من جملة ماء المطر يسكن هناك، والدليل عليه قوله تعالى: "وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض" {المؤمنون: 18}، ولا يمتنع أيضاً في غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر [2]. وقيل: إن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، ومن جملته ماء الآبار والعيون، فإنه من المطر لقوله

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص200.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص238.

تعالى: "فسلكه ينابيع الأرض" {الزمر: 21} وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي. قال الزجاج: كل ما ينبت من الأرض فهو شجر [1].

الآية السابعة عشرة:

قال تعالى: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً" {الكهف: 45}.

قال البيضاوي: واذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أو صفتها الغريبة [2]. على حين قال القرطبي: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر [3].

الآية الثامنة عشرة:

قال تعالى: "الذي جعل لكم مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى" {طه: 53}.

في هذه الآية سوف نشرح ثلاثة أمور متصلة بالماء قبل وبعد نزوله من السماء. أما قبل نزوله فقد وردت الكلمات التالية المذكورة في الآية "مهداً" و "سلك" و "سُبلاً" وبعد نزوله في الآية ورد جملة "فأخرجنا به أزواجاً". قال الشوكاني: المهاد: أي ذات مهد، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش. قال تعالى: "ألم نجعل الأرض مهاداً" {النبأ: 6} ومعنى الهاد: الفراش فالمهاد جمع المهد، أي: جعل لكم كل موضع

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج14، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص775.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص341.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص288.

منها مهداً لكل واحد منكم، وكلمة سلك في قوله تعالى: "وسلك لكم فيها سُبلاً" هو إدخال الشيء في الشيء. والمعنى: أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم. وفي الآية الأخرى "الذي جعل لكم الأرض مهاداً وجعل لكم فيها سُبلاً لعلكم تهتدون {الزخرف: 10} [1]، المراد من كون الأرض مهداً أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع [2]. قال النحاس: والجمع أولى لأن "مهداً مصدر، وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف، أي: ذات مهد. ومن قرأ: "مهداً" جاز أن يكون مصدراً، كالفرش، أي: مهد لكم الأرض مهداً، وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: ذات مهد. ومن قرأ: "مهاداً"؛ جاز أن يكون مفرداً، كالفراش، وجاز أن يكون جمع "مهد" استُعمل استعمال الأسماء فكسر. ومعنى "مهاداً" أي: فراشاً وقراراً تستقرون عليها [3]. نقول: "مهداً" يعني بساطاً أو إحياءً للأرض لأنه قال في سورة الذاريات: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (47) والأرض فرشناها فنعم الماهدون" (48) فيكون الفراش هو خلق الأرض مثل بناء السماء الذي هو خلق أيضاً، لقوله تعالى: "الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء" {البقرة: 22}، ثم بعد ذلك تمهيد الأرض عبر إحياءها بالماء والنبات لقوله تعالى: "فنعم الماهدون" أي لآدم (عليه السلام). وقوله تعالى: "وسلك لكم فيها سُبلاً" قال صاحب الكشاف "سلك" من قوله تعالى: "ما سلككم في سقر" {المدثر: 42} وقوله

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص912.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص68.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص78، 79.

تعالى: "كذلك سلكناه في قلوب المجرمين" {الشعراء: 200} أي جعل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري [1]. وقيل في معنى "سُبلاً" أي: جعل لكم فيها سُبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها [2]. وقال القرطبي: أي: طرقاً. نظيره قوله تعالى: "والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سُبلاً فجاجاً" {نوح: 19-20} وقوله تعالى: "فأخرجنا به" أي: بالحرث والمعالجة؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات. ومعنى "أزواجاً": ضروباً وأشباهاً، أي: أصنافاً من النبات المختلفة الأزواج والألوان. قال الأخفش: التقدير أزواجاً شتى من نبات [3]. قال تعالى: "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها" {فاطر: 27} وقوله تعالى: "أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة" {النمل: 60} [4]. نقول: إن للمهاد قدر، وللمسلك مسار دنيوي وديني، وللسبيل طريق. كما أن الله جعل إخراج الأزواج للنبات تماماً مثل إخراج آدم وحواء (عليهما السلام) ثم جعل نسلهما من ذكر وأنثى، فكانت صفتي الذكورة والأنوثة أصل الخلق في كل المخلوقات والكائنات الحية ومنها النباتات والحيوانات، لقوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" {الذاريات: 49}.

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج22، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص68.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج16، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص393.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص79.

[4] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج16، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص658.

الآية التاسعة عشرة:

قال تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5}.

هذه الآية سيتم شرحها لاحقاً في موضوع كلمة (التراب) لاحقاً لأن كل ما ذكر بعدها تابع لها فوجب أن يكون الشرح وافياً. {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص242}.

الآية عشرون:

قال تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير" {الحج: 63}.

قيل في تفسير قوله تعالى: "ألم تر" إن الاستفهام للتقرير، والفاء للعطف على أنزل، وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه [1]. وقال الرازي: المراد هو الرؤية الحقيقية، قالوا لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي [2].

الآية واحد وعشرون:

قال تعالى: "وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون" {المؤمنون: 18}.

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص972.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص62.

قيل في معنى قوله تعالى: "بقدر" يعني يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم [1]. وقيل: بتقديره يكثر نفعه ويقل ضرره، أو بمقدار ما علمناه من صلاحهم [2]. أما قوله تعالى: "فأسكناه في الأرض" قيل: معناه جعلناه ثابتاً في الأرض [3]. وقيل: مستقراً [4]. أما قوله تعالى: "وإنا على ذهاب به لقادرون" أي كما قدرنا على إنزاله فكذلك نقدر على رفعه وإزالته، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله تعالى: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين" {الملك: 30} [5]. وقال البيضاوي: أي: على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه [6]. نقول إن الآية بالنسبة للماء فيها "مقدار" و "إسكان" و "ذهاب" فأما المقدار فهو في علم الغيب عند الله، فلا أحد يمكنه معرفة كمية قطرات الماء النازلة من السماء في الكرة الأرضية، حيث إن كل النسب تقديرية ومنفصلة ومختلفة في كل مكان عن آخر. أما "الإسكان" فهو دليل رسوخه في الأرض. أما "الذهاب" فهو متعلق بالقدرة والأمر الإلهي، وهذا مرتبط بفناء الحياة على وجه الكرة الأرضية.

---

[1] المصدر السابق، ص89.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص465.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص89، 90.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص465.

[5] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص90.

[6] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص465.

الآية اثنان وعشرون:

قال تعالى: "أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون" {النمل: 60}.

قيل في معنى قوله تعالى: "خلق السماوات والأرض" أي: التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع [1]. أما قوله تعالى: "وأنزل من السماء ماء" أي: نوعاً من الماء، وهو المطر [2]. ومعنى قوله تعالى: "فأنبتنا" هو تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله في الآية: "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها" [3]. نقول: إن في الآية كلمات مفصلية تشير إلى الإرادة والقدرة على الفعل الإلهي وهي "أمن" و "أنزل" و "فأنبتنا". أما كلمتي "أمن وأنزل" فهما بصيغة المفرد وتدلان على وحدانية الله وقدرته وإثبات عدم اشتراكه في فعل خلق السماوات والأرض مع أحد. أما قوله تعالى: "فأنبتنا" بصيغة الجمع، فهي قد تشير إلى أوامره التي يلقيها إلى ملائكته لإحياء الأرض ومنها إنبات النبات بقدرته، أي بفعل أوامره. وزيادة على دليل الإفراد في مسؤولية الخلق جاء بعدها في نهاية الآية قوله تعالى: "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها" وهذا نفي عن إمكانية الإنبات للجميع في قوله تعالي: "لكم"، وكذلك السؤال الاستنكاري في قوله تعالى: "أإله مع الله"

الآية ثلاثة وعشرون:

---

[1] المصدر السابق، ص571.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1085.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج20، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص787.

قال تعالى: "ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" {الروم: 24}.

نقول: إن البرق، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض كلها من آيات الله. كما قدم السماء على الأرض، قدّم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء. كما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع، كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة، وذلك لأن البرق إذا لاح، فالذي لا يكون تحت كأن يخاف الابتلال فيستعد له، والذي له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجاري الماء. قالت الفلاسفة: السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء. فالهواء ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار، مثل مساس جسم جسماً آخر بعنف، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فإن قال الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان، فيقولون لكن حركة يد الإنسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله [1]. وقيل في معنى: "خوفاً" أي من الصاعقة للمسافر. "وطمعاً" أي: في الغيث للمقيم [2]. قال الشوكاني: أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس [3].

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص114، 115.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج21، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص50.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1131.

الآية أربعة وعشرون:

قال تعالى: "أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون" {السجدة: 27}.

نقول: إن معنى قوله تعالى: "نسوق الماء" يعني نجريها ما ينبغي أن تصل إليه. أما الأرض التي جرز نباتها، أي: قطع إما لعدم الماء، وإما لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز [1]. وقيل: هي أرض اليمن، وقيل: أرض عدن. وقال الضحاك: هي الأرض العطشى. وقال الفراء. هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً. قال المبرد: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام، وقيل: هي مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله [2]. أما قوله تعالى: "تأكل منه أنعامهم وأنفسهم" يعني أن الإنسان هو أسمى الكائنات فتكون بقية الكائنات الحية في خدمته ومنها النباتات والحيوانات. لذلك قُدمت الأنعام على الإنسان. قال الرازي: إن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان، والزرع غذاء للدواب وهو لا بد منه. وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان [3].

الآية خمسة وعشرون:

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج21، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص846.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1154.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص188.

قال تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود" {فاطر: 27}.

قال الرازي: إنزال الماء أقرب إلى النفع، والمنفعة فيه أظهر، فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً [1]. وقيل: "ألوانها" يعني: أجناسها وأصنافها على أن كلاً منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتها من الصفرة والخضرة ونحوهما [2].

الآية ستة وعشرون:

قال تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب" {الزمر: 21}.

قال الشوكاني: ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: "فسلكه ينابيع في الأرض" [3]. وقوله تعالى: "فسلكه" يعني فأدخله ونظمه [4]. نقول: إن بداية هذه الآية مشابهة للآية التي شرحناها قبلها {فاطر: 27}، لكنه مرة قال "فأخرجنا به ثمرات" ومرة قال: "فسلكه في ينابيع الأرض".

الآية سبعة وعشرون:

قال تعالى: "ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد" {ق: 9}.

---

[1] المصدر السابق، ص26.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج22، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص120.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1281.

[4] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج23، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص938.

قال الشوكاني: "ماءً مباركاً" يعني كثير البركة [1]. وقيل: كثير المنافع [2]. نقول: إن أصل خلقه وطهارته هي التي تجعله "مباركاً" ومن ذلك قوله تعالى: "وأنزلنا من السماء ماء طهوراً" {الفرقان: 48}.

الآية ثمانية وعشرون:

قال تعالى: "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر" {القمر: 11}.

قيل في معنى: "ففتحنا" هو بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا من خلال جند أنزلهم كما قال تعالى في سورة يس: "وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين (28) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون" (29) وهو بيان لكمال القدرة [3]. أما قوله تعالى: "منهمر" يعني منصب، وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها [4].

الآية تسعة وعشرون:

قال تعالى: "وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر" {القمر: 12}.

قيل في معنى قوله تعالى: "وفجرنا الأرض عيوناً" أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، والأصل فجرنا عيون الأرض. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1397.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج26، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1043.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص38.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج27، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص346.

[1]. قال الزمخشري: "فالتقى الماء" يعني: مياه السماء والأرض. أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي [2]. نقول: في الآية إشارة إلى الأمر الإلهي "قد قدر" وأنه نافذ على الحال الذي أراده بدليل وقوع تفجير الأرض بعيون الماء.

الآية ثلاثون:

قال تعالى: "قال تعالى في سورة عبس: فلينظر الإنسان إلى طعامه (24) أنا صببنا الماء صبا (25) ثم شققنا الأرض شقاً" (26).

قوله تعالى: "فلينظر الإنسان إلى طعامه" أي: ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الأخروية؟ قال مجاهد: معناه، فلينظر الإنسان إلى طعامه، أي: إلى مدخله، ومخرجه، ثم بيّن ذلك سبحانه وتعالى فقال: "إنا صببنا الماء صبا"[3]. وقيل: "صببا" المراد منه الغيث والأمطار [4]. وقال البيضاوي: هو استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام [5]. نقول إن النظر يختص بأن مسألة وجود الطعام (وأصله من عملية الزراعة والنباتات) غير ممكن من دون وجود الماء.

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1428.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1066.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1587.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص84.

[5] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج30، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص500.

ثانياً: الحيوانات

الآية الأولى:

قال تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}.

سوف نشرح هذه الآية بالتفصيل خلال شرحنا سورة {آل عمران: 49} وذلك في موضوع التمكين الإلهي للرسول عيسى (عليه السلام) أن يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذنه. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص565}.

الآية الثانية:

قال تعالى: "خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم" {لقمان: 10}.

قال البيضاوي: "وبث فيها من كل دابة" أي من كل صنف كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهّد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله تعالى: "هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه" [1].

الآية الثالثة:

قال تعالي في سورة النازعات: "والأرض بعد ذلك دحاها (30) أخرج منها ماءها ومرعاها" (31).

---

[1] المصدر السابق، ص61.

نقول: "دحاها" يعني بسطها. وقيل: الدحو: يعني البسط [1]. وقوله تعالى: "أخرج منها" أي: أخرج من الأرض. وقوله تعالى: "ماءها" أي: العيون المتفجرة بالماء [2].

الثالث: ماء الخالق (السماوات السبع والجنة)

الآية الأولى:

قال تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" {هود: 7}.

سنورد مسألتين ذكرهما القرطبي والرازي لأننا نخالف رأيهما. قال القرطبي في معنى قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" أن الله بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء {......} ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثم وَضع العرش على الماء [3]. وكذلك قال الرازي: إن العرش هو أعظم المخلوقات وقد أمسكه الله تعالى فوق سبع سماوات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه. وهنا يرد سؤال: **هل يصح ما يروى أنه قيل يا رسول الله، أين كان ربنا قبل خلق السماوات والأرض؟** فقال كان في عماء فوقه هواء وتحته هواء. والجواب: أن هذه الرواية ضعيفة، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله "كان الله وما كان معه شيء، ثم كان عرشه

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص12.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص61.

[3] المصدر السابق، ص75.

على الماء" [1]. وهذه الرواية أوردها ابن كثير في تفسيره، ونقلها الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن عمه أبى رزين، واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: "كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك" [2]. نقول: إن معنى قوله تعالى: "كان عرشه" أي "استوى عرشه"، لأن الكينونة تعني الوجود، والوجود سابق على الاستواء، لأن الاستواء حدث بعد وقوع فعل، وهو خلق السماوات والأرض في ستة أيام. بالتالي فإن الذين قالوا إن الله كان في عماء فوقه هواء وتحته هواء في الإجابة على سؤال أين كان ربنا قبل خلق السماوات والأرض، نرد عليهم بالقول: إن ذلك كان محاولة للإجابة عن سؤال "الوجود الإلهي" قبل خلق الكون وقبل خلق المادة، وقبل أن يكون عرشه على الماء. عموماً، سوف نجيب بشكل تفصيلي عن سؤال **هل الله مخلوق من المادة؟** {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص348}.

لكن في سياق هذه الآية سنشرح الفرق والعلاقة بين قوله تعالى: "كان عرشه" و "استوى عرشه"، من خلال الإجابة على عدد من الأسئلة:

- **السؤال الأول: ما هي أزمان الخلق (السماوات والأرض والكون والكائنات الحية)، وزمن الاستواء؟**
- **السؤال الثاني: كيف كانت حالة الله قبل الاستواء وبعده؟**
- **السؤال الثالث: ما معنى الاستواء أصلاً؟**

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص195.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص307.

أزمان الخلق، وزمن الاستواء

في الإجابة عن السؤال الأول: ما هي أزمان الخلق (السماوات والأرض والكون والكائنات الحية)، وأزمان الاستواء؟

نقول في هذه الآية ثلاثة أنواع من الزمن، وهي كما يلي:

الزمن الأول: زمن الكينونة (الوجود الأزلي).

الزمن الثاني: زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة").

الزمن الثالث: زمن الاستواء (ويشتمل على الولاية والرقابة والتدبير والخبرة والأعلمية والرحمة والشفاعة).

سأقدم شرحاً دلالياً مختصراً لهذه الأزمان والتباين فيما بينهما:

الزمن الأول: زمن الكينونة (الوجود الأزلي)، لا يمكن أن نطلق عليه اسم زمن لأن الزمن لم يكن موجوداً إلا بعد خلق السماوات والأرض، وإن الله هو خالق الزمن، لكننا نقول (على سبيل التقريب) إنه زمن الكينونة (الوجود) على العرش لوصف مرحلة ما قبل خلق السماوات والأرض والكائنات الحية، وقبل الاستواء، ونسميه بشكل تقريبي (زمن الاستواء الأول الأزلي باعتبار أن الاستواء الثاني حاصل بعد خلق السماوات والأرض) حيث لم يكن شيء إلا الله، ولم يكن معه فناء، لأن الفناء يكون لشيء موجود، وإن الله لم يكن معه أي موجود حتى يفني قبل وجوده. فمثلاً إن للنجوم والكواكب وكل المتحركات في مجرة درب التبانة أعمار وهي تموت كموت الانسان، أي أن الفناء بالنسبة للإله ليس فناءً للكائنات الحية فحسب، بل فناء يتعلق بالمادة، والمادة تفنى مثل الخلق. وكذلك جسد الإنسان يفنى وتبقى روحه التي يعيدها الله إليه، فإما يخلدها في النار وإما في الجنة،

لكن الله وحده هو الذي لا يفنى ولا يتساوى مع الفناء. وعموماً نذكر خمسة عناصر لتجلية مفهوم الفناء عند العرفاء ونعقب عليها:
أولاً: إن الفناء لا يعني الانعدام الوجودي للعبد، بل بالعكس هو حقيقة وجودية متعالية.
ثانياً: إن الفناء يعني انعدام الجهة البشرية في الإنسان، ولذلك قد يعبّرون عنه بـ "فناء البشرية وبقاء الألوهية".
ثالثاً: إن الفناء يعني ذوبان العارف في الجهة الإلهية، واتصافه بصفاته سبحانه وتعالى؛ لأنه صار مجرد مرآة ينعكس فيها الله سبحانه وتعالى، بأسمائه وصفاته، وهذا معنى بقاء الألوهية.
رابعاً: إن الفناء هو هجران الصفات المذمومة والكثرات نحو الصفات المحمودة والوحدة، فالوحدة عنصر مهم جداً في فهم العرفاء للعالم بأجمعه.
خامساً: إن الفناء عند العرفاء ولادة جديدة، يعود الإنسان فيها إلى الله مركز الوجود، ويرجع إلى الأصل الذي جاء منه، ويعيش في الآخرة [1]. نخالف ما جاء في هذه التجليات الخمسة ونقترح تعديلها، كما يلي:
أولاً: إن العبد هو إشارة للنوع، أي (بني آدم) ينعدم وجودياً بشكل مادي (أي يبلى جسده) ويبقى خالداً وجودياً بشكل روحي، أي تتعلق روحه في الفناء وتخلد فيه.
ثانياً: إن فناء البشرية لا يعني تحولها إلى بقاء ألوهي، لأن التحول من البشري إلى الإلهي شرك مع الله، بل إن الفناء البشري حتمي تحت مظلة البقاء الإلهي وبرهان ذلك قوله تعالى: كل من عليها فان" {الرحمن: 26}.
ثالثاً: لا يذوب العارف في الجهة الإلهية، لأن ذلك يعتبر تشبيهاً لإمكانية التصاق روح الإنسان بالخالق، وهذا غير ممكن وفق التوصيفات الإلهية في القرآن التي تفيد بإمكانية النظر إلى الله

---

[1] حيدر حب الله، مدخل إلى الوحي وبشرية اللفظ القرآني، (بيروت: دار روافد، 2021)، ص71.

والشكوى إلى الله والتقرب إلى الله، فلا تكون روح الإنسان ممكنة الذوبان في الخالق لأن روح الإنسان مهما بلغت من الكمال إلا أنها تظل روحاً مخلوقة وليست خالقة، وعابدة وليست معبودة، ولذلك لا يتصف العارف بصفات الله الذي وصف نفسه في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" {الشورى: 11} بالتالي فإن الإنسان لا يكون مرآة ينعكس فيها الله لأن ذلك يعتبر تشبيهاً بين كائنين مخلوقين من نوع وجنس وصفة واحدة وهذا غير منطقي أو متحقق في الواقع وهو منفي في الشريعة الإلهية، وكلمة الله (القرآن) وفق أسماء وصفات الله. رغم ذلك نقول إن الذوبان الموصوف هو ذوبان الروح في الفردوس الأعلى وهي طبقات الفناء الخالدة عند عرش الرحمن (الله) ويتحقق الفناء لنوع من الروح، وهي روح النبي الصادق (النبوية الصادقة) أو العالم القانع (العالمة القانعة) أو العابد الزاهد (العابدة الزاهدة) أو الحافظ لكتاب الله الراشد (الحافظة الراشدة) ويكون فناءً سرمدياً.

رابعاً: إن الفناء يفوق هجران الصفات المذمومة لأن هجرها يكون أولياً، أي عند لحظة خلق روح الإنسان في رحم أمه، ولا يتحقق الفناء إلا لمن صاحبته الصفات المحمودة الوحدة في حياته الدنيا منذ الصغر أو بشكل مكثف في الكبر، والعزلة فيها خصوصية لأنها تربي على الاستعداد لفناء الجسد دون فناء الأثر.

خامساً: إن الله أصل الوجود وليس مركز الوجود، لأن المركز محدود والله غير محدود في وجوده، وأما الأصل فهو منطق في الوجود، فبعض بني آدم يرجع إلى أصل الوجود وبعضهم يرجع إلى مركز الوجود، فأصل الوجود علوي، ومركز الوجود دنيوي، والأصل فيه البقاء، والمركز فيه الفناء، وهناك فرق بين الفناء والبقاء للوجود. إن الفناء متحقق للأنبياء والعلماء ومن اتصفوا بصفات اليقين والتقوى والزهد والعبادة في القرآن، ولكن هذا الفناء استعداداً للقيامة يتبعه الخلود في الفردوس الأعلى، وأما البقاء فهو متحقق لعموم بني آدم

(عليهم السلام)، وهو بقاء الرجوع الأخير، وينطبق عليه قوله تعالى: "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين" {الأنبياء: 104}.

الزمن الثاني: زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة") وهو ما قبل الاستواء على العرش، "أي الستة أيام" التي خلقت فيها السماوات والأرض، لأن الله كان في حالة فاعلية أو عدم استواء، والملائكة هم الذين نفذوا عملية الخلق بأمر من الله وهم مخلوقون من النور والريح. وفي هذه الفترة بدأ خلق الزمان والمكان.

الزمن الثالث: زمن الاستواء (الولاية والرقابة والتدبير والخبرة والأعلمية والرحمة والشفاعة) وهو زمن الإنجاز لكل ما هو تحت العرش، أي بعد خلق السماوات والأرض، وهذا زمن العودة إلى ما بعد الاستواء، أي بعد إتمام عملية الخلق. في شرحنا لهذه الأزمان نقول: إن الزمن الأول "زمن الكينونة" أقدم من "زمن الاستواء" وهو داخل فيه. إذا نظرنا للآية، فقد ذكر فيها كلمة "خلق" في الإشارة إلى خلق السماوات والأرض. أما زمن الاستواء فيُستدل عليه من خلال ما ذكر في الآية وهي كلمة "كان" في الإشارة إلى مكان عرشه، علماً بأن الكلمتين "خلق" و "كان" هما فعلين ماضيين، وهذا يدل على أن الزمن الذي خلق الله فيه السماوات والأرض، كان عرشه على الماء، أي أنه لم يتدنَ إلى الأسفل ولم يتغير مكانه مع الزمن من مكان إلى آخر وقت عملية الخلق، وبالتالي فإن ثبوتية المكان هي مؤشر على مطلق قدرته وألوهيته، وإن الله في كل مكان، لقوله تعالى: "وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير" {الحديد: 4}. وإذا قلنا بأن كلمة "كان" بمعنى "رجع" أو "عاد" فسوف يصير المعنى كالتالي: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ورجع عرشه على الماء"؛ وهذا غير منطقي لأن عرشه ثابت ولم يتحرك في أي مكان أو أي اتجاه سوى وجوده فوق الماء، والعرش لا يعني الله أو وجود الله في داخل العرش، بل هو المكان الذي يوجد الله فوقه. وإذا أدركنا أن

المصدر من "كان" هو "كونك" واسم الفاعل من الفعل "كان" هو "كائناً" [1]، بالتالي يكون معنى جملة "كان عرشه" في الآية، أي "كونه موجوداً كائناً في عرشه"، وبذلك تعتبر كلمة "كان" في الآية توكيداً لزمن الكينونة (الوجود) فوق العرش، وليس زمن الاستواء (الذي يشتمل على الولاية والرقابة والتدبير والخبرة والأعلمية والرحمة والشفاعة). ونلاحظ مسألة جلية في الآية تتحدث عن "زمن خلق السماوات والأرض" من دون حساب "زمن خلق الكون"، لأن السماوات والأرض شيء، والكون في الفضاء الخارجي شيء آخر، وهو في حالة اتساع لقوله تعالى: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات: 47}. لقد استخدم تعبير "السماء" في وصف الفضاء الخارجي، لأن السماء الحقيقية التي تقع فوق سطح الأرض هي سماء ثابتة، بما في ذلك الغلاف الجوي، فكان المقصود بكلمة "السماء" في الآية الاتساع أو التمدد الذي يبدأ من السماء كنقطة بداية وينطلق إلى الفضاء الخارجي إلى ما لا نهاية. وقد ورد لفظ "السماء" بنفس المعنى في قوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم" {البقرة: 29}. كما أننا لاحظنا أن الله تعالى قال: "استوى إلى السماء"، في حين أنه قال في ست آيات "استوى على العرش"، علماً بأن مكان الله هو على العرش أو فوق العرش، وليس السماء. **السؤال هنا: لماذا جعل الله الاستواء إلى "السماء" علماً بأنه فوق العرش وأن الاستواء يجب أن يكون هناك وليس في السماء؟**

معنى الاستواء إلى السماء مقابل الاستواء إلى العرش

[1] عزيزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص817.

نقول: إن الله استخدم السماء في هذا الموضع يشير إلى مسألتين: الأولى: أن يكون استواءه إلى السماء الأخيرة بعد السماوات السبع، أي في مكان اسمه السماء وهو فوق سبع سماوات، وهو غير السماء المعروفة والقريبة إلى الأرض لأنه قال: "استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات". والثانية: أن يكون إشارة إلى وجود ملائكته في السماء، وبالتحديد في الغلاف الجوي الذي يتكون من النيتروجين الذي يدخل إلى جانب الأوكسجين في مادة خلق أجسام الملائكة، بالإضافة إلى النور الذي يدخل في مادة خلق أرواح الملائكة، ونسمي هذا الاستواء "استواء التوكيل" بلغة الأمر، أي أن الله أوكل ملائكته بالاستواء في السماء، ثم استوى هو فوق العرش، وقد تحقق الاستواءين بعد خلق السماوات والأرض، ونقول إنه استواء توكيل لأن الملائكة موجودة أسفل عرش الرحمن (الله) وصولاً إلى الغلاف الجوي وحتى الأرض التي فيها عديد ملائكته. عموماً سوف نشرح كيفية وقوع خلق السماوات والأرض ومكان وجود الملائكة بالنسبة للعرش وعلاقتهم به، والمادة التي خلقوا منها، وعلاقتهم بالماء الموجود أسفل عرش الرحمن، وعلاقة مادتهم تحت عرش الرحمن (الله)، بمادة الماء (ذرتي الهيدروجين وذرة الأوكسجين) الموجودة أسفل عرش الرحمن وأسفل الملائكة، وعلاقة ذلك بالأوامر التي ألقاها الله إلى حملة عرشه الثمانية من الملائكة لخلق السماوات والأرض وكيفية استقرار النيتروجين في السماء نتيجة وقوع خلق السماوات والأرض. سوف نشرح كل ذلك في الإجابة على سؤالين:

السؤال الأول: هل خلقت الملائكة قبل خلق الماء أسفل عرش الرحمن (الله) أم بعده؟

السؤال الثاني: ما هي علاقة مادة أجسام الملائكة (النيتروجين) بالطاقة الناتجة عن (فتق الرتق)؟ {انظر الإجابة على السؤالين في الفصل الثالث، ص346}.

استكمالاً للشرح، نقول: بالنسبة للاتساع المقصود في الآية فهو للفضاء الخارجي للكون، وهذا حقيقي ومثبت علمياً [1]، وقد اكتشف (إدوين هابل) (Edwin Hubble) في بداية القرن العشرين أن الكون يتمدد، وأن سرعة ابتعاد الأجرام عن بعضها تطابق سرعة ابتعادها عن الأرض. وهذا الكشف من أقوى الدلائل لتأكيد (نظرية الانفجار العظيم)، غير أن هذا التمدد وحده حجة أن الكون لا يمكن أن يكون أزلياً بلا بداية. ورغم أن تمدد الكون مذكور في القرآن قبل أكثر من 1400 عام في قوله تعالى: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون {الذاريات: 47} إلا أن (ستيفن هاوكنغ) أبدى استغرابه من عدم الكشف عن تمدد الكون قبل القرن العشرين؛ إذ أنه من المستحيل أن يوجد كون ثابت من الأزل تعمل فيه الجاذبية عملها الجذبي. وعلق قائلاً: "كان الكشف عن توسع الكون أحد أكبر الثورات الفكرية في القرن العشرين. من السهل أن نتساءل (بصورة متأخرة) لِمَ لم يفكر أحد في ذلك من قبل. لقد كان على (نيوتن) والآخرين أن يكتشفوا أن الكون الثابت لا بد أن يبدأ عن قريب في الانكماش تحت تأثير الجاذبية" [2]. إن الاتساع الموصوف في قوله تعالى: "وإنا لموسعون" {الذاريات: 47} هو اتساع قد يصل مداه إلى الماء الذي استوى عليه عرش الله، ما يعني أن الاتساع له نهاية، ونهايته أبدية مطلقة ويوجد فيها ماء بحكم قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}، لكن لن يستطيع أحد الوصول إلى هذا الماء، علماً بأن الماء موجود في الطبيعة، لكن العلم لم يثبت وجود ماء حقيقي في نهاية اتساع الكون، لكن هذه المسألة حقيقة ثابتة في القرآن، وإننا (بحسب القرآن) نقول بوجود هذا الماء في نهاية الكون من خلال وجود عناصره وهما (الهيدروجين والأوكسجين)، التي نتج عنها انفجار الماء، وهذه حقيقة

---

[1] Paul J. Steinhardt, Neil G. Turok, Endless Universe: Beyond the Big Bang, (Doubleday, 2007).

[2] سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016)، ص104.

ثابتة لا شك فيها، وهي ثابتة بالنظر القرآني. وإن تصادم عناصر الماء حدث نتيجة طاقة، علماً بأن الطاقة التي نتجت عن تصادم ذرات الماء، ومنها الهيدروجين والأوكسجين كانت متولدة من تفاعل إلكترون مع إلكترون آخر، والتي نتج عنها أشعة غاما التي تقدر طاقتها بمليون إلكترون، ما يعني أن الإلكترونات أصل في التفاعلات الكيميائية. وهذه الأشعة نتجت بعدما كان الكون المادي في حالة فناء، وعندما كان الفناء حقيقة موجودة إلى أن سقط الإلكترون في النواة، وهذا السقوط يحدث في حالتين {انظر شرح الحالتين في الفصل الثالث، ص357}. أما أشعة غاما فهي التي نتج عنها الضوء، وهي أشعة تنتشر بسرعة مساوية لسرعة الضوء، فهي موجات كهرومغناطيسية وتعتبر من أخطر الإشعاعات الكهرومغناطيسية. والطاقة التي أنتجت الضوء هي متولدة عن عودة الإلكترون إلى مستوى الطاقة الأصلي في الغلاف الذري الإلكتروني. وعموماً تعتبر الشمس والتفاعلات النووية مصدر لأشعة غاما، وهذا دليل على أن أشعة غاما التي نتجت عن الانفجار العظيم (فتق الرتق) هي أكبر بكثير من أشعة غاما الموجودة في الكون. كما نلاحظ في هذه الآية أن الله يقدّم توصيفاً للعلاقة والمسافة الزمنية مع الماء، فيقول إنني خلقت الماء، ومن قبل الماء خلقت عناصره، وبالتالي فإنني خلقت مادته، ثم جعلت عرشي فوق الماء المتكون من المادة، فكان عرشي فوق الماء وفوق مادته، وأقدم من الملائكة وأقدم من مادة خلق أرواحهم من النور وأجسادهم من الريح. إذا فهمنا كل ما سبق، سوف ندرك بأن الملائكة كانت مخلوقة قبل خلق الماء، وذلك لأنها اضطلعت بمسؤولية أخذ الأوامر من الله لتنفيذ عملية اتحاد ذرات الهيدروجين والأوكسجين اللتان تسببتا بالانفجار العظيم (فتق الرتق). **في الإجابة على السؤال الثاني: كيف كانت حالة الله قبل الاستواء وبعده؟**

حالة الله قبل الاستواء وبعده

نقول: إن حالة الله قبل الاستواء وبعده هي ذات الشيء، لأن الله لا يتغير ولا يتبدل وهو ثابت راسخ لا يمكن وصفه بأوصاف قديمة، فإذا قلنا بأنه أزلي، وهذه حقيقة، فذلك يستوجب القول إنه لم يسبقه عدم، ولكنه متعال عن وصف اللابداية أو اللانهاية، ولو قلنا إنه قديم، إلا أنه أسمى من وصف القدم. لكن بالنسبة لحالة قبل الاستواء، فقد كانت الملائكة مخلوقة في هذه المرحلة، وبالتالي مخلوقة مادتهم (وهي النور والريح)، أي كان لهم وجود في الجنة مع إبليس قبل خلق السماوات والأرض، عندما كان آدم (عليه السلام) في الجنة. لا بد هنا أن نحكي عن وجود الله قبل الاستواء وعلاقته بالفراغ، وعلاقته بالمادة قبل خلق الكون. اعترف (هانز باجلز) (Heinz Pagels) بالتناقض الداخلي للاشيء الكمي، في قوله: "العدم قبل خلق الكون هو الفراغ الأتم الذي بإمكاننا تصوره، أي لا وجود لمكان، ولا زمان، ولا مادة. إنه عالم دون موضع، ومن غير مدة ولا أزل، ولا عدد. إنه ما يسميه علماء الرياضيات "بالمجموعة الفارغة". ومع ذلك فهذا الفراغ غير المتصور يحوّل نفسه إلى وجود تام، نتيجة حتمية للقوانين الفيزيائية. أين كتبت هذه القوانين في ذاك الفراغ؟ ما الذي قال للفراغ إنه حامل بكون ممكن؟ يبدو أنه حتى هذا الفراغ خاضع للقانون". يقول سامي العامري تعقيباً على اعتراف (هانز باجلز) إنه فراغ ليس بفارغ وإنما هو وجود مؤلف من عناصر فيزيائية، ففيه جل ما نعرفه عن الوجود إلا المادة، ففيه الطاقة والقوانين، ويتجاوز ذلك بامتلاكه القدرة والإرادة! [1] نقول إن الله كان موجوداً أولاً بشكل أزلي لا ابتدائي ولا نهائي، ولم يكن فراغاً، والكون الفارغ هذا كان فيه مادة مخلوقة من الله، ولكن فاعليتها لم تكن على مستوى تأسيس كون بأكمه، لذلك فإن

---

[1] سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016)، ص44.

الفارق الوحيد هو فاعلية المادة. أما وجودها قبل الفراغ فإن الله أوجدها (خلقها) وأمسكها بكافة قوانينها في حالة عدم فاعليتها، حيث لكل مادة قانون للتعطيل وقانون للتشغيل. فعندما يقول الله إن عرشه كان على الماء فهذا يعني أن الله خلق مادة الماء ثم خلق الماء ثم خلق الكون بانفجار (فتق الرتق) أو ما يسمى علمياً بـ (الانفجار العظيم)، نقول بهذا التسلسل باعتبار أن الماء هو المتسبب بعملية فتق الرتق. بالتالي فإن وجود المادة من (بسبب) وجود الله. وإن حالة خلق الكون كانت عبارة عن تحول حال الطاقة إلى حال المادة الفعالة لإنتاج الانفجار الكوني المسمى قرآنياً "فتق الرتق" للسماوات والأرض، وإذا قيل إن "فتق الرتق" جزء من الانفجار الكوني وهو خاص بفصل السماوات عن الأرض، وليس كل الانفجار الكوني فهذا يعني أننا نحيّد الماء عن عملية التسبب بالانفجار، وبالتالي استوجب البحث عن سبب آخر أو قانون مادي دفع باتجاه التسبب بالانفجار الكوني. وفي هذا السياق، نقول لأننا نؤمن بالانفجار الذي يسببه جمع ذرات الماء وهما (الأكسجين والهيدروجين) فإننا نخالف ما قاله عالم الكيمياء جون كليفلاند كوثران، بأن "الكيمياء بحكم اختصاصها بدراية التركيب والتغيرات التي تطرأ على المادة، بما في ذلك تحول المادة إلى طاقة وتحول الطاقة إلى مادة، تعد من العلوم المادية التي ليس لها صلة بعالم الروحيات. فكيف إذن يتسنى للكيمياء أن تقدم دليلاً مادياً على وجود الروح الأعظم أو الله الذي خلق هذا الكون؟ وكيف ينتظر منها أن تختبر الفرض الذي يدعى أن هذا الكون قد نشأ بمحض المصادفة وأن المصادفة هي التي تدبره وتديره، وأن جميع ما يحدث فيه يتم بالطريقة العشوائية؟ [1]. نقول إن المادة كانت موجودة (مخلوقة من الله) قبل خلق الكون، ولا نقصد أنها أزلية، ولكن نقصد وجودها التمهيدي قبل خلق الكون، أي أن حالتها الفيزيائية كانت مختلفة. فإذا نظرنا إلى قوله

---

[1] الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، تحرير جون كلوفرمونسيما، (بيروت: دار القلم، 2004)، ص27.

تعالي: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}، استوجب القول بأربع مسائل:

المسألة الأولى: أن يكون عرش الله موجوداً قديماً أزلياً، ولكن دون أن يذكر موقعه، وإن تحديد موقعه ارتبط بالماء لتقديم الدليل المادي الأول المساعد على الاستدلال والاستنباط العقلي بوجود الله وعرشه، وعلى ذلك ينبغي لنا أن نفرق بين وجود العرش ووجود مكان العرش، أي لا يتم الربط بين خلقهما معاً، ويكون الربط فقط عند السؤال عن مكان وجود العرش فوق السماوات السبع، وهذه المسألة نرجحها.

المسألة الثانية: وهي مرتبطة بالمسألة الأولى، ولكنها تتعلق بخلق الماء، ونقول فيها إن الله قد جعل عرشه، أي حدد مكان عرشه فوق الماء نفسه الذي خلقه الله وقت خلق الكون، وهذا يعني أن الماء لم يكن موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، وأنه خلق من العدم، أي خُلقت مادته التي أوجدت الماء وقتها، وهنا يمكن الحديث عن حالة استواء الله على العرش التي ذكرها الله في ست آيات قرآنية، وجاء الاستواء فيها مرتبطاً بخلق السماوات والأرض، أنها مرتبطة بخلق الماء والكون، وهذا يعني أن الاستواء المقصود في القرآن مرتبط بتعيين مكان وجود العرش فوق الماء. في هذا السياق نذكر بحث بعنوان: "هل للكون بداية" (2012م)، حيث درس فيه (أُدري مثاني) (Audrey Mithani) و (ألكسندر فلنكن) أهم ثلاثة مذاهب برأيهما تزعم أنه ليس للكون بداية، وهي التضخم الأزلي، ونموذج الكون المتذبذب، ونموذج ثالث لكون طارئ كان في حال سكون أزلي في شكل الذرة قبل أن تتوسع. وقد كانت نتيجة دراستهما هي التصريح التالي: يبدو أنه من الراجح الجواب في هذه المرحلة عن هذا السؤال: (هل للكون بداية؟) بالإيجاب، أي له بداية. لقد تعرضنا هنا إلى ثلاثة سيناريوهات يبدو أنها تعرض لطريق يتفادى البداية، ووجدنا في

الواقع أنه ليس منها ما بإمكانه أن يكون بلا بداية في الماضي" [1]. وهذه مسألة أخرى نرجحها، بالإضافة إلى المسألة الأولى.

المسألة الثالثة: أن يكون عرش الله موجوداً فوق مادة الماء منذ الأزل، وليس الماء قبل أن يحدث تصادم بين ذرات الماء وينشأ عنهما الماء وعملية فتق الرتق (الانفجار الكوني)، وبالتالي فإن العرش أصبح موجوداً فوق الماء ذاته على طبيعته بعدما كان موجوداً فوق مادته، وهذه مسألة ضعيفة، لأن الله لا يتساوى مع الماء، ولم يكن شيء مخلوق قبل وجوده، وهو القائل: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" {الشورى: 11}. وأما الدليل المادي فهو غير موجود، بل يقول (لويس ج. كلافلي) (Louis J. Clavelli) أستاذ الفيزياء النظرية في (جامعة ألباما): "لا توجد حجة أن أياً من جسيمات المادة التي نعرفها اليوم قد وجدت قبل هذا حدث الانفجار العظيم" [2].

المسألة الرابعة: أن تكون مادة الماء (وليس الماء نفسه) موجودة (ولكن مخلوقة بحال مختلف وغير تفاعلية) قبل الاستواء على العرش. ومع ذلك نقول إذا كانت مادة الماء موجودة، ولكن بحال مختلف، أو كانت طاقة قبل أن تصبح فاعلة فهذا لا يعني أن الله لم يخلق المادة من العدم، بل إن الله هو خالق المادة من العدم تماماً مثلما سيحيي الموتى يوم القيامة من العدم. يقول تعالى: "الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل {الزمر: 62}. بالتالي فإن النقاش الدائر حول ما إذا كان الانفجار العظيم هو بداية كل شيء، فهذا صحيح هو بداية نشأة الكون، ولكن الانفجار العظيم ليس بداية وجود المادة، لأن المادة مخلوقة من الله قبل خلق الكون، والدليل على ذلك وجود مادة الشياطين (النار) ومادة الملائكة (النور والريح) ووجودهم سابق على خلق الكون، وقد كان لإبليس وجود في الجنة قبل خلق الكون، وللملائكة وجود لحمل

---

[1] سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016)، ص121.

[2] المصدر السابق، ص121.

عرش الرحمن لقوله تعالى: "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17}. وبالتالي يجري وجود مادة الماء قبل خلق الكون مجرى وجود مادة إبليس والملائكة، ويؤيد ذلك أن الماء لا يفنى حتى بعد فناء البشرية والقيام للحساب يوم القيامة، ولأنه موجود في الجنة تماماً كما خلقه الله أسفل عرشه. رغم ذلك فإننا لا نقول إن وجود المادة أزلي، بل هي مخلوقة من الله قبل خلق الكون.

وأما حالة بعد الاستواء نقول: إن لها خصوصية لأنها تحققت بعد خلق مادة الماء (وهي ذرتي الهيدروجين وذرة الأوكسجين) التي جُعل منها كل شيء حي فيما بعد، وخلق مادة الماء نسميه الخلق الثاني بعد خلق الملائكة (ومادة أرواحهم هي النور، وأجسامهم الريح المكونة من عنصري النيتروجين والأوكسجين)، ثم خلق بعدها السماوات والأرض، وهذا نسميه الخلق الثالث، ثم خلق بعدها الكائنات الحية (وأولهم وأبرزهم آدم عليه السلام)، وهذا نسميه الخلق الرابع. يمكن فهم الاستواء بشكل غير مادي بعد إدراك الأبعاد الحركية المادية، أي الكمية القياسية للسرعة (المسافة والزمن) لكل عملية خلق أو تسوية للخلق؛ لأن خلق الكون في (ستة أيام) كما قال تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش.." {السجدة: 4}، يدل على انحصار قانون المسافة في عملية الخلق خلال (ستة أيام)، ما يعني أن أي حسابات فلكية، أو جغرافية، أو معادلات، أو نظريات داخل تخصصات علوم الأرض، مثل علم الفلك، وعلوم الغلاف الجوي، والجيوفيزياء (علم فيزياء الأرض) يجب أن تخضع لزمن "الستة أيام" وتنطبق معها، كي يثبت صحتها المطلقة وليست صحتها النسبية، وإن أي معادلة أو نظرية تعتمد على حسابات الزمن فيما يتعلق بعلوم الفلك ولا تأخذ هذا القياس الزمني الإلهي (ستة أيام) بعين الاعتبار فإننا نقول بالشك في مصداقيتها ودقتها. وهذا يعني أن ما تقوله الفيزياء النظرية حول عمر الكون يجب أن يخضع لزمن "الأيام الستة"، علماً بأن المسافة والزمن التي تلت زمن الخلق تختلف

تماماً عن زمن الخلق. ويدخل في مرحلة ما بعد الاستواء آيتين عن تبديل الخلق وتتعلقان بالخلق الرابع (أي خلق الكائنات الحية) وهما:

- قوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا" {النساء: 133}.
- وقوله تعالى: "ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" {إبراهيم: 19}.

نقول: إن تبديل الخلق لا يكون إلا في حالات لا يعلمها إلا الله، لكنه جعل ذلك من خصوصية الخالق حيث عبّر عن ذلك بالمشيئة في قوله "إن يشأ" والقدرة في قوله "قديراً". والأيام الستة في القرآن مقسمة على الشكل التالي:

أولاً: خلق الله الأرض في يومين، ومعنى الخلق هنا هو إيجاد المادة الأولى، ثم طبخها في الفرن الكوني، قال تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين" {فصلت: 9}.

ثانياً: تسوية السماوات في يومين، وهذا ليس خلقاً لمادة السماوات وإنما تشكيلها على صورة سبع سماوات، وذاك دال أن السماء تسبق الأرض في إحكام البناء، وإن تزامن خلق مادة السماء ومادة الأرض. قال تعالى في سورة فصلت: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين (11) فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم" (12).

ثالثاً: فصل الأرض عن السماء؛ أي: الأجرام التي ستعلوها بعد ذلك. بالتالي خلق السماوات والأرض بالتزامن، لقوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}. وفي تفسير قوله تعالى: "كانتا رتقاً ففتقناهما" قال ابن كثير: "كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر،

ففتق هذه من هذه. فجعل السماوات سبعاً، والأرض سبعاً" [1]. بعد انفصال الأرض عن بقية الكواكب، بسطها الله سبحانه، وثبتها وذلك في يومين اثنين، وهذا هو سن أرضنا، أو قل "عمرها الجيولوجي" على حد تعبير الفيزيائي (منصور محمد حسب النبي). قال تعالى في سورة فصلت: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين (9) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقوتها في أربعة أيام سواء للسائلين (10). فهذه الأيام الأربع تتضمن اليومين الأولين لخلق الأرض، واليومين الآخرين لتثبيت القشرة الأرضية كما هو قول كثير من المفسرين والمعاصرين. والقرآن يميز في عدد من المواضع بين "خلق" و "قدر"، كقوله تعالى: "وخلق كل شيء فقدره تقديراً" {الفرقان: 2} [2].

وهنا نسأل كيف يمكن حساب كل ما تم ذكره وفق حساب الأيام الستة؟

من الناحية العلمية، يقدر علماء ناسا رسمياً عمر الكون على أنه 13,7 بليون سنة، ويقدر العلماء عمر الأرض بـ 4,5 بليون سنة. وبحساب سُدسي عمر الكون؛ أي: يومين من حياته إذا قدرنا أنه ستة أيام بحسب وصف القرآن، تكون النتيجة بالضبط 4,5، بهذه الدقة القرآنية التي اكتشفها العلم [3]. ونقول: إن العرش هو المكان الذي يوجد الله فوقه، والتقديرات سوف تكون من أسفل إلى أعلى، أي من الأرض إلى مكان وجود العرش، وبالتالي يستوجب تقدير الحساب وفق الثنائيات التالية:

بين (الأرض والسماء الدنيا) التي خلقها الله مسافة وزمن، وبين (غلاف الأرض الجوي والفضاء الخارجي) مسافة وزمن، وكذلك بين (الفضاء الخارجي واتساع الكون) الذي عبّر عنه قوله تعالى:

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

[2] سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016)، ص244.

[3] أول من ربط بين المعطى القرآني والمعطى العلمي بهذه الدقة (في حدود علمي) هو الدكتور (منصور محمد حسب النبي).

"والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات: 47} مسافة وزمن، وبين (اتساع الكون والسماوات السبع) مسافة وزمن، وبين (السماوات السبع ومكان وجود الماء) مسافة وزمن، لأن الله قال: "فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها.." {فصلت: 12}، وبين (مكان وجود الماء والجنة) مسافة وزمن، وبين (مكان وجود الجنة ومكان وجود العرش) مسافة وزمن، وبين (مكان وجود العرش والوجود الإلهي) مسافة وزمن، لكن المسافة والزمن بين وجود العرش والوجود الإلهي قديمتان أزليتان مطلقتان ولا تنتهيان. وهذه المسافات والأزمنة ما تحت العرش كلها في شرع الله منذ لحظة خلق الكون وانتهاء خلقه هي ستة أيام، ولكن المسافات والأزمنة بعد خلق الكون بستة أيام، لها حسابات مختلفة باختلاف المتغيرات وأهمها توسع الكون الذي أشار إليه القرآن لقوله تعالى: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات: 47}. يذهب كثيرون إلى أن المسافة بين كل سماء وسماء تقدر بخمسمائة عام اعتماداً على الحديث الذي أخرجه الإمامان مسلم والترمذي عن أبي هريرة بينما نبي الله (ﷺ) جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله (ﷺ)، هل تدرون ما هذا قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: هذا العنان، هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه، قال: هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف. ثم قال: هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال بينكم وبينها خمسمائة عام، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن فوق ذلك سماءين بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنه، ثم قال كذلك حتى عد سبع سماوات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض [1].

[1] سليمان الشعيلي، وصالح الشيذاني، السماوات السبع بين أقوال المفسرين وعلماء الفلك، (جامعة الأزهر، مجلة كلية التربية، العدد 130، الجزء الأول، 2006)، ص16، 17.

لقد ورد في القرآن ما يدل على حساب الزمن لليوم الواحد بالنسبة إلى الله مقارنة بالزمن نسبة إلى الإنسان. قال تعالى: "وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون" {الحج: 47}. قال ابن عباس ومجاهد: يعني من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض. وقال عكرمة: يعني من أيام الآخرة؛ أعلمهم الله إذا استعجلوه بالعذاب في أيام قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة. وقال الفراء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة، أي: يوم من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة [1]. قال الراغب الأصفهاني: "اليوم يعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها. وقد يعبر به عن مدة من الزمان أي مدة كانت" [2].

وقال تعالى: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون" {السجدة: 5}. قال الرازي "إن نزول الأمر من السماء إلى الأرض وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون، فينزل في مسيرة خمسمائة سنة، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة، فهو مقدار ألف سنة [3]. وقال الزمخشري "إن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم". وذكر الماوردي عن ابن عباس والضحاك: "أن الملك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة". وعن قتادة: أن الملَك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة. فيكون مقدار نزوله خمسمائة سنة، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدى. وعلى قول ابن عباس والضحاك: النزول ألف سنة، والصعود ألف سنة. وقولع تعالى: "مما تعدون" أي: مما

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص410، 421.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص720.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص173.

تحسبون من أيام الدنيا [1]. لكن لماذا ذكر في آية أخرى أن مقدار اليوم عند الله هو خمسين ألف سنة في حساب البشر لقوله تعالى: "تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" {المعارج: 4}. قال النحاس: "المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة" [2]. وقال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا نوح المؤدب، عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، وذلك سبعة آلاف عام، وغلظ كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وذلك أربعة عشر ألف عام، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام، وهذا هو مجموع خمسين ألف سنة [3]. وقيل إن المراد بهذا اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة هو يوم القيامة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: هو يوم القيامة، وهذا إسناد صحيح. ورواه الثوري عن سماك بن حرب، عن عكرمة: قال يوم القيامة، وكذا قال الضحاك، وابن زيد [4]. وذكر الرازي أن الأكثرون قالوا بأن قوله "في يوم" من صلة قوله "تعرج"، أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم، وقال مقاتل بل هذا من صلة قوة "بعذاب واقع" {المعارج: 1} وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: سأل سائل بعذاب واقع، في يوم كان

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص10.

[2] المصدر السابق، ج17، ص12.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص221، 222.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص222.

مقداره خمسين ألف سنة. وعلى التقدير الأول، فذلك اليوم، إما أن يكون في الآخرة أو في الدنيا، وعلي تقدير أن يكون في الآخرة، فذلك الطول إما أن يكون واقعاً، وإما أن يكون مقدراً، فهذه هي الوجوه التي تجملها هذه الآية، وفي التفصيل ذكر الرازي (القول الأول) هو أن معنى الآية أن ذلك العروج يقع في يوم من أيام الآخرة طوله خمسون ألف سنة، وهو يوم القيامة، وهذا قول الحسن: قال وليس يعني أن مقدار طوله هذا فقط، إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفنيت الجنة والنار، عند تلك الغاية وهذا غير جائز، بل المراد أن موقفهم للحساب، حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سنين الدنيا. واعلم أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا، والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى: "أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر وأحسن مقيلاً" واتفقوا على أن ذلك المقيل والمستقر الجنة، وأما الخبر فما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال قيل لرسول الله ما طول هذا اليوم، فقال: "والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا". (القول الثاني) هو أن هذه المدة واقعة في الآخرة، لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقق. (القول الثالث) وهو قول أبي مسلم إن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء، فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة، ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوماً، لأنا لا ندري كم مضى وكم بقي [1]. نقول تعقيباً على الآيات التي ورد فيها يوماً كألف سنة مما تعدون، ويوماً كان مقداره خمسين ألف سنة، إن في الآيات مسائل: المسألة الأولى: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام لقوله تعالى: "ولقد خلقنا

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص123، 124.

السماوات السبع والأرض وما بينهما من الخلائق في ستة أيام" {ق: 38}، فإذا كان اليوم بألف سنة مما نعد كما في الآيتين {الحج: 47} و {السجدة: 5}، فذلك يعني أن مجموع خلق السماوات والأرض في ستة أيام هو ستة آلاف سنة مما يعد الإنسان، أي التقدير الطبيعي وفق حركة الإنسان وفعله في السماوات والأرض، أما الستة أيام وحدها فهي أيام الله وفق حساباته لأفعال جنده من الملائكة في خلق السماوات والأرض وقت خلقها، وهذا يدل على أن حسابات الله وفق أوامره وأفعاله تختلف عن حسابات البشر، وحسابات الله بالضرورة أسرع بشكل يمكن تقديره بشرياً، ولكن لا يمكن تطبيقه، أي لا يمكن تطبيق خلق كون في ستة أيام.

المسألة الثانية: أن يكون اليوم الواحد من خلق السماوات والأرض من الأيام الستة يعادل خمسين ألف سنة وفق الآية {المعارج: 4}، وبالتالي فإن مجموع الأيام الستة لخلق السماوات والأرض هو ثلاثمائة ألف سنة وفق حسابات البشر. وإذا انتبهنا إلى قوله تعالى: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات: 47} فهذا يدلنا على أن الثلاثمائة ألف سنة (مجموع الستة أيام) أو الستة آلاف سنة المذكورة في المسألة الأولى (بحساب ألف سنة لكل يوم من الأيام الستة) تزداد بازدياد توسع الكون، باعتبار أن هذا التوسع المذكور في الآية هو خلق متجدد زائد للسماء، فإذا قلنا إن الكون يتوسع منذ لحظة خلقه قبل أكثر من 13 مليار سنة وفق حسابات العلماء، فهذا يعني أننا أمام مليارات إضافية من السنين، هي مليارات توسع الكون التي تضاف بعد وقت خلق الكون وحتى يومنا هذا، والتي يصعب حسابها لأننا أمام حدث مستمر لا يتوقف وليس هناك ما يدل على إمكانية حسابه بشرياً.

المسألة الثالثة: إذا كان الوقت المذكور الذي يعادل يوم وهو خمسين ألف سنة خاص بيوم القيامة، أي وقت موقف أو انتظار الكفار للحساب، فهذا يعني أن الخمسين ألف هي التطور الزمني الطبيعي

من اليوم الذي يعادل ألف سنة، أي أن الألف سنة سوف تصير خمسين ألف سنة وقت فناء السماوات والأرض أو وقت القيامة، ودليل ازدياد الزمن بين السماء والأرض من ألف سنة إلى خمسين ألف هو قوله تعالى: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات: 47} وبالطبع فإن توسع الكون يزيد من مقدار الزمن، فيكون زمن انتظار الكفار لحسابهم بين السماوات والأرض هو خمسين ألف سنة. وبهذا يكون الله قد قدم لنا حساباً عن الفارق بين البداية والنهاية، أي بداية خلق الكون يصل مقدار اليوم إلى ألف سنة ونهاية خلق الكون يصل مقدار اليوم إلى خمسين ألف سنة. فإذا قيل هل يُعرفنا ذلك بموعد يوم القيامة؟ نقول لا، وهذا محال، فإذا افترضنا أن الخمسين ألف سنة انقضت منذ زمن بعيد لأن الكون مخلوق منذ مليارات السنين، فهذا يعني أن القيامة وقع وقتها وهذا غير جائز. وإنه محال أيضاً لأن الإنسان لا يمكنه حساب الخمسين ألف سنة في ظل توسع الكون، وكذلك وفق فهمه المتواضع للمسافة المقطوعة لفترة زمنية محددة بشكل طبيعي بين الأرض والسماء، لأنه لا يستطيع الوصول إلى السماء السابعة، بل ولا يستطيع أن يصل إلا للقليل في الفضاء الخارجي، فيبقى زمن الخمسين ألف هو زمن قدَّره الله عن معرفة الإنسان، وهكذا قال في وصف الزمن في الآية "مقداره" أي أنه ليس زمناً مساوياً قطعياً، بل مقدراً تقديراً والتقديري يعتبر تقريبياً.

المسألة الرابعة: إن وحدات الزمن في الثانية الواحدة متعددة ومختلفة، وبالتالي فهي تنعكس على حساب زمن اليوم الواحد. فأما هذه الوحدات فهي الفمتوثانية (femtosecond) جزء من مليون بليون جزء من الثانية (وحاد أمامه 15 صفراً من الثانية). وقبل الفمتوثانية كان لدينا وحدة قياس تسمى البيكوثانية (picosecond) وتساوي جزءاً من ألف بليون جزء من الثانية (الرقم واحد مقسوماً على الرقم واحد أمامه 12 صفراً) ثم النانوثانية (nanosecond) وتساوي جزءاً من بليون من الثانية (واحد مقسوماً على واحد أمامه 9

أصفار) والميكروثانية (microsecond) وتساوي جزءاً من مليون من الثانية (واحد مقسوماً على واحد أمامه ستة أصفار)، ثم المليثانية (millisecond) وتساوي جزءاً من ألف من الثانية [1]. بالتالي، إذا كانت الذرات تدور بتقويم "الفمتوثانية" و "البيكوثانية" و "النانوثانية" و "الميكروثانية" و "المليثانية" فبأي تقويم منها ينزل الوحي من السماء إلى الأرض؟ وبأي تقويم منها تم خلق الكون إذا ما استدللنا على الأرقام المقدمة في النص القرآني عن معادلة اليوم عند الله نسبة إلى زمنه عند البشر وهو ألف سنة كما في آيتين، وخمسين ألف سنة في آية أخرى؟ وبأي تقويم منها يتوسع الكون كما ذكر في القرآن؟

وفي الإجابة عن السؤال الثالث: ما معنى الاستواء أصلاً؟

معنى الاستواء

نقول: إن كلمة "استوى على العرش" وردت في خمس آيات وجميعها جاءت موصولة بذكر خلق السماوات والأرض، ما يعني أن هذا الاستواء يقع في الزمن الثاني، وهو زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة") وهو زمن استواء بعد الخلق تابع للوجود الإلهي قبل الخلق، وزمن الخلق هو زمن ما قبل الاستواء على العرش، "أي الستة أيام". في حين أن جملة "كان عرشه" في سورة {هود: 7}، أي "كونه كائناً في عرشه"، اعتبرناها توكيداً لزمن الكينونة (الوجود) فوق العرش، لأن زمن الكينونة يشتمل على زمن الخلق.

عموماً سأورد الآيات الست التي ذكرت فيها جملة "استوى على العرش" كما يلي:

---

[1] أحمد زويل، عصر العلم، ط12، (القاهرة: دار الشروق، 2010)، ص129.

- قوله تعالى: "الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون" {السجدة: 4}.

- قوله تعالى: "الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل من به خبيراً" {الفرقان: 59}.

- قوله تعالى: "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون" {يونس: 3}.

- قوله تعالى: "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين" {الأعراف: 54}.

- قوله تعالى: "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون" {الرعد: 2}.

- قال تعالى: "هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش" {الحديد: 4}.

لاحظنا أن (الولاية، والرقابة، والتدبير، والخبرة، والأعلمية، والرحمة، والشفاعة) هي الوظائف والصفات التي جاءت بعد قوله تعالى: "استوى على العرش" في كل الآيات، وهذه الصفات تعتبر داخلة في الأزمنة الثلاثة: زمن الخلق (لغة الأمر الإلهي "كن فيكون" وأفعال الجند "الملائكة")، وزمن الاستواء، وزمن الكينونة (الوجود)، وليس فقط في زمن الاستواء وحده. **وهنا نسأل: ما هي المواد أو العناصر التي خلقها الله قبل استواءه على العرش؟**

المواد التي خلقها الله قبل استوائه على العرش

نقول: خلق الله أمرين قبل أن يستوي على العرش، وهي خلق عناصر الماء (المادة)، ثم خلق الماء (التفاعل) ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما ثم جعل عرشه فوق الماء (مكانه ما دون المادة والتفاعل). ولأن العرش هو المكان الذي استوى عليه الخالق، ولأن الله لا يُحسب وفق توصيف الزمان والمكان، فلا يكون العرش مخلوقاً في زمان أو مكان وإنما العرش توصيف مجازي لإثبات وجود الخالق، لأن العرش مصاحب لوجود الخالق، ولكن ليس لوجوده مكان محدد، لأن تحديد مكان العرش (باستثناء أنه موجود فوق ماء وفوق سبع سماوات) يعني تحديد مكان الله. كما ننكر أن يكون الله (وبالتالي عرشه) موجوداً في زمان محدد أو وفق حسابات الحجم والكتلة والكثافة، وسوف نشرح علاقة الملائكة الثمانية بحمل عرش الرحمن وحجم هذا العرش في سورة {الرحمن: 14} في إجابتنا على سؤال **هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟ وسؤال آخر حول مادة الخالق؟ أو إذا كان الله مخلوق من المادة أو الطاقة؟** {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص334}. كما سبق أن شرحنا معنى وجود العرش فوق الماء ومكانة الماء من النار، ودرجات الماء العلوية فوق السماوية من درجات النار الأرضية الدنيوية، وذلك في سورة {الأعراف: 50} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص127}.

الآية الثانية:

قال تعالى: في سورة الواقعة: "أفرأيتم الماء الذي تشربون (68) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون" (69).

قال البيضاوي في معنى قوله تعالى "أفرأيتم الماء الذي تشربون" أي العذب الصالح للشرب [1]. وقيل: لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم [2]. نقول: هو الماء الذي يجعل الإنسان حياً في الدنيا وهي حجة الله في إحيائه لخلقه، ومصداق ذلك قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}.

دلالة قوله تعالى: "فمن يأتيكم بماء معين"؟

الآية الثالثة:

قال تعالى: "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين" {الملك: 30}.

ذكر غالبية المفسرين في معنى: "إن أصبح ماؤكم غوراً" فقالوا أي: غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء [3]. نقول: في هذه الآية تحدّي إلهي علمي يفوق فكرة التعبير الديني القرآني عن أهمية الماء وأنه نعمة من الله. وفي هذا التحدي تحذير إلهي من حالة نضوب الماء من الكرة الأرضية، حيث ورد هذا التحدي في جملة الاستفهام **"فمن يأتيكم بماء معين؟" فلماذا أورد الله الاستفهام؟ وماذا يريد من وراء ذلك؟**

من الحقائق المُدركة عن الماء أنه موجود على سطح الأرض منذ خلق السماوات والأرض. كما أن وجوده مستمر وفق دورة حياة الماء في الطبيعة، وهو كذلك لا ينقطع إلى الأبد، لأنه لا ينعدم في الجنة التي ذكر في القرآن أن فيها ماء غير آسن، والماء يقع عليه عرش الرحمن.

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج27، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص366.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص214.

[3] المصدر السابق، ص133.

ويعلم الجميع أن الصيغة الكيميائية لجزيء الماء هو H_2O ، ويتكون هذا الجزيء من اتحاد أو تفاعل غاز الهيدروجين مع غاز الأوكسجين. ومن المعروف أن الماء عديم اللون وعديم الرائحة وعديم الطعم. ومن المعروف أن الماء المصنّع في زجاجات والمعروض للبيع في محلات الشراء كله ماء مُعالج، وهو "غير مخلوق"، وثمة فرق بين الإثنين، أي أنه في الأصل مياه بحر أو مياه عادمة.. إلخ. هذا النوع من الماء المُعالج تختلف فيه نسب الأملاح والمواد المعقمة وفق صفات الماء الذي يحتاجه الجسم، وهذا يتراوح بين شركة وأخرى. وهنا نسجل ملاحظة، وهو أن أي زيادة أو نقصان في نسبة الأملاح أو عندما يشعر الجسم بأن الماء فيه خلل فإن مركز استقبال الإنسان في الدماغ يعطي إشعار حول الماء الذي نشربه، ويحدث ذلك فقط للإنسان، أما الحيوانات فغالبيتها ليس فيها خاصية الاستشعار حول طبيعة الماء. بالتالي فإن الإنسان مخلوق وله نواقل عصبية، وحواس تذوق وشم حتى يكون لديه رد فعل على كل شيء شربه أو أكله. ولهذا السبب أشرت إلى تكريم الإنسان من الله وفق النص القرآني لقوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70}. هذا التكريم جعل الله معه محرمات، فلا يتناول الإنسان المسلم الدم والميتة ولحم الخنزير كما ورد في القرآن. عندما نقول بأن الماء "غير مخلوق" فهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع خلق الماء، لأن الماء ينتج عن تفاعل كيميائي من اتحاد جزيء الهيدروجين مع جزيء الأوكسجين وفق أوزان كيميائية ثابتة ويصاحب نواتج هذا التفاعل طاقة حرارية كبيرة، وينتج عنها انفجار شديد ومن الصعب حصر الطاقة الناتجة في مكان مغلق، لذلك عند إجراء تجربة خلق الماء من المستحيل تنفيذها بسبب الحرارة الناتجة القادرة على إحداث انفجار قادر على هلاك البشرية. بالتالي فإن قوله تعالى: "فمن يأتيكم بماء معين" يعني أنه لا يمكن لأي إنسان على سطح الأرض أن يخلق الماء. وبالتالي فإن خلق الماء

مرتبط تماماً بعملية خلق الكون أو بحسب التوصيف القرآني (فتق الرتق) للسماوات والأرض التي قال الله تعالى فيها: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}. وإذا قيل في معنى "أصبح ماؤكم غوراً" يعني بعيداً أو غير متوفر في الأرض، فذلك يكون بأمر الله لقوله تعالى: "وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون" {المؤمنون: 18}، أي أن الله قادر على أن يجعل الماء الغور ذاهب بعدما أسكنه في الأرض ويكون هذا الذهاب عبر تبخره بفعل حرارة الشمس أو بفعل إرادة الله وتحوله من الحالة السائلة على الأرض إلى الحالة الغازية على شكل بخار ويتصاعد إلى أعلى في طبقات الغلاف الجوي.

الآية الرابعة:

قال تعالى: "أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً" {الكهف: 41}

قيل: الغور: هو الغائر. والمعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له [1]. وعموماً، هذه الآية تتسق مع الآية السابقة.

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص861.

الفصل الثالث

مركزية (التراب والطين والصلصال الفخار والحمإ المسنون) في نشأة وديمومة الكائنات الحية (آدم والنباتات والحيوانات)

التراب هو عبارة عن حبيبات ومادة جافة، أما الطين فهو مكوّن من عنصرين هما الماء والتراب، ثم بعد ذلك يصبح شديد اللزوجة مع زيادة الماء عليه وهو في هذه الحالة يكون صلصالاً. وفي العلاقة بين الماء والتراب/الطين قيل: إن المادة البعيدة هي التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون، وأقرب منه الصلصال، فثبت أنه لا منافاة بين الكل [1]. كما قيل إن الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب، فإن التراب لا ينبت إلا بالماء، ففي النبات الذي هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء، فإن جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك، وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال تعالى: "وهو الذي خلق من الماء بشراً" {الفرقان: 54} وإن كان الماء فكيف قال "هو الذي خلقكم من تراب" {غافر: 67} وإن كانا هما أصلين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة {....} وهي أن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل، لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما، بل للذي هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان، فإن كونهما أصلين ليس أمراً ذاتياً لهما، بل بجعل جاعل، فتارة جعل الأصل التراب، وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً، وإن شاء جعلهما أصلين [2]. إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم (عليه السلام) وجوهاً كثيرة (أحدها) أنه مخلوق من التراب كما في قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب.."

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص228.

[2] المصدر السابق، ص110.

{آل عمران: 59}. (والثاني) أنه مخلوق من الماء، قال تعالى: "هو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً" {الفرقان: 54}. (والثالث) أنه مخلوق من الطين لقوله تعالى في سورة السجدة: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" (8). (والرابع) أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى في سورة المؤمنون: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (12) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين" (13). (والخامس) أنه مخلوق من طين لازب لقوله تعالى: "إنا خلقناكم من طين لازب" {الصافات: 11}. (والسادس) إنه مخلوق من صلصال لقوله تعالى: "إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون" {الحجر: 28} [1]. قيل إنه خلق آدم (عليه السلام) من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طيناً وهو قوله تعالى: "إني خالق بشراً من طين" {ص:71} ثم إنه قال: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12} والسلالة بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من ألطف أجزاء الطين، ثم إنه أثبت من الصفات ثلاثة أنواع: (أحدها) أنه من صلصال، والصلصال: اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. (الثاني) الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير لونه إلى السواد. (والثالث) تغير رائحته لقوله تعالى: "فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه" {البقرة: 259} أي لم يتغير [2]. نقول: إن العلاقة بين التراب والطين والصلصال والحمإ هي علاقة استمرارية قائمة على تتابعية حركة

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص83.

[2] المصدر السابق، ص83.

الدفء ثم الحرارة ثم الوفرة. إنها علاقة هشة في أولها وحادة في آخرها، وإن الطقس وعنصر الماء هو الذي يتحكم في هشاشة أو حدة هذه العلاقة.

الآيات التي ورد فيها كلمات "تراب – تراباً – ترائب"

أولاً: كلمة "تراب"

مراحل عمر الإنسان، من بداية الخلق وحتى البعث

الآية الأولى: قال تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" {الحج: 5}.

في الآية مسائل على الترتيب الطبيعي والبيولوجي الحيوي الذي جاءت به كما يلي:

أولاً: نقول: إن الخطاب في هذه الآية موجه للناس جميعاً، أي جميع خلق الله في قوله تعالى "يا أيها الناس"، وذلك دلالة على المساواة في اشتمال الخطاب على كافة أنواع الناس وألوانهم وأعراقهم، ويشتمل الخطاب على الجنسين الذكر والأنثى، وذلك لمسؤولية الذكر عن إنتاج النطفة في رحم المرأة، وكذلك مسؤولية المرأة عن استقبال النطفة واحتضان كافة مراحل تكوين الجنين، بالإضافة إلى أهم مرحلة وهي مرحلة مشيئة الله أو اتخاذ القرار الإلهي في عملية إحياء الجنين من عدمه وفق مسألة الأعلمية عن الروح التي هي بأمر الله، وذلك وفق

ما عبّرت عنه الآية مرتين في قوله تعالى أولاً: "مضغة مخلقة وغير مخلقة" وقوله تعالى ثانياً: "ونقر في الأرحام ما نشاء".

ثانياً: قوله تعالى: "إن كنتم في ريب من البعث".

نقول: إن الريب لكل الناس، أي للمجموع وليس لواحد منهم، لأنه قال "كنتم" في إشارة للناس جميعاً، أي "إن كنتم أيها الناس في ريب من البعث"، وأيضاً في إشارة إلى كثرة وتعدد الشك على لسان وفي تفكير كل الناس، وفي ذلك دليل على علو سقف التحدي الإلهي فيما سيطرحه لاحقاً من براهين مثبتة رداً على كل الريب وأي ريب في موضوع البعث قل أو كثر. قال الشوكاني: والمعنى: إن كنتم في شك من الإعادة فانظروا في مبدأ خلقكم، أي خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة [1]. والتقدير "إن كنتم في ريب من البعث" فإنا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة [2]. وأورد الدلالة على صحة إثبات البعث مرّة أخرى بعد الموت في قوله تعالى في سورة يس: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (78) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" (79). وقوله تعالى: "فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة" {الإسراء: 51}. وأوضح الرازي: فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث، فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانياً [3].

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج9، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص23.

[3] المصدر السابق، ص9، 10.

ثالثاً: قوله تعالى: "فإنا خلقناكم من تراب".

قال البيضاوي يعني: بخلق آدم منه، أو الأغذية التي يتكون منها المني [1]، وقال الشوكاني: ضمن خلق أبيكم آدم [2]، وقال ابن كثير: هو الذي خلق منه آدم، أي التراب [3]، وكذلك قال القرطبي: أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني آدم (عليه السلام) "من تراب" [4]. على حين قال الرازي: إن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث، وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان أو نبات، وغذاء الحيوان ينتهي قطعاً للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء [5]. نقول: إن الإشارة إلى "البعث" الذي يكون في نهاية الحياة وعند قيام القيامة وربطه بالتراب الذي هو المادة الأصلية التي خلق منها آدم (عليه السلام) فيه دليل على مركزية حقيقة وصورة الإنسان بالمعيار الإلهي، وفي ذلك إشارة إلى طريقة وحقيقة وأصل المادة الأولى التي خلق منها. أي أنه لم يكن ثمة ما يدعو للغموض أو التستر على كيفية الخلق ومادته، بل هو إعلان إلهي صريح عن تلك الدورة الحياتية للإنسان منذ لحظة خلقه من التراب وصولاً إلى موته كما أشير إليها في بقية الآية، وفي ذلك دعوة إلى ضرورة التأمل في أصالة إنتاج الله لخلقه. إن السلسة التي أوردها فخر الدين الرازي صحيحة لأن كل

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص313.

[5] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص8.

حركة الإنسان اليومية واللحظية وكل ما يفرزه الجسم وما يجعله حيوياً نشيطاً، بل وحتى الدورة الدموية، كلها تقوم على طبيعة النظام الغذائي الذي يتّبعه الإنسان في يومه، ولأن غذاء الحيوانات يكون على النباتات أو ما تسلسل عنها، ولأن مصدر وبيئة النبات الأولى هي الأرض والتربة والماء، فإن الإنسان بالتالي يرجع أصل نشاطه وحيويته وحركته بل بقائه على قيد الحياة إلى المصدر الأساسي أو البيئة التي أُنتجت فيها النباتات وهي تربة الأرض، والعنصر المساعد على النمو وهو الماء، أي أن مصدر الإحياء للنبات هو ذاته مصدر الإحياء للإنسان، وهو ذاته مصدر إحياء التربة عند تحوّلها من التراب إلى الطين ومن ثم إلى الصلصال. كما أن قوله تعالى: "فإنا خلقناكم من تراب" هي إجابة مباشرة وصريحة على قوله تعالى في بداية الآية: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث". والمقصود بالبعث هو بعث الإنسان ليوم الحساب عند الله. قال ابن منظور: معنى البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال كقوله تعالى: "ثم بعثنا من بعدهم موسى"، والبعث إثارة شيء بارِك أو قاعِد. والبعث أيضاً: الإحياء من الله للموتى. ومن أسمائه عزوجل: الباعث، وهو الذي يبعث الخلق أي يحييهم بعد موتهم يوم القيامة [1]. نقول: إذا كان البعث يتضمن معنى الإرسال والإثارة، فإن الحركة مشمولة في المعنى، ولأنها كذلك فهي مشمولة في معنى البعث، فيصير البعث معناه حركة قيام الإنسان، وهو معنى يُضاف إلى سلسلة المعاني المجازية. نقول الحركة لأن التراب بفعل الماء والحركة يتحوّل إلى طين، ومن ثم يتحول إلى صلصال، ومنه تُنتج مادة الإنسان الأولى وتشكيله البدني. ومن الآيات التي ذكرت في موضوع البعث بعد الممات قوله تعالى: "ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون" {البقرة: 56}. وقوله تعالى: "ولئن

---

[1] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م1، ج3، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص307.

قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت" {هود: 7}. وقوله تعالى: "فأماته الله مائة عام ثم بعثه" {البقرة: 259}. وقيل في معنى البعث: الإيقاظ والنهوض من العدم. وجاء في القرآن: "فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" {البقرة: 213}. بهذا المعنى في الآية الأخيرة يؤكد لنا أن البعث له معنى الأمر الإلهي في الحياة الدنيا مصحوباً بالصلاحية المطلقة غير المقيدة [1].

رابعاً: قوله تعالى: "ثم من نطفة".

نقول: هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: "خلقناكم من تراب" وهذا دال على أن نطفة آدم (عليه السلام) هي مثل سائر بقية النطف لدى كل البشر من ناحية آلية التكوين؛ لأن نطفته نشأت بشكل طبيعي نتيجة نوعية الطعام الذي تناوله آدم (عليه السلام)، فكانت نطفته ناتجة عن النظام الغذائي الذي اتبعه، وبيئته هي من الأرض وأصله من التراب ونموه بواسطة الماء، أي أن الماء أصل وليس فرعاً في عملية الإحياء للنبات، وبالتالي أصل في إحياء الإنسان. قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: "ثم من نطفة" أي من منيّ، وسُمي نطفة لقلته، والنطفة: القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه. والنطفة: القطرة [2]، وقال ابن كثير: أي: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" [3]. وقال الرازي: كأنه سبحانه يقول: "أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفاً" [4]. نقول: إن إشارة ابن كثير إلى السلالة وإشارة الرازي إلى أن الله قلب التراب

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م1، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص222.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص9.

اليابس إلى ماء لطيف كلاهما صحيح، لكن المعنى الأصح أو الأدق، هو أن الله جعل المني من صلب الرجل مكون من بيئتين مادتين وهما التراب والماء، فكان التأسيس للمني هو النتيجة الحيوية البيولوجية التي نشأت عند اختلاط مادتي التربة والماء وقت خلق آدم (عليه السلام) وهذا أصل نشأة النوع الآدمي، أي أن الإنسان يحمل في جسده المني الذي هو أصل ناتج عن اختلاط التربة والماء في خلق الإنسان الأول، أي مني آدم (عليه السلام)، والمني هو النتيجة التي أدت إلى بقاء وتكاثر الجنس البشري، والمني هو مثل الوحدات البنائية الأخرى التي يتكون منها جسم الإنسان وأهمها الخلية التي يمكن أن ينتج عنها عملية التلقيح باعتبار أن الخلية أسبق من النطفة، بل إن خصية الرجل تحتوي في الأصل على عدد من أنواع الخلايا غير المنوية وهي (ايديغ، سيرتولي، النخاعي، والخلايا الظهارية). وتشبه النطفة ذات الست عشرة خلية "ثمرة التوت"، حيث تطفو "داخل الرحم" وتمتص السوائل وتتحول إلى شكل حويصلي بعد أربعة أيام من التلقيح [1]. ويتم تكوين الإنسان من بويضة يبلغ قطرها جزءاً من 125 جزءاً من البوصة [2]. إن عملية امتصاص النطفة للسوائل هي الصورة الطبيعية لامتصاص النباتات للمياه كي تنمو، وإن الماء هنا عامل مشترك لأنه في الأصل عامل أساسي في خلق آدم (عليه السلام) من التراب بعد تحوّله إلى طين وصلصال. تطفو البذرة في تجويف الرحم لمدة يومين، ثم تستقر، ثم تبدأ "البذرة" في الفور والانبثاق في الرحم، وبانغراس "البذرة" وغورها في الرحم تلتهم الأوعية الدموية، وتحاط ببركة من دماء الأم، وتستمر عملية الانغراس من "اليوم السادس إلى السادس

---

[1] عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص9.

[2] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص95.

عشر" [1]. لقد شبه القرآن انغراس النطفة في الرحم بانغراس البذرة في التربة، وذلك في قوله تعالى: "نساءكم حرث لكم" {البقرة: 223}، أي شبه وضع نطفة الرجل في رحم المرأة بغرس البذرة في حفرة الأرض، فجعل رحم المرأة هو المكان المحفور الذي تغرس فيه البذرة، ثم يُرش عليها الماء كي تبدأ في النمو.

خامساً: قوله تعالى: "ثم من علقة".

أي بعد النطفة، "وبين مرحلة النطفة والعلقة، فترة زمنية، لهذا السبب يستخدم القرآن الكريم حرف العطف "ثم" الذي يفيد الترتيب والتراخي" [2]. قال الشوكاني: العلقة: هي الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط، أي: الطري أو المتجمد؛ وقيل: الشديد الحمرة والمراد: الدم الجامد المتكون من المني [3]. وكذلك قال البيضاوي: هي قطعة من الدم جامدة [4]. وهو ما قاله القرطبي أيضاً [5]. على حين قال ابن كثير: إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً [6].

---

[1] عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص9.

[2] المصدر السابق، ص10.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص313.

[6] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

سادساً: قوله تعالى: "ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة".

قال البيضاوي: المضغة قطعة من اللحم [1]. وقال تعالى في الآية 14 من سورة المؤمنون: "فخلقنا العلقة مضغة" والآية تقرر أن الله خلق من "العلقة" شكلاً كالمضغة، والجنين في الأيام من "22 –24 " يظهر في شكل "علقة" ويتحول ابتداء من اليوم 26 – 28 إلى مضغة "مخلقة وغير مخلقة" ويشبه الجنين في الأسبوع الرابع القطعة الممضوغة، بعضها تتبين أجزاؤه "مخلقة" وبعضها لا تتبين أجزاؤه "غير مخلقة" [2]. هذا يعني أن النفخ في الروح يكون للمضغة وهذا مؤكد، وكذلك الزمن الذي ينفخ فيه الروح في المضغة، فهو زمن يتراوح بين أربعة أشهر وعشراً وليس أقل من ذلك، وخمسة أشهر وليس أكثر من ذلك. قال ابن كثير: فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عزوجل، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين [3]. على حين قال القرطبي: هذه الأطوار -يقصد النطفة والعلقة والمضغة- أربعة أشهر. قال ابن عباس: وفي العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح. فذلك عدة المتوفى عنها زوجها، أربعة أشهر وعشر [4]. ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر ودخلوه في الخامس. وقيل: إنه الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[2] عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص10.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص313.

ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل [1]. أما قوله تعالى: "مخلقة وغير مخلقة" يعني مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسوّاة، أو تامة وساقطة، أو مصوّرة وغير مصوّرة [2]. وقال الأكثر: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام، وما سقط كان غير مخلقة، أي: غير حي بإكمال خلقته بالروح. قال الفراء: مخلقة تام الخلق، وغير مخلقة: السقط [3]. وقال الأعرابي: "المخلقة" قد بدأ خلقها، "وغير المخلقة" لم تصوّر بعد. وقال ابن زيد: "المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير المخلقة: التي لم يُخلق فيها شيء" [4]. وقال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلق لتتابع الخلق عليه، قالوا فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق، لأنه لم يتوارد عليه التخليقات [5]. في هذه المرحلة نستحضر قوله تعالى: "يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث" {الزمر: 6}. قال الشوكاني: هذه الظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهذا ما قاله مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك. قال سعيد بن جبير: ظلمة المشيمة، وظلمة الرّحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة

---

[1] المصدر السابق، ص316.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص317.

[5] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص9.

الرّحم [1]. وقيل: الظلمات الثلاث هي: غشاء السلي أو الأمنيون (Amnion)، وغشاء الكوريون (Chorion) أو الغشاء المشيمي، والغشاء الساقط (Decidua) [2]. ومما ذكر أن الحياة تتشكل في الرحم في ثلاث مراحل: مرحلة ما قبل الجنين (PRO-Embryonic) (حتى منتصف الأسبوع الثالث) ومرحلة الجنين الأولى (Embryonic)(لنحو نهاية الأسبوع الثامن) ثم المرحلة الجنينية (Fetal)(ما بعد الأسبوع الثامن وحتى الولادة) [3].

سابعاً: قوله تعالى: "ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى".

قال الرازي: "نقر في الأرحام" ذلك دلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط" [4]، أي الجنين الذي يسقط من الرحم لأسباب متعددة. وقال الشوكاني في تفسيره: هو وقت الولادة، وقال "ما نشاء" ولم يقل "من نشاء"؛ لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح [5]. نقول: إن الجنين في بطن أمه يكون فيه روح بعد أربعة أشهر وعشرة أيام لأن المضغة تكون مخلقة، وإذا كانت مخلقة فذلك يعني أن فيها روح، بالتالي فإن استخدام "ما" وليس "من" في قوله تعالى: "ونُقر في الأرحام ما نشاء" تعود إلى المضغة غير المخلقة في الأشهر الأربعة الأولى ولا يرجع إلى الحمل كله كما قال الشوكاني لأن الحمل ليس كله جماد بل أقل من النصف إذا كان الحمل موعده

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1275.

[2] عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص7.

[3] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص78.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص9.

[5] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

تسعة أشهر. ومع ذلك نقول: إن هذا يؤكد أن كل مرحلة هي خلق، فالتكوين للمضغة خلق، ونفخ الروح خلق آخر، وهذا يتسق مع رؤيتنا القائلة بتعدد أنواع الخلق ضمن خلق الإنسان، فلا يكون الإنسان خلقاً واحداً، بل عدة أنواع من الخلق، وذلك بسبب طبيعة وزمن التكوين الإنسي وتعدد مهام الأعضاء وأبرزها العقل، وهذا يتسق مع قوله تعالى: "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم" {آل عمران: 6}. والتصوير هو إيجاد وفق التقدير [1]، والإيجاد من الوجود، أي وجود الأعضاء وفق تقدير حجمها وشكلها وتسويتها بما يليق بشكل الإنسان الخارجي. وإن كل ما يخرج من العدم إلى الوجود، يفتقر إلى تقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً. والله سبحانه وتعالى، خالقٌ من حيث أنه مقدر، وبارئ من حيث أنه مخترع موجد، ومصور من حيث أنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب [2]. أما قوله تعالى في الآية: "إلى أجل مسمى" فذلك يعني الجنين في حالة نفخ الروح فيه بعد أربعة أشهر وعشراً في رحم أمه، وكلمة "مسمى" تشير إلى قصر أو طول مدة الحمل، وهو بحسب البيضاوي: "أدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربع سنين" [3].

ثامناً: قوله تعالى: "ثم نخرجكم طفلاً".

قال الشوكاني: أي نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً، أي: أطفالاً، وإنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد. قال الزجاج: طفلاً في معنى أطفالاً، ودل عليه ذكر الجماعة يعني: في نخرجكم، والعرب

---

[1] أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، حققه بسام عبد الوهاب الجابي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ط1، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، 2003)، ص76.

[2] المصدر السابق، ص75.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة [1]، وقال البيضاوي: "طفلاً" حالٌ أجريت على تأويل كل واحد[2]، نقول: إنه لم يحدد الجنس ذكراً أو أنثى، بل هو أشار إلى المرتبة التصنيفية وهي النوع، وذلك تمهيداً لنوع الإنسان العاقل. وكذلك أفرد "طفلاً" إرادة للنوع وليس الجنس. كما أن قوله تعالى: "نخرجكم" بصيغة الجمع هو إشارة للنوع "أي الإنسان العاقل" وفقاً للمرتبة التصنيفية أو انتهاءً لطور وبداية لسلالة وفقاً للقرآن الكريم. لذلك قال ابن كثير: أي: نخرجكم ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله [3]، هذا يعني أن الإنسان قد يولد غير معافى أو به علة في بدنه أو جنسه، ولكن ذلك لا يضر نوعه لأن الله هو الذي اختار نوعه كبشر، لكن هناك عوامل أخرى تتحكم في موضوع الاعتلال في البدن والجنس، وهذه مسألة بيولوجية كيميائية ولها علاقة بالنظام الغذائي، والعوامل البيئية والمرضية والوراثية، وهي ناتجة غالباً عن فساد الإنسان في الأرض وفساده في حق نفسه.

تاسعاً: قوله تعالى: "ثم لتبلغوا أشدكم".

قال البيضاوي: أي: كمالكم في القوة والعقل [4]. وقال ابن كثير: أي يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر [5]. على حين قال الشوكاني: هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص953.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[5] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص396.

مناسبة له، كأنه قيل: نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا الأشد، وقيل: إن "ثم" زائدة، والتقدير: لتبلغوا؛ وقيل: إنه معطوف على نبيّن، والأشد هو كمال العقل وكمال القوة والتمييز، قيل: وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين [1]، في حين قال الرازي: "سهّل في تربيتكم وأغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم، فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد [2]. إن قول الرازي إن الله سهل في أغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم هي وصف أقل مما منح الله للإنسان في حياته كي يبلغ أشده، **لماذا نقول أقل؟** ليس لأنه لولا الغذاء لما بقي الإنسان، بل لأن الإنسان يعيش في الأرض ويعمّر فيها من خلال ما تنتجه له المادة الأولى التي خلق منها، أي ما ينتجه التراب/الطين من الأرض. أي أن أصالة مادة خلق الإنسان هي من أصالة المادة الأولى وهي التراب الذي يجعله يحيا في الأرض، وذلك يعني أن كل تحوّل بين خلق وآخر أو مرور الإنسان في مراحل خلقه المتباينة يعتمد اعتماداً كلياً على ما تنتجه مادته الأولى التي خلق منها، وهذا يعني أن خلق الإنسان يعود إلى أصالة الطبيعة التي توجهه نحو البقاء، وهذا كله بأمر الله وبحكمته في بداية خلقه لآدم (عليه السلام).

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص10.

عاشراً: قوله تعالى: "ومنكم من يتوفى".

قال البيضاوي: عند بلوغ الأشد أو قبله [1]، وكذلك قال الشوكاني [2]. على حين قال ابن كثير: أي في حال شبابه وقواه [3]. وقال الرازي: في حال قوته وكماله [4]. نقول: إن الوفاة المقصودة هنا محدودة بين زمنين وهو بداية بلوغ الأشد وقبل الهرم. والوفاة التي ليس فيها تجاوز إلى مرحلة الهرم هي دليل على الاتساق التام بين بداية الخلق ونهايته. أي أن الإنسان كما تبدأ حياته من التراب/الطين، أيضاً تنتهي بانتهاء جودته الحيوية التي أنتجتها مادة التراب/الطين. فالإنسان يبدأ من الأرض ويعود إليها وفق ما تمنحه من إنتاج يؤثر بالضرورة على بنيته الجسمانية والعقلية بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير" {الروم: 54}. قيل: من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلاً مولوداً ورضيعاً ومفطوماً، فهذه أحوال غاية الضعف، وقوله تعالى: "ثم جعل من بعد ضعف قوة" إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله [5].

أحد عشر: قوله تعالى: "ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً".

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص396.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلاّمة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص10.

[5] المصدر السابق، ج25، ص137.

قال البيضاوي: "ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر" وهو الهرم والخرف [1]. على حين قال الشوكاني: أي: أخسه وأدونه [2]. ومثله تماماً قال القرطبي [3]. على حين قال ابن كثير: الشيخوخة وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر [4]. أما قوله تعالى: "لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً" أي ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم، فينسى ما عمله وينكر ما عرفه [5]. وهذا ما ذكره الرازي تماماً [6]. على حين قال الشوكاني: "أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها، لا علم له ولا فهم" [7]. وفي ذات السياق قال تعالى: "ومن نعمّره ننكسه في الخلق" {يس: 68}. قيل: إن طول العمر يُصيّر الشباب هرماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً، وهذا هو الغالب [8].

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص323.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص396.

[5] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج17، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص439.

[6] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص10.

[7] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

[8] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص480.

اثني عشر: قوله تعالى: "وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج".

قال ابن كثير: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلة التي لا نبت فيها ولا شيء [1]. وقال الشوكاني: هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، والهامدة اليابسة التي لا تنبت شيئاً، قال ابن قتيبة: أي ميتة يابسة كالنار إذا أطفئت. وقيل: هي التي ذهب عنها الندى؛ وقيل: هالكة. وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة [2]. وكذلك قال ابن جريج: يابسة لا تنبت شيئاً. وقال الهروي: "هامدة: أي: جافة ذات تراب. ويقال: همد شجر الأرض: إذا بلى وذهب. وهُمودُ الأرض: ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود، ولم يصبها مطر [3]. وقال الشوكاني: المراد بالماء: المطر، ومعنى اهتزّت: تحركت، والاهتزاز شدّة الحركة، يقال: هززت الشيء فاهتز، أي: حركته فتحرك، والمعنى: تحركت بالنبات، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقية، فسماه اهتزازاً مجازاً [4]. وهذا ما قاله القرطبي [5]. ومعنى ربت: ارتفعت، وقيل انتفخت، والمعنى واحد وأصله الزيادة. وقوله "أنبتت" أي أخرجت. وقوله "من كل زوج بهيج" أي: من كل صنف حسن

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص398.

[2] المصدر السابق، ص398.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص323، 324.

[4] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص324.

ولون مستحسن [1]. على حين قال الرازي: "من كل نوع من أنواع النبات" [2]. نقول: تصح في هذا الموضع أن نقول من كل نوع كما ذكر الرازي لأن هناك إشارة ضمنية لعلاقة خلق الإنسان من المادة الأولى وهي التراب الذي هو نفس بيئة إحياء النبات، فنقول أنبتت للنبات في مقام خلقت للنوع الآدمي أو للإنسان. ويستحق أن **نسأل هنا: لماذا ذكر الله الأرض كمثال في الآية مع ذكر تسلسل خلق الإنسان منذ لحظة خلقه من تراب، أي آدم (عليه السلام) وحتى وفاته وبعثه من جديد؟ بمعنى آخر، هل للأرض علاقة بدورة خلق الإنسان؟**

نقول: نعم، يصف الله الأرض قبل عملية إحيائها بأنها هامدة، وكأنه يقارن بين الأرض قبل إحيائها والإنسان قبل خلقه من جديد، أي عندما يكون عدماً، ولا شيء يُذكر. ثم إن الله يُشير إلى عملية إحياء الأرض من خلال الماء في قوله "أنزلنا عليها الماء"، والماء هنا بالنسبة للأرض هو بمثابة مادة الإحياء للتربة، مثلما هي التربة/الطين مادة الخلق للإنسان. وإن قوله "اهتزت" هو بمثابة نفخ الروح في التربة، مثلما ينفخ الله الروح في الإنسان عندما يكون مضغة في رحم أمه. وقوله "وربت" أي تفاعلت. قال القرطبي في هذا السياق: لما وصف الأرض بالإنبات دل على أن قوله "اهتزت وربت" يرجع إلى الأرض لا إلى النبات [3]. نقول: على وجه الدقة إنه يرجع إلى بيئة النبات الأرضية وهي التراب/الطين. بمعنى آخر، أراد الله أن يقول إن هذه أهم صورة من صور البعث، وهي التي اشتركت فيها الأرض، من

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص954.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص10.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج14، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص325.

خلال التربة/الطين في بداية خلق الإنسان، والآن في عملية إحيائه في حالة البعث، وذلك من خلال عنصر وحيد دخل على التربة وهو عنصر الماء في قوله تعالى: "فإذا أنزلنا عليها الماء" أي على الأرض، وفيها التربة التي تتحول مع نزول الماء إلى طين ومن ثم إلى صلصال، وذلك مدعاة لإحياء النبات مثلما هو مدعاة لإعادة إحياء الخلق. وهناك آيات دالة على هذه العملية الإحيائية للإنسان من جديد والتي فيها تصوير طبيعي كتصوير إنتاج النبات من الأرض وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى من سورة نوح: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً" (18)، كما سوف نشرحها بالتفصيل {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص528} وكذلك قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" {يس: 36} كما سوف نشرحها بالتفصيل {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص525} عموماً تشير كافة الآيات المذكورة إلى أن مادة التراب/الطين على وجه الخصوص ستبقى كما هي في لحظة البعث يوم القيامة لأن التراب/الطين هو العنصر الذي سوف يساعد على إعادة إحياء الإنسان من جديد.

الآية الثانية: قال تعالى: "هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مُسمى ولعلكم تعقلون" {غافر: 67}.

قال ابن كثير: أي: "هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها" [1]، وقال الشوكاني في تفسير قوله "هو الذي خلقكم من تراب" أي: خلق أباكم

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص157.

الأول، وهو: آدم، وخلقه من تراب يستلزم خلق ذريته منه [1]، على حين قال الرازي: "المراد آدم، وعندي لا حاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني مخلوق من الدم، فالإنسان مخلوق من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحال في تكون ذلك الحيوان كالحال في تكون الإنسان، فالأغذية بأسرها منتهية إلى النبات، والنبات إنما يكون من التراب والماء، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة ومراتب كثيرة إلى أن ينفصل من بطن الأم" [2]. نقول: إن الرازي أحسن الفكرة، لكنه لم يحسن ترتيب بعضها، فآدم (عليه السلام) مخلوق من التراب، أما ذريته عموماً فهم مخلوقون من النطفة المتكونة من الغذاء. والحال في تكوّن الحيوان ليس كالحال في تكون الإنسان، ثم إن التراب لا يصير نطفة ثم علقة كما ذكر الرازي، بل يصير التراب نطفة عبر اختلاطه بالماء، وذلك لم يحدث إلا لآدم (عليه السلام)، أي أن مادة خلقه من التراب تمت بعد تحول التراب إلى طين ثم صلصال نتيجة اختلاطه بالماء، وبالتالي فإن كل نطف البشرية أصلها من خلق آدم (عليه السلام) أولاً، وأصل الأصل من الماء ثانياً، ثم من التراب. كما أن اشتراك عنصر الماء في خلق آدم (عليه السلام) هو الذي يفسر لُزوجة المني ووجود شبه بينه وبين الماء لكن على شكل أكثر كثافة من الماء، وذلك لأسباب بيولوجية حيوية تفاعلية في جسد الإنسان تتعلق بطبيعة الغذاء. وبذلك فإن كل ما نسل من آدم (عليه السلام) هم ذريته، وأصلهم من نطفته، وهذا ما يستوجب القول إن آدم (عليه السلام) كان معافى، وسوي في بدنه

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1306.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص86.

وعقله، أي أنه سليم الخلق والخلقة. لقد رتب الله في الآية عمر الإنسان على ثلاث مراتب (أولها): كونه طفلاً، وثانيها: أن يبلغ أشده، وثالثها: الشيخوخة، وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون فيه التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية (والمرتبة الثانية): أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف، وهذه المرتبة هي المراد من قوله تعالى: "لتبلغوا أشدكم". (والمرتبة الثالثة): أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص، وهذه المرتبة هي المراد من قوله (ثم لتكونوا شيوخاً) [1].

الآية الثالثة: قال تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}.

سوف نشرح هذه الآية في موضوع خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص554}.

الآية الرابعة: قال تعالى: "قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً" {الكهف: 37}.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: "أكفرت" هذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر [2]. وقال الشوكاني في تفسير قوله: "خلقك من تراب" أي: "جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه، وهو أصلك، وأصل البشر" [3]. وقال البيضاوي: "لأنه أصل

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلاّمة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص86.

[2] المصدر السابق، ص127.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص860.

مادتك أو مادة أصلك" [1]. وقوله تعالى: ثم من نطفة" فقد سبق شرح ذلك. أما قوله تعالى: "ثم سواك رجلاً"، أي: "جعلك معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء، ذكراً" [2]. نقول: إن قوله تعالى: "أكفرت" تدل على أن الشاك في خلق آدم (عليه السلام) من تراب، وخلق ذريته من نطفة يعتبر كافراً. كما أن قوله تعالى: "رجلاً" هي إشارة للجنس الذكر، بعدما تقدم ذكر التراب والنطفة وكلاهما لآدم (عليه السلام)، وهذا يدل على أن قوله "رجلاً" يعني من سلالة آدم (عليه السلام).

الآية الخامسة: قال تعالى: "والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يُعمر من معمر ولا يُنقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير" {فاطر: 11}.

قال الشوكاني: أي خلقكم ابتداءً في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. وقال قتادة: يعني: آدم، والتقدير على هذا: خلق أباكم الأول، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب [3]. وقال ابن كثير: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" [4]، أي أنه يشير إلى ما سيأتي بعد الخلق من تراب، وهو النطفة، ثم التزاوج، ثم الوضع، أي الإنجاب، ثم الكبر. "ثم من نطفة" أخرجها من ظهر آبائكم "ثم جعلكم أزواجاً" أي: "زوج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً"

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص339.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص277.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1207.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص538.

[1]. قال القرطبي: "فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله" [2]. "وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه"، أي: لا يكون حمل، ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره "وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب"، أي: ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب: أي: في اللوح المحفوظ [3].

الآية السادسة: قال تعالى: "ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" {الروم: 20}.

نقول: إن هذه الآية سبقها وتلاها آيات تشير إلى مجمل صنائع الله بصفته خالقاً، وذلك في خلقه للإنسان، ففي الآية السابقة قال: "يخرج الحي من الميت ويُخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون (19)". وقال في الآيات التالية: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (21) ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (22)".

سوف نلاحظ أن الله كرر كلمة "آياته" عدة مرات في الآيات السابقة، وهو ما يدل على أن موضوع خلق آدم (عليه السلام) وذريته ليس فيه آية واحدة، وإنما عدة آيات، وهو إشارة إلى تعدد القدرات والعظمة الإلهية، فالآية الواحدة تعبّر عن أصالة كل خلق، وكل مرحلة في الخلق، وقوله تعالى: "ومن آياته" يعني خبره وهي واحدة من خصوصية قدراته وأفعاله التي لا يشاركه فيها أحد ولا يستطيع القيام

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1207.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص360.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1207.

بها أحد. قال القرطبي: "من آياته" أي: من علامات ربوبيته ووحدانيته أن خلقكم من تراب" [1]. وقال ابن كثير: "أي دالة على عظمته، وكمال قدرته" [2]. أما قوله تعالى: "خلقكم من تراب" فقال الشوكاني: أي: "خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم في ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من الأصل، ومأخوذ منه" [3]. أما الرازي فقال أي خلق آدم من تراب وخلقنا منه، ولكن الرازي يسأل كيف قال "خلقكم من تراب"؟ ويجيب من وجهين: (أحدهما) ما قيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثاني) أن نقول: إن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر، وأما نحن فلأنا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها، وإما من النبات، والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات، لكن النبات من التراب، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو" [4]. أما قوله تعالى في الآية: "ثم إذا أنتم بشر تنتشرون"، يعني ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قوام معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عبثاً، ومن قدَرَ على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح [5]. قال الشوكاني: "إذا" هي الفجائية: أي: ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص411.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص308.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1130.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص109، 110.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص412.

تنتشرون في الأرض، وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت ههنا بعد "ثم" بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع: من كونه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظماً مكسواً لحماً فاجأ البشرية، ومعنى تنتشرون: تنصرفون فيما هو قوام معايشكم [1]. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغندر، قالا: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك". ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [2]. نقول: إن الله عندما تحدث عن الخلق من التراب، فهو أشار ضمنياً إلى كمال قدرته على خلق النوع وتمييزه وهو في حال الآية آدم (عليه السلام) لأنه قال في الآية "أنتم بشر" في وصفه لهذا النوع وانتشاره، أي البشر، وهو النوع الوحيد الذي لم يفنى من جنس البشرانيات. وأما قوله تعالى: "ثم إذا" فإن "ثم" حرف عطف يقتضي تأخر ما بعده عما قبله إما تأخيراً بالذات أو بالمرتبة أو بالوضع [3]. نقول: في حال الآية فإنه تأخير بالمرتبة التي تشير إلى النوع. كما أننا سوف نلاحظ أن هناك كلمات مشتقة من حرف العطف "ثم" مثل كلمة "ثُمامة" يقال ثُمامة شجر إذا قمت برعايتها، مثل قولك شجَّرت [4]. إذا كان الأمر هكذا، فإن الأصل اللغوي لحرف "ثم" مرتبط بشكل وثيق بالكلمات التي تشير إلى أشياء في الطبيعة ومنها رعاية النبات، وبالتالي فهو حرف مرتبط بما ذُكر

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج21، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1130.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص309.

[3] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص105.

[4] المصدر السابق، ص105.

عن استمرارية الخلق في مرحلته الثانية بعد التكوين الأول من التراب، فيعود حرف "ثم" على قوله تعالى: "أنتم بشر". وبالتالي لما قال تعالى "ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" فذاك يعني إذا كان أصلكم الأول عند خلقكم (آدم وحده) يعود إلى مادة الخلق الأولى وهي التراب، فإن أصلكم الثاني (البشر) بعد إتمام خلقكم يعود إلى غذائكم من الطبيعة أو تفاعلكم مع الطبيعة، باعتبار أن انتشاركم جاء كنتيجة تفاعل، والتفاعل هنا له خصوصية تتعلق بتناول الإنسان غذاءه من نباتات الأرض، وهذا التناول أو التغذي على نباتات الأرض تمت الإشارة إليه في حرف العطف "ثم" وما بعده، أي "إذا" كأنها تعبير عن بداية سلسلة الكفاح الإنساني من أجل البقاء. من الآيات التي وردت في القرآن مشابهة للخلق من تراب ثم الانتشار كبشر في الأرض قوله تعالى في سورة السجدة: "وبدأ خلق الإنسان من طين (7) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" (8).

ثانياً: كلمة "تراباً"

الآية الأولى: قال تعالى: "وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" {الرعد: 5}.

قيل: المعنى: أي: إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السماوات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة؛ فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء [1]. وقال الزجاج: "أي هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث، وقد بين لهم من خلق السماوات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص14.

في القدرة" [1]. يقول الله لرسوله محمد، "وإن تعجب" من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: "أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد"، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق، فالإعادة سهلة عليه [2]. نقول: إن قوله تعالى: "أإذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد" هو حال الكفار وهم يتعجبون من البعث، أي بعد أن تصبح أجسادهم تراباً. كما أن إنكارهم للخلق الجديد عند البعث أو يوم القيامة، هو بمثابة إنكار للخلق الأول. يقول الشوكاني: العامل في "إذا" هو البعث أو الإعادة للحياة، والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد" [3].

الآية الثانية: قال تعالى: "أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون" {المؤمنون: 35}.

قال القرطبي: أي: "مبعوثون من قبوركم". والمعنى: أيعدكم أنكم مُخرجون إذا متم. وذهب الفراء والجَرمي وأبو العباس المبرد إلى أن "أن" في قوله "أنكم" الثانية مكررة للتوكيد. و "أن" الثانية في موضع رفع بفعل مضمر، كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص721.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص432.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص721.

القتال" [1]. نقول: إن قوله تعالى في الآية: "إذا متم" هو تقدير بأن الموت حق وهو واقع لا محالة لقوله تعالى: "كل من عليها فان" {الرحمن: 26} وقوله تعالى أيضاً: "كل نفس ذائقة الموت" {الأنبياء: 35} {آل عمران: 185}. أما قوله تعالى في الآية: "وكنتم تراباً وعظاماً" هو توكيد بأن الإنسان يصبح تراباً وعظاماً بعد موته، فأما التراب؛ لأنه المادة الأصل التي خلق منها آدم (عليه السلام)، حيث يتحلل جسد الإنسان وتتحلل معه جميع العناصر الكيميائية المكونة لجسمه بعد موته، وهي نفسها العناصر الكيميائية التي تكون موجودة في التراب كنتيجة طبيعية لمكونات التراب الذي يتكون من مجموعة متنوعة من الأملاح، ومن العناصر الكيميائية المشتركة الموجودة في جسد الإنسان والتراب معاً، مثل الأوكسجين، والهيدروجين، والحديد، والكربون، والفسفور، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، علماً بأن نسب العناصر الكيميائية في جسد الإنسان الطبيعي السليم ثابتة أو تكون نسبية لدى الإنسان المعتل. أما العناصر الكيميائية في التراب فهي مختلفة حسب نوع وطبيعة التربة. كما نقول: إن قوله تعالى: "كنتم تراباً" يشتمل على عملية تحوّل جسد الإنسان إلى تراب، وذلك لا يتم بشكل سريع، بل عبر عملية تحلل يبدأ من خلالها جسد الإنسان بفقدان السوائل، حيث تخرج من جسده تماماً كما كانت السوائل/الماء هي أول ما ساعد على خلق آدم (عليه السلام). بالتالي يرجع كل إنسان إلى مادته التي خلق منها آدم (عليه السلام) كأول الخلق. أما العظام، فتبدأ عملية تحجرها عندما تحل المواد الكيميائية من الرواسب المحيطة محل المواد العضوية الموجودة داخل الأنسجة الصلبة، وفيما بعد تبدأ المواد الكيميائية تحل محل المواد غير العضوية الموجودة في العظام والأسنان. تستمر عمليات الإحلال هذه للعديد من السنوات،

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص39.

وبهذه الطريقة تتحول العظام إلى حفرية [1]. وهناك فرق بين الحفرية العظمية والحفرية المتحجرة. لقد دلت جميع المتحجرات التي عُثر عليها على ظهور الأحياء على سطح الأرض فجأة وبشكل كامل ودون أي نقص في البنية، وهذا خلاف ما كان يتوقعه التطوريون [2]. ويعترف العالم البالونتولوجي البريطاني الشهير ديريك إيجر بما يلي (مع كونه من أنصار التطور): "مشكلتنا هي أننا قمنا بتدقيق سجل المتحجرات بإمعان، سواء أكان ذلك على مستوى الأنواع أم الفصائل، فإن الحقيقة نفسها تواجهنا وهي: لا توجد مجموعات متطورة على مراحل وبشكل تدريجي، بل مجموعات ظهرت ونشأت فجأة" [3]. بشكل تفصيلي، العظام هي الجهاز الهيكلي الوحيد الصلب في الكائنات الحية. ويتكون الجهاز الهيكلي من مجموعة من العظام التي تتكون من عناصر كيميائية، مثل الكالسيوم والفسفور وجزيئات الماء. علماً بأن عناصر الكالسيوم والفسفور هي عبارة عن أملاح صلبة تحتاج إلى مدة طويلة كي تتحلل من العظام وتستقر في التربة، ونلاحظ أن أملاح الكالسيوم والفسفور أيضاً موجودة في التربة، فعند تحللها من الإنسان تعود إلى موطنها الأصلي، وهذا يؤكد على أن الإنسان خلق من التراب، وعند موته يعود إلى التراب، ومنها عظامه. أما جزيء الماء، الذي يكون موجوداً في العظام، فهو يتكون من ذرتي الهيدروجين وذرة أكسجين، وهو يتحلل من العظام إلى ذراته الأصلية في التربة، علماً بأن هاتين الذرتين وهما الهيدروجين والأوكسجين عنصران موجودان في التربة. بالتالي فإن الله عندما يجمع عظام الإنسان أو يحيي عظامه وهي رميم بعد موته، يكون ذلك من خلال الماء الذي يستعيد الخلية

---

[1] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص32.

[2] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص172، 173.

[3] Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol 87, 1976, p. 133

الأولى التي خلق منها كل إنسان، وهذا ما عبّر عنه القرآن في آيتين دالتين على قدرة الله على إحياء العظام وجمعها كما يلي:

- قوله تعالى في سورة القيامة: "أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه (3) بلى قادرين على أن نسوي بنانه" (4).
- وقوله تعالى: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم (78) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" (79).

قال الشوكاني في تفسير قوله "وكنتم تراباً وعظاماً": أي: كان بعض أجزائكم تراباً، وبعضها عظاماً نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها. وقوله تعالى: "أنكم مخرجون" أي: "من قبوركم أحياء كما كنتم" [1]. وقال البيضاوي: "أنكم مخرجون" مبتدأ خبرُه الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر جواباً للشرط والجملة خبر الأول [2]. نقول: إن الإخراج هنا فيه فاعلية والفعل فيه خلق، أي أن الإخراج هنا يعني الخلق الآخر، أو الخلق بعد الموت، أو الإحياء أو البعث، وكله جائز. قال البيضاوي: "المُراد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة" [3]. المهم أن الإخراج جاء فيه آيات أخرى في وصف نمو النبات، وذلك في قوله تعالى: "الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون" {البقرة: 22}. قال البيضاوي: قوله "وأنزل" عطف على "جَعَل"، وخروج الثمار بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان. كما أنه أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج18، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص983.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج18، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص469.

[3] المصدر السابق، ص573.

قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار [1]. نقول: إن "الجعل للأرض" هو خلق لها، ودليل ورود كلمة "الإخراج" مع النبات يدل على الإحياء للأرض والنبات وكذلك لآدم (عليه السلام)، وهو إشارة إلى اشتراك الكائنين الإنسي والنباتي في نفس مادة وجذر عملية الإحياء وهي التراب والماء.

الآية الثالثة: قال تعالى: "قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون" {المؤمنون: 82}.

نقول: إن هذه الآية مشابهة للآية السابقة وهما من نفس السورة مع اختلاف في صيغة الخطاب كقوله "متم" و "متنا" والمفردات كقوله في الآية السابقة "مخرجون" في إشارة إلى البعث أو الإحياء من جديد بعد الممات، وقوله في هذه الآية "لمبعوثون" وهما يحملان نفس الدلالة في الإشارة إلى الإحياء بعد الموت لكن مع اختلاف طفيف في المعنى من ناحية أن الإخراج يكون لإفهام طريقة التكوين عند البعث ومادته أي من الأرض والتراب، وأما البعث فيكون أعم وأشمل، أي للعملية كلها. بالتالي تفيد الآية أنه عند موت البشر ودفنهم في التراب وتحلل أجسادهم وانحلال عظامهم من لحومهم أنهم مبعوثون من قبورهم أحياء كخلق جديد. لقد شرحنا موضوع العظام في الآية السابقة {المؤمنون: 35}.

الآية الرابعة: قال تعالى: "وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون" {النمل: 67}.

قال القرطبي: "الذين كفروا" يعني مشركي مكة [2]. نقول: إنهم هم الذين أنكروا البعث. يقول تعالى مخبراً عنهم: أنهم استبعدوا إعادة

---

[1] المصدر السابق، ص62.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص200.

الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً [1]، قال الشوكاني: "إنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث" [2]. قال الرازي: "اعلم أنه سبحانه لما تكلم في حال المبدأ تكلم بعده في حال المعاد، وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم. فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات، وعالماً بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها. وإذا ثبت إمكان ذلك، ثبت صحة القول بالحشر" [3]، نقول: إن المفسرين لم يأتوا على أسباب ذكر الآباء في الآية لقوله تعالى: "أإذا كنا تراباً وآباؤنا" **فلماذا قال "آباؤنا"**؟ قيلت في إشارة إلى آبائهم الذين سبقوهم إلى الموت، والذين أصبحوا تراباً وهذا في حد ذاته اعترافاً من المشركين بأن آباءهم أصبحوا تراباً، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن هذا يعني عدم إنكارهم للموت، وإن عدم إنكار الموت يعني الاعتراف ضمنياً بتفوق قدرة الخالق على الخلق وما فيه من إحياء وإماتة. ونقول: إن قوله "آباؤنا" فيها إشارة إلى الذرية السابقة، وقد تشمل آباءهم على معنى القريب والبعيد، أي الآباء الحقيقيون للمشركين في صلة قرابتهم، والآباء التشريفيون. لقد تعدد ذكر الآباء في القرآن، فوردت بصيغة الآباء وكذلك بصيغة "الآباء الأولون" أو "الآباء الأقدمون" أو "الأولين والآخرين". فقوله تعالى في القرآن "أبيه" أو "أبويه" أو "أبواه" هي للآباء المباشرين، وهم بالنسبة للأبناء تربطهم بهم علاقة بيولوجية أبوية تتضمن مسؤوليات قانونية

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص132.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1087.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص213.

واجتماعية. من جانب آخر، انظر هذه الآية من قوله تعالى: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" {الأعراف: 173}، نلاحظ في هذه الآية إشارة إلى الآباء بدون ذكر كلمة "الأولون أو "الأقدمون"، لكن هناك إشارة إلى الذرية، ما يعني أن الآباء هنا تتعلق بالتسلسل البيولوجي أو السلالة. على حين قال في سورة الواقعة: "قل إن الأولين والآخرين (49) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (50)". قال القرطبي: "الأولين" من آبائكم "والآخرين" منكم "لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم" يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القسم، ودخول اللام في قوله تعالى: "لمجموعون" هو دليل القسم في المعنى، أي: إنكم لمجموعون قسماً حقاً [1]. سوف نذكر الآيات التي ورد فيها "الآباء الأولين" وبالتحديد تلك التي لها صلة بموضوع الخلق أو البعث، والتي عادة ما تكون مسبوقة أو متبوعة بآيات تتناول مسألة الخلق أو البعث. تكررت "الآباء الأولين" مرات كثيرة في القرآن لقوله تعالى: "لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين" {الدخان: 8}. وقوله تعالى في سورة الواقعة: "وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون (47) أو آباؤنا الأولون (48) قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم" (49). ونفس الآية تكررت في سورة الصافات لقوله تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون (16) أو آباؤنا الأولون" (17). كما ورد الخطاب على لسان قوم نوح (عليه السلام) في قوله تعالى: "فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين" {المؤمنون: 42}. نلاحظ في الآية ذكر كلمة "بشر" فيها إشارة للنوع الآدمي، والتي لها علاقة في

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص203.

وصف الذرية من الآباء الأولين. قيل: إن بعث آبائهم الأولين أبعد؛ لتقدم موتهم [1]. يعني إذا كنا تراباً بعد موتنا والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات، **فكيف يمكن البعث؟** نقول: إن الله تعالى ردّ عليهم في الجواب فقال تعالى: "قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم" {الواقعة: 49} فقوله "قل" إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور، وذلك أن في الرسالة أسرار لا تقال إلا للأبرار [2]. نقول: إن كلمة "آباؤنا" في كل الآيات تشير إلى النسل، وكلمة "الأولون" تشير إلى كل الذرية منذ خلق آدم (عليه السلام). أما قوله "لمخرجون" فقد سبق شرح معنى الإخراج وعلاقته بالإحياء في سورة {فصلت: 39}. {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص121}.

الآية الخامسة: قال تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون" {الصافات: 16}.

هذه الآية مماثلة لآية {المؤمنون: 82} التي سبق شرحها في هذا الفصل. قال الشوكاني: "الاستفهام في الآية للإنكار، أي: أنبعث إذا متنا" [3]. وكذلك قال القرطبي وزاد عليه: "هو سخرية منهم تجاه مسألة البعث" [4].

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1447.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص173.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1236.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص21.

الآية السادسة: قال تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون" {الصافات: 53}.

وهذه الآية أيضاً مماثلة للآية السابقة من نفس السورة {الصافات: 16} وكذلك للآية {المؤمنون: 82} مع استثناء وحيد وهو قوله تعالى في نهاية الآية "لمدينون". قال القرطبي: "أي مجزيون محاسبون بعد الموت" [1]. وكذلك قال مجاهد والسدى: لمحاسبون. وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا [2]. وقال الشوكاني: "محاسبون بها بعد أن صرنا تراباً، وعظاماً، وقيل: معنى مدينون: مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه" [3]. كما أن هذه الآية تُفهم في سياق فهم الآيات التي قبلها، أي قوله تعالى: "قال قائل منهم إني كان لي قرين"، قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا [4]. وقال سعيد بن جبير: "قرينه شريكه، وقيل: أراد بالقرين الشيطان الذي يقارنه، وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث" [5]. وكذلك قوله تعالى: "يقول أئنك لمن المصدقين" أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد [6].

---

[1] المصدر السابق، ص37.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص15.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1241.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص15.

[5] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1241.

[6] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص15.

الآية السابعة: قال تعالى: "أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد" {ق: 3}.

نلاحظ أن جملة "أإذا متنا وكنا تراباً" تكررت ثلاث مرّات في الآيات السابقة وهي {المؤمنون: 82} و {الصافات: 16} و {الصافات: 53}، وسوف تتكرر في سورة {الواقعة: 47} التالية، وهي تحمل نفس المعنى. أما قوله تعالى: "رجع بعيد" في نهاية الآية فقال البيضاوي: "أي بعيد عن الوهم أو العادة أو الإمكان. وقيل: الرجع بمعنى المرجوع" [1]. وقال الشوكاني: أي: بعيد عن العقول، أو الأفهام، أو العادة، أو الإمكان" [2]. أما ابن كثير فقال: "أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه" [3]. على حين قال الرازي: يحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي، ويدل على ذلك قوله تعالى: "إن إلى ربك الرجعي" {العلق: 8}. وقوله تعالى: "يقولون أئنا لمردودون في الحافرة" {النازعات: 10} [4]. من المهم أن نذكر الآية التي تليها في نفس السورة لما لها من صلة بالآية محل الشرح، وهي قوله تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ" (4). قال الشوكاني: أي: ما تأكل من أجسادهم، فلا يضل عنا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وقال السدي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم، ومن يبقى؛

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج26، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص312.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1397.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص152.

لأن من مات دفن، فكأن الأرض تنقص من الأموات [1]. وقال ابن كثير: أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، ونعلم ذلك، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ [2]، إن ذكر كلمة الأرض في قوله تعالى: "ما تنقص الأرض منهم" هو في الحقيقة إشارة إلى التراب، أي "ما ينقصه التراب من جسد الإنسان"، وهو تثبيت لحقيقة فاعلية التراب في خلق الإنسان وتحلل جسده بعد الموت. وإن الإجابة الإلهية على اعتقادهم بعدم تحقق البعث أو إنكارهم له في قولهم "رجع بعيد" كانت إجابة دالة على عظمة القدرة وذلك في قوله تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض"؛ لأن ذكر كلمة "علمنا" فيه إشارة إلى العلم الإلهي الذي لا يضاهيه علم أخروي، وهو علم الخلق من تراب والتكوين والإنشاء وحتى تحلل الجثث وبعثها من جديد. كما أن قوله تعالى: "منهم" هو رد على استخدامهم صيغة الجمع في قولهم "متنا وكنا" وهو توكيد على أن البعث أو إحياء الخلق من التراب يكون للنوع البشري قاطبة تماماً على عكس بداية الخلق التي كانت من تراب لآدم (عليه السلام) وحده. كما أن هذه آية من آيات الله الدالة على مطلق قدرته وعظمته وقوته التي تظهر يوم القيامة أو يوم الحساب الذي كان ينكره الكفار والمشركين منذ خلق آدم (عليه السلام)، أي أن الله يؤكده لهم ويؤكد بعثهم من خلال إحياء كل البشر من التراب وليس آدم (عليه السلام) فحسب، وذلك يعبّر عن منتهى القوة وكمال القدرة البالغة. **وهنا نسأل، كيف يكون الخلق من تراب لكل البشر عند البعث؟** نقول: في الإجابة على سؤال "كيف" أن الله أجاب على ذلك في قوله تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ" {ق: 4}. قال القرطبي: أي: بعدتهم وأسمائهم،

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1397.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص395.

فهو فعيل بمعنى فاعل. وقيل: الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبتُ عليك هذا، أي: حفظته. وقيل: أي: وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم [1]. نقول: إن "الكتاب الحفيظ" يشتمل على ما تم حفظه في السماء، أي في اللوح المحفوظ، وعلى ما تم حفظه في الأرض بين الناس عن كل إنسان، أي الشهادات الدنيوية التي يُعتد بها في الآخرة لقوله تعالى: "لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" {البقرة: 143}، وأخيراً على ما تم حفظه في التراب، أي من تحللت كامل أعضائهم، ومن بقيت رفاتهم كالعظام، ومن المعروف أن الجماجم تقدم تاريخاً عن أصول وحياة وصفات البشر، فإذا كان علماء الآثار والطب الشرعي لديهم معارف وخبرات في تقدير معلومات وصفات البشر من خلال الجماجم، **فما هي حجم معرفتهم بالنسبة إلى الله، خالق هذه الجماجم؟** إن العظام تعتبر أصل في فهم علم البشر أو الإنسان، وعلم الأدلة الجنائية، وكذلك علم الآثار، أي أن لها دلالة تاريخية سابقة ولاحقة في الاستدلال على طبائع وصفات وخواص البشر، وطالما أن للعظام خواص للاستدلالات التاريخية، فذلك يندرج تحت قوله تعالى: "وعندنا كتاب حفيظ" {ق: 4}، أي أنه إشارة دقيقة للسجل التاريخي المحفوظ عن الإنسان بكافة الطرق. إن للعظام دور بارز في علم الوراثة من خلال منح صيغ لتتبع معلومات جينية مستخلصة من شظايا الأحماض النووية في قدماء البشر. "بإمكاننا أن نتتبع تاريخنا داخل جيناتنا، عن طريق الحمض النووي (DNA). وإن سجل ماضينا هذا لا يقبع في صخور العالم، وإنما يقبع في كل خلية داخل أجسادنا" [2]، هناك ما يُسميه عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين الخلطة recipe وهي مسجلة في حمضنا

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص429.

[2] نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص44.

النووي، الذي يبني أجسادنا من بويضة واحدة. عندما يقوم حيوان منوي بتلقيح بويضة، لا تحتوي تلك البويضة على يد صغيرة مثلاً. بل تبنى تلك اليد وفقاً لمعلومات موجودة في تلك الخلية الوحيدة. إن هذا يقودنا إلى مشكلة حتمية. لقد قارنا عظام أيدينا بعظام زعنفة سمكة. ماذا سيحصل لو قمنا بمقارنة الخلطة الجينية، التي تبني أيدينا بتلك التي تبني زعنفة السمكة؟ [1] يطرح عالم الحفريات والأحياء التطوري نيل شوبين تجارب الاختبار كنوع من استكشاف الحيز بين ما هو بشري أو حيواني فقاري، ونقصد الكائنات الحية المائية، أي الأسماك التي تنقسم إلى فئات عظمية ومخاطية وغضروفية وغير ذلك. هنا لا بد من الانتباه إلى الثابت والمتغير في كل ما يخص الأحماض النووية والتغيرات التي يمكن أن تطرأ عليها من خلال إضافة كيماويات على تلك الأحماض. نقصد بالثابت، وجود حمض نووي طبيعي في جسد الإنسان وآخر طبيعي في جسد الكائنات الحية الأخرى، وهذه الأحماض الطبيعية تعتبر أحماضاً أصيلة وغير قابلة للابتكار. أما إجراء تغييرات عليها فهذا يجعلها متغيرة، والمتغير يعتبر صناعياً، وكل صناعي لا يتعلق بأصل الوجود، فكل حمض مركب الهوية الجينية هو حمض مؤقت، وكل حمض بسيط الهوية الجينية هو حمض مستمر، ولا نقول إنه دائم، لأن الديمومة في الخلق والفناء البشري مسألة إلهية أنطولوجية. إن جسمنا مكون من مئات الأنواع المختلفة من الخلايا، وهذا التنوع الخليوي يعطي لأنسجتنا وأعضائنا أشكالها ووظائفها المميزة لها. وكما يبدو فإن الخلايا، التي تكون عظامنا، وأعصابنا، وأمعاءنا وما إلى ذلك لها أشكال وسلوكيات متباينة تماماً. وعلى الرغم من هذه الاختلافات، فإن هناك تشابهاً عميقاً بين جميع الخلايا داخل أجسامنا التي تحتوي جميعاً الحمض النووي ذاته. وإذا كان الحمض النووي يحتوي على المعلومات اللازمة؛ لبناء أجسامنا،

---

[1] المصدر السابق، ص68.

وأنسجتها، وأعضائها، **فكيف يكون لخلايا متباينة كخلايا العضلات، والأعصاب، والعظام أن تحتوي على الحمض النووي ذاته؟**

للتوضيح، يوجد في جسم الإنسان حوالي مائتي نوع من الخلايا تقريباً مختلفة الأشكال، ومن أهم وأبرز هذه الاختلافات هي التي توجد بين خلايا الأعصاب وخلايا العضلات وخلايا الدم [1]. إن الإجابة تكمن في معرفتنا أي أجزاء الحمض النووي (الجينات) تعمل في كل خلية. إن خلية الجلد مثلاً، تختلف عن الخلية العصبية؛ لأن هناك جينات مختلفة نشطة في كل منهما. عندما ينشط جين ما، فهو يقوم بصنع بروتين يمكن أن يؤثر على شكل الخلية وكيفية سلوكها؛ لذلك فإن فهم ما يجعل الخلية في العين تختلف عن الخلية في عظام اليد يتطلب معرفة المزيد عن الآلية التي تتحكم بنشاط الجينات في كل خلية ونسيج. "يبلغ عدد الجينات في الإنسان نحو 35 ألف جين، وهو عدد أقل بكثير مما كان يُظَن في ضوء عدد أنواع الخلايا والأنسجة التي تؤدي وظائف مختلفة" [2]. نظراً لأن نظرية التطور ترد فكرة الخلق ولا تقبل بأي تدخل خارق فوق حدود الطبيعة، فإنها تدّعي أن هذه الخلية الحية الأولى قد ظهرت إلى الوجود دون أي تصميم أو تخطيط، بل نتيجة للعوامل الطبيعية وفي إطار من المصادفات العشوائية، أي أن هذه النظرية تقول إن المادة الجامدة الخالية من الحياة قد انقلبت نتيجة المصادفات إلى خلية حية واحدة. غير أن هذا الزعم يصادم أهم قانون من قوانين علم الأحياء [3]. يقول الفيزيائي الألماني هويمارفون ديتفورت تحت عنوان "التكيف بالصدفة" "إن جميع أشكال الحياة التي كانت قد تشكلت آنذاك "أي نتيجة ازدياد كميات الأوكسجين في الجو"، يجب أن تكون قد راحت ضحية الكارثة الشاملة التي عمت العالم

---

[1] هارون يحيى، نسخة مترجمة، السلوك الواعي لدى الخلية، (إسطنبول: دار نشر آرافيترما ياينكيلك)، ص17.

[2] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص41.

[3] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص163.

الأرضي بكامله. لقد ماتت متسممة بالأوكسجين. لكن ذلك أدى إلى ظهور طراز جديد من الخلايا. كان هذا الطراز هذه المرة من البكتيريات التي تمكنت بواسطة أنزيمات لم تكن معروفة من حماية نفسها من الغاز الجوي الجديد، الأوكسجين" [1]. ويضيف هويمارفون "لقد كاد التطور أن ينقطع آنذاك لو لم تظهر في هذه اللحظة من تاريخ الأرض على الأقل خلية واحدة تمتلك "بالصدفة المحضة" ومنذ لحظة نشوئها بالضبط وبالتحديد الأنزيمات النوعية الجديدة، التي كانت تحتاجها كي تستطيع "التنفس". ويُشير "لكي نكون أكثر وضوحاً: يجب أن تكون هذه الخلية قد امتلكت المجموعة اللازمة من الأنزيمات منذ لحظة نشوئها، أي قبل أن تحتك مع أوكسجين الغلاف الجوي" [2]. إن عدد الأنزيمات المختلفة التي يمكن تشكيلها من 20 حمضاً أمينياً مختلفاً، في حال كون سلسة كل أنزيم مؤلفة من 100 حلقة، يزيد بالتأكيد عن عدد الذرات الموجودة في مجمل الكون أضعافاً وأضعافاً مضاعفة تفوق التصور [3]. من المعروف أن النشاط الإنزيمي ينخفض بشكل ملحوظ فوق درجة حرارة معينة لأن الإنزيم يبدأ في التدهور [4]. ما يعني أن وجود الأوكسجين في الجو كان يحول دون توهج الأنزيمات، لأن "الأوكسجين يعتبر مصفاة شديدة الفعالية ضد نفاذ الأشعة فوق البنفسجية" [5]. بمعنى آخر "إن جزيئات (DNA) لا تتكون إلا بمساعدة بعض البروتينات الخاصة (الأنزيمات)، ولكن هذه الأنزيمات لا تتكون إلا ضمن الأوامر والمعلومات الآتية من جزيئات (DNA)؛ أي توجد هنا حالة من الارتباط التبادلي بينهما، ولكي

---

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص159، 160.

[2] المصدر السابق، ص164.

[3] المصدر السابق، ص117.

[4] https://shorturl.at/rILS6

[5] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص59.

يظهرا ويتكونا لا بد من تخلقهما معاً وفي آن واحد، وهذا يقفل الباب أمام السيناريو الذي يزعم أن الحياة قد ظهرت تلقائياً [1]. تساعد الآليات الجينية على تصنيعنا. عند الإخصاب نبدأ كخلية مفردة تحتوي على جميع الحمض النووي الضروري لبناء أجسامنا. ويكون مخطط بناء الجسم كله موجوداً ضمن هذه الخلية المجهرية. وللانتقال من هذه الخلية العامة إلى إنسان كامل، يحتوي جسده على تريليونات الخلايا المتخصصة المنظمة بالشكل الصحيح تماماً، يجب تنشيط مجموعات كاملة من الجينات، وتثبيطها في المراحل المختلفة من تطورنا. جسمنا عبارة عن تكوين من الجينات المنفردة، التي تعمل وتتوقف عن العمل داخل كل خلية خلال التطور. عندما نقارن مجموعة الجينات النشطة في تطور زعنفة سمكة ما، بتلك النشطة في تطور يد الإنسان، يمكننا أن نضع تصوراً للاختلافات الجينية بين الزعانف والأطراف. وهذا النوع من المقارنة يعطينا آليات الجينات، التي تغيرت خلال نشأة الأطراف. ويمكننا دراسة ما تفعله هذه الجينات على الجنين، من خلال القيام بتجارب عبر التلاعب بالجينات؛ ليرى كيف تغيرت أجسامنا فعلاً كاستجابة لظروف أو مثيرات معينة [2]. في هذا السياق، يستوجب الذكر بأن "العلماء يعملون حالياً على مشروع "الجينوم البشري" من أجل فك شفرة الثلاثة بلايين شفرة كيميائية الموجودة في جزيء (DNA) الواحدة تلو الأخرى. ويعتبر هذا تطور مثير ومهم للغاية، كما أعلن الدكتور فرانسيس كولينز (Francis Collins)، الذي يرأس مشروع الجينوم البشري. ويكشف جزيء (DNA) عن وجود مصدر لا نهائي للمعرفة، حيث إن المعلومات المحتواة في جزيء (DNA) الخاص بخلية بشرية واحدة تكفي لملء موسوعة مكونة من مليون صفحة، مما يجعل من المستحيل قراءتها كلها في

---

[1] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص166.

[2] نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص69، 70، 71.

عمر واحد. فإذا شرع شخص ما في قراءة شفرة (DNA) واحدة كل ثانية، دون توقف، طوال اليوم، وكل يوم، فسيستغرق ذلك منه 100 سنة، ذلك أن الموسوعة موضوع النقاش تضم ثلاثة بلايين شفرة مختلفة. وتدوين هذه المعلومات يلزمه مكتبة ضخمة جداً. والأهم من ذلك هو أن جميع تلك المعلومات محتواه في نواة كل خلية، وبما أن كل فرد يتكون من نحو 100 تريليون خلية، فإن هناك 100 ترليون نسخة من نفس المكتبة [1]. وهنا نسأل، **هل لشفرة الـ (DNA) وسجلها الحافل بالمعلومات الدقيقة والمفصلة علاقة بالروح بمعناها المادي وليس بمعناها الشرعي كما شرحه ابن قيم الجوزية في كتاب الروح؟** أي هل للروح حالة اتصال يدل على الحياة وانقطاع بالموت من خلال هذه الشفرة، لأن الله قال في موضع الروح والعلم بها في موضع دقيق في القرآن: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً {الإسراء: 85}. زعم عالم التشريح من العصر الفيكتوري ريتشارد أوين ذات مرة (في محاولة أخيرة للدفاع عن نوعه ضد نظرية الانحدار من القردة) أن فص الحُصين الصغير في مخ الإنسان كان من الفصوص التي يتفرد الإنسان بامتلاكها، وبذا لا بد أنه هو موطن الروح والدليل على الخلق الإلهي. إنه لم يستطع العثور على الحُصين الصغير في أمخاخ الغوريلا التي عولجت كيميائياً وأحضرها المغامر بول دي شايو من الكونغو [2]. والأرواح عند الفلاسفة هي ثلاث: الروح الطبيعية وهي في الحيوان في الكبد وهي مشتركة بين الحيوان والنبات وتنبعث في العروق غير الضارب إلى جميع البدن. والروح الحيوانية وهي للحيوان الناطق وغير الناطق وهي في القلب وتنبعث منه في الشرايين وهي العروق الضارب إلى أعضاء البدن. والروح النفسانية وهي في الدماغ تنبعث منه إلى

---

[1] هارون يحيى، هدم نظرية التطور في عشرين سؤالاً، ص129، 130.

[2] مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص41.

أعضاء البدن في الأعصاب، والنفس للإنسان دون غيره من الحيوان. والروح الطبيعية تسمى النفس النباتية والنامية والشهوانية، والروح الحيوانية تسمى النفس الغضبية [1].

الأهم من علاقة الروح بالعلم، هو علاقة نوعية العلم بالإنسان، حيث أن الله يقدّر العلم الذي يشاء لعباده من خلال عملية الإحاطة، ويعلم به كما جاء في قوله تعالى: "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.." {البقرة: 255}. قال القرطبي: "العلم هنا بمعنى المعلوم، أي: ولا يحيطون بشيء من معلوماته. ومعنى الآية: لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يُعلّمه" [2]. وقال البيضاوي: "إلا بما شاء أن يَعلموه، وعطفه على ما قبله لأن مجموعهما يدل على تفرده بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى" [3]. بينما قال الرازي، في الآية مسائل نذكر منها: (المسألة الأولى) احتج بعض الأصحاب بهذه الآية في إثبات صفة العلم لله تعالى، وهو ضعيف لعدة وجوه (أحدها) أن كلمة (من) للتبعيض، وهي داخلة ههنا على العلم، فلو كان المراد من العلم نفس الصفة لزم دخول التبعيض في صفة الله تعالى وهو محال (والثاني) أن قوله (بما شاء) لا يأتي في العلم، إنما يأتي في المعلوم (والثالث) أن الكلام إنما وقع ههنا في المعلومات، والمراد أنه تعالى عالم بكل المعلومات، والخلق لا يعلمون كل المعلومات، بل لا يعلمون منها إلا القليل. (المسألة الثانية) قال الليث: يقال لكل من أحرز شيئاً، أو بلغ علمه أقصاه قد أحاط به، وذلك لأنه

---

[1] أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي، مفاتيح العلوم، الفصل الثالث، (القاهرة: مطبعة الشرق)، ص83، 84.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص275.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص215.

علم بأول الشيء وآخره بتمامه صار العلم كالمحيط به [1]. قال الجرجاني: "الإحاطة: هي إدراك الشيء بكامله ظاهراً وباطناً" [2]. بينما قال الراغب الأصفهاني: "إن الإحاطة تقال على وجهين أحدهما في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا أو تُستعمل في الحفظ نحو قوله تعالى: "إن الله بكل شيء محيط" {فصلت: 54} أي حافظ له من جميع جهاته وتستعمل في المنع نحو قوله تعالى: "إلا أن يُحاط بكم" {يوسف: 66} أي إلا أن تُمنعوا، وقوله تعالى: "أحاطت به خطيئته" {البقرة: 81} فذلك أبلغ استعارة وذاك أن الإنسان إذا ارتكب ذنباً واستمر عليه استجره إلى مُعاودة ما هو أعظم منه فلا يزال يرتقي حتى يُطبع على قلبه فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه، والاحتياط استعمال ما فيه الحياطة، أي الحفظ. والإحاطة في العلم نحو قوله تعالى: "أحاط بكل شيء علماً {الطلاق: 12} وقوله تعالى: "إن الله بما تعملون مُحيط" {آل عمران: 120} وقوله تعالى: "إن ربي بما تعملون محيط" {هود: 92} والإحاطة بالشيء علماً هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغَرَضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا الله تعالى. وقال تعالى: "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه" {يونس: 39} فنفى ذلك عنهم. وقال صاحب موسى: "وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبراً {الكهف: 68} تنبيهاً أن الصبر التام إنما يقع بعد إحاطة العلم بالشيء، وذلك صعب إلا بفيض إلهي. وقوله تعالى: "وظنوا أنهم أحيط بهم" {يونس: 22} فذلك إحاطة بالقدرة. وقوله تعالى: "وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها" {الفتح: 21}، وعلى ذلك قوله تعالى: "إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط" {هود:

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج7، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص12.

[2] العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص13.

84} [1]. نقول: إن الإحاطة في الآية هي العلم بالجزء من الكل، والكسب من العلم والأخذ منه.

الآية الثامنة: قال تعالى: "وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون" {الواقع: 47}.
نلاحظ أن جملة "أإذا متنا وكنا تراباً أإنا لمبعوثون" تكررت مرّتين في الآيات السابقة وهي {المؤمنون: 82} و {الصافات: 16} وهي تحمل نفس المعنى.

ثالثاً: كلمة "الترائب"

قوله تعالى في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من بين الصلب والترائب" (7). قال ابن كثير: ترائب المرأة: صدرها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مسعر: سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: قال: هذه الترائب ووضع يده على صدره. وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تريبة المرأة موضع القلادة. وكذا قال عكرمة، وسعيد ابن جبير. وقال عليبن أبي طلحة، عن ابن عباس: الترائب: بين ثدييها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وقال الليث بن سعد عن معمر بن أبي حبيبة المدني، قال: هو عصارة القلب، من هناك يكون الولد. وعن قتادة: يخرج من بين صلبه ونحره [2]. إذ افترضنا أن

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص180.
[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص375.

الترائب يعني الصدر أو موضعه كما جاء في غالبية التفاسير، فلماذا ذكر كلمة "ترائب" دون غيرها من المفردات في إشارة إلى صدر المرأة، وقد كان بإمكانه أن يشير إلى هذا الموضع بكلمة "صدر"؟ نقول: إن ترائب هي من الأصل اللغوي "ترب" وهو الأصل اللغوي الذي اشتقت منه كلمة تراب وتربة [1]. ولأن هناك ارتباط وثيق لغوياً فأيضاً هنا ارتباط وثيق في المعنى. نعتبر ذلك إشارة إلى منبع الحليب في صدر المرأة باعتباره المكان الذي يفرز الحليب بمكونات غذائية غير موجودة في أي حليب مصنّع، فالثدي يعتبر مصدر خلقي لصناعة هذا الغذاء بدون تدخل بشري. كما أن صدر المرأة مسؤول عن إفراز هرمونات الأمومة والعاطفة، والحليب يتكون من النظام الغذائي الذي تتناوله المرأة، والغذاء الذي تتناوله المرأة أصله من النبات أو الحيوان، والحيوان يتغذى على النبات، والنبات أصل تكوينه من التراب والماء. فيكون ذلك تعبيراً عن أن الطفل ينشأ من ماءين تكوّنا نتيجة نظام غذائي، فالماء الأول هو لحظة جماع الرجل مع المرأة، والسائل الثاني هو الذي يتحوّل إلى حليب في صدر المرأة بفعل النظام الغذائي، وهكذا فإن الذرية تنشأ ويعود أصل تكوينها لما ينتج من التراب والطبيعة وكل أنواع الماء، وبالتحديد للنباتات أو بالمجمل للنظام الغذائي النباتي والحيواني. ونلاحظ هنا أنه عندما تكون نسبة هرمون الحليب أعلى من 20 ٪ في المرأة فهذا يعيق حدوث الحمل والإخصاب عند المرأة، فارتفاع هرمون الحليب يعطي لجسم المرأة مؤشر على انخفاض الهرمونات الجنسية فيعيق حدوث عملية الاخصاب، لكن عندما تكون نسبة هرمون الحليب منخفضة، أو في النسبة المعتدلة أو النسبة الطبيعية، وهي 20 ٪ أو أقل فيكون الجسم طبيعي وقادر على إنجاح عملية الاخصاب والحمل؛ لأن نسبة

---

[1] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م1، ج5، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص423.

الهرمونات الجنسية تكون ممتازة. ونقول إنه يوجد هرمونين في رحم المرأة وهما البروجيستيرون والأستروجين وهما المسؤولان عن آلية عمل المبايض من حيث إطلاق البويضة الشهرية وتهيئة جدار الرحم لحدوث عملية الحمل، وإعادة الرحم إلى وضعه الطبيعي بعد انتهاء الدورة الشهرية أو خروج الجنين في مرحلة الولادة. ثمة علاقة بين إفراز هرمون الحليب في صدر المرأة مع آلية عمل هرموني البروجيستيرون والأستروجين في رحم المرأة، فإذا كانت نسبة هرمون الحليب نسبة طبيعية، يعمل هرموني البروجيستيرون والأستروجين بشكل طبيعي. أما إذا حدث خلل في نسبة هرمون الحليب الطبيعية فهذا يؤدي إلى حدوث خلل في آلية عمل الهرمونات، فتعيق نزول الدورة الشهرية في موعدها وتعيق حدوث عملية الإخصاب.

الآيات التي ورد فيها كلمات "طيناً – طين – الطين"

الطين والطان: هو الوحل المعروف، وقد يُسمى طيناً بعد زوال مائيته، طين لازب، أي لزق صلب، والطينة: الخلقة والجبلة. طانة الله يطينه طيناً على كذا: جبله عليه. والذي ورد منه في القرآن هو الطين مُعرفاً ومُنكراً لا غير [1] فيما يلي:

ورد في القرآن ثلاث كلمات من الاشتقاق اللغوي (ط ي ن)، وهي (طيناً – طين – الطين). سأقوم بذكر وشرح كل الآيات التي ذكرت فيها هذا الكلمات في مواضعها في القرآن كما يلي:

أولاً: كلمة (طيناً)

[1] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص163.

الآية الأولى: قال تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خَلقت طيناً" {الإسراء: 61}.
قال الرازي: إنه تعالى حكى في هذه الآية عن إبليس نوعاً واحداً من العمل ونوعين من القول، أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله "فسجدوا إلا إبليس"، وأما النوعان من القول؟ (فالنوع الأول): قوله تعالى: "أأسجد لمن خلقت طيناً" وهذا استفهام بمعنى الانكار معناه أن أصلي أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه، والأشرف يقبح في العقول أمره بخدمة الأدنى. (والنوع الثاني من كلامه) قوله تعالى في الآية التالية: "أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ" [1]. وقال البيضاوي: لمن خلقته من طين فنُصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول، أي خلقته وهو طين، أو منه، أي أأسجد له وأصله طين. وفيه على الوجوه الثلاثة إيماءٌ بعلة الإنكار [2]. نقول: هذه الآية مرتبطة بما بعدها، وهو قوله تعالى: "قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً" {الإسراء: 62} أما كيفية الارتباط بين الآيتين فهو يتعلق بالتكريم في نوع ومادة الخلق، لأنه ربط نوع ومادة الخلق (وهي الطين) بالإشارة إلى التكريم، أي تكريم الإنسان بخلقه من طين على إبليس الذي خلق من مارج من نار. إن الطلب الإلهي من إبليس السجود لآدم (عليه السلام) حدث بعد خلق آدم (عليه السلام)، وهذا يدل على أن إبليس والملائكة خُلقت قبل آدم (عليه السلام)، وأن موضوع السجود هو في غاية الأهمية لتشريعه منذ لحظة خلق آدم (عليه

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص4.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص309.

السلام)، وليس عند تشريع الصلاة، وهذا ما ذكر في قوله تعالى: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين" {الأعراف: 11}. وقد حكى إبليس في الآية التالية عن التفضيل بينه وبين آدم (عليه السلام) بلغة الجواب لمّا طلب الله منه السجود لآدم (عليه السلام) فقال كما ورد في الآية: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12}. إن السجود ثلاثة أنواع وهي سجود السهو، والتلاوة، والشكر [1]، فإذا أراد الله للملائكة أن تسجد لآدم (عليه السلام)، فهو بذلك أراد أن يوضع النور (وهو مادة خلق الملائكة) على موضع التراب (وهو مادة خلق الإنسان) وقد كان ذلك ممكناً لأن الملائكة سجدت لآدم (عليه السلام) وهو سجود شكر وتشريف، ولما كان إبليس رافضاً السجود لآدم (عليه السلام)، فإنه بذلك أعلن تعنته ورفضه أن توضع النار (وهي مادة خلق إبليس) على موضع التراب (وهي مادة خلق آدم (عليه السلام)، بالإضافة إلى الماء) لأن هاتين المادتين ستطفئان نار إبليس، وهذا ما يفسر أهمية استخدام الوضوء للصلاة باعتبارها أحد المواد الكيميائية التي تطفئ نار إبليس، وكذلك أهمية السجود في الصلاة ذاتها لدى المسلمين، أي أن الإنسان الذي يسجد لله يكون خالياً من إبليس أو تحدث لإبليس عنده عملية انطفاء نتيجة قيام جسده المتكون من التراب والماء بالسجود على الأرض التي هي تراب وفيها ماء. وعموماً إن أي نوع من أنوع السجود المرتبط بالعبادة هو حتماً خالي من إبليس أو هكذا يجب أن يكون، لأن السجود هو الفعل أو الأداء أو الحركة الوحيدة التي تعتبر على تقاطع تام مع إبليس، وبالتالي في تقاطع مع مادة خلقه (وهي النار)، ولأن مادة خلق إبليس فيها تقاطع مع الإرادة والفكرة الإلهية الأولى والأخيرة عن خلق آدم (عليه السلام) والمادة

[1] أبو حامد الغزالي، الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي، ج1، (مطبعة الآداب والمؤيد، 1317) ص50.

التي خلق منها. وإذا علمنا أن مكان السجود يتمركز أولاً في جبهة الوجه، فإن ذلك يعتبر مكان تشريف، فالوجه يمثل (بحسب ابن عربي) أشرف ما في ظاهر الإنسان لكونه حضرة جميع القوى الباطنة والظاهرة، وهو محل الإقبال على الله دون غيره من الجهات العظمى [1]. كما سنلاحظ أن بعض الكائنات والأجسام والأجرام السماوية تسجد لله وهما النجم والشجر لقوله تعالى: "والنجم والشجر يسجدان" {الرحمن: 6}. قيل: النجم ههنا فيه وجهان (أحدهما): النبات الذي لا ساق له (والثاني): نجم السماء والأول أظهر [2]. نقول: إننا نوافق قول الرازي، فالنجم هو النبات الذي لا ساق له؛ لأن كلمة "الشجر" في الآية تدل على أصلها، وأصل الشجر من النبات القديم الذي نشأ عن الكائنات وحيدة الخلية كالأوليات والطحالب والفطريات بعد خلق الكون، بالتالي فإن الشجر تعتبر فرعاً من الأصل وهي تحمل كل معاني النبات باعتبار أن النبات كائن حي واحد له تفصيلاته السابقة وهي البذرة وما دونها وكذلك الشجر وأنواعه، مثلما هو الحيوان كائن حي واحد له تفصيلاته والأصل الذي نشأ عنه تاريخياً هو الزواحف وتأكيد ذلك قوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}، وكذلك الإنسان واحد وله ذرية من ذكر أو أنثى أو ألوان وأشكال وشعوب وقبائل مختلفة لقوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عن الله أتقاكم إن الله عليم خبير" {الحجرات: 13}. نقول: إن معنى النجم في قوله تعالى: "والنجم والشجر يسجدان" يجوز أن يطلق على نوع من الوحي، وهو

---

[1] فرح الفاضلي، الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم، ط1، (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2018)، ص120.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص90.

من الملائكة، والملائكة سجدت لآدم (عليه السلام) لقوله تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فجسدوا" {البقرة: 34}، وزيادة على ذلك فقد ذكرت كلمة النجم في أول سورة النجم لقوله تعالى: "والنجم إذا هوى" (1)، والنجم هنا هو الوحي انطلاقاً من فهمنا لسورة النجم. لقد شرحنا معنى النجم شرحاً مستفيضاً في كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) [1]. ملخص ما ذكرته في الكتاب أن سورة النجم بدأت بالقَسَم في قوله تعالى: "والنجم"، لكن المقصود ليس النجم الذي في السماء، بل هو الوحي، إذ يمكن أن يقسم الله بما هو أقوى من النجم في الكون الذي أنشأه. إن المقصود بالنجم هو الوحي، وقد أقسم الله به؛ لأنه الموكل بأمر إلهي لنقل الرسالة السماوية، وكأن الله أراد القسم بواحد من رسله، بالتالي هو قسم بكلامه الذي هو قائله وهو القرآن. وعموماً اختلف العلماء في تفسير النجم، لكننا رجحنا بأن الوحي. أما هذه الآية من سورة الرحمن، فهي تؤكد أن المذكور هو الوحي أيضاً؛ لأن السجود لا يمكن أن يقوم به النجم الساطع في السماء الذي هو حار، ويحتوي على عنصري الهيدروجين والهيليوم. بمعنى آخر، لا يمكن أن توضع مادة خلق النجوم على موضع التراب الذي هو موضع السجود، والتراب مادة خلق آدم (عليه السلام)، لكن يمكن أن توضع مادة خلق الملائكة (وهي النور والريح) على مادة خلق آدم (وهي التراب/الطين). وعموماً سنلاحظ أن أحد العناصر المكونة للنجوم وهو الهيدروجين موجود في الوقود الأحفوري والكتلة الحيوية والماء، والماء سابق على وجود الوقود الأحفوري والكتلة الحيوية. كما أن الهيدروجين هو أكبر نسبة في مكونات النجوم والشمس والماء، وإن وجود الماء سابق على وجود الشمس والنجوم والكون. بالتالي فإن الماء سابق على كل ما ذكر، ولذلك نعتقد أن الهيدروجين وأكسجين الماء هما العنصران الأساسيان في نشأة الكون. وفي هذا السياق، يقول

[1] حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023)، ص288.

الفيزيائي الألماني هويمارفون ديتفورت بصراحة "إن مصدر الهيدروجين وأسباب خصائصه المتميزة فإنها تقع بالنسبة لنا وراء البدء حيث لا تستطيع علومنا أن تطرح أية تساؤلات مجدية، مثل لماذا يتصف الهيدروجين بهذه الخصائص المتميزة ولماذا نشأ وكيف جاء إلى عالمنا؟" [1]. ويعترف هويمارفون بأن "كل شيء بدأ بالهيدروجين" [2]. يوجد رمز جزيء الماء H_2O في حالات المادة الثلاثة الحالة السائلة، والحالة الصلبة، والحالة الغازية، فعند تسخين الماء يتبخر ويتحول من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية وعند ارتفاعه على سطح بارد يتكاثف ليعود مرة أخرى للحالة السائلة. وعند تبريد الماء يتحول إلى الحالة الصلبة على شكل ثلج أو جليد وعند تسخينه سرعان ما يذوب ويعود للحالة السائلة الأصلية، بالتالي فإن رمز جزيء الأوكسجين O_2 يوجد في الطبيعة على شكل الحالة الغازية، بينما رمز جزيء الهيدروجين H_2 يوجد في الطبيعة على شكل الحالة الغازية. يعتبر الهيدروجين أصغر ذرة في الذرات كلها، وإن العدد الكتلي للهيدروجين (1)، والعدد الذري للهيدروجين (1)، وتحتوي نواة ذرة الهيدروجين على بروتون واحد يحمل شحنة كهربائية موجبة، وتمتلك الذرة إلكترون واحد فقط شحنته الكهربائية سالبة. كما أنه لا توجد ذرة الهيدروجين بشكل منفرد، بل توجد على شكل جزيء الهيدروجين H_2، (يعني ذرة هيدروجين مرتبطة مع ذرة هيدروجين أخرى برابطة تشاركية أحادية) حيث إن ذرة الهيدروجين تفقد إلكترونها الوحيد لتكون أيون شحنته موجبة وتعتبر ذرة لا فلزية (لا توصل التيار الكهربائي)، ويوجد دائماً جزيء الهيدروجين في الحالة الغازية H_2. عند اتحاد هيدروجين الغاز مع اتحاد جزيء الأوكسجين في الحالة الغازية ينتج عنه جزيء الماء في الحالة السائلة الذي يتصف بصفة

---

[1] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص188.

[2] المصدر السابق، ص83.

الجريان والسيولة، وهذا بشكل عام في الطبيعة، ولكن لا يمكن إتمام هذا التفاعل الكيميائي في المختبر، لأنه ينتج عنه طائلة هائلة تدميرية كما ذكرنا سابقاً. عند تمرير الماء المتكوّن من اتحاد الذرتين عبر دولاب متحرك أو توربين سريان الماء ينتج عنه طاقة حركة، والتي يمكن تحويلها إلى الطاقة الكهربائية، وهكذا نحصل على الكهرباء من صفة جريان الماء. نقول: في القرآن آية دالة على علاقة السجود بالشيطان المخلوق من النار (والنار في موضع الآية هي الشمس) لقوله تعالى: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون" {النمل: 24}. قيل: يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، وقيل: كانوا مجوساً، وقيل: زنادقة [1]. نوافق الشوكاني في قوله إنهم "متجاوزين عبادة الله سبحانه"، إذا قصد مجازاً أن الله قريب بالمعنى المعنوي لقوله تعالى: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان.." {البقرة: 186}، ولكننا لا نوافق الشوكاني إذا قصد أن الله قريب بالمعنى المادي، حيث يفيد كلامه بأن الله له مكان كالشمس وأن الشمس أبعد من الله، وهذا محال، لأن الشمس هي من خلق الله، وكذلك السماوات والأرض وكل ما في الفضاء الخارجي الذي لا نهاية له، هو من خلقه، ولا يجوز القول بالتجاوز الزماني أو المكاني، أي أنهم عبدوا ما هو أقل أو أبعد من الله في البعد الزماني والمكاني، لأن الله ليس أكثر، فالكثرة معدودة، والله ليس معدوداً لأنه فرد أحد صمد. بالتالي وجب القول إنهم عبدوا أدنى شيء من صنع الله، فكانت عبادتهم باطلة. قال الرازي: الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات [2]، كما نقول هم كفار

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1077.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص192.

عموماً وهذا وصفهم في القران بصرف النظر عن هويتهم الإثنية، فالقرآن لم يقدم الهوية العرقية على الدين أو العقيدة، فكان النظر إلى عبادتهم للشمس من دون الله بفعل الشيطان الذي زيّن لهم أعمالهم بحسب ما أخبر به الهدهد لسليمان (عليه السلام). قال تعالى: "ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون" {فصلت: 37}. قال الشوكاني: "الشمس والقمر"؛ لأنها مخلوقان من مخلوقات الله، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته [1]، وقال الرازي: "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر" يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهي لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات، فقال "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر" لأنها عبدان مخلوقان "واسجدوا لله" الخالق القادر الحكيم، والضمير في قوله "خلقهن" لليل والنهار والقمر؛ لأن حكم جماعة ما لا يعقل وحكم الأنثى أو الإناث، يقال للأقلام بريتها وبريتهن، ولما قال "ومن آياته" كن في معنى الإناث فقال "خلقهن" وإنما قال "إن كنتم إياه تعبدون"؛ لأن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق الأشياء، فإن قيل إذا كان لا بد في الصلاة من قبلة معينة، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أولى، قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالي الدرجة، فلو أذن الشرع في جعلها قبلة في الصلوات، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله، فلأجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود، بخلاف الحجر المعين فإنه ليس فيه ما يوهم الإلهية، فكان المقصود من القبلة حاصلاً والمحذور المذكور زائلاً فكان هذا أولى،

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1317.

واعلم أن مذهب الشافعي أن موضع السجود هو قوله "تعبدون" لأجل قوله تعالى "واسجدوا لله" متصل به، وعند أبي حنيفة هو قوله "وهم لا يسأمون" لأن الكلام إنما يتم عنده [1]. هذه المسألة تأخذنا إلى شرح علاقة مكونات الشمس، ومكونات التربة ومكونات الماء، وأي هذه المكونات توجد أكثر في جسم الإنسان، أو كيف تصير المكونات صاعدة وهابطة في جسم الإنسان، وذلك بهدف الاستدلال على علاقته بالشمس والتربة والماء. نقول: إن الشمس تتكون من عنصري الهيدروجين والهيليوم، بنسبة تزيد عن النصف من الهيدروجين وتصل إلى 98 بالمائة من العنصرين الخفيفين، الهيدروجين والهليوم [2]. على حين تتكون التربة من خمس مكونات أساسية، وهذه المكونات كلها خارجية، أي أنها ليست من أصل التربة وتكوينها، بل هي داخلة عليها، وهي التي تحدث فيها المتغيرات، وهي: المادة العضوية، والكائنات الحية، والحبيبات المعدنية، وماء التربة، وهواء التربة. في حين أن الماء يتكون من الصيغة الكيميائية لجزيء الماء هو H_2O، ويتكون هذا الجزيء من اتحاد أو تفاعل غاز الهيدروجين مع غاز الأوكسجين. أما بالنسبة لجسد الإنسان فإنه يتكون من عناصر أكثرها الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والكربون والكالسيوم والفسفور. بالتالي فإن الإنسان مرتبط بما حوله من مادة الشمس والماء والتربة.

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج27، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص129، 130.

[2] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص51.

دلالة رفض إبليس أن توضع النار على موضع التراب

بالإضافة إلى ما سبق، نسأل **ما هي دلالة رفض إبليس أن توضع النار (وهي مادة خلق إبليس) على موضع التراب (وهي مادة خلق آدم، بالإضافة إلى الماء)؟ بمعنى آخر، هل احتكاك المواد التي خلق منها (آدم والملائكة وإبليس) لها علاقة ببدء ونهاية الخلق؟**

نقول: نعم، هي دائرة متكاملة متصلة بين الخلق وبين الشريعة التي أقرها الله تعالى، وقد قلنا إن مادتي التراب والماء يطفئان نار إبليس، ولكن هناك مسألتين أخريين:

المسألة الأولى: واحدة من أسباب تكريم آدم (عليه السلام) التي اعترف بها إبليس في قوله تعالى: "هذا الذي كرّمت" في إشارته لآدم (عليه السلام) هو أنه خلق من طين وليس من نار. نقول: إن هذا الاعتراف من إبليس هو بمثابة نفي لوجود أو تضمين النار في عملية خلق آدم (عليه السلام). وبالتالي يستوجب القول إن تفاعل الماء مع الطين بعد تحوّله إلى الصلصال الفخار في عملية خلق آدم (عليه السلام)، كان نتيجة دخول عامل الحرارة (الناتجة عن الحركة والاحتكاك والتفاعلات الكيميائية) بين مادتي الماء والتراب على جسد آدم (عليه السلام)، وليس النار مباشرة، ما يعني أن جسد آدم (عليه السلام) يتكون من مواد طبيعية تفاعلت كيميائياً مع بعضها عند خلقه. وعندما نشير إلى التفاعل فنحن نقصد أن ذلك يشمل الحركة والقوة والطاقة، وهو ذاته التفاعل الذي يحدث عند عملية الجماع بين الذكر والأنثى.

والمسألة الثانية: أن لسان حال إبليس في قوله تعالى: "لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً"، فيه تربص من إبليس وتهديد وإعلان صريح عن الرغبة في الإفساد، والاستيلاء، والاضلال، والاستئصال، والاغواء، وقيادة آدم (عليه السلام) وذريته إلى الهلاك،

إلا قليلاً منهم وهم المعصومين [1] أو الذين لا يقدر إبليس أن يقاوم شكيمتهم [2]. ذلك يعني أن آدم (عليه السلام) لم يكن محصناً من إبليس منذ لحظة خلقه؛ لأنه رفض السجود لآدم (عليه السلام)، وما يزال غير محصن منه في حياته، ولن يكون محصناً منه حتى يوم القيامة، وأي شيء لم يفعله إبليس سابقاً سيفعله لاحقاً لأنه عبر عن ذلك بقوله: "لأقعدن لهم على صراطك المستقيم" {الأعراف: 16}. وهذا يعني أن ذلك يشمل ذرية آدم (عليه السلام)، لأن قوله: "لأقعدن" هو إشارة إلى التربص لذرية آدم (عليه السلام)، أي كافة الخلق البشري.

احتراق الشياطين داخل نوع من أنواع بني آدم

السؤال الآخر: هل يحترق الإنسان إذا كان الشيطان داخله باعتبار أنه مخلوق من نار؟

نقول: إن مادة خلق الإنسان من التراب/الطين والماء تحول دون أن يحترق الإنسان من نار الشياطين. والأصل أن الشياطين لا تسكن في جسد وعقل البشر الذين تجتمع فيهم صفات النبوة والعلم والإيمان والخلق والزهد والطهارة والصدق وغيرها من الصفات التي رسختها الشريعة الإسلامية، فالشياطين تحترق قبل الوصول إليهم فوراً وقبل زمن بعيد في الأرض وفي السماء. قال النبي (ﷺ) "ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.." [3]. بالتالي فإن الأنبياء والعلماء والفقهاء والأتقياء والصادقين والزاهدين والعابدين، جميعهم لا يشعرون بنيران الشياطين. ونقول: إن هناك أنواع وأحجام من الشياطين وكلها مخلوقة

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص117.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص309.

[3] أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2005).

من نار، وليس في ذلك أي استثناء لأي إبليس أو شيطان من الإنس والجن. إن الشيطان نار، ومخلوق من نار، وأي إنسان يمكن في لحظة الغضب مثلاً أن يشعر بحرارة الشيطان في الجسد أو العقل، أو الجسد والعقل معاً، وهذه الشياطين غالباً ما تسكن داخل الأجساد التي تتبع الشهوات بكافة أنواعها ومنها الشهوات الجنسية والغذائية، وتسكن داخل الذين لديهم انسجام تام مع أهوائهم، ولديهم شغف في اتباع المعاصي والإفساد في الأرض. هؤلاء الأشخاص تسكن الشياطين جوارحهم، وتتملكهم حتى تصبح شخصياتهم وهوياتهم شيطانية وتنتهي حياتهم على هذا الشكل الشيطاني، فيموت الواحد فيهم وطبعه من نار وفي داخله نار، فتحرقه طباعه وأهواؤه الشيطانية، ولذلك قال تعالى: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً" {مريم: 59}. قال ابن زيد في معنى الغي: شراً أو ضلالاً أو خيبة أو هلاكاً وضلالاً في جهنم. والغي: وادٍ في جهنم أبعدها قعراً، وأشدها حراً، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم، فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم [1]. وقال الرازي: يلقون جزاء الغي، كقوله تعالى: "يلق آثاماً" أي مجازاة الآثام [2]. نقول: إن الزيادة في الغي هو زيادة في نيران الشياطين، فيكون الزيادة في الغي هو زيادة في الشيطنة الناتجة عن اتباع أهوائهم. بالتالي كلما زادت الصفات غير الأخلاقية في الإنسان سوف تزيد حرارته وتتولد في روحه رغبة بالانتقام فتزداد حرارته ونيرانه أكثر وأكثر فيحرق نفسه بحرارة طباعه، وتُحرق روحه التي لم يعمل على تهذيبها وتربيتها. وعموماً الدليل القرآني يفيد بأن النبي يمكن أن يكون له عدو من شياطين الإنس

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص477.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص263.

والجن، وهذا دليل على أن الشياطين يمكن أن تكون من نوع الإنس أو الجن وذلك في قوله تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون" {الأنعام: 112}. وكملاحظة لغوية تتعلق بالنطقيات (الفونولوجيا) نقول إن "الغي" لها كلمة مشابهة من ناحية صوتية في اللغة الإنجليزية وهي (gay) ومعناها المثلية الجنسية أو الشذوذ، ومن ناحية التحليل اللساني فإن هذه الكلمة دليل على أقدمية وأصالة اللغة القرآنية في توصيف الشذوذ وعقاب الشاذين، وهو واد في جهنم، وهذا دليل على أن الثقافات غير الإسلامية التي فيها مجتمعات شاذة فهمت وأدركت من ناحية لغوية وقرآنية وأخلاقية كيف عالج القرآن موضوع الشواذ، وكيف قدم لهم توصيفاً تاريخياً وبالتحديد قوم النبي لوط الذي قلب الله قريتهم ورفعها عالياً وجعل عاليها سافلها. وهذا دليل على أن اللغة العربية أقدم من اللغة الإنجليزية ومن اللغات الجرمانية لأنها منحدرة من اللغة النبطية حيث أن أقدم نقش عربي، المُسمى (النمّارة) مكتوب بالحروف النبطية، وهو كما يقول زكريا محمد: "يعرض لنا لمحة عن كيف كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن بحوالي 300 سنة تقريباً. وقد شرحنا ذلك في كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) [1].

ثانياً: كلمة (طين)

الآية الأولى: قال تعالى: "هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون" {الأنعام: 2}.

نقول: هذه الآية مرتبطة بما ذكر في الآية التي قبلها، والتي جاء فيها إشارة إلى "خلق السماوات والأرض" و "الظلمات والنور" فإذا

[1] حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023)، ص68.

كان هذا الأمر ابتدائي في عظمة الخالق ودال على قدرته، فإن الأمر الثانوي أو المتفرع منه هو خلق الإنسان وعملية بعثه من جديد. قال الرازي: إن الله تعالى لما استدل بخلقه السماوات والأرض وتعاقب الظلمات والنور على وجود الصانع الحكيم أتبعه بالاستدلال بخلقه الإنسان، على إثبات هذا المطلوب فقال (هو الذي خلقكم من طين) والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم، وآدم كان مخلوقاً من طين. فلهذا السبب قال تعالى: "هو الذي خلقكم من طين" وعندي فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولدان من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين [1].

الآية الثانية: قال تعالى: "قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12}.

هذه الآية مرتبطة بما قبلها وهو قوله تعالى: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين" (11). نقول: إن قوله تعالى: "خلقناكم" ثم "صورناكم" مرتبط بالسجود وبمادة الخلق التي خلق منها إبليس (وهي النار) ومادة الخلق الذي خلق منها آدم (وهي الطين) وقوله تعالى "خلقناكم" هي لآدم (عليه السلام) وذريته، وقوله تعالى "ثم صورناكم" يقصد به النوع الثالث من الخلق وهو الإنشاء/التصوير، ويقصد به التصوير في الأرحام لذرية آدم (عليه السلام). قال الشوكاني: "خلقناكم" يعني: آدم وقد ذكر بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، وقوله تعالى: "ثم صورناكم" راجع إليه، ويدل عليه: "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" فإن ترتيب هذا

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج12، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص161.

القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم (عليه السلام) [1]. على حين قال الرازي: "ولقد خلقناكم" أي خلقنا أباكم آدم وصورناكم، أي صوّرنا آدم "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" وهو قول الحسن ويوسف النحوي. يكون المراد من قوله تعالى: "خلقناكم" آدم "ثم صورناكم" أي صورنا ذرية آدم (عليه السلام) في ظهره، وهذا قول مجاهد. وقيل: "صورناكم" إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة [2]. وزيادة على ما سبق، قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد [3]. وقال البيضاوي: كأن إبليس قال: المانع أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً [4]. على حين قال الشوكاني: إن إبليس علّل ما ادعاه من الخيرية بقوله: "خلقتني من نار وخلقته من طين" اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين [5]. أما قوله تعالى: "خلقتني من نار وخلقته من طين" ففيه نظر وثلاثة مسائل:

قيل: إن إبليس رأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء. وقال الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فَضْلُ النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق. فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة: أحدها: أن من

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص466.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص33.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص164.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج8، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص536.

[5] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج8، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص466.

جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم (عليه السلام) بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخفة والطيش، والحدة والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء؛ قاله القفال. الثاني: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مِسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً. الثالث: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه؛ وليس الترابُ سبباً للعذاب. الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار مُحتاجة إلى المكان، ومكانُها التراب. قلت: ويحتمل قولاً خامساً: وهو أن التراب مسجد وطهور؛ كما جاء في صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالى: "ذلك يخوّف الله به عباده" {الزمر: 16} [1]. وقال الرازي: النار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل، فوجب كون إبليس خيراً من آدم. أما بيان أن النار أفضل من الطين، فلأن النار مشرف علوي لطيف خفيف حار مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات، وأيضاً فالنار قوية التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلا القبول والانفعال. والفعل أشرف من الانفعال، وأيضاً فالنار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة، وأما الأرضية والبرد واليبس فهما مناسبان للموت. والحياة أشرف من الموت، وأيضاً فنضج الثمار متعلق بالحرارة، وأيضاً فسن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلاً في هذين الوقتين، وأما وقت الشيخوخة، فهو وقت البرد واليبس

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص165.

المناسب الأرضية [1]. قال ابن كثير: الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله: "خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم" هكذا رواه مسلم [2]. بهذه الآراء يتبين سبب رفض إبليس السجود لآدم (عليه السلام) انطلاقا من تضاد المواد التي خلق منها إبليس وآدم (عليه السلام) وهما النار والتراب/الطين، علماً بأن عنصر الماء عندما يدخل على النار يطفئها، وعندما يدخل على الأرض يحييها فيُنمي ويُزهر النبات.

الآية الثالثة: قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}.

اختلف أهل التفسير في الإنسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم (عليه السلام)، فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين. ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم، والإنسان شامل لآدم (عليه السلام) ولولده، وقال آخرون: الإنسان ههنا ولد آدم، والطين ههنا اسم آدم (عليه السلام) [3]. وقيل المراد

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج14، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص35، 36.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص392.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج85، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص23.

بالإنسان: الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم؛ وقيل: المراد به آدم [1]. نقول: إن المقصود بالإنسان آدم (عليه السلام) وذريته، لأنه قصد بالإنسان نوع آدم (عليه السلام) وقت خلقه، وذلك يتضمن نوع ذريته، فقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان" أي خلقنا نوعه البشري، وهو ما أشار إليه بعدها بقوله تعالى: "من سلالة"، وقد شرحنا كلمة "سلالة" سابقاً {انظر الشرح في الفصل الأول، ص68} بالتالي فالآية تشير إلى ارتباط نوع الإنسان بالمادة التي خلق منها، وما نتج عن هذه المادة للنوع الإنساني من بشر بعد آدم (عليه السلام) وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" {الروم: 20}.

الآية الرابعة: قال تعالى: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين" {السجدة: 7}.

قيل: المراد آدم (عليه السلام) فإنه خلق من طين، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان، والآدمي أصله مني والمني أصله غذاء، والأغذية إما حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين [2]. نقول: لما تمت الإشارة إلى الإنسان والمادة التي خلق منها وهي الطين، فإنه جمع في كلمة الإنسان آدم (عليه السلام) ونسله وكل السلالة البشرية. والطين يكون إشارة إلى أصل الخلق وليس إلى أصل عملية التناسل إلا من ناحية الغذاء أو عملية إنتاجه ووجوده في الطبيعة، ومن ناحية الماء ووجوده في الطبيعة. ونقول إنه ورد في الآية كلمة "أحسن" في إشارة إلى كل شيء خلقه، وسوف نشرح كلمة "حسناً" في قوله تعالى:

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج18، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص979.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص174.

"وأنبتها نباتاً حسناً" في إشارة إلى مريم (عليها السلام)، وتشبيه نموها بصفة نمو النبات {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص512} وإن تكرار كلمة "أحسن" هنا في إشارته إلى كل شيء خلقه الله، يعني أن ذلك يشمل كل الكائنات الحية بكافة أنواعها بما فيها النبات والحيوان والإنسان، وهي الكائنات الموصوفة بتعدد الخلايا، على عكس الفيروسات والبكتيريا التي تعتبر وحيدة الخلية. أما قوله تعالى: "وبدأ" في إشارته إلى خلق الإنسان كأول مخلوق خلقه، فإن ذلك يدل على أن النبات والحيوان مسخران لخدمة الإنسان، وكذلك الكون الذي أنشأه الله قبل خلق الكائنات الحية، فجعل الله الكون والكائنات الحية كلاهما في خدمة الإنسان لقوله تعالى: "وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" {الجاثية: 13}. ولما ذكر كل شيء أحسن خلقه ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: "وبدأ خلق الإنسان من طين" فهو أشار إلى النوع وهو "الإنسان" وإلى المادة وهي "الطين"، ولكن خلق الإنسان لم يكن أول شيء خلقه الله لأنه خلق قبله السماوات والأرض وما فيهن. قال الخوارزمي: حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم {الزيتون: 4} [1]. وقال القرطبي: "معنى "أحسن" أفهم وأعلم. وقال أيضاً: أي: أتقن وأحكم [2]. نقول: إن هذه المعاني تجوز على كل المخلوقات.

الآية الخامسة: قال تعالى: "فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب" {الصافات: 11}.

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج21، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص842.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص14.

قال البيضاوي: "فاستفتهم" أي فاستخبرهم، والضمير لبني آدم [1]. وقال القرطبي: أي: سلهم، يعني أهل مكة؛ مأخوذ من استفتاء المفتي [2]. في حين قال ابن كثير: فَسَل هؤلاء منكري البعث [3]. أما "الطين اللازب" فقال الشوكاني: هو اللزج الجيد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: اللازب، والحمأ، والطين واحد: كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق الله منه آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذي يلصق بعضه إلى بعض [4]. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد [5]. وقال الخوارزمي: قُرئ لازب ولاتب [6]. أما قوله تعالى: "أهم أشد خلقاً أم من خلقنا" فقال مجاهد: أي: من خلقنا من السماوات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية [7]. وقال البيضاوي: "من" في الآية لتغليب العقلاء ويدل

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص144.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص16.

[3] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص7.

[4] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1237.

[5] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص7، 8.

[6] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج23، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص903.

[7] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص16.

عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك [1]. أما الطين اللازب فهي مادتهم الأصلية الحاصلة من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي [2]. وقيل: اللازب الثابت الشديد الثبوت [3]. والأزب: الشدة والصلابة [4]. واللزوب: القحط. واللزبة: الشدة. ولزب: لصق وصلب. وقال الفراء: اللازب واللاتب واللاصق جميعها واحد [5]. نقول: إن اللازب مرحلة يصل إليها الطين يكون خلالها في حالة استواء تام لخلق آدم (عليه السلام). بمعنى آخر، هو لحظة تشبّع التراب من الماء وتحوله إلى طين مع وجود لزوجة فيه ناتجة عن كثرة تشبعه بالماء. كما أن المقارنة بين خلقهم والشدة في خلق آدم (عليه السلام) في قوله تعالى: "أهم أشد خلقاً أم من خلقنا" هو دليل على أن المقارنة هي في نوعية مادة الخلق، ثم قوله تعالى: "إنا خلقناهم من طين لازب" هو دليل على امتياز مادة الخلق باعتبارها طين، ولكنه أيضاً لازب، أي موصوف بالشدة، وهذه خاصية مكثفة من خواصه.

الآية السادسة: قال تعالى: "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين" {ص: 71}.

فإذا قيل: **كيف صح أن يقول لهم "إني خالق بشراً" وهم لم يعرفوا ما البشر ولا عهدوا بهم من قبل؟**

قلت: إن قوله تعالى "خالق" أي عازم على خلقهم ولم تكن تعني إني كنت قد خلقتهم. ولذلك قال الشوكاني: أي: خالق فيما سيأتي من

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص144.

[2] المصدر السابق، ص144.

[3] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص579.

[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج4، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص81.

[5] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م5، ج44، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص4025، 4026.

الزمن[1]. ولذلك قال في الآية التالية: "فإذا سويته" و "إذا" ترُد الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه؛ أي: خلقته [2]. وقوله تعالى: "بشراً" أي: جسماً من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض، أو من كونه بادي البشرة [3]. قال الرازي: البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فلما قال "إني خالق بشراً من طين" فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات، إنما أخلقه من الطين [4]. نقول: إن إشارته إلى نوع الخلق بقوله تعالى: "بشراً" فهذا يعتبر تحديد وتوجيه للنوع ضمن الكائنات الحية التي خلقها الله، والبشر هنا يشمل آدم (عليه السلام) وكافة ذريته إلى يومنا هذا. ولما قال الرازي إن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فهذا يعني أن المادة التي خلق منها الإنسان وهي التراب/الطين تجمع ما بين كل تلك القوى، وهذه مسألة نسبية بالنظر إلى برودة أو سخونة التراب وبرودة أو حرارة الطين والصلصال، وإذا كان الإنسان جامع للقوة الملكية، فهذا يعني أن الله وضع أو جمع في مادة خلق آدم (عليه السلام) وذريته المادة التي خلقت منها الملائكة (وهي النور والريح) ولا نقول إن البشر جامع للقوة الشيطانية لأن مادة الشياطين (هي النار)، وذلك يتناقض مع حقيقة ما توصلنا إليه بأن النار ليست داخلة في مواد خلق الإنسان وإنما الحرارة المتولدة والناتجة عن خلط الماء بالطين، بالتالي فإن الإنسان ليس جامعاً للقوة

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1271.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج18، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص238.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1271.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص228.

الشيطانية والبهيمية في حقيقة مادة خلقه، ولكنه يتحصل عليها بأقواله وأفعاله ومن خلال طباعه.

الآية السابعة: قال تعالى: "قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {ص: 76}.

الخطاب في الآية على لسان إبليس في محاججته لطبيعة المادة التي خلق منها مقارنة مع آدم (عليه السلام). إن قوله تعالى: "أنا خير منه" هو إبداء للمانع كما قال البيضاوي [1]. وقد علل ما ادعاه من كونه خيراً منه بقوله تعالى: "خلقتني من نار وخلقته من طين"، وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم، وإن استغنى عنها طردت، وأيضاً فالطين يستولي على النار، فيطفئها، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض، وعلى كل حال، فقد شرّف آدم بشرف، وكرّم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر، وذلك أن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه [2]. ومما قاله الرازي بالتفصيل وهو بديع ومحكم: النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه: (الأول): أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض. (الثاني): أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتها والشمس والقمر أشرف من الأرض، فخليفتها في الإضاءة أفضل من الأرض. (الثالث): أن الكيفية الفاعلة الأصلية، إما الحرارة أو البرودة، والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت. (الرابع): الأرض كثيفة والنار

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص179.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1271.

لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة. (الخامس): النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة. (السادس): النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض، ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح. (السابع): النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط. (الثامن): أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي، ثم إن الحمل على طبيعة النار، وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح، وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي. (التاسع): أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية، ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر (العاشر): أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادي عشر): أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره (الثاني عشر): أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات (الثالث عشر): أن أقوى العناصر الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الانفعال هو الأرض، والفعل فضل من الانفعال فالنار أفضل من الأرض. أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضاً وجوهاً (الأول): أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها (الثاني): أن الحس البصري أثنى على النار فليستمع ما يقوله الحس اللمسي (الثالث): أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفئ النار، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض

الخالصة [1]. نقول: إن هذا الخطاب هو خطاب الخيرية لمادة إبليس، والخيرية فوق الأفضلية لأنها تقوم على جهد أكبر من الأفضلية وهي أثمن منها في العطاء، فالخيرية إصلاحية، أي فيها إصلاح، وأما الأفضلية فإن فيها جهوزية للخيرية أو استعداد للقيام بالخير، رغم تضمنها للكيدية، ولذلك فإن الخيرية تتقدم على الأفضلية بشكل عملي، وإن اختيار إبليس للخيرية وليس للأفضلية دليل على استتاره وراء الخيرية، وفيه محاولة على تقديم نفسه منافساً لآدم (عليه السلام) بدون كيدية، وهذا في حد ذاته إمعان في الكيدية.

الآية الثامنة: قال تعالى: "لنُرسل عليهم حجارة من طين" {الذاريات: 33}.

هذه الآية متعلقة بما قبلها، أي قوله تعالى: "قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين" والمقصود هنا قوم لوط [2]. ومن المعروف أن فاحشة قوم لوط هي ممارسة الجنس بين الرجال. ولما قال تعالى: "لنرسل عليهم حجارة من طين" قصد أن يكون ذلك عقاباً لهم. قيل: "حجارة من طين" هي السجيل [3]. قيل: هي الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: "من طين" ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البرد؛ حكاه القشيري [4]. قال الرازي: لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص232.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1407.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص324.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص497.

هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة، وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندى، فيصير طيناً رطباً، والرطب إذا نزل وتفرق استدار، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلئ الكبار، ثم في النزول إذا اتفق أن تضر به النيران التي في الجو، جعلته حجارة كالآجر المطبوخ، فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه [1]. نقول: هذه الآية الأولى من بين كل الآيات في القرآن التي لم يرتبط فيها الطين بآدم (عليه السلام) كمادة للخلق، بالإضافة إلى آية ثانية في سورة {القصص: 38}، لكن استخدام كلمة "طين" في الآية محل الشرح هو استخدام في مسألة خاصة (كعقاب) فيها إشارة إلهية دالة على أصالة النوع البشري وضرورة تأصيل نوع آدم (عليه السلام) وذريته، والأهم تثبيت علاقة آدم (عليه السلام) بحواء وذريتهما، ومادة الخلق التي خلق منها الاثنين. **السؤال هنا، لماذا جعل الله هذه الفاحشة محرمة رغم أنها تحدث بين جنسين مخلوقين من نفس المادة؟ بمعنى آخر، هل توجد مادة النار في جسد الرجلين الذين يرتكبان الفاحشة؟** نقول: هناك أربعة مسائل، أبرزها المسألة الرابعة لأنها تعتبر تلخيصاً وجواباً إلهياً:

أولاً: لما خلق آدم (عليه السلام) كان وحيداً ولم يخلق معه رجل آخر، فكان أصل الخلق واحداً تماماً كما هو نوع الخلق واحد، وإن الواحد اشتق منه جنس آخر ليس مثله، وهو حواء، لكنه من نفس النوع، ومن نفس المادة لقوله تعالى: "وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة.." {الأنعام: 98} وقوله تعالى: "خلقكم من نفس واحدة ثم جعل

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص217.

منها زوجها.." {الزمر: 6}. ما يعني أن اجتماع مادتين من نفس "الجنس" مع بعضهما مخالف لأصالة بدء الخلق، لكن اجتماع مادتين من نفس "النوع" ممكن.

ثانياً: إن خلق إبليس من مادة النار، ورفضه السجود لآدم (عليه السلام)، يعني وجود تضاد بين مسألتين وهما: نوع الخلق، أي إبليس وآدم (عليه السلام)، ومادة الخلق، أي النار والطين، وهذا التضاد كاف لوقوع الفاحشة من ناحية دخول عنصر حار (النار) على عنصر بارد (الطين)، ويحدث ذلك من خلال الانفعالات الجسدية الشيطانية بكافة أنواعها، أي دخول عنصر النار في جسد كلا الرجلين الذين يرتكبان الفاحشة، وهذا يدل على أن أصل مادة خلقهما وهي (التراب/الطين) دخل عليها عنصر مادي آخر وهو النار الشيطانية فاستحالت أن تكون المادة على هيئتها الأصلية.

ثالثاً: إن نطفة الرجل (أي المني) الذي ينتجه الرجل هو في الأصل من الغذاء، والغذاء إما نباتي أو حيواني، والحيواني يتغذى على النبات، وبالتالي فإن الغذاء أصله من النبات، والنبات أصله من الأرض، والأرض فيها تراب وماء، والماء هو الذي يساعد على إنبات النبات، وهو الذي تتكون منه النطفة، فلا يصح أن توضع النطفة التي يكونها الغذاء والمسؤولة عن إنتاج الجنس الآخر في موضع تخريج فضلات الغذاء (أي فتحة الشرج عند ممارسة الشذوذ بين رجلين) لأن الأصل أن تؤخذ النطفة من أصلها وهو الماء والتراب وبالتالي النبات، ولا تعود إلى مخرج الفضلات التي ينتجها الإنسان، بالتالي لا يحقق الإنسان بهذا ديمومة وجوده على الأرض واستمرارية ذرية آدم (عليه السلام). ولأن لكل شيء بداية ونهاية، فإن الحقيقة الراسخة تقول بفناء الإنسان بإرادة الله لقوله تعالى: "كل من عليها فان" {الرحمن: 26}، وفناء الإنسان بإرادته من خلال اتباع فاحشة اللواط.

رابعاً: تكمن الإجابة الإلهية على فاحشة اللواط في آيتين وهما قوله تعالى في سورة الذاريات: "قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين (32) لنرسل عليهم حجارة من طين" (33) وهو بهاتين الآيتين عيّن ثلاثة أمور، الأول إشارته إلى كلمة الإرسال في قوله تعالى "أُرسلنا" و "لنرسل" وكلمة "حجارة" وكلمة "طين". وقد شرحنا معنى "حجارة" و "طين" ولكن **لماذا استخدم كلمة "أرسلنا" و "لنرسل"؟** نقول: الذين تم إرسالهم هم الملائكة، وقد أرسلوا إلى قوم لوط الذين وصفوا بالإجرام، فقيل "إلى قوم مجرمين" أي هؤلاء الذين يفعلون فاحشة اللواط، فلماذا وُصفوا بالمجرمين واعتبرت فاحشة اللواط جريمة؟ نقول؛ لأنها اعتداء على "النوع" البشري أولاً، واعتداء على "الجنس" البشري ثانياً، أي هي جريمة قتل للنوع والجنس البشري كله وليس فقط قتل لنفس واحدة. كما أن اعتبارها جريمة أو تحت تصنيف عملية الإجرام فهذا يعني أنها من أكبر الكبائر، وهي من الجرائم الموبقة والسبع المهلكة.

ثالثاً: كلمة (الطين)

الآية الأولى: قال تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرئ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}.

هذه الآية الهامة سوف نشرحها في موضوع خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص564}.

الآية الثانية: قال تعالى: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تُكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتُبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مُبين" {المائدة: 110}.

هذه الآية مشابهة في شرح أهم تفاصيلها المتعلقة بالخلق لسورة {آل عمران: 49} السابقة التي سنشرحها مع الإشارة فيها إلى الخلق ومادة خلق الطير وهي الطين، ومعنى الإذن من الله، والنفخ في الطير لإحيائها. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص564}.

الآية الثالثة: قال تعالى: "وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين" {القصص: 38}.

إن ذكر مادة الطين في هذه الآية ليس له علاقة بالخلق، ولذلك لن نشرح الآية، ولكن استوجب ذكرها حرصاً على الإشارة لكافة الآيات التي ورد فيها كلمة "الطين".

ثالثاً: الصلصال الفخار

قيل: الصلصال هي حكاية صوت، قالوا: صل الحديد والحلى: إذا توهمت في صوته حكاية صَلْ فإن توهمت ترجيعاً قلت صَلصَل، فالصلصلة صوت مضاعف أشد من الصليل وكل يابس يُصلصل.

والصلصال: كل ما جف من طين، قبل أن تُصيبه النار، ويصير فخاراً وخزفاً فهو طين يابس يُصلصل من يبسه [1].

الآيات التي ورد فيها جملة "صلصال من حمإ مسنون"

الآية الأولى: قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون" {الحجر: 26}.

نقول: إن كلمة "الإنسان" في الآية هي إشارة إلى آدم (عليه السلام). أما الصلصال، فقال البيضاوي: هو الطين اليابس الذي يصلصل [2]. وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، وقالوا: إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف صل إذا أنتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصور من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ [3]. قيل: المراد بقوله "الإنسان" هو آدم لأنه أصل هذا النوع، والصلصال إذا حرّك، فإذا طبخ في النار فهو فخار، وهذا قول أكثر المفسرين. والحمأ: الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكيت: تقول منه حمأت البئر حمأ بالتسكين: إذا نزعت حمأتها، وحمئت حمأ بالتحريك: كثرت حمأتها، وأحميتها إحماء: ألقيت فيها الحمأة. والمسنون قال الفراء: هو المتغير، وأصله من سننت الحجر على الحجر: إذا حككته، وما يخرج بين الحجرين يقال له: السنانة والسنين. أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير، ومنه قوله تعالى: "لم يتسنه" {البقرة: 259} وقوله تعالى: "ماء غير آسن" {محمد:

---

[1] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج4، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص87.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج14، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص238.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج14، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص560.

15} وكلا الاشتقاقين يدل على التغير. قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه: إذا صببته، والسن الصب. وقال سيبويه: المسنون المصوّر، مأخوذ من سنة الوجه، وهي صورته. وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، ومن قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. والحاصل على هذه الأقوال إن التراب لما بلّ صار طيناً، فلما أنتن صار حمأً مسنوناً، فلما يئس صار صلصالاً. فأصل الصلصال: هو الحمأ المسنون [1]. وقال القرطبي: الصلصال: أي الطين اليابس؛ عن ابن عباس وغيره. والصلصال: الطين الحر خُلط بالرمل، فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طُبخ بالنار، فهو الفخار؛ عن أبي عبيدة. وطين صلال ومصلال، أي: يصوّت إذا نقرته، كما يصوّت {الفخار} الجديد. فكان أول تراباً، أي: مُتفرق الأجزاء، ثم بُلَّ فصار طيناً، ثم تُرك حتى أنتن، فصار حمأً مسنوناً، أي: متغيراً، ثم يبس فصار صلصالاً؛ على قول الجمهور. والحمأ: الطين الأسود، وكذلك الحمأة، بالتسكين، تقول منه: حمأت البئر حمأً؛ بالتسكين: إذا نزعت حمأتها. وحمئت البئر حمأ؛ بالتحريك: كثرت حمأتها. وأحمأتها إحماءً: ألقيت فيها الحمأة؛ عن ابن السكيت. وقال أبو عبيدة: الحمأة، بسكون الميم، مثل الكمأة. والمسنون: المتغير. قال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن، فجُعل صلصالاً كالفخار. ومثله قولُ مجاهد وقتادة، قالا: المنتن: المتغير؛ من قولهم: قد أسن الماء: إذا تغيّر، ومنه: "يتسنه"، و "ماء غير آسن". وقال الفراء: هو المتغير، وأصله من قولهم: سننت الحجر على الحجر: إذا حككته به، وما يخرج من الحجرين من الحجرين يقال له: السنانة والسنين، ومنه المسن. وقال أبو عبيدة: المسنون: المصبوب. وروى عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: المسنون: الرطب. وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص761.

مصبوباً إلا وهو رطب. وقال الأخفش: المسنون: المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون: إذا كان فيه طول. وقد قيل: إن الصلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوي [1]. قيل المسنون: الأملس. أي: أملس صقيل. ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب [2]. قال الرازي: الأقرب أنه تعالى خلقه أولاً من تراب ثم من طين ثم من حمإٍ مسنون ثم من صلصال كالفخار. وفي الصلصال قولان: قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به، ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح. وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الإنسان فجف فكانت الريح إذا مرّت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً. أما الحمأ فقال الليث، الحمأة بوزن فعلة، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن، وقال أبو عبيدة والأكثرون حمأة بوزن كمأة وقوله تعالى "مسنون" فيه أقوال: الأول: قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله "مسنون" أي متغير، قال أبو الهيثم يقال سن الماء فهو مسنون أي تغير، والدليل عليه قوله تعالى "لم يتسنه" أي لم يتغير. والثاني: المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر يسن عليه. الرابع: قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، والسن والصب يقال

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 203، 204، 205، 206.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص533.

سن الماء على وجهه سناً. الخامس: قال سيبويه: المسنون المصور على صورة ومثال، من سنة الوجه وهي صورته، السادس: روي عن ابن عباس أنه قال: المسنون الطين الرطب، وهذا يعود إلى قول أبي عبيدة، لأنه إذا كان رطباً يسيل وينبسط على الأرض، فيكون مسنوناً بمعنى أنه مصبوب [1]. نقول: إن الحمإ هي المادة التي تكون فيها أعلى درجات الحرارة التي وصل إليها جسد آدم (عليه السلام) قبل نفخ الروح فيه، وهذه المادة كانت صلصالاً من قبل، والصلصال كان طيناً، والطين كان تراباً. والدليل على حشد قوة الحرارة هو الآيتين السابقة واللاحقة لهذه الآية، فالآية السابقة تقول "وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم (25) والآية اللاحقة تقول "والجان خلقناه من قبل من نار السموم (27) والآيتين تدلان على أن الله استخدم القوة في الحشر وفي خلق الجان من نار السموم، وكذلك استخدم القوة في جعل التراب حمإ مسنون، وسنه دليل على فركه، والفرك يدل على دخول عنصر الحرارة على نوع التراب المسمى الحمإ فجعله أسوداً أو مادة تشبه خلق الإنسان الأول وهو آدم (عليه السلام)، ولذلك نقول إن جسمه لم يكن أبيضاً مطلقاً.

الخلق (مادة وفعل إلهيين) والخلاق (اسم الله) والأخلاق (علم)

الآية الثانية: قال تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون" {الحجر: 28}.

نقول: هذه الآية ذكر فيها قوله تعالى: "من صلصال من حمأ مسنون" وهي جملة مشابهة للآية السابقة وقد سبق شرح المعنى. أما الفرق بين الآيتين هو أنه قال في الآية السابقة "ولقد خلقنا الإنسان"،

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص183، 184.

أما في هذه الآية فقال "إني خالق بشراً". **فلماذا قال "خلقنا" بالجمع في الآية السابقة {الحجر: 26}، وقال "خالق" بصيغة المفرد في هذه الآية؟ ولماذا قال "الإنسان" في الآية السابقة، وقال "بشراً" في هذه الآية؟**

للإجابة على السؤال الأول يجب أن نستوضح المسألة بشكل تأصيلي، فنقول باعتبار أن كلمة خلق هي جذر لغوي، فمنها اشتق اسم من أسماء الله تعالى وهو "الخلاّق" لقوله تعالى: "إن ربك هو الخلاّق العليم" {الحجر: 86} ومنها "الخلق" وهي شاملة لكل ما خلقه الله تعالى، ومنها "الأخلاق" التي صارت علماً يسمى "علم الأخلاق". نقول: إذا كان الخلاق اسم من أسماء الله تعالى، والخلق والأخلاق مرتبطة بهذا الجذر اللغوي، فإن ذلك يعني أن أصل مادة الخلق (وهي الطين) تدّل على أن الأصل في هذه المادة وإيجابها بأن تكون مادة خلق آدم (عليه السلام) هو انسجامها مع الأخلاق المفترضة لآدم (عليه السلام) وذريته. قيل إن الخلق أصله التقدير المستقيم ويُستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء [1]. وذكر الله الخلق بالتسلسل مع كل شيء خلقه وقدره في هذه الحياة الدنيا، فأولاً ذكر خلق السماوات والأرض في قوله تعالى: "خلق السماوات والأرض" {الأنعام: 1} ثم خلقه كل ما في الأرض كما ورد في قوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً" {البقرة: 29}. ثم خلقه لآدم وحواء (عليه السلام) كما في قوله تعالى: "خلقكم من نفس واحدة" {النساء: 1} وكذلك خلق ذرية آدم (عليه السلام) من نطفة كما ورد في قوله تعالى: "خلق الإنسان من نطفة" {النحل: 4}. وكذلك حديثه عن خلق سلالة بني آدم (عليه السلام)، وهو النوع الإنسي كما ورد في قوله تعالى: "خلق الإنسان من سلالة" {المؤمنون: 12} وخلق الجن كما ورد في قوله تعالى: "خلق الجان من مارج من نار"

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص209.

{الرحمن: 15} وحديثه عن قوته وقدرته في الخلق لقوله تعالى: "أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون" {النحل: 17}. وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كالنبي عيسى (عليه السلام) حيث قال تعالى: "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني" {المائدة: 110} [1]. وكذلك توضيح أهمية صورة خلقه وإبداعه لهذا الخلق في قوله تعالى: "لا تبديل لخلق الله" {الروم: 30} وهو إشارة إلى ما قدره وقضاه، وقيل: معنى قوله تعالى "لا تبديل لخلق الله" أي هو نهى أي لا تغيروا خلقة الله. والخَلْقُ يُقال في معنى المخلُوق والخَلْقُ والخُلقُ في الأصل واحد كالشّرب والشُرب، لكن خص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم" {القلم: 4} وقُرئ: إن هذا إلا خُلُقُ الأولين {الشعراء: 137} والخَلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقه، قال تعالى: "وما له في الآخرة من خلاق" {البقرة: 102} [2]. وكذلك تثبيته لقدرته على إنشاء قوم آخرين كما ورد في قوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" {إبراهيم: 19}. وقوله تعالى: "أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد" {الرعد: 5}. بالتالي لمّا ذكر تعالى في الآية كلمة "خلقنا" فهو من باب التعظيم، لأنه الله قال في خلق آدم (عليه السلام) موجهاً خطابه لإبليس: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي {ص: 75}. أما قوله تعالى: "خالق" في إشارة إلى البشر كنوع إنسي، فذلك يشير إلى وحدانيته وقدرته المطلقة على إحياء هذا النوع البشري بنفخ الروح فيه، وتسخير الطبيعة وكل ما في الأرض له، وكأن الله أراد إرسال رسالة للملائكة في قوله "إذ قال ربك للملائكة" بأنه هو من خلق آدم (عليه السلام) ونفخ الروح فيه، وليس الملائكة، وأيضاً أكد للملائكة نوع مادة خلق آدم (عليه السلام) وهي الصلصال من حمإ مسنون.

---

[1] المصدر السابق، ص209.

[2] المصدر السابق، ص210.

وللإجابة على السؤال الثاني، نقول: إن ذكر كلمة "الإنسان" فيها إشارة إلى آدم (عليه السلام). أما ذكر كلمة "بشراً" فهي إشارة إلى النوع الإنسي من نسل وسلالة آدم (عليه السلام) حتى يومنا هذا. نقول: ثمة علاقة بين "الخالق" باعتباره مسؤولاً عن الخلق، و "الخلاّق" باعتباره اسم لما أتقن خلقه أو أبدع فعله وفق أعلميته عن التخليق، و "الخلق" باعتباره نتيجة لفعل أو حدث الاتقان، و "علم الأخلاق" باعتباره نتاج فعل بني آدم (عليه السلام) في تفكره وتأمله للهيئة والصورة التي خلقه الله عليها. هذه المسألة تجعل قواعد الأخلاق مرتبطة بالخالق والخلق والخلاق "أي المسؤولية عن الخلق وحدث اتقانه ونتيجته" وكلها قواعد أخلاقية علوية (عليا) وهي تقوم على فهم قرار الإحياء، وهو إلهي بامتياز. أما قواعد الأخلاق المرتبطة بعلم الأخلاق "أي المسؤولية عن إنتاج منظومات وتصورات وتوصيفات عن أصول الحركة والأفعال الإنسانية" كلها قواعد أخلاقية دنيوية (سفلية). ولذلك لا أتفق مع داروين حول توصيفه للقواعد الأخلاقية بأنها عليا وسفلى بناءً على الغرائز الاجتماعية والمصالح الخاصة بالآخرين والتضحية بالذات [1] لأن قصده بالعليا أي العليا الدنيوية وليس العليا العلوية، وقصده بالسفلى السفلى الدنيوية، فالعليا والسفلى عنده دنيويتين.

الآية الثالثة: قال تعالى: "قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون" {الحجر: 33}.

نقول: هذه الآية تكرر فيها جملة "صلصال من حمإٍ مسنون" التي ورد ذكرها في الآيتين السابقتين وقد تقدم شرحهما.

---

[1] تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص302.

الآيات التي ورد فيها جملة "صلصال كالفخار"

الآية الرابعة: قال تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" {الرحمن: 14}.

نقول: هذه الآية الوحيدة التي ورد فيها كلمة "فخّار" في القرآن. قيل إن الإنسان خلق من التراب، كما ورد أنه خلق من الطين ومن حمأ، ومن ماء مهين إلى غير ذلك. أما قوله من تراب تارة، ومن ماء مهين تارة أخرى، فذلك باعتبار شخصين، آدم (عليه السلام) خلق من الصلصال ومن حمأ مسنون، وأولاده خلقوا من ماء مهين، ولولا خلق آدم لما خلق أولاده [1]. أما قوله كالفخار، ومن صلصال، ومن حمأ مسنون فهذه كلها ترتيبات لتحوّلات المواد التي خلق منها آدم (عليه السلام). نقول: إن الصلصال هو مادة مخلوطة بمزيد من الماء وهو درجة من طين الأرض الذي تحول إلى الصلصال. أما "الفخار والحمأ المسنون" فهما توصيف لطبيعة مادة الصلصال التي تكون لينة، بينما الفخار والحمأ المسنون هما أقصى درجة يصل إليها الصلصال. فلو أدركنا إضافة الكاف في قوله تعالى: "كالفخار" لعرفنا أن الكاف هنا للتشبيه [2]. قال الرازي: الكاف موضعة رفع من وجهين (أحدهما) أن يكون صفة لقوله (لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر) (والآخر) أن يكون خبراً بعد خبر قاله الزجاج [3]. **ولكن لماذا تشبيهاً وليس توكيداً؟**

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص98.

[2] عزيزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص834.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج29، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص234.

نقول: إن التوكيد يكون مع الأشياء المطلقة النزاهة مثل وصف الله عزوجل في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" {الشورى: 11}، وهذه حقيقة، وكما يقول ابن سينا "إن ما لا نهاية له يقال على الحقيقة" [1]، ولذلك فإن الله لا نهاية له. إن الذي يسأل عن الله كأنما يسأل دنيوياً (وهذا مثال للتقريب) عن لون أو شكل الهواء المجرد أو رؤية الصوت بالعين المجردة في الهواء الطلق، ومع ذلك نقول: إذا كان الله هو خالق كل شيء، فهو لا يتساوى مع أي شيء خلقه، فعلى سبيل المثال، لمّا قال الله تعالى في القرآن: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" {الذاريات:47} فهذا يعني أن الفضاء الخارجي ليس له آخر، أي نقطة محددة. كما أن الله لا يتساوى مع النهاية، بالتالي لا يتساوى مع كل ما هو أدنى أو أكثر من ذلك، علماً بأن الكون في حالة ديناميكية وليس استاتيكية، أي أن الوجود الذي تنتمي إليه في حالة حركة وتطور وتمدد وانتفاخ وليس في حالة ركود وتماسك وثبات [2]. إن عالمنا إذاً قد تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة، ويشير حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليين إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح بين 12- 20 مليار سنة وفي جزء من السكستليون من الثانية (واحد مقسوم على عشرة قوة 26)، وفي البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيراً من الحيز الذي يشغله بروتون واحد، وكانت الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال، تصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها، وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواه في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً، وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق، وكانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة، وما ينبغي لنا

---

[1] أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، تحقيق سعيد زايد، الشفاء، الطبيعيات، السماع الطبيعي (قم المقدسة: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1984)، ص209.

[2] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج1، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص72.

إلا أن نتصور أن الانفجار أحدث تمدداً في المادة في مكان قائم بالفعل، فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان، وهذا يمكن أن نتعقله، ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال [1]. وعموماً إن الوصف القرآني يتنافى تماماً مع الثابت الكوسمولوجي الذي تراجع عنه آينشتاين بعدما قادته إليه معادلاته، ليفرمل بذلك زخم المعادلات، وليقع بهذا الخطأ المصيري، كما اعترف هو بأنه أشنع ما فعله في كل حياته العلمية، حيث ثبت بأن الكون يتوسع [2]. ولذلك نقول: إن الله حاضر بقوة في الكون من خلال آياته المادية والمعنوية في الإنسان وفي الطبيعة معاً. إن الفخار ليس مطلق النزاهة لأن هناك مواد وعناصر في الطبيعة دخلت على جسد آدم (عليه السلام)، ولنا في هذه المسألة حجة، ولكننا سنذكر ما ذكره المفسرون قبلنا. قال أبو عبيدة، إن الصلصال إذا جف ثم طبخ بالنار فهو الفخار [3]. على حين قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً {......} يعني جف فكانت الريح إذا مرّت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً [4]. نقول: إن حديث أبو عبيدة عن النار كعنصر حرارة طُبخ به آدم (عليه السلام)، لا ينسجم مع تفسير الرازي وغالبية المفسرين بقولهم إن الله خلق آدم (عليه السلام) من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف إلى أن نفخ فيه الروح. **لماذا لا ينسجم؟** لأن أبو عبيدة ذكر النار، والنار غير الحرارة، والحرارة غير اللهيب، واللهيب غير

[1] المصدر السابق، ص7.

[2] المصدر السابق، ص7.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 203.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص183.

الوهج، والوهج غير السخونة، والسخونة غير الدفء، والدفء غير الضياء. قال أبو إسحاق: النار اسم للحر والضياء. فإذا قالوا: أحرقت أو سخنت، فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين، وهو الحر دون الضياء [1]. نقول: كل ما سبق دخل في إنضاج آدم (عليه السلام) باستثناء النار واللهيب. أما الحرارة والسخونة والدفء فهي داخلة في إنضاج آدم (عليه السلام). بالتالي إذا قال المفسرون إن الريح إذا مرّت بآدم (عليه السلام) سُمع له صلصلة، فإنما هم يميزون بين طبخه بالنار وطبخه بحرارة الريح، ونحن نقول إنه لم يطبخ بالنار لأن عنصر النار ليس داخلاً كمادة في خلق آدم (عليه السلام)، لكننا نرجح مسألة واحدة كالتالي:

أن يكون آدم (عليه السلام) قد تشكل من الصلصال وبقي على الأرض مقابلاً للشمس حتى جف نتيجة سخونة حرارة الشمس ومرور الريح عليه، وهذا يعني أن الريح كانت شديدة بحيث أن احتكاك الريح بحرارة أو سخونة انعكاس الشمس على الأرض نتج عنها هيئة آدم (عليه السلام) ثم نفخ الله فيه من روحه. **لماذا نقول بهذا الرأي؟**

لأن الريح مصدراً للطاقة، وهذه الطاقة هي التي دخلت على جسد آدم (عليه السلام) فكونته وجعلته يابساً صلداً. كما أن الشمس تعتبر عاملاً رئيسياً في تكوّن الرياح عبر حركة الهواء، فعندما تسخّن الشمس الغلاف الجوي بشكل متفاوت، فإن ذلك يؤدي إلى تمدد الهواء الدافئ، وبالتالي انخفاض الضغط في تلك الأماكن مقارنة بالأماكن التي يكون فيها الهواء بارداً، والتي يكون فيها الضغط مرتفعاً، ونتيجة لذلك يتحرك الهواء من منطقة الضغط المرتفع إلى منطقة الضغط المنخفض، لتسبب حركة الهواء هذه تشكيل الرياح [2]. لذلك فإن تكوين آدم (عليه السلام) لم يكن ممكناً من دون دخول الحرارة على حركة

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص6.

[2] https://geolougy.com/k/بحث-عن-الرياح-وكيفية-تكونها/

الهواء كي يتسبب ذلك بجفاف هيئته قبل نفخ الروح فيه. قال مثنى بن بشير في أثر الشمس والحركة والجو في الأبدان: "إن الحركة خير من الظل والسكون" [1]. نقول: إنه يجوز أن يكون اسم الصلصال المذكور في كل الآيات القرآنية معبراً عن احتكاك الريح السريع بحرارة الشمس، ونعتقد بتماثل هذه الحركة عند عملية التزاوج أو التلاقح الجنسي بين أي ذكر وأنثى، أي أن الإنسان فيه طاقة كامنة، وهذه الطاقة ناتجة عن الأغذية النباتية التي يتناولها الإنسان أولاً والأغذية الحيوانية ثانياً، وإن طبيعة هذا التناول الغذائي هو الذي يشكل طاقة الإنسان، بالإضافة إلى طريقة إدارته لبنيته الجسدية، وهذه البنية هي التي ينتج عنها حركة الإنسان في حياته، وعلى وجه الخصوص فإن جزء من الحركة الناتجة عن عملية الجماع بين الذكر والأنثى تعمل على إنتاج طاقة والتي تولد بدورها الحرارة، ومنها جميعاً يتشكل المني الذي يخرج من صلب الرجل دافئاً. كما أن العنصرين الأساسيين اللذين دخلا على آدم (عليه السلام) قبل نفخ الروح فيه، هما حركة الريح التي أنتجتها سخونة أو حرارة الشمس الطبيعية، وإن الريح هي التي عملت على إنضاج أو استواء جسد آدم (عليه السلام) بفعل مساعدة الماء لأنه كما يقول الجاحظ: في الأرض وفي الماء الذي قد لامس الأرض حراً كثيراً وتداخلاً متشابكاً؛ وليس فيهما ضياء [2]. بالتالي لا نقول إن تسخين أو حرق جسده هو الذي أنتج بنية جسد آدم (عليه السلام)، وإن حرارة الشمس وحركة الرياح ثابتة بالنسبة لآدم (عليه السلام) باعتبار أنه من خلق الله، وهو أول الأنبياء، ودليل ذلك من القرآن أن الله اصطفاه مع الأنبياء لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" {آل عمران: 33} وكذلك جعله الله رسولاً مثل عيسى عليه السلام لأنه ساوى بين

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص105.

[2] المصدر السابق، ص7.

خلقه وخلق عيسى (عليه السلام) في قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}. نقول: إن المساواة في مادة وطبيعة الخلق بحد ذاتها تعتبر إقراراً ملزماً بالمساواة في كثير من الخصائص ومنها رسالة آدم (عليه السلام) إلى العالمين، تماماً كرسالة الرسول عيسى (عليه السلام) إلى قومه. ونقول: إن الله هو الذي قدّر موازين حركة الريح وحرارة الشمس لآدم (عليه السلام) وقتها، أي عندما خلقه، ومع ذلك فإن الطاقة وحركة الريح والحرارة ليست ثابتة بالنسبة لذرية آدم (عليه السلام)، وذلك بسبب اختلاف طبيعة النظام الغذائي بين شخص وآخر واختلاف طاقة وحركة كل إنسان، وهذا ما يفسر وجود اختلاف في طبائع الخلق وألوانهم وأشكالهم وحركاتهم، فالحرارة المتولدة عن الحركة يكون الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة [1]. وهنا نقول: إن معرفة طباع وتصرفات آدم (عليه السلام) يكون من خلال معرفة درجة حرارة الشمس وحركة الريح في الزمن الذي تبع خلق الكون، أي بعد استقرار الأرض، لأن له تأثير على خلق آدم (عليه السلام). وهذا يعني أننا نفكر في عشرات المليارات من السنين التي تبعها عهود كثيرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، العهد الجيولوجي الثالث الذي انقضى قبل قرابة 36 مليون سنة، أي ما يعادل 1,400,000 جيلاً من البشر [2]. بالتالي فإن آدم (عليه السلام) قديم كل هذا القدم. **لماذا يهم معرفة هذه التفاصيل؟**

نقول: لأن بداية الخلق الآدمي كانت كاملة متكاملة، وذلك لقوله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" {الزيتون: 4}. وهذه الآية

---

[1] المصدر السابق، ص111، 112.

[2] جان شالين، تعريب الصادق قسومة، الإنسان نشوؤه وارتقاءه، من نظرية داروين إلى مكتشفات العلوم الحديثة، ط1، (دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2005)، ص26.

جواب القسم [1] على قوله تعالى في بداية السورة: "والتين والزيتون" {الزيتون: 1}. إن ذكره كلمة "الإنسان" في الآية هو إشارة للنوع، أي البشر، وأول البشر آدم (عليه السلام)، فكانت الإشارة إلى آدم (عليه السلام) الإنسان، وإلى صفات خلقه كيف أنها منزهه عن الخطأ في التكوين، فهي مطلقة القوامة في هيئتها وحسنها وجمالها واستقامتها، وذلك لأن آدم (عليه السلام) نازل من الجنة روحياً وليس بدنياً مباشرة إلى الأرض، مع الحرص على أن المقصود بقولنا "نازل" أي مخلوق بهيئة متجددة غير التي كان عليها في الجنة، لأن هيئة آدم (عليه السلام) الذي في الجنة غير هيئة آدم (عليه السلام) الذي في الأرض. قال أبو بكر بن طاهر: مزيناً بالعقل، مؤدياً للأمر، مهدياً بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده. وقال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان؛ فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيماً. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: إن الله خلق آدم (عليه السلام) على صورته، وفي رواية: على صورة الرحمن [2].

لا نقول بالرأي الوارد في تفسير القرطبي عن المساواة بين صفات الإنسان والرب، بل نعتبرها شرك مطلق، ونقول إنه رأي غير قرآني، بل هو متعلق بخلق عيسى (عليه السلام)؛ لأن الله لا يتساوى في صورته أو صفاته مع أي مخلوق، لأنه خالق، ولا يتساوى المخلوق مع الخالق، حيث ذكر القرآن في توصيف الخالق في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" {الشورى: 11}. والشيء يشمل الأفعال والصفات

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 368.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص368. انظر أيضاً: الإمام أبي حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، (أميركا، مكتبة الكونغرس، 1998)، ص22.

والهيئات وكل ما دون ذلك وأكثر، فإذا كان ليس كمثله شيء فهو ليس على صورة آدم (عليه السلام). أما كلمة "أحسن" في قوله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" {الزيتون: 4} فإنها تنسب إلى صفات وخصائص القوامة من المادة التي خلق منها آدم (عليه السلام) في زمن خلقه. قيل إن هذه الآية نزلت في مُنكري البعث [1]. أما بالنسبة لذكر كلمتي "التين والزيتون" في بداية السورة، فذلك متعلق بالغذاء ومنه الشهوة. بالتالي فإن الإشارة إلى "النوع" أي الإنسان، وإلى "الصورة" وهي الحُسن والجمال، وإلى "القوامة" وهي أفضل تعديل، يُراد بذلك كله أن كل إنسان يخالف (نوعه وصورته وقوامته) فإنه يكون بذلك قد بالغ في شهواته الغذائية أو الجنسية أو انحرف عنهما أو تأثر هو أو نسله بهما، فتأثر نوعه وصورته وقوامته أو نوع وصورة وقوامة نسله. عموماً وردت إشارة في سورة الزيتون إلى "البلد" في الآية الثالثة، وقال بعض المفسرين إنها مكة [2]، وهذا رأي جائز لما لها من خصوصية دينية، لكن "البلد" لها معنى أوسع وأشمل، ونقول: إن المقصود به الأرض عموماً، أو أي أرض في محل الخطاب الموجه في الآية. أما فيما يفسر علاقة الطبيعة (وبالتحديد الهواء والحرارة) في التأثير على الإنسان والبشر عموماً بعد توالي الحياة لذرية آدم (عليه السلام)، فإن أكثر من أوجز في الشرح والتدقيق في هذه العلاقة وصلتها بأخلاق البشر هو ابن خلدون، حيث كتب مقالتين له في مقدمته تحت عنوان "تأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم، وأثر الهواء في أخلاق البشر. سأتناول المقالة الثانية لأهمية دلالتها، إذ يقول فيها، قد رأينا من خلق السودان -على العموم- الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع،

---

[1] المصدر السابق، ص368.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص10.

موصوفين بالحمق في كل قُطر، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور، هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه. وطبيعة الحزن بالعكس، وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء، والبخار، مخلخلة له، زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يُعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح، وتجيء طبيعة الفرح، وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرّاً، فتكون أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً، وأكثر انبساطاً، ويجيء الطيش على أثر هذه، وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية، لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته، كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة، وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها، وفي هوائها؛ لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول، واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدّخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة مأكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة. كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئاً من

مدخره، وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء. والله الخلاق العليم. وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي، أن ذلك لضعف أدمغتهم، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا كلام لا محصل له، ولا برهان فيه، لقوله تعالى: "والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" {البقرة: 213} [1]. نفهم مما ذكره ابن خلدون أن الروح الحيوانية وتفشيها، والخفة والطيش في هذه الروح ذاتها كله له علاقة بالحرارة، ما يعني أن ذلك يتناقض مع حقيقة وأصل مادة الخلق، وهو التراب/الطين قبل أن تلمسه حرارة الشمس بفعل حركة الرياح. ما يعني أن كل إنسان تشتد حرارته خلال أفعاله وتسخن جوارحه فهو يكون أقرب إلى الطيش وإلى الفعل الحيواني. ولما ذكر ابن خلدون أن للأخلاق أثر من كيفيات الهواء، وأن الله هو الخلاق العليم، فنقول هذا صحيح لأن الريح التي تحركت بفعل حرارة الشمس وعملت على إنضاج آدم قبل نفخ الروح فيه هي التي أتمّت أخلاقه، وهذا يدل على أن مادة التراب/الطين مضادة ومخالفة لكل ما هو غير أخلاقي ولكل أهواء النفس البشرية. وإذا فهمنا ذلك، ندرك أن حياة النباتات تنشأ في الأصل من بيئة أخلاقية، وهذا ما يفسر الضرورات التي تمت الإشارة إليها في القرآن بشأن أهمية الحفاظ على الأرض، وقد ذكرت آيات كثيرة بهذا الخصوص، ومنها قوله تعالى: "ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين" {القصص: 77}. وقوله تعالى: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها"{الأعراف: 56}. وقوله تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" {الروم: 41}.

---

[1] العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، حققه عبد الله الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ج1، ط1، (دمشق: دار يعرب، 2004)، ص194، 195.

إذا أدركنا ما سبق، فإننا بذلك نؤكد على العلاقة المترابطة بين أخلاق الإنسان والنباتات بمادة الخلق الأولى، وهي التراب/الطين، وعلاقة أخلاق الإنسان بضرورة اهتمامه بالأرض التي هي مصدر غذائه، وتجنب الإفساد فيها. إذا عرفنا كل ما سبق عن علاقة الإنسان بالطاقة والريح والحرارة وكيفية خلق آدم (عليه السلام)، استوجب أن نشير إلى طبيعة خلق الملائكة، فهم لم يخلقوا من طين أو نار، بل هم مخلوقون من النور والريح فقط. **في هذا السياق، نسأل هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟**

جنس الملائكة إنسي أم غير إنسي

نقول إذا كان الإنسان مخلوق من التراب والماء والطاقة التي تحرك الريح، فإن مادة واحدة من بين كل هذه المواد هي التي خلقت منها الملائكة وهي الطاقة، **فما هي نوع الطاقة التي خُلقت منها الملائكة؟ وهل الملائكة مخلوقون من طاقة النار (الطاقة الحرارية والضوئية) أو الشمس (الطاقة الحرارية والضوئية) أو الرياح (طاقة الحركة)؟**

نقول: لا، لم تخلق أرواح الملائكة ولا أجسادها من النار (الطاقة الحرارية والضوئية) أو الشمس (الطاقة الحرارية والضوئية)، ولكن أجسادها خلقت من الريح (طاقة الحركة)، وفي الإجابة على جنس الملائكة عدد من المسائل كما يلي:

المسألة الأولى: لقد خُلقت بعض الملائكة لحمل عرش الرحمن لقوله تعالى: "والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17} وقوله تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" {الزمر: 75}. بالتالي فإن الملائكة بهذا التوصيف هم أقرب إلى الله، والنار ليست قريبة من الله أو عرشه. سوف نذكر ما ورد في

كتب التفسير للآية الأولى {الحاقة: 17} ومن ثم سوف نعقب على تفاسير المفسرين لمسألتين وهما: أولاً: عدد الملائكة. وثانياً: وصف أشكالهم أو هيئاتهم. نقول بشكل مبدئي إننا نخالف ما ذكر حول المسألتين لدى الرازي والقرطبي وابن كثير، والثلاثة من أبرز مفسري القرآن، وذلك لعدم توافق آراءهم مع رأينا كما يلي آرائهم وتعقيبنا عليها. قال الرازي: الملك يُراد به ملكاً واحداً، بل أراد الجنس والجمع. والمراد بقوله تعالى: "فوقهم" أي فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش. قال مقاتل يعني أن الحملة يحملون العرش فوق رؤوسهم. ونقل الحسن رحمه الله أنه قال لا أدري ثمانية أشخاص أو ثمانية آلاف أو ثمانية صفوف أو ثمانية آلاف صف. واعلم أن حمله على ثمانية أشخاص أولى لوجوه (أحدها) ما روى عن رسول الله "هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية. وقيل: بعضهم (وفي رواية أخرى لكل ملك منهم أربعة أوجه) [1]، على صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر [2]. وقال العباس بن عبد المطلب: هم ثمانية أملاك في صورة الأوعال [3]، وذكر الرازي أن ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً [4]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: كتب إلى أحمد بن حفص بن عبد الله

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج21، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص202.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص108، 109.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج21، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص202.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج30، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص109.

النيسابوري: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله: "أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش: بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام". وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، وقد رواه أبو داود في كتاب "السنة" من سننه: حدثنا أحمد ابن حفص بن عبد الله، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام"، وهذا لفظ أبي داود [1]. نقول: إن أعداد ومهمات الملائكة الموكلة إليهم ثابتة ومعروفة لأنهم لا يتناسلون، فهناك ملك للموت والملك الموكل بالنفخ في الصور، والملك الموكل بالسحاب والمطر وغيرهم كثر. وأما العرش فإن عدد حملته هم ثمانية فقط كما ورد في الآية، وإن الله لا يمنعه أو يعجزه أن يذكر أعدادهم، حيث قال تعالى في آيات مختلفة: "أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" {الأنفال: 9} وقال تعالى: "يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين" {آل عمران: 124} وقال أيضاً: "يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" {آل عمران: 125}. بالتالي فإن تعيينه ثمانية ملائكة لحمل العرش يعني أنهم ثمانية فقط، وذلك ينفي ما ذكره الحسن حول تقديره لأعداد مختلفة للملائكة في الآية. والأمر الآخر هو ما ذكر بشأن الصور التي تكون عليها الملائكة كالأسد والثور والنسر، وقول العباس بن عبد المطلب أنهم في صورة الأوعال، وحساب الرازي للزمن بين أظلاف وركب الملائكة بسبعين عام أو كما ورد في سنن أبي داود بسبعمائة عام بين شحمة أذنه وعنقه. نقول: إن هذا غير معقول وغير متصوّر، لأن صور الحيوانات أصغر بكثير من حجم الملائكة، ولأن الملائكة منها أرواح مخلوقة من الله

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص212.

ويصعب أن تتحول إلى أشكال أو صور لحيوانات مطلقاً. وفي هذا السياق نقول: إن تناسخ الأرواح إلى حيوانات لا يحدث لعموم بني آدم في النار، لأن ذلك ينفي وقوع العذاب للأرواح والأجساد ذاتها، وهذا لا يصح عقلاً ولا يُقبل شرعاً، ودليل ذلك قوله تعالى: "يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون" {النور: 24}، وقوله تعالى: "اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون" {يس: 65}، وقوله تعالى: "وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون" {فصلت: 21}. ولأننا سنأتي في السطور التالية على ذكر أن الله لا نهاية له، وأنه لا كتلة ولا حجم ولا كثافة له، وهو غير متخيّل أو متصوّر أو محسوس أو ملموس، فنقول إذا كانت الملائكة تحمل عرشاً يتسع للإله، وهو يحمل كل هذه الصفات غير المتخيلة بالعقل الواعي أو اللاواعي، فإن الملائكة الثمانية هم نوع أكبر وأوسع مما يتخيله العقل مجرد صورة مطابقة لما هو دنيوي. وكذلك الحال مع حساب الزمن من خلال شكل وحجم الملائكة في قول الرازي "بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً" أو "سبعمائة عام" كما ذكر أبي داود في سننه، لأن هذا الحساب للزمن وشكل حملة العرش، يعني حساب زمن وشكل وحجم الله عزوجل، وهذا محال ومستنكر، لأنه غير جائز وغير معقول، لأن الله خارج حسابات الزمن أو الشكل والحجم والكتلة والكثافة. وعموماً إن حديث الأوعال مشهور وقد ورد ذكره في كتب أهل العلم، ومروي في أكثر الكتب المسندة، فقد أخرجه أحمد في "المسند" (206/1)، وأبو داود في "السنن" (4723)، والترمذي في "السنن" (3320) وابن ماجه (193)، والدارمي في "الرد على الجهمية" (50)، والبزار في مسنده (134/4)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في "العرش" (66/1)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (234/1)، والحاكم في المستدرك (410/2) وغير ذلك من

كتب السنة [1]. ونحن نميل إلى العلماء أو رواة الحديث الذين قالوا بضعف هذا الحديث لأسباب كثيرة، ومنهم المزي الذي ضعفه في "تهذيب الكمال" (391/10)، وقال الذهبي في "العلو" (60/1)، ومن المتأخرين أيضا العلامة الألباني في "السلسلة الضعيفة" (1247). نقول: إن هذه الآية، أي قوله تعالى: "والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17} تدل على أن هناك نوع من الملائكة مخلوقون قبل خلق الكون والسماوات والأرض، وبالتالي هم ليسوا مخلوقين من حرارة الشمس أو من النار، بل إن أجسادهم مخلوقة من الريح، فإذا قلنا بأن وجود الريح يدل على وجود طاقة حركة قامت بتحريكه بهدف خلق الملائكة، فذلك يدل على أن هذه طاقة الريح أو طاقة الحركة هي أمر من أوامر الله، وذلك الأمر هو الذي به خلقت الملائكة ثم بعد ذلك خلقت به السماوات والأرض وباقي المخلوقات، وإذا كانت الطاقة بأمر الله، فهذا يعني أن الله ليس مخلوقاً من الحرارة أو الطاقة، بل هي أمر من أوامره، وبالتالي فإن خلق نوع من الملائكة كان بسبب إنتاج الله للمادة ومن ثم لطاقة هائلة وجدت عند خلق الكون، وهذه الطاقة هي التي تولدت عنها الريح وخلقت منها أجسام الملائكة، ما يعني أن خلق الله متعدد، فهو خالق كل شيء وهو القادر على إنتاج خلق آخر لقوله تعالى: "ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" {إبراهيم: 19}.

المسألة الثانية: نقول: إذا كانت الملائكة من جنس بشري فإنها لن تستطيع حمل عرش الرحمن لأن البشر لا يقدرون على حمل عرش الرحمن وليس من وظائفهم حمله، بل هو من وظائف الملائكة باعتبار أن لهم خصائص محددة، وإن خلقهم من مادة النور يجعلهم قادرين

[1] https://islamqa.info/ar/answers/88746/%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%88%D8%B9%D8%A7%D9%84-%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%B6%D8%B9%D9%8A%D9%81

على الاضطلاع بهذه المهمة بحسب ما أراد الله لهم هذه الوظيفة قبل بداية الخلق وفي الدنيا والآخرة، وبالتالي هذا ينزع صفة الإنسية عن الملائكة، فهم ليسوا بشراً.

المسألة الثالثة: إن الخلق الإنسي أو البشر كلهم مأمورون من الله بواسطة القرآن الذي نقله الوحي والذي ينص على الأحكام التشريعية بما فيها من أوامر ونواهي، وكذلك العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات وغيرها، في حين أن الملائكة مأمورون من الله مباشرة فقط لقوله تعالى: "لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون" {الأنبياء: 27}، وهم مفطورون على طاعة الأوامر بدون مخالفة ولا عصيان ولا تبديل ولا تحريف، وقد نزههم الله عن ارتكاب المعاصي.

المسألة الرابعة: إن أشكال وهيئات وصفات البشر تختلف عن أشكال وهيئات وصفات الملائكة، وقد شرحت صفات وأشكال الملائكة في كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) [1]. فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، وإن المهمات الموكلة إليهم ثابتة وموزعة بينهم منذ لحظة خلقهم كما أراد الله. وأما مادة خلق الملائكة فهي مختلفة عن مادة خلق البشر، فمادة أرواح الملائكة مخلوقة من النور، ومادة خلق أجسامهم مخلوقة من الريح. كما أن سرعة الملائكة تختلف عن سرعة البشر في إتمام المهمات الإلهية، وهناك آيات قرآنية تدل على سرعة حركة الجن والعفاريت وهي ثابتة في الشريعة القرآنية الإلهية، وذلك في قوله تعالى: "قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي.." {النمل: 40}. وقوله تعالى: "قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين" {النمل: 39}.

---

[1] حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023)، ص234

نلاحظ أن قوله تعالى: "قبل أن يرتد إليك طرفك" أي بلمح البصر، وهي مماثلة تقريباً لقوله تعالى: "قبل أن تقوم من مقامك". **السؤال هنا: هل يمكن القول إن أجسام الملائكة مخلوقون من نفس المواد التي تتكون منها الرياح/الهواء، وهي الأوكسجين والنيتروجين؟**

خلق أجسام الملائكة من العناصر المكونة للرياح/الهواء (النيتروجين والأوكسجين)

أولاً يجب أن نوضح الروايات بخصوص خلق أرواح وأجسام الملائكة، وهو ما روي في الأخبار، ونقله فخر الدين الرازي أن الله تعالى خلقهم من الريح ومنهم من احتج بوجوه عقلية على صحة ذلك (فالأول): أنهم لهذا السبب قدروا على الطيران على أسرع الوجوه. (والثاني): لهذا السبب قدروا على حمل العرش، لأن الريح تقوم بحمل الأشياء. (الثالث): لهذا السبب سموا روحانيين، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور، ولهذا صفت وأخلصت لله تعالى، والأولى أن يُجمع بين القولين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السماوات [1].

نقول: سوف نفصّل القول في خلق أرواحهم من نور وأجسامهم من الريح. بالنسبة لخلق أرواحهم من نور، فهذا يعني أن الله خلق الملائكة من الطاقة، وهذه الطاقة لها أشكال عديدة مثل طاقة الضوء وطاقة الرياح وطاقة الحرارة وطاقة الصوت. ثبت عن رسول الله (ﷺ) من حديث عائشة رضي الله عنها قولها: "خلقت الملائكة من النور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم (يعني من الطين)" خرجه مسلم في صحيحه. هذا الحديث يدلل على أن الملائكة خلقوا من

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص20، 21.

نور يعني من طاقة الضوء وسوف نثبت هذا الموضوع عن طريق تفسير علمي واضح من خلال الأدلة التالية:

الدليل الأول: بالنسبة لطاقة الضوء تتميز بالعديد من الخصائص وهي أن الضوء ينتقل في الفراغ دون الحاجة لوسط مادي لكي ينتقل من خلاله لأن أمواج الضوء أمواج كهرومغناطيسية (تكون الضوء) وليست كيميائية كأمواج الصوت التي تنتقل عبر وسيط مادي، لذلك فإن الملائكة عندما ينزلون من السماء إلى الأرض طبيعة أجسامهم المخلوقة من نور تساعدهم على الانتقال والحركة بكل سهولة لتلبية أوامر الله ومراقبة العباد دون وجود قناة أو ممر مادي لنقلهم من السماء للأرض أو العكس، فهم ليسوا بحاجة إلى مادة أخرى، ومادة خلقهم تكفيهم.

الدليل الثاني: من الصفات الأخرى للضوء وحسب ما أثبته العلماء بأن الضوء ينتقل في الفراغ بسرعة تعادل 10^8X3 م/ث (متر في الثانية) أو 300000 كم. قال أبو بكر "إن الرسول ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة واحدة [1]، ويعتبر ذلك من القدرات الخارقة لحركة الملائكة حيث يمكنهم التنقل بسرعة استجابة لأوامر الله مثل تبليغ الرسالة بسرعة أو إنزال المطر أو إحداث الرعد والبرق ومراقبة وتسجيل أعمال العباد اليومية وقبض الأرواح وغيرها من أعمال تحتاج لسرعة لمح البصر.

الدليل الثالث: من الصفات الأخرى للضوء الشفافية (غير مرئي)، والضوء هنا مقترن بالرؤية، أي من خلال ظاهرة الانعكاس البصري، أما الضوء ذاته لا يمكن رؤيته، ولهذا لا نستطيع رؤية الملائكة في حياتنا اليومية، مثل الملكان عتيد ورقيب المرافقان لكل إنسان منذ

---

[1] القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسدآبادي، تحقيق عبد الكريم عثمان، تثبيت دلائل النبوة، (القاهرة: دار المصطفى للطباعة والنشر، 2006)، ص47.

الولادة حتى الوفاة لقوله تعالى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" {ق: 18}، وبالرغم من ذلك لا نرى هذين الملكين.

الدليل الرابع: الضوء عبارة عن إشعاعات بصرية ولها صفات، إما أن تكون إشعاعات غير مرئية شفافة عديمة اللون أو أن تكون إشعاعات مرئية ولها لون، وهذا دليل على أن الملائكة ذات صفات غير مرئية شفافة عديمة اللون حتى تستطيع تنفيذ مهامها.

أما بالنسبة لخلق أجسامهم من الريح، فنقول إن مادة الريح هي الأوكسجين والنيتروجين، وهاتين المادتين موجودتين في الهواء وبالتحديد في الغلاف الجوي للأرض، والمادتين خلقهما الله، ولذلك فإن الملائكة مخلوقات مادية، لأن المادة تدخل في خلقها، ولكنها أمر من أوامر الله، وأمر الله نافذ وأقدم من خلق المادة، فكما أن الإنسان روح (وهذه الروح تكون حية بوجود الأوكسجين الذي يمثل الحياة لها)، فإن الملائكة روح ونور، ولأجسام الملائكة طاقة مطلقة بسبب خلقها من مادة النيتروجين الذي يحتوي على طاقة هائلة ويُنتج منه المواد المتفجرة، وإن إنتاج النيتروجين السائل يتطلب كمية هائلة من الطاقة لإنتاجه، وهو مكوّن لجميع البروتينات، لكن وجوده في أجسام الملائكة لا يكون إلا على الشكل الذي أوجده الله وخلقها منه. إن النيتروجين فيه قدرة فاعلة لتشغيل وإدارة حركة أجسام الملائكة وجعل طاقتها هائلة وسريعة ومتحركة، وهذا ما يفسر قدراتها الهائلة على القيام بواجبات ذات قيمة وهامة مثل حمل عرش الرحمن والقيام بواجبات غير آدمية (بشرية) مثل الخلق (الإحياء) والإماتة (قبض الروح) والبعث وغير ذلك من المهام الموكلة من الله والتي يأمرها بتنفيذها. ندرك مما سبق ذكره، أن النيتروجين والأوكسجين يدخلان في خلق أجسام الملائكة، وأن الأوكسجين من أبرز المواد الغازية التي تدخل في تركيب التربة/الطين وهي مادة خلق آدم (عليه السلام)، وأن تفاعل غاز الأوكسجين والهيدروجين ينتج لنا الماء وهما من عناصر خلقه، وأن الأوكسجين يدخل في مراحل نمو النباتات، وأن الأوكسجين

هو من أبرز العناصر الموجودة في سطح الأرض، وأن أبرز غازات غلاف الأرض الجوي هما النيتروجين والأوكسجين. بالتالي فإن الاستنتاج يقوم على أن الأوكسجين عامل مشترك في كل كائن حي أو خلق سماوي وأرضي، ومنه الملائكة والبشر والنباتات والحيوانات. ولأن النيتروجين موجود في غلاف الأرض الجوي، فذلك يفسر ظهور أو نزول الملائكة من السماء أو وجودها في هذه البيئة أو الحاضنة الأصلية للنيتروجين كحلقة وصل بين السماء والأرض، أي بين الله ورسله وكافة عباده، ما يعني أن هناك انسجام تام بين مادة خلق أجسام الملائكة والغلاف الجوي الأرضي لإمكانية نزول بعض الملائكة من خلاله إلى الأرض لتنفيذ أمر من أوامر الله، وهناك انسجام تام بين مكونات مادة الماء وهما الهيدروجين والأوكسجين، مع النيتروجين. ومما يدل في القرآن على وجود الملائكة في السماء قوله تعالى: "وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى" {النجم: 26}، وقوله تعالى: "قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً" {الإسراء: 95}. أما الهيدروجين فهو عامل مشترك في خلق الماء، وكذلك هو من أبرز مكونات الشمس، وأيضاً هو من أبرز عناصر الغلاف الخارجي وليس الأرضي. **وهنا يبرز سؤال أيهما يوجد فيه نسبة الهيدروجين أكثر، الماء أم الشمس أم الغلاف الخارجي؟**

نسبة الهيدروجين في الماء، والشمس والغلاف الخارجي

لقد وجد أن أبسط ذرة في الكون هي ذرة الهيدروجين، لأن النواة تحمل بروتوناً واحداً، والمدار الخارجي منه يحتوي على إلكترون

واحد [1]. نقول: إن نسبة الماء إلى نسبة الشمس غير متساوية، وبالتالي فإن نسبة هيدروجين الماء أكبر من نسبة هيدروجين الشمس، لأن نسبة أو وفرة الماء موجودة في الأرض وفي الغلاف الأرضي وفي الفضاء الخارجي وهذه حقيقة، والأهم أن الماء هو أساس خلق السماوات والأرض، حيث أن الله خلق الكون من تفاعل الحرارة مع الماء الذي تولدت عنه طاقة هائلة، ومنها تكونت الشمس والكون وباقي الأجرام السماوية في الفضاء الخارجي، فالماء أقدم من الشمس ومن السماوات والأرض ومن الكون كله، ولأن الله جعل من الماء كل شيء حي ولأن عرشه استوى على الماء كما ورد في الآيات القرآنية، بالتالي كان هيدروجين الماء أولاً وأخيراً، ولأن الماء يحتوي على الأوكسجين، فإن عنصري الهيدروجين والأوكسجين هما الأساس الذي بنى عليه الله كل شيء خلقه، وهما مادتين من صناعة الخالق، وبالتالي هما مادتي الكون والخلق والكائنات الحية أجمعين. **وهنا يبرز سؤال:**

- **هل خُلقت الملائكة قبل خلق الماء أسفل عرش الرحمن (الله) أم بعده؟**

خلق الملائكة قبل أم بعد خلق الماء أسفل عرش الرحمن (الله)

نقول: إن أرواح الملائكة مخلوقة من النور، وأجسامها مخلوقة من مادة النيتروجين، ولذلك يُفترض أن تكون المادة ذاتها وجزئياتها مخلوقة قبل خلق الملائكة، فالنور مخلوق قبل خلق الماء، علماً بأن الماء هو المادة الأبرز المذكورة في القرآن من بين المواد المخلوقة، باعتبار أنها تقع أسفل عرش الرحمن مباشرة لقوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}. نقول إن النيتروجين ليس من العناصر المكونة للماء، لأن الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وبالتالي فإن النيتروجين الذي خلقت منه أجسام الملائكة يفترض فيه

---

[1] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص94.

ثلاثة احتمالات: **الأول:** أن يكون موجوداً قبل مادة الماء، وبالتالي مخلوق كمادة قبل خلق مادة الماء (أي ذرتي الهيدروجين وذرة الأوكسجين) أو أن النيتروجين نتج عن مادة أخرى قبل خلق الماء، وبالتالي فإن الملائكة موجودون قبل خلق الماء وقبل خلق السماوات والأرض. **والثاني:** أن تكون أجسام الملائكة (ومادة النيتروجين) مخلوقة بالتزامن مع عملية خلق مادة الماء (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين)، وهذا مستبعد. **والثالث:** أن تكون أجسام الملائكة (مادة النيتروجين) مخلوقة بعد خلق الماء (ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين) وبعد خلق السماوات والأرض وهذا مستبعد. نقول الاحتمال الأول هو الأكثر ترجيحاً وصحة ودقة لأن أجسام الملائكة مخلوقة من مادة (النيتروجين) قبل خلق الماء أسفل عرش الرحمن، وهم محيطون بالعرش. ونقول إن الاحتمالين الثاني والثالث جائزان من ناحية عملية كأثر فاعل للاحتمال الأول، أي من ناحية اشتراك الملائكة في تنفيذ أمر الله في خلق السماوات والأرض، وبالتالي فهما تابعان للاحتمال الأول، ويدفعان إلى القول بوجود أنواع من الملائكة، أولهم (الاحتمال الثاني) أن يكون بعض الملائكة مخلوقين بالتزامن مع خلق مادة الماء (ذرتي الهيدروجين والأوكسجين) (دون أن تنتج مادة خلق الملائكة عن مادة خلق الماء، أي بالتزامن لتنفيذ أمر من أوامر الله) وهم ملائكة من نوع مخصوص ولهم قدرات فائقة وغير متخيلة في تنفيذ أوامر الله بخلق السماوات والأرض. وبذلك نفهم كيف أن الملائكة وجدت في كل مكان بعد خلق السماوات والأرض. أما الملائكة المخلوقين بعد خلق الماء (الاحتمال الثالث) فيكون ذلك من خلال النيتروجين الموجود في غلاف الأرض الجوي وبالتحديد في طبقة التروبوسفير (Troposphere) بنسبة (78%) والأوكسجين بنسبة (21%)، وهنا نقول: إن هذا النوع من الملائكة هم ملائكة الحياة الدنيوية، أي الموجودون في الحياة الدنيا، وهم أدنى مرتبة من ملائكة الحياة العلوية من حيث التكليف الإلهي، كالملائكة التي تحمل عرش الرحمن مثلاً.

والذي جعل أجسام الملائكة مخلوقة من النيتروجين قبل مادة خلق الماء هو نزولهم من أسفل عرش الرحمن بهدف تنفيذ الأوامر الإلهية في خلق السماوات والأرض، وهذا نوع من الملائكة شداد ولهم قوة غير متخيلة في القدرة على إتمام أمر الخلق، وهم من بين أقرب الخلق إلى الله لعلمهم الأولي بالأوامر التي يلقيها الله إلى خلقه. والذي يجعل بين ملائكة السماوات السبع وبين ملائكة عرش الرحمن وصل دون انقطاع هو خلقهم الكون في ستة أيام من خلال نزولهم لإتمام هذه المهمة.

علاقة مادة أجسام الملائكة (النيتروجين) بالطاقة الناتجة عن (فتق الرتق)

نقول: سوف نسمي عملية إنتاج النيتروجين (مادة أجسام الملائكة وهي مادة الريح) في زمن خلق السماوات والأرض عملية (الهابط الصاعد) وهذه العملية تعتبر بمثابة رحلة الفاعلية أو تفعيل جهد الملائكة خلال وبعد وقوع الانفجار الكوني العظيم، لأن عرش الرحمن (الله) كان فوق الماء لقوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" {هود: 7}، وكانت هذه الملائكة تحمل هذا العرش أو تحيط به لقوله تعالى: "والمَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" {الحاقة: 17} وقوله تعالى: "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" {الزمر: 75}. إذا فهمنا الوصف الإلهي لمكان عرشه بأنه "على الماء" وأن الملائكة "حافين من حول العرش" فسوف ندرك بأن موقع الملائكة يقع أعلى من الماء لأنهم موجودون حول العرش أو على حوافه، والعرش أعلى من الماء، ما يعني أن علاقة الملائكة مع الماء هي علاقة إحاطة بالماء. بالتالي نستنتج أن وجود الملائكة أقدم من وجود مادة الماء المكونة من (ذرتي الهيدروجين وذرة الأوكسجين)،

ما يعني أن مادة النيتروجين موجودة قبل وجود مادة الماء. بشكل تفصيلي، عندما أعطى الله الأمر للملائكة بخلق السماوات والأرض، فإن الملائكة أخذوا الأمر إلى الماء لتنفيذ المهمة، فحدث اتحاد بين (ذرات الهيدروجين وذرات الأوكسجين) ونتج عن هذا الاتحاد تفاعل حاد أدى إلى الانفجار الكوني، فلحقت الملائكة بالانفجار لتثبيت ميزان عناصر المادة في السماء والأرض، فكانت مادة خلق أجسام الملائكة وهي النيتروجين موجودة في كل مكان في السماوات والأرض ومستقرة في غلاف الأرض الجوي وكذلك الملائكة. بالتالي فإن عملية (الهابط الصاعد) تعني أن الملائكة الذين تلقوا أوامر خلق السماوات والأرض هم الهابطين بمكون مادة أجسامهم (وهي النيتروجين) والصاعدين الثابتين هم الملائكة الثمانية (حملة عرش الرحمن) الذين شهدوا مهمة خلق السماوات والأرض، وهؤلاء هم أنفسهم الذين صعدوا إلى عرش الرحمن (الله) لحمله بعد استواءه، وعلى إثر الصعود ذكرت جملة "استوى على العرش" في إشارة إلى أن الله انتهى من مهمة خلق السماوات والأرض التي لم يشهدها أحد لقوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم" {الكهف: 51}. ومن جملة ما قاله الله في الاستواء أنه "استوى إلى السماء" في قوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم" {البقرة: 29} فإن هذا الاستواء إلى السماء يختلف عن الاستواء عن العرش، لكن الاثنين من خصوصية الله وحده، لأن الاستواء إلى السماء نرجح المقصود به استواء ملائكة الله إلى السماء، وهذه المسألة سميناها "استواء التوكيل" بلغة الأمر أي أن الله أوكل ملائكته بالاستواء إلى السماء من أجل القيام بمهمات إلهية وتنفيذ أوامره في السماوات والأرض. وقد سبق أن شرحنا الفرق بين قوله تعالى: "استوى إلى السماء" {البقرة: 29} وقوله تعالى في ست آيات:

"استوى على العرش" {السجدة: 4}. {انظر الفصل الثاني، ص234}.

هنا نطرح أربعة أسئلة هامة كما يلي:

أولاً: ماذا عن مادة الخالق، أي هل الله مخلوق من المادة؟

ثانياً: ما هي علاقة الطاقة بالضوء أو بمعنى آخر، كيف تنتج الطاقة الضوء وتتحكم به؟

ثالثاً: ما هي علاقة إنتاج طاقة التفاعل للضوء بالحركة؟

رابعاً: ما صلة هذه العلاقة بنشأة الكون وعلاقتها بالخالق؟

مادة الخالق (هل الله مخلوق من المادة؟)

نقول: إننا ننكر إنكاراً تاماً ومطلقاً أن يكون الله مخلوقاً من المادة أو الطاقة التي تتضمن الحرارة أو أن يكون كتلة أو حجماً أو كثافة أو روحاً أو شيئاً مادياً محسوساً أو ملموساً؛ لأن المادة والطاقة من أوامره التي خلق منها الملائكة والسماوات والأرض والكائنات الحية بأنواعها (الجن والإنس)، وقلنا إن الحرارة التي تولد الطاقة هي بأمر الله، وبالتالي فإن الله لا يتساوى مع أمر من أوامره، أي لا يتساوى مع الطاقة التي أوجدها، وإذا كانت الطاقة بأمر الله، فهذا يعني أن الله ليس مخلوقاً من الحرارة أو الطاقة. وإذا قلنا إن الله ليس طاقة ولا مادة، فهذا يعني أن الله هو الوحيد الذي يملك الحق المطلق بأمر خلق المادة والطاقة، وإدارتهما في الكون وهو القائل سبحانه وتعالى: "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" {الأنعام: 59}. ويقول تعالى: "إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء" {آل عمران: 5}. بالتالي قبل نشأة الكون لم يكن هناك مكان ولا زمان ولا مادة ولا طاقة، ولكن على وجه الدقة نقول: كان هناك خالق للمادة والطاقة وقادر على إيجادها

في الكون. فخلق المادة والطاقة كان من العدم، وإن الله هو خالقها من العدم، وعلى ذلك فإن الله ليس عدماً، وهو أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، وهو ليس مسبوقاً بالعدم، وقبل خلق المادة يوجد نظام إلهي لا يحيط به العلم ولا يعرف عنه شيء سوى الله لقوله تعالى: "وفوق كل ذي علم عليم" {يوسف: 76} والعليم هو الله. بالتالي فإننا ننكر على من يقول إن الله طاقة أو يتساوى مع الطاقة، بل إنه ليس طاقة ولا حتى ماء، ما يعني أنه يرفع عنه صفة المادة، وتختلف صفات الخالق عن صفات المخلوق.

علاقة الطاقة بالضوء (كيف تنتج الطاقة الضوء وتتحكم به؟)

نقول: إن الطاقة التي تنتج الضوء تتسبب في إثارة إلكترونات الذرة على الانتقال لمستوى طاقة أعلى من المستوى الأصلي الموجودة فيه (وضع غير مستقر) ولكن بعد فترة معينة وانتهاء تأثير الطاقة تعود الالكترونات إلى مستويات الطاقة الأصلية (وضع مستقر)، وعند عودتها ينتج عنها ضوء يُطلق من هذه الذرات. هنا نقول إن النور أو الضوء كان موجوداً قبل وجود الماء، وهو الذي يقع أسفل عرش الرحمن ومنه خلقت أرواح الملائكة الثمانية التي تحمل عرش الرحمن، وهنا مسألتين:

الأولى: أن تكون مادة خلق أرواح الملائكة وهي النور هي التي سببت الطاقة التفاعلية الحركية لذرات الماء (الهيدروجين والأوكسجين) وبالتالي يكون الملائكة مسؤولون بأمر من الله عن خلق الماء وبالتالي التسبب بالانفجار الكوني أو ما يعرف باسم (Big Bang).

الثاني: أن تكون هناك طاقة ضوئية (إشعاع مثلاً) موجودة أسفل عرش الرحمن، غير الطاقة النورانية للملائكة، وهي التي قامت

بتحفيز تصادم ذرات الماء (الهيدروجين والأوكسجين) وتسببت بخلق الماء من خلال عملية الانفجار الكوني.

هذا الأمر يثبت لنا علاقة الطاقة وتفاعلاتها بتكوين المادة. ولذلك وصل آينشتاين إلى طرح نظرية النسبية الخاصة عام 1905م، والنسبية العامة عام 1916، وفيها وصل إلى توحيد الطاقة بالمادة، عبر المعادلة المشهورة (الطاقة = الكتلة المتحولة مضروبة في مربع سرعة الضوء التي تبلغ 200 ألف كيلومتر في الثانية الواحدة [1].

علاقة إنتاج الطاقة للضوء بالحركة

نقول: إن علاقة الطاقة بالمادة هي علاقة تحفيزية، حيث أن الطاقة تُكسب المواد صفة الحركة التي من خلالها يحدث التفاعل. بالتالي فإن الطاقة أسبق من الحركة لما في الطاقة قدرة على التوجيه، وهذا ما يفسر لنا كيف أن تمرير الماء المتكوّن من اتحاد الذرتين عبر دولاب متحرك أو توربين سريان الماء ينتج عنه طاقة حركة، والتي يمكن تحويلها إلى الطاقة الكهربائية، وهكذا نحصل على الكهرباء من صفة جريان الماء. فالأصل هو طاقة الحركة التي تكون بسرعة معينة، ثم التفاعل، ثم الحدث وهو الانفجار (فتق الرتق) في حالة تكون الكون. وهذا التلاحم كله حدث في أجزاء من الثانية، لكن وفق تقديرات إلهية منضبطة ودقيقة ومنتظمة وليس فيها عشوائية، وهذا ما تم تأكيده لاحقاً في القرآن لقوله تعالى: "والشمس والقمر بحسبان" {الرحمن: 5} وقوله تعالى: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" {يس: 40}. بالإضافة إلى ما سبق، نقول: إن ثمة علاقة بين الخالق وبين المادة من ناحية ما هو موجود بينهما، وأهم ما يوجد بينهما هو العقل والمُثل. في هذا السياق نقل

---

[1] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج1، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص75.

مهتدي الأبيض عن ملا صدرا الشيرازي في كتابه "الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة العقلية" ما ذكره عن علاقة الله بخلقه من خلال الأسفار الأربعة وهي: أولاً: من الخلق إلى الحق: بمعنى أن الإنسان عليه بالسفر من عالم المادة والكثرة إلى معرفة الله، حيث إن المبدأ هو عالم المادة، والمنتهى هو الوحدة والفناء في ذات الله. والسفر هنا بمعني سفر معنوي يأتي من خلال المعرفة والعبادة والسلوك [1]. نقول: إن الذي يجعل السفر من عالم المادة إلى عالم معرفة الله أمراً حقاً وأصيلاً وواجباً أخلاقياً هو إدراك أن أمر الفناء والإحياء بيده وأن كل سفر معنوي أخلاقي روحاني غير شهوي وغير قذر سوف ينتهي حتماً إلى حوض الله الروحي، وحوضه هي جنات الفردوس الأعلى التي يتحقق فيها كمال الإنسان في روحه وليس في بدنه، فيصبح غذاء روحه مزيداً من الأرواح المشابهة له. بناءً على ما سبق قسّمت هذه العوالم وفق تعريفات: **فالأول: عالم الربوبية:** وهو عالم واجب الوجود ويشتمل على جميع الحقائق والكماليات الوجودية على وجه أتم وأشرف، وبنحو الوحدة والبساطة، وهذا العالم هو الله مصدر كل المخلوقات ومنها الإنسان. **والثاني: عالم العقل:** وهو عالم الصادر الأول وأول موجودات عالم الإمكان وأعلى مراتب الوجود الإسكاني وأقربها من الواجب تعالى، وهذا العقل مجرد عن المادة. **والثالث: عالم المُثل:** وهو العالم الثاني بعد عالم العقل من الموجودات الممكنة، مجرد عن المادة لكنه مجرد من المادة، لأن هذا العالم هو الوسيط بين عالم العقل وعالم المادة. **والرابع: عالم المادة:** وهو عالمنا المحسوس، وهو أدنى العوالم الإمكانية وآخرها مرتبة ووجوداً، ويتميز عن عالم العقل والمثال وتعلقه بالمادة ذاتاً وفعلاً وآثاراً، والمادة هي محض القوة والاستعداد [2]. وهناك عوالم أربعة أخرى حسب الفكر العرفاني أو

---

[1] مهتدي الأبيض، اجتماعية التدين الشعبي، دراسة تأويلية للطقوس العاشورائية، ط1، (بيروت: الرافدين، 2017)، ص41.

[2] المصدر السابق، ص38، 39.

الصوفي هي: اللاهوت، الجبروت، الملكوت، عالم المثل (ويضيف ابن عربي وآخرون إلى هذه العوالم عالم الحس أو الناسوت ويصبح بذلك خمسة عوالم) [1]. نوافق التقسيم الأول للعوالم الأربعة (الربوبية والعقل والمُثل والمادة)، لكننا نقول إن هناك عالم آخر يضاف إليها، وهو "عالم الإحيائية"، وهذا عالم مخصوص ويشكل حالة متفردة في القرآن، وهو عالم له زمن وله خصائص تنسجم مع العوالم الأربعة وله صلة وثيقة بها، لكنه على وجه التحديد يقع فوق المادة أو بين المادة وعالم الربوبية، وبين عالم الربوبية والعقل، وبهذا العالم الإحيائي أوجدت الحياة وكل ما فيها من خلق السماوات والأرض وإحياء الكائنات الحية، وأهمها نوع بني آدم (عليه السلام) والنباتات والحيوانات، وهذا العالم له زمن تماماً مثل خلق الإنسان ومن ضمنه العقل، ونقول إن "العالم الإحيائي" يقع بين خلق الكون أو الانفجار العظيم (فتق الرتق) وخلق آدم (عليه السلام). أما "عالم المُثل" فإنه يتطابق أو يوازي عالماً آخر وهو "عالم القيم الأخلاقية" وهذا العالم تمثله الضوابط والأحكام الشرعية الموجودة في القرآن والسنة. أما بالنسبة "لعالم المادة" فإنه آخر العوالم من حيث المرتبة، لكنه أيضاً أول وآخر العوالم من حيث وجوده، لأنه أول عالم أوجده الله قبل خلق الكون والكائنات الحية، وآخر ما يفنى في الوجود بعد فناء الكون والإنسان.

نسأل هنا سؤالين كما يلي:

السؤال الأول: مما يتكون الغلاف الذري الالكتروني؟ وما علاقته بالضوء؟

السؤال الثاني: لماذا نقول إن الضوء عبارة عن أمواج كهرومغناطيسية؟

---

[1] جون كولون، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، العدد 99، 1995، ص58.

مكونات الغلاف الذري الإلكتروني وعلاقته بالضوء

الغلاف الذري الإلكتروني يعرف بمستويات الطاقة وهو جزء من مكونات أو أجزاء الذرة، ويحيط حول النواة، وتدور فيه الإلكترونات التي تحمل الشحنة السالبة ودائماً عندما تكون الذرة متعادلة كهربائياً تتساوى عدد الإلكترونات السالبة التي تدور في غلاف الطاقة الذري مع عدد البروتونات الموجبة الموجودة في النواة. ويمثل عدد الإلكترونات العدد الذري لكل ذرة. أما علاقة الغلاف الذري الإلكتروني بالضوء، فنقول: إن بعض الإلكترونات الموجودة في الغلاف الذري الإلكتروني (مستويات الطاقة) يحدث لها عملية تحرر، أي تنتقل من الغلاف الذري الموجودة فيه إلى غلاف ذري آخر، سواء كان أكبر منها في الطاقة أو أقل منها في الطاقة لأن لكل غلاف ذري طاقة معينة تختلف عن الغلاف الآخر أو الأغلفة الأخرى. عند امتصاص الإلكترون لكمية معينة من الطاقة، يتأثر بفعل الحرارة (التسخين)، فهذا يحفز الإلكترون على أن يقفز إلى مستوى طاقة أو غلاف ذري أعلى منه بالطاقة، حيث لا يستطيع الإلكترون البقاء في نفس مستواه، وهذه العملية تسمى بعملية (إثارة الإلكترون). بقاء الإلكترون في مستوى طاقة أعلى من مستواه لا يدوم فيعود الإلكترون إلى مستواه الطبيعي (المستوى الأصلي الذي كان فيه) فينشأ عن عودة الإلكترون ضوء، والضوء يتكون من جسيمات، تسمى الفوتونات ويكون على شكل أمواج كهرومغناطيسية، وهذه الجسيمات (الفوتونات) والأمواج الكهرومغناطيسية تحمل كمية محددة من الطاقة، ما يعني أن كل عودة للضوء هي على شكل أمواج كهرومغناطيسية، فالضوء عبارة عن أمواج كهرومغناطيسية، (يعني تنتقل في الفراغ دون الحاجة إلى وسط مادي كي تنتقل فيه، كالوسط الغازي مثل الهواء الجوي، والوسط الصلب مثل الحديد أو المعادن، والوسط السائل مثل الماء، أو مثل وصول أشعة الشمس إلى الأرض

رغم المسافة الكبيرة بين كوكب الأرض والشمس). والضوء له سرعة وتردد، وهي أقصى سرعة تستطيع أن تسافر بها كل أشكال الطاقة أو المادة في الفراغ، وهي تعادل 10^8X3 م/ث (متر في الثانية) أو 300000 كم في الثانية تقريباً أو حوالي مليار كم في الساعة، وهو ثابت أساسي في الكون. أما الصوت فيعتبر أمواج ميكانيكية لا ينتقل في الفراغ، بل يحتاج إلى وسط مادي كي ينتقل فيه، فلا نستطيع سماع صوت شخص في دولة أخرى فتتصف صفات أمواج الصوت بأنها أمواج تتكون من جسيمات. ينشأ الضوء من اختلاف مقدار الطاقة بين أغلفة الطاقة الذرية وأيضاً لون الضوء يختلف حسب نوع الذرة، وهذا يعني أن كل ذرة لها لون تهيج مختلف عن الذرات الأخرى (والتهيج يعني أن إلكترون الذرة أثير نتيجة امتصاص طاقة فانتقل إلى مستوى ذري أعلى من طاقة مستواه) أي أن الفوتونات تنشأ عن عودة الإلكترونات من مستويات الطاقة العليا إلى مستوياتها الأصلية، علماً بأن الفوتون المنبعث وهو الضوء يتحرك بمجرد انتقاله بسرعة 300 مليون متر في الثانية وسرعته ثابتة لا تتغير. بالتالي نستنتج بأن الطاقة التي أنتجت الضوء هي متولدة عن عودة الإلكترون إلى مستوى الطاقة الأصلي في الغلاف الذري الإلكتروني. كما أن الطاقة التي نتجت عن تصادم ذرات الماء، ومنها الهيدروجين والأوكسجين كانت متولدة من تفاعل إلكترون مع إلكترون آخر. كما أن أشعة غاما تقدر طاقتها بمليون إلكترون، ما يعني أن الإلكترونات أصل في التفاعلات الكيميائية.

وهنا يبرز لدينا عدد من الأسئلة كما يلي:

- **السؤال الأول: ما هي أنواع الإلكترونات من حيث الحركة؟**
- **السؤال الثاني: ما هو الفرق بين الإلكترون الحر المغلق (محدود) مسار الحركة، والإلكترون الحر المفتوح مسار الحركة؟**
- **السؤال الثالث: ما هي حالات سقوط الإلكترون؟ وهل يمكن أن يسبب الفناء؟**

أنواع الإلكترونات من حيث الحركة

إذا أخذنا مثال على عنصر الهيدروجين، فهو يعتبر أول الذرات وجوداً وأبسط وأصغر الذرات، فهو يتكون من إلكترون واحد وبروتون واحد، سوف نلاحظ أن غالبية مصادر الضوء، مثل الشمس والنجوم والقمر وغيرها تحتوي على هذا العنصر (الهيدروجين)، وبالتالي فإن مصادر الطاقة فيها بلايين الإلكترونات والبروتونات، وذلك يفسر دخول إلكترون عنصر الهيدروجين، وهو من ذرات جزيء الماء في ظروف حدوث الانفجار الكوني الذي نتج عنه خلق الكون، **كيف ذلك؟**

نقول: الثابت أن نواة الهيدروجين تحتوي داخلها على بروتون واحد فقط، وهي تقع في قلب الذرة، ويدور حول نواة الهيدروجين إلكترون واحد في مستوى الطاقة الأول ولديه إمكانية للتنقل عبر مستويات الطاقة الأعلى عند تعرضه لحرارة أو طاقة ممتصة من الخارج تمكنه من الانتقال لهذه المستويات. إن وجود الإلكترون بشكل حر مجرد في الهواء الجوي أو على سطح الأرض (يعني خارج مكونات الذرة أو دون أن يدور في مستويات الطاقة الذرية) مثل وجود الإلكترونات بشكل حر في السُحب والغيوم أو في طبقات الغلاف الجوي سوف يُكون سيل من الإلكترونات الحرة سالبة الشحنة التي سوف تتفاعل مع جسم الإنسان والحيوان وتؤدي به إلى حدوث صعقات أو صدمات كهربائية مثل البرق والرعد وسوف تؤدي إلى هلاكه أو هلاك الحياة على سطح الأرض. على سبيل المثال: الأسلاك الكهربائية تتكون من ذرات معادن يسري من خلالها الإلكترونات، فإذا لمس الإنسان سلكاً كهربائياً معزولاً فإنه لا يؤذيه، لكن إذا لامس الإنسان سلكاً كهربائياً مكشوفاً فسوف تنتقل الإلكترونات الحرة في هذا السلك إلى جسم الإنسان، وتصيبه بصدمة كهربائية تؤدي إلى

وفاته أو حدوث اضطراب فيه أو عندما تصيب الأرض عاصفة رعدية وتضرب السماء الأرض بالبرق فهذا من مظاهر انتقال الإلكترونات خارج الغلاف الذري. ولذلك فإن التيار الكهربائي يعتبر سيل من الإلكترونات الحرة التي تدور في مسار مغلق. بالتالي فإن وجود الإلكترونات داخل مستويات الطاقة في الذرة أكثر أماناً من وجود الإلكترونات حرة بعيدة عن مسارات الطاقة.

الفرق بين الإلكترون (الحر المغلق) و (الحر المفتوح) مسار الحركة

سوف نفترض أنه قبل وجود الكون أو قبل خلقه (أو ما يسمى بالانفجار العظيم "فتق الرتق") كان هناك إلكترون حر واحد موجود، يعني من دون وجود إلكترونات أخرى تدفع أو تسبب سيلاً يؤدي إلى حدوث الانفجار لتشكيل الكون. هذا الإلكترون عبارة عن جسيم سالب الشحنة. وعموماً هذا الأمر يثبت لنا افتراض علمي جديد **وهو أن هناك إلكترون حر مغلق (محدود مسار الحركة)، وإلكترون حر (مفتوح مسار الحركة). بالنسبة للإلكترون الحر مغلق (محدود مسار الحركة)، فإنه يدور في مسار مغلق (بدايته هي نهايته). مثال: عندما يدور جسم كروي حول مركزه بزاوية مقدارها 360 درجة (يعني تكون نقطة بدايته هي نقطة نهايته). بالنسبة للإلكترون الحر (مفتوح مسار الحركة)، فتكون بداية الإلكترون معروفة، ولكن نهايته غير معروفة أو لا تكون بدايته أو نهايته معروفة. بالنسبة للنوع الأول من الإلكترون حر (مغلق مسار الحركة) يعتبر إلكترون منتظم الحركة. أما النوع الثاني من الإلكترون الحر (مفتوح مسار الحركة) يعتبر إلكترون عشوائي الحركة. بالنسبة للإلكترون الحر مفتوح مسار الحركة فهو الإلكترون الذي يعتبر عشوائياً، فهو الذي أحدث التغييرات الكونية وخلق الكون (أو ما يعرف بالانفجار العظيم**

والتسمية القرآنية "فتق الرتق"). وعموماً، يظل الإلكترون سالب الشحنة سواء كان في مسار الإلكترون الحر مغلق مسار الحركة، أو مسار الإلكترون الحر مفتوح مسار الحركة. إن الإلكترون يمكن أن يسقط، وسقوطه يمكن أن يؤدي إلى تغيرات كارثية، ومنها إنتاج كميات كبيرة وهائلة من الطاقة.

حالات سقوط الإلكترون والتسبب بالفناء

يحدث سقوط الإلكترون في حالتين:

الحالة الأولى: عندما يكون الإلكترون الحر مفتوح مسار الحركة ويكون في هذه الحالة عشوائي الحركة، وهذه العشوائية تؤدي إلى احتمالية اصطدام هذا الإلكترون بجسيم، وهذا ممكن مع البوزيترون، وهو جُسيم أولي لا يدخل في تكوين المادة، وهو على عكس الحركة العشوائية للإلكترون لا يوجد حراً طليقاً، بل يكون ثابتاً، ولذلك يعتبر نقيضاً أو مضاداً للإلكترون. عند اصطدام البوزيترون بالإلكترون فإنه يتم إبادة الإلكترون وجسيم البوزيترون، أي يتحولان إلى شعاعين من أشعة غاما.

الحالة الثانية: عندما يكون الإلكترون داخل الذرة، فإن مساره يكون معروفاً، فإذا سقط الإلكترون داخل النواة يحدث خلل، وبالتالي تفنى الذرة. وإن الذي يضبط العلاقة بين الإلكترونات والنواة هو سعة المدارات التي تختلف حسب قربها وبعدها عن النواة، فكلما كانت مستويات الطاقة قريبة من النواة كلما كان استيعابها من الإلكترونات أقل، وكلما كانت بعيدة عن النواة فإنها تستوعب إلكترونات أكثر. لأن مستويات الطاقة القريبة من النواة يكون حجمها أصغر وطاقتها أقل، مقارنة بمستويات الطاقة البعيدة عن النواة التي يكون حجمها أكبر وطاقتها أعلى. بمعنى آخر فإن مستويات الطاقة القريبة من النواة والتي يكون حجمها أصغر وطاقتها أقل يكون استيعابها من

الإلكترونات أقل، على حين مستويات الطاقة البعيدة عن النواة التي يكون حجمها أكبر وطاقتها أعلى تستوعب إلكترونات أكثر. عموماً، إن سقوط الإلكترون داخل النواة وفناء الذرة يتنافى مع قانون ثباتية الذرة، حيث لا توجد احتمالية لسقوط الإلكترون داخل النواة. (وهذا ناتج عن اختبارات لاكتشاف مكونات الذرة أو الجسيمات المكونة للنواة وما يدور حولها، ومنها تجربة نقطة الزيت أو تجربة روبرت ميليكان، وتجربة صفيحة الذهب رذرفورد أو تجربه رقاقة الذهب أو تجربة جيجر ومارسيديان وتجربة بور)، حيث إنه يرجع ثبات الذرة إلى وقوع الالكترونات تحت تأثير قوتين متضادتين في الاتجاه متساويتين في المقدار هما قوة جذب النواة للإلكترونات وقوة الطرد المركزي الناشئة عن دوران الالكترونات حول النواة، علما بأن رتبة مستوى الطاقة الذي تدور فيه الإلكترونات حول النواة هي واحد وليس صفراً. هذا يعني أن الطاقة ليست موجودة في أي مادة على شكل أو رتبة صفر، وهذا يدل على أن المادة شيء، وأن الشيء له أصل وخالق، وهذا يدل على أن الخالق ليس شيئاً، وأن بيده "الجعل" لأنه قال في الآية "وجعلنا" والجعل خلق، ولأن الله وصف كل كائن حي مادي أو غير مادي خلقه بـ "الشيء" فإن الله أعلى وأسمى من "الشيء"، وقد عبّر عن ذلك في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع العليم" {الشورى: 11}، أي لا يتساوى مع أي شيء متخيل في الهيولي أو في العقل. ولأن مستوى الطاقة واحد، ولا يوجد أي مادة على شكل أو رتبة صفر، فإن الطاقة معدودة، ولذلك فإن الله ليس طاقة لأنه ليس معدوداً، فلا يكون صفراً، لأن الصفر شيء معدود، وليس أعلى من الطاقة فلا يكون اثنان، والاثنان شيء، والله لا ثاني ولا ثالث، ولا شريك له لقوله تعالى: "لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك" {الإسراء: 111} وتكررت نفس الجملة في سورة {الفرقان: 2}. كما أنه ليس واحداً لأن واحد مفتتح العدد، والله ليس عدداً، لأنه لا يُعد ولا يُحصى، ولو قلنا إن القرآن جاء على ذكر كلمة

"واحد" في وصف الإله في كثير من الآيات كقوله تعالى: "إلهكم إله واحد" {الكهف: 110}. وكذلك قوله إنه "أحد" في قوله تعالى: "قل هو الله أحد" {الصمد: 1} نقول إن "واحد" أي ليس كمثله شيء في التثنية، و "أحد" يعني أنه منقطع العدد، فأحد ليس له ثان. كما أن نفي المادة والطاقة عن الله ينفي عنه ما دونهما. بالتالي فإن الله لا يفتقر إلى المادة أو الطاقة ولا إلى القدرة، ولأن الله خالق الأشياء، فلا يكون محتاجاً إلى شيء، فكان لا بد من تمييز الإرادة والقدرة عن الخلق بكافة أنواعه. وقيل: إن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته، فكل مركب فهو ممكن لذاته، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهاد، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء، لأنه مع محله لا يكون أحداً، ولا يكون أحداً، ولا يكون محلاً لشيء، لأنه مع حاله لا يكون أحداً، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجب الوجود لاشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة فكل واحد منهما مركب، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً [1]. نقول: إن الذرة ممكن أن تكون سلاح لهلاك البشرية من خلال زيادة أعداد المفاعلات النووية من خلال اتخاذ قرار بشري يكون ناتج عن فساد مادي وأخلاقي في الكرة الأرضية بأن الفناء البشري ممكن وهو

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص180.

مادي، لكن ذلك صعب إلى حد بعيد وذلك لأسباب أخلاقية آدمية وربانية ليس أقلها قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون" {البقرة: 30}، علماً بأن هذا الأمر يؤكد أن مسألة خلق الكون لم تحدث مصادفة. وهناك فرق بين شيئين: بين خلق الشيء، وترتيب الشيء أو تركيبه، حيث إن فكرة المصادفة لا يمكننا أن ندخلها البحث الأول؛ لأن خلق الوجود لا تحكمه قانون المصادفة بحال من الأحوال، وأما تركيب الأشياء فقد يبقى موضع بحث. كما أن حركة الشيء لا يمكن أن ترد إلى المصادفة [1]. بالتالي فإن حركة الأشياء وخلق الوجود لا تحكمها قوانين المصادفة لأنها قائمة على ميزان عدل إلهي شرعي، حيث يستحيل أن يكون ميزان خلق الكون ميزاناً عشوائياً أو غير منتظماً. **رغم كل ما سبق شرحه إلا أننا لم نفهم الحيز أو العلاقة بين أول خلق للمادة أو ماهية المادة الأولى وتكوينها ووجودها في الكون مع وجود الخالق. السؤال هنا: ما هو أول عنصر مادي وجد وتسبب بخلق الكون (فتق الرتق)؟**

أول عنصر مادي وجد في الكون وتسبب بخلق الكون (فتق الرتق)

نقول: إن الآية القرآنية التي نبني عليها حجتنا، وهي آية تأسيسية في فهم كل نظام المادة الأولى لخلق الكون، هي قوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" {هود: 7}، وقد سبق أن شرحنا هذه الآية في موضوع الماء {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص210}. ما يهم

[1] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ج1، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص61.

في هذه الآية هو الجانب المادي المتعلق بتكوين الماء وعناصره، بالإضافة إلى المادة التي وجدت قبله، **ونسأل هنا:**

هل خُلق الكون (فتق الرتق) بالتزامن مع توقيت خلق الماء؟ أم أن الماء كان موجوداً وخُلق الكون من عناصر الماء ثم استوى عرش الرحمن عليه؟

تزامن خلق الكون (فتق الرتق) مع خلق الماء

نقول: إن الآية سابقة الذكر {هود: 7} توضح مكان وجود الله، أي تربط مكانياً بين وجود الله ووجود ماء لقوله تعالى: "وكان عرشه على الماء"، بالتالي فإن الآية تضع قواعد واقعية منطقية للميثاق الشرعي الإلهي مع الماء باعتبار أن الله خالقه. إن العرش موجود قبل خلق الماء، وإن خلق عناصر الماء (المادة) متحقق قبل خلق السماوات والأرض، وخلق الماء متحقق بالتزامن مع خلق السماوات والأرض لأن الله تعالى قال: "كانت السماوات والأرض رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي.." {الأنبياء: 30}، وهذا يعني أن الماء خلق مع عملية فتق الرتق للسماوات والأرض لأنه قال في وصف تأثير الماء "وجعلنا" أي وخلقنا منه كل شيء حي، فكان الماء مخلوقاً بعد فتق السماوات والأرض، لكن الماء لم يُخلق قبل العرش، وإذا قيل العرش مكان، قلنا العرش توصيف لعلاقة الله مع ما يفصل بين الخالق وكل ما خلقه، ومنه الماء. ولذلك فإن كل ما نعرفه علمياً وشرعياً إنما هو ناتج عن فهمنا لآيات القرآن حول خلق الماء والسماوات والأرض وما بعدهما من استواء إلهي. **السؤال هنا: لماذا نقول "الخلق وفتق الرتق" ولا نقول "الانفجار العظيم"؟**

(الانفجار العظيم) أم (الخلق وفتق الرتق)

نقول إن "الانفجار العظيم" (Big Bang) نظرية صحيحة لا شك فيها لكن اسمها وتوصيفها غير راسخ أو مأصول، فهي ليست نظرية تماماً، بل هو أمر الله، وأمر الله ليس نظرية تماماً، بل حق وحقيقة لأنه أسمى من البرهان، والواقع الحق والحقيقي لا يمكن أن يكون نظرية ولا يتطلب برهاناً، ولأنه أمر الله وقرآنه، والقرآن ليس نظرية بل كتاب سماوي ديني يشتمل على كل شيء ومنه ما هو علمي. وعموماً فإن النظرية في المفهوم العلمي طبقاً لتعريف (الأكاديمية القومية الأمريكية للعلوم) هي: "تفسير موثق بصورة جيدة لبعض جوانب العالم الطبيعي من الممكن أن يضم حقائق، وقوانين، واستدلالات، وفرضيات مختبرة" [1]. كما أن النظرة العلمية للنظرية شديدة السطحية من خلال تسميتها بالانفجار، وكأنه انفجار أرضي، وأما وصفه بالعظيم فهو استخفاف بقدرة الخالق على خلق هذا النظام الكوني الدقيق الذي لا تستطيع قوة إنتاج جزء من نظامه، علماً بأن هذه التسمية "أي الانفجار العظيم" صاغها عالم الفلك الإنجليزي فريد هويل عام 1949، وقيل إنه أطلق الاسم على نحو ساخر في حوار إعلامي عبر بي بي سي". في حين أن فرضية النظرية قدمها الكاهن الكاثوليكي والعالم البلجيكي جورج لومتر عام 1927 وسماها من قبل "افتراض الذرة الأولى" [2]. وكذلك فإن التسمية الأولى لجورج لومتر ليست دقيقة لأن الافتراض الأولي لنشأة الكون ليس قائماً على الذرة، بل على عناصر الجسيمات الذرية وأهمها الإلكترونات. نقول: إن "خلق المادة" أسبق من "الانفجار" والانفجار نتيجة حتمية لخلق مادة إضافية، لأن خلقها كان قبل وقوع الانفجار، وبالتالي يسمى خلقاً متبوعاً بعملية "هندسة الكون"، ولا نقول انفجار عظيم لأن الانفجار يكون عشوائياً وليس له ضوابط، بل يكون له عواقب وخيمة. وأما

---

[1] سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016)، ص99، 100.

[2] http://www.pbs.org/wgbh/aso/databank/entries/dp27bi.html

قولنا "هندسة الكون" فذلك لأن الله أبرز في القرآن آيات دالة على توازن هذه الهندسة في مسألة تعاقب الشمس والقمر على سبيل المثال لا الحصر كما في قوله تعالى: "والشمس والقمر بحسبان" {الرحمن: 5}. وقوله تعالى: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" {يس: 40}. أما "فتق الرتق" فهو تعبير قرآني استخدم للإشارة إلى عملية الفصل بين السماوات والأرض. نقول: إن الفتق تعبير عن الفتح أولاً والانفراج ثانياً متبوعاً بالسيطرة والإحياء الإلهي للسماوات والأرض من خلال إنزال المطر وإنبات النبات وغير ذلك. ورغم كل ما تقدم من إيضاح بشأن الكون وما توصل إليه العلم، إلا أن الحقيقة المطلقة والنهائية تظل في يد خالق هذا الكون، ويظل العلم البشري نسبي، لكن فيه دليل قاطع على كل تصنيفات المادة وفروعها وتفاصيلها الدقيقة هي أقل بكثير من قوة الخالق "الله"، وعموماً إن الاستدلال أو إثبات كيفية حدوث الانفجار العظيم "فتق الرتق" تظل مسألة نسبية وغير مشهودة من البشر لقوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم.."{الكهف: 51}. وهذا يعني أن عدم شهادة الإنسان لخلق الكون هو بمثابة تأكيد على عدم وجود بشر سابقين ومنهم آدم (عليه السلام) شاهدين على كيفية حدوث خلق الكون إلا ما توفر من معلومات كلها قرآنية أو مادية نسبية على آلية الخلق. كما أن آدم (عليه السلام) لم يشهد على نفسه كيف خلقه الله، ما يدل على أن الله ليس له شريك حتى في مجرد النظر أو مراقبة كيفية الخلق، وهذا يدل على مطلق وحدانية الله ومسؤوليته عن الخلق. أما من ناحية علمية فقد ثبتت بالبراهين وصُدقت نظرية الانفجار العظيم عند عدد كثير من العلماء، وعرض عالم الفيزياء الفلكية الكندي/الأمريكي (هيو روس) (Hugh Ross) ثلاثين دليلاً علمياً على حدوث (الانفجار العظيم) الذي انبثق منه المكان والزمان، وقد لخصها سامي عامري في كتابه "فمن خلق

الله؟" [1]. ولتأكيد نظرية الانفجار العظيم وأدلتها يقول (بول ديفيس): "لو أن نظرية الانفجار الكبير كانت تقوم على عمل (هابل) و (أينشتاين) فقط، لما استطاعت أن تحوز هذا الدعم الواسع. لحسن الحظ، توجد أدلة تأكيدية مقنعة.. حقيقة أن الكوسمولوجيا الحديثة وفرت أدلة فيزيائية صلبة لصالح الخلق هو أمر مرضي جداً للمفكرين المتدينين". وقد شهد (فكتور ستنجر) أن "كل سنة تمر، ومع تراكم المعلومات الكونية، تتوافق معارفنا بصورة أكبر مع الصورة العامة للانفجار العظيم على الأقل"، موافقاً ما قرره (فردريك برنهام) (Frederick Burnham) مؤرخ العلوم بقوله: "هذه الاكتشافات المتاحة الآن، تجعل القول: "إن الله قد خلق الكون، فرضية جديرة بالاحترام اليوم، بصورة أكبر من أي وقت مضى في المائة سنة الأخيرة". أما (مارتن ريس) (Martin Rees) عالم الكوسمولوجيا الشهير، ورئيس (الجمعية الملكية البريطانية في لندن لتطوير المعرفة الطبيعية لست سنوات، وهو المنصب الذي شغله سابقاً (إسحاق نيوتن) فقد كتب سنة 1999م: "كنت سابقاً، منذ سنوات قليلة، أثق بدرجة 90٪ في حدوث الانفجار العظيم.. أما الآن فالنسبة أعظم بكثير، التقدم العظيم في المشاهدات والتجارب جعلت الصورة الكونية الكبرى أدق أثناء التسعينات من القرن العشرين، وأرغب الآن في رفع درجة يقيني إلى 99٪". ومن التأكيدات الأخيرة لصحة نظرية الانفجار العظيم ما أعلنه (راسل كانون) (Russell Cannon) سنة 2005م باعتباره عضواً في فريق علمي أمريكي قام بمسح لعدد كبير من الكواكب باعتماد أساليب أحدث وأكثر تطوراً: "لقد علمنا منذ زمن بعيد أن أفضل نظرية لتفسير الكون هي الانفجار العظيم.. ما يمكننا الآن أن نكون واثقين فيه بصورة أكبر هو أنها الفكرة الأساسية الصحيحة" [2].

---

[1] سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016)، ص89.

[2] المصدر السابق، ص107، 108.

المسألة الخامسة: استكمالاً للإجابة على سؤال **هل جنس الملائكة إنسي أم غير إنسي؟** وصف الله تعالى الملائكة بالرسل، وجعل اصطفائهم كاصطفاء الرسل من الناس في قوله تعالى: "الله يصطفى من الملائكة رُسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير" {الحج: 75} قال الرازي: إن المذكور من الملائكة هم من كانوا رسلاً إلى بني آدم، وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم [1]. نقول: إن هذه الآية تتعلق بالإلهيات، لأنها تنفي صفة الألوهية عن الملائكة وتجعل لهم مكانة الرسل في عملية التبليغ، فيكون من وظيفة الملائكة نقل الأوامر والتكليفات الإلهية إلى الرسل والأنبياء، بينما يكون من وظيفة الناس الذين اصطفاهم الله كرسل نقل الأوامر والتكليفات الإلهية إلى كافة خلق الله في الأرض. كما أن المساواة في الاصطفاء بين الملائكة والناس "كجنس" نوراني للملائكة وترابي أو طيني للناس، وفي الاصطفاء بالمسمى "كرسل" كله يدل على أن الرسل من الناس لهم خصائص وصفات مشتركة مع الملائكة، ولكن ليس في مادة الخلق، بل في الطباع، ومنها أنهم على صلة أكثر بالله سبحانه وتعالى بسبب اتصالهم بالوحي وقدرتهم على فهم ونقل الخطاب الإلهي، وأنهم أقل شهوة فيما يتعلق بالغذاء والعلاقة مع الجنس الآخر، أي علاقة الذكر مع الأنثى، إلا ما قد يسّره الله لهم أو أراده لهم، مثلما أراد لآدم (عليه السلام) أن يخلق من غير أبوين، وكما أراد للنبي عيسى (عليه السلام) أن يولد من بطن أمه بدون وجود أب، وكما أراد للنبي يحيى (عليه السلام) أن يولد من امرأة عاقر، وكما أراد للنبي محمد أن يتزوج عدد من النساء، أي أن الله أراد بأمره أن يجعل للناس عبرة من وراء مسألة الخلق وإدارة شهوة النكاح لكل رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم، ومنهم إبراهيم وإسماعيل ويعقوب

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج23، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص70، 71.

وموسى وداود. بالتالي، فإن الملائكة أكثر مقدرة وأعلى قدراً عند الله من الرسل، وبالتالي هم ليسوا بشراً أو من جنس بشري. وفي العلاقة بين الملائكة والرسل من ناحية طريقة التبليغ ورد قوله تعالى في سورة الأحزاب: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (45) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً" (46). قال القرطبي: "وسراجاً منيراً" استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه [1]. لقد شرحنا هذه الآية في كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) [2]. قلنا إن المقصود بقوله تعالى: "وسراجاً منيراً" هو "الوحي" لأن الإذن الإلهي ينزل معه التصريح القرآني محمولاً عبر الوحي، والوحي نور، ودليل ذلك قوله تعالى: "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين" {المائدة: 15}، والنور في الآية هو الوحي، وليس كما قال فخر الدين الرازي النور هو محمد (ﷺ) أو الإسلام أو القرآن والأخير ضعيف [3]. وأما وصفه بالسراج المنير فهو ينسجم مع الطريقة التي يدعو بها النبي الناس عبر الإجازة أو الرخصة بالتصريح بعد تلقي الوحي الذي هو سراج منير، فتكون الدعوة فيما بعد ناتجة عن أمر إلهي ينزل به الوحي إلى النبي محمد (ﷺ). والوحي يُرى من قبل النبي بأشكال تعدد وصفها بحسب ما روى لأصحابه عدة مرّات، وأهمها أنه جسم يتلألأ له كثير من الأجنحة. في هذا السياق، يجب أن نوضح مسألة مهمة بخصوص ظهور المَلك أو الوحي، وهو أن المقصود من الظهور، ليس الظهور كالبشر، بل التمثل في هيئة بشر، وهذه مسألة فيها نظر إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مادة خلق الملائكة وهي النور والريح، ولذلك ربما يكون نوراً من الأنوار

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص171.

[2] حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023)، ص319.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج11، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص194.

الإلهية، أو كما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم" [1]. وفي رواية أخرى، قال أحمد أيضاً: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة، حدثني شقيق قال: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله: "أتاني جبريل، (عليه السلام)، في خضُر معلق به الدر" [2].

المسألة السادسة: لقد رسم الله حدوداً بينه وبين الملائكة لتوضيح وتوكيد ألوهيته المطلقة، وقدرته وإرادته النافذة على الملائكة، وهو نفي لعجزه، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنبياء: "وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون (26) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (27) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (28) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين (29) أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" (30). سنشرح معنى قوله تعالى "عباد مكرمون" ودلالة صفات الملائكة في الآيات، والموقف الإلهي من أي زعم للملائكة بأنهم آلهة. قال الشوكاني: هؤلاء القائلون "اتخذ الله ولداً" هم خزاعة، فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله؛ وقيل: هم اليهود، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولداً. وقد قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله [3]. على حين قال الرازي: إنه سبحانه وتعالى نزّه نفسه عن أن يكون له ولداً لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد،

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص446.

[2] المصدر السابق، ص452.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج17، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص933.

فلو كان الله ولداً شبهه من بعض الوجوه. وقوله تعالى: "بل عباد مكرمون" أنه سبحانه لما نزّه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد [1].
نقول: إن التنزيه الإلهي عن أن يكون له ولد هو بمثابة نفي لإمكانية مساواة الله بأي شيء، وفي هذا الموضع هو نفي للجنس عن الله، فهو كما ورد في قوله تعالى: "لم يلد ولم يولد" {الإخلاص: 3} وإن اعتبار الله للملائكة أنهم عباد مكرمون يعني أن العباد هنا لا يقصد بهم الجنس الإنسي لأن الله نفى في البداية صفة اشتراك أي جنس معه، بل يقصد بالعباد الإقامة على الشيء، ومنه العبودية، ويراد من ذلك الطاعة والتذلل للإله، بالتالي فإن الملائكة ليست من جنس بشري، وإن كلمة العباد لا تحمل إشارة إلى نوع الجنس، وهذه حجة إضافية على ما ذكرته سابقاً. نقول: إن هناك نقطة تحول بين العباد (بني آدم) المخلوقين من مادة التراب/الطين والماء، والملائكة (النورانيين) المخلوقة أرواحهم من مادة النور، وأجسامهم من النيتروجين والأوكسجين، وهذا التحوّل الذي يمكن أن يجعل العباد، أي بعض البشر يوم القيامة يتصفون بصفات الملائكة هو تحوّل مادي، أي تتحول فيه بعض أرواح بني آدم (عليهم السلام) من مادة أرضية (التراب/الطين والماء والنطفة) التي خلقوا منها في الأرض بعد خلق الكون، إلى مادة علوية سماوية نورانية، وهذا التحوّل المادي الحيوي يحدث من خلال تحوّل الإنسان من كائن حي خلقي إحيائي إلى كائن حي إحيائي روحي، أي تنتقل الروح من حالتها الأرضية إلى حالتها العلوية الأبدية، ولكن الذي يحدد مدى أرضيتها أو علويتها هو اهتداء تلك الروح إلى الصراط المستقيم في الحياة الدنيا، فالعالم الذي يرفعه الله درجات في الجنة بحسب الوعد القرآني، إنما هو يرفع روحه

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص159.

ومادتها، ومثله أرواح الأنبياء والشهداء والزاهدين والصادقين والصالحين، هؤلاء جميعهم يمكن أن تصير أرواحهم أرواح ملائكية مجندة لله، تأتمر بأمره وتعمل وفق شريعته وتظل هكذا ترتفع وترتقي حتى تثبت إلى يوم الخلود الأبدي في جنات الفردوس الأعلى. ونقول: إن الصفات في الآيات {27 – 29} هي صفات الملائكة، ولما قال تعالى في الآية (26) إنهم "عباد مكرمون" قصد بذلك الملائكة الذين أخلصوا في طاعة أوامر الله وشريعته. ونلاحظ أن الله نفى عنهم صفة الألوهية في نفس السورة لقوله تعالى: "ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين" {الأنبياء: 29} **وهنا نسأل كيف يمكن أن يُدخل الله الملائكة جهنم (وهي درجة من درجات النار) في حين أنهم مكرمون عند الله، وينزلون بالروح من أمر الله، ويدركون أسرار الإله في خلق الكون، وأسراره في خلق الكائنات الحية؟**

هل تدخل الملائكة النار؟

نقول: إن الله لا يتورع أن يُدخل الملائكة النار، لكن ليس أي نوع من الملائكة بل هم أدنى درجات الملائكة مرتبة عند الله، وهم الملائكة الدنيويون، وذلك تثبيت لقدرته على تعذيبهم ويدل على صفات ألوهيته وجبروته، وهو تأكيد على أن الملائكة مأمورون بأمره، وهم تحت طاعته وحافظين لأسراره، وأن أوامره نافذة ومن يتخلف عنها يعاقب على ذلك، وأن أوامر الله للملائكة ليست تقديرية بل حتمية ومطلقة، وبالتالي فهي لا تحتمل التغيير من الملائكة أو الشك فيها من قبلهم، فكان تكريمهم من جهة أنهم مطيعون وملتزمون، لكننا نقول: إن العذاب ليس حتمياً أو مطلقاً إلا في حالة واحدة تم توضيحها في الآية وهي عند ادعاء الملائكة للألوهية لقوله تعالى: "ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين" {الأنبياء:

29}، لأن ذلك شرك مطلق، وهذا لا يحدث إلا لأدنى نوع من الملائكة وليس أعلى درجة من درجات الملائكة التي يكون لديها إيمان شديد بوحدانية الله، مثل الملائكة التي تحمل عرش الرحمن (الله). وعلى سبيل المثال: إذا تحوّل أحد المشركين للإسلام وقام بتأدية أركان وفرائض الإسلام على أكمل وجه، ولكنه لما مات (أي قبل موته بوقت قصير) وبُعث يوم القيامة كانت روحه في درجة من الملائكية ثم شعر للحظة أنه إله أو أن بإمكانه أن يصبح إلهاً، فهذا النوع يعتبر شركاً أعلى، وعلى إثره تعود روح هذا المشرك إلى جهنم، ولذلك جعل الله عقابه ثابتاً للملائكة في حال الكفر أو الشرك وهو مثل عقاب البشر، وهذا المثل القرآني يعتبر الأهم في قدسية وتنزيه الله عن كل شيء خلقه، وهو أحد أهم وأبرز الأمثال في تثبيت ركن عقيدة الألوهية وهو أول ركن في الإسلام (لا إله إلا الله). ومن الآيات القرآنية التي تؤكد ألوهية الله المطلقة والنهي عن اتخاذ الملائكة أرباباً من دون الله قوله تعالى: "ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون" {آل عمران: 80}. قال القرطبي: هذا موجود في النصارى؛ يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا [1].

المسألة السابعة: لقد ذكرت أن الملائكة مخلوقة من مادة النور والريح، وأن المادة خلقها الله، وبالتالي فإن الملائكة كائنات مادية نورانية في طبيعة تكوينها، ولكننا نقول هي روح بأمر الله، وأمر الله نافذ وأقدم من المادة، فكما أن الإنسان روح، فإن الملائكة روح أيضاً لقوله تعالى: "نزل به الروح الأمين" {الشعراء: 193}، وقوله تعالى: "رفيع الدرجات ذو العرش يُلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده.." {غافر: 15}، لكن مادة خلق الملائكة هي التي تختلف.

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 187.

نعود إلى استكمال شرح الآية، **لماذا كان التشبيه بالفخار في قوله تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار"؟ ولماذا استخدمت كلمة فخار؟ وما علاقة كلمة فخار من ناحية لغوية بالطبيعة والمادة التي خلق منها الإنسان؟**

معنى (الفخار) وعلاقته (بالفخر) و (الصلصال الفخار)

لقد وجدنا في قواميس اللغة العربية أن استخدام العرب للكلمات التي تنتمي إلى الجذر اللغوي لكلمة "فخر" مرتبط بالطبيعة والمادة التي خلقت منها النفس البشرية. أولاً: يقال: استفخر، أي صار فخاراً. والفخّار: هو الطين المحروق[1]. ويقال: ناقة فخورة: أي غزيرة تعطيك ما عندها من اللبن، ولا بقاء للبنها، بل يقال: هي العظيمة الضرع وليس بما يظن من لبن [2]. وإذا أدركنا علاقة ما تنتجه الناقة بطبيعة غذائها، وعلاقة غذائها بالنبات، وعلاقة النبات بالتراب، وعلاقة التراب بالماء، وأن الله جعل كل شيء حي في الأرض من خلال توفر مادتي الماء والتراب في الطبيعة، فسوف ندرك دلالة المعنى اللغوي في استخدامه عبر الإشارة إلى ما تنتجه الناقة، وكأن القول على وجه حسن، إن ما تنتجه الناقة أصله من الطبيعة وهو تعبير عن دورة حياة الإنسان. وهناك مسألة أخرى، وهي ورود كلمة "تفاخر" و "فخور" في آيتين قرآنيتين، وهما من الجذر اللغوي "فخر".

الآية الأولى: قوله تعالى: "واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص1679.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج3، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص306.

الكفار نباته ثم يهيج فتراه مُصفراً ثم يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" {الحديد: 20}.

قال ابن كثير: هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير [1]. وقال القرطبي: "وتفاخر بينكم" أي: يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخلقة والقوّة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء. وفي "صحيح مسلم" عن النبي قال: "إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد". وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أربع في أمتي من أَمرْ الجاهلية: الفخر في الأحساب" وقوله تعالى: "تكاثر في الأموال والأولاد" لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يُعجب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن. وقوله تعالى: "ثم يهيج" أي: يجف بعد خضرته "فتراه مصفراً" أي: متغيراً عما كان عليه من النضرة. وقوله تعالى: "ثم يكون حطاماً" أي: فتاتاً وتبناً فيذهب بعد حسنه [2]. قيل: التفاخر يعني المباهاة والافتخار بالحسب والنسب والجاه والمنصب، وهو استعراض قاصداً التبجح [3]. نقول: إن هذا التصرف

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص24.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، 260، 261.

[3] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص1679.

"أي التفاخر" يتعارض مع طبيعة الإنسان الذي خلق من مادة الطين ليكون أكثر انطفاءً على عكس إبليس أكثر ناراً أو اشتعالاً وحدَّة بسبب طبيعة المادة التي خلق منها وهي نار السموم. ونرى أن استخدام كلمة التفاخر فيه دلالة على أن الإنسان في هذا الموضع يتجاوز مادة الطين في حالتها الترابية قبل أن تصبح صلصالاً بكل ما فيها من خصائص إلى التعبير عن نفسه مختالاً ومتفاخراً كما لو أن ذاته انفعلت ذات الانفعال الذي يحدث عند تحوّل الطين إلى صلصال، وذلك بفعل الحركة التي تنتج الحرارة، من تفاعل الموارد الطبيعية الثلاثة الأهم في الأرض وهي المتصلة بخلق الإنسان، وهي أساس بقائه حياً على الأرض، وهذه الموارد هي: "التراب والماء والهواء". إن ما ينتج عنهم من تفاعل يؤدي إلى الحرارة التي هي عنصر أساسي في إنتاج النبات أو خلق الإنسان. ولمّا استخدم في الآية كلمة "بينكم" في الإشارة إلى التفاخر كأنه أراد القول إن هذه الطباع الموجودة لدى كل البشر والتي أصلها من حركة وحرارة الموارد الطبيعية إنما هي منكرة وغير مقبولة في الشرع الإلهي. ما يعني أن كل ما تبع كلمة "تفاخر بينكم" في الآية هو مشمول في الطباع والأمور المنكرة وغير المقبولة نسبياً، وهي التكاثر في الأموال والتكاثر في الأولاد، وعموماً كلاهما مرتبط بحياة آدم (عليه السلام) وذريته، فالأولاد مرتبطون بالذرية عبر التكاثر، والأموال مرتبطة بالموارد الطبيعية والنشاط الزراعي والحيواني الذي هو أصل الغذاء لكل البشر. ونقول: إن في الآية وصف دقيق وهو قوله تعالى: "كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً" {الحديد: 20} أي كأن الله أرد أن يقول إن دورة حياة الإنسان في لعبه وزينته وتفاخره وتكاثر أمواله وأولاده إنما هو مثل المطر الذي يعتبر مسؤولاً عن دورة حياة النباتات في الطبيعة. بهذه الصورة الجمالية أراد الله أن يصور صنائع الإنسان في الدنيا بدورة حياة غذاءه في الطبيعة، والمطر أو الماء هو المادة الأصل

في خلق آدم (عليه السلام) من تراب تماماً كما هي الأصل في إحياء الأرض والنباتات والحيوانات.

الآية الثانية: قوله تعالى: "ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يُحب كل مختال فخور" {لقمان: 18}.

قال ابن كثير: "مختال" يعني معجب في نفسه، و "فخور": أي على غيره [1]. على حين قال الرازي: "المختال" يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر "والفخور" يعني من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه [2]. نقول: إذا أدركنا المعنى فسوف نستشعر أن الفخر فعل ذاتي نفسي متعلق بالعقل الباطن أو العقل اللاواعي الذي يقود الإنسان نحو تصرفاته وأخلاقه، والفخور عندما يرى عظمة نفسه في عين نفسه، فإن ذلك يكون من طبعه أو طبع تربيته وتجاربه التراكمية في حياته التي قد تكون سلبية أو إيجابية، ولا يكون ذلك من طبع تكوينه الابتدائي الذي خلقه الله عليه، ما يعني أن الإنسان يولد على قاعدة البراءة بالفطرة. لكن الله يجزم في هذه الآية بأن التربية والتجارب التراكمية حتى وإن كانت سلبية أو إيجابية فإنها يجب ألا تخالف الأخلاق الشرعية ويجب ألا تخالف كل ما ورد من توصيات ذكرت في نفس السورة التي وردت فيها الآية كقوله تعالى في السورة: "أقم الصلاة" و "أمر بالمعروف" و "انه عن المنكر" و "اصبر على ما أصابك" و "لا تصعر خدك للناس" و "لا تمش في الأرض مرحاً" و "إن الله لا يحب كل مختال فخور" و "اقصد في مشيك" و "اغضض من صوتك" "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير". ولمزيد من التوضيح والتأكيد على حجتنا،

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص339.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص150.

فقد ورد قبل هذه الآيات ذكر لعلاقة الإنسان بوالديه وطريقة التعامل معهما، وهذا يدل على أن الإنسان ينشأ في حياته وتتكون صفاته من خلال تربية الأب والأم في البيت، ما يعني أن منبع أي نوع من الفخر الذي يمارسه الإنسان هو من خلال طريقة نشأته وتربية والديه له. إذا أدركنا كل ما سبق، فإننا سنجد هناك صلة وثيقة بين أمرين وهما:

أولاً: ارتباط اللغة العربية بالقرآن ارتباطاً وثيقاً من خلال الكلمات التي وردت في ثلاث آيات وهي "كالفخار" في سورة {الرحمن: 14} و "تفاخر" {الحديد: 20} و "فخور" في سورة {لقمان: 18}

ثانياً: ارتباط الطبيعة بالخلق ارتباطاً وثيقاً، لأن قوله تعالى: "صلصال كالفخار" فيها إشارة إلى مادة خلق الإنسان، وهي متصلة بقوله تعالى: "تفاخر بينكم" {الحديد: 20} في إشارة إلى التفاخر بالنفس وبالأنساب والتكاثر وزيادة النسل، وذلك متصل بقوله تعالى: "مختال فخور" {لقمان: 18} في إشارة إلى أهواء النفس البشرية والميل إلى استعراض عظمة وغرور النفس. إذا أدركنا ما ذكرناه بأن الملائكة جنس نوراني، وأن آدم (عليه السلام) أو البشر عموماً من جنس يتكون من ثلاثة عناصر (ترابية/طينية) و (مائية) و (هوائية) "والهواء هنا المقصود به الرياح التي تحركها حرارة الشمس التي دفعت إلى تجفيف آدم (عليه السلام) وإنضاجه قبل نفخ الروح به"، وإذا أدركنا أن الحيوان المنوي يتكون من الماء الموجود قبل خلق الكون والذي يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وأنه يحتوي أيضاً على خلايا حيوانات وبلازما منوية، ويتكون من مواد غذائية وهرمونات تفرزها الغدد الجنسية، وأن هذا كله ينعكس على تكون الجنين، وإذا أدركنا أيضاً أن هذا الماء له دورة فصلية، أي أنه ينزل في الشتاء مثلما هناك أجواء متباينة خلال العام كالصيف والربيع والخريف، فإن ذلك يؤثر على كافة الأغذية ومنها النباتات والخضروات والفواكه بأنواعها، وهذا ما يجعل في الطبيعة أغذية شتوية وأخرى صيفية، أو ربيعية أو خريفية، أي تنضج في أحد

الفصول، ولهذا السبب يؤثر الطقس على أنواع الأغذية، وبالتالي على النظام الغذائي الذي بدوره يؤثر على الجنين.

إذا أدركنا كل ما سبق، سنفهم لماذا يقال إن للإنسان طباع هوائية أو مائية أو ترابية، ولربما من هذا التفسير اشتق علم التنجيم في العصور والحضارات التي سبقت الإسلام، بالاستناد إلى الفهم البشري لطباع الإنسان، ولما جاء الإسلام ونزل القرآن استطعنا فهم ذلك من خلال فهم دور المادة في خلق الكون والإنسان، والأهم أن القرآن أشار بوضوح إلى مسألة البروج أو ما هو خارجي متعلق بالإنسان حيث قال تعالى: "والسماء ذات البروج" {البروج: 1}. قال القرطبي في معنى البروج عدة أقوال: أحدها: ذات النجوم؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك. والثاني: القصور؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد أيضاً. قال عكرمة هي قصور في السماء. وقال مجاهد: البروج فيها الحرس. الثالث: ذات الخلق الحسن؛ قاله المنهال بن عمرو. الرابع: ذات المنازل؛ قال أبو عبيدة ويحيى بن سلام. وهي اثنا عشر برجاً، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم، فلذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستسر ليلتين. وتسير الشمس في كل برج منها شهراً. وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت [1]. رغم أننا نقول: إن هذه التسمية للأبراج هي تسمية بشرية وهي اختراع بشري ناتج عن فهم فلكي تجريبي، ولكن الفهم الأدق لمعنى أو دلالات وجود هذه الأبراج هو ما ذكرناه سابقاً من شرح مادي منطقي، بالإضافة إلى ضرورة الالتفات إلى أن المسألة ليست متعلقة بمنازل الكواكب والشمس والقمر بل بحركة ودورة الشمس والقمر، وما لهما من أثر على حياة البشر

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص179.

وحركتهم في الطبيعة وعلاقة الإنسان بالغذاء الحيواني والنباتي. كما أن الإنسان يختزن في جسده من حرارة الشمس في النهار ويبرد في الليل عندما يحل القمر في السماء، فيكون لذلك أثراً على طاقته وحركته في النكاح بهدف الإنجاب وهو ما ينعكس على الجنين سواء كانت نطفته قد غرست في الصيف أو الشتاء وفي النهار أو الليل ووفق نظام غذائي صحي أو غير صحي. وهذا كله لا يتعارض، بل ينسجم مع قوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" {لقمان: 34}.

الفصل الرابع

الأسبقية القرآنية في الاستدلال على الوحدات الأساسية البنائية للمادة (الذرة)

لم يرد أي ذكر لكلمة "الخلية" بشكل مباشر في القرآن، لكن القرآن جاء على ذكر الاشتقاق اللغوي (ذرر) في عدد من الكلمات وهي (ذرّة – ذُرية – ذُريتنا – ذُريته – ذُريتها – ذُريتهم – ذُريتهما – ذُريتي – ذُرياتنا - ذُرياتهم) [1]. **لكن ما علاقة الذرة بالخلية، وما علاقة ذلك بالمادة؟**

علاقة الذرة بالخلية وعلاقتهما بالمادة

الذرة هي أصغر جزء في المادة، سواء كانت من المادة أو من تشكيلات الحياة المعقدة، أما الخلية فهي تعد حجر الأساس في بناء الكائن الحي بمجموعه العام [2]. قلنا إن المادة سابقة على وجود الإنسان، والتربة التي خُلق منها الإنسان هي مادة، وإن أصل الإنسان مخلوق من المادة، والمادة خلقها الله، ولكننا مع ذلك أنكرنا أن يكون الإنسان مادياً، لأنه إذا تساوى مع المادة فسوف يكون من جنسها بالكامل، والإنسان ليس من جنس المادة بالكامل، بل هو روح، والروح بأمر من الله، خلق منها آدم وعيسى (عليهما السلام). بالإضافة إلى ذلك نقول إن الذكر والأنثى مكونان من النطفة وقبلها الخلية، والخلية هي وحدة بناء الكائنات الحية، فالإنسان أصله من خلية، والنبات أصله من خلية والحيوان أصله من خلية، والخلية بدورها تتكون من مواد مختلفة. أما "الذرة" فهي وحدة بناء المادة. فإذا كانت كلمة "الذرية" التي تدل على نسل آدم (عليه السلام) هي من نفس الجذر اللغوي لكلمة "ذرة" التي هي وحدة بناء المادة، فهذا يدل على أن آدم (عليه السلام) وذريته مخلوقين من المادة. ورد في المعجم المعاصر: الذرة: هي

---

[1] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج2، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص246.

[2] خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010)، ص113.

أصغر جزء في عنصر ما، يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية، والتي تؤلف الأجسام المركبة، وتتكون الذرة من نواة (تحتوي النيوترون والبروتون) ومن الإلكترون الذي يدور حول النواة" [1]. وقيل: الذّر: النسل. والذُرية: على وزن فعلية من الذر، وهم الصغار.

ومقدار الذرة يساوي وزن حبة من شعير. وقدّرها بعض العلماء والباحثين بثلاثة وعشرين جزءاً من مائة مليون جزء من الجرام، أي: (٠,٠٠٠٠٠٠23) جراماً [2]. وذكر أيضاً أن الذّر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلي في النافذة، والواحدة ذرّة. [3] والذَر: صغار النمل والهباء واحدته ذَرّة [4]. قال القرطبي: الذّرة: هي النملة الحمراء، عن ابن عباس وغيره، وهي: أصغر النمل. وعنه أيضاً: رأس النملة. قال يزيد بن هارون: زعموا أن الذرة ليس لها وزن. وقيل: الذرّة: هي الخَودلة، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" (47) [5]. يُلاحظ هنا أن العدل ميزانه دقيق جداً حتى أنه يُحسب بوزن الذرّة أو حبة الخردل. نقول: إن الموازين لها طاقة، فكل إنسان يحاسب على البذل في الجهد الذي يقوم به ونوعه. ذُكر في معجم الوسيط: تذرى: أي استتر بالشيء. يقال: تذرى فلان بالحائط وغيره من البرد والريح. ويقال: تذرى بفلان: احتمى به وصار في

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص807.

[2] علي جمعة محمد، المكاييل والأوزان الشرعية، ط2، (القاهرة: القدس للإعلان والنشر، 2001)، ص26.

[3] معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، ج2، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968)، ص246.

[4] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج4، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص123.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص321، 322.

كنفه. والذرى: اسم لما ذرته الريح [1]. ما يعني أن التذرية عملية فيها انقباض وانبساط، أو انكماش وتمدد. بالنسبة للآيات التالية، سوف نُلاحظ أن كلمة "ذرة" ذُكرت ست مرات، وجاءت معها مفردة توضيحية وهي كلمة "مثقال" لوصف وزن الذرة. قيل: إن المثقال هو ما يوزن به. ومثقال الشيء: ميزانه، أي وزنه، وجمعه مثاقيل [2]. وقال الفراهيدي: المثقال: وزن معلوم قدره [3].

الآيات التي ورد فيها كلمة "ذرَّة"

الآية الأولى: قال تعالى: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يُضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً" {النساء: 40}.

ذكر القرطبي في تفسيره: معنى قوله: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة"، أي: لا يَبخسهم ولا ينقصهم من ثواب عملهم وزن ذرة، بل يجازيهم بها ويُثيبهم عليها. والمراد من الكلام: أن الله تعالى لا يظلم، كما قال تعالى في سورة يونس: "إن الله لا يظلم الناس شيئاً" (44) [4]. وذكر الزمخشري في تفسيره: "لو نقص الله من الأجر أو زاد في العقاب لكان ظلماً، وأنه لا يفعله لاستحالته في الحكمة لا لاستحالته في القدرة" [5]. نقول: إذا كان الثواب والعقاب يخضع لحكمة الله لا لقدرته، فإن طاقة الإنسان في الدنيا وعطاءه في العبادات والمعاملات اليومية تُقاس

---

[1] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، (القاهرة: 2004)، ص312.

[2] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج2، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص758.

[3] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص204.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص321.

[5] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج5، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص237.

بميزان الذرة ويُفترض أن تتسق مع حكمة الله. قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أنه تعالى ليس خالقاً لأعمال العباد، لأن من جملة تلك الأعمال ظلم بعضهم بعضاً، فلو كان موجد ذلك الظلم هو الله تعالى لكان الظالم هو الله، والآية دالة على كونه تعالى منزهاً عن الظلم". كما قالت المعتزلة أيضاً: "الآية تدل على أنه قادر على الظلم لأنه تمدح بتركه، ومن تمدح بترك فعل قبيح لم يصح منه ذلك التمدح، إلا إذا كان هو قادراً عليه، ألا ترى أن الزمن لا يصح منه أن يتمدح بأنه لا يذهب في الليالي إلى السرقة" [1]. قال تعالى مُخبراً عن لقمان أنه قال: "يا بُني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير" {لقمان: 16} [2]. تشير الآية بصراحة إلى دقة الحساب (من عقاب وثواب) عند الله بما يشمل كل شيء يجمعه من الأرض بما فيها حبات الخردل التي في الصخر، رغم ما في الصخر من ثقل وقوة. **السؤال هنا من وحي الآية، كيف وجدت حبة الخردل في صخرة وفي السماوات والأرض؟ وما وجه التشابه الذي يجمع بين وجودها في الصخرة وفي السماوات والأرض؟**

أصل حبة الخردل في الصخرة، وفي السماوات والأرض

نقول: يوجد نبات على شكل زهرة اسمه نبات زهرة الخردل، وتحتوي بذور هذه الزهرة على زيت عطري حاد الرائحة، حيث إنه يعتبر مادة مهيجة يهيج الأغشية المخاطية ويدفع في إدماع العيون. تتكون (بذور) زيت زهرة الخردل من محتوى معدني بنسبة 20٪

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج10، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص105.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص304.

(وهو ذرات الفسفور) ويتكون من فيتامين A (ريتينول) 3٪ وفيتامين E (توكوفيرول) 92٪ والدهون والأحماض الدهنية المشبعة والماء. وبشكل عام يتكون زيت الخردل من ذرات (الكربون والهيدروجين والأوكسجين والفسفور) بنسب كيميائية محددة.

وزن الخردل إلى وزن الذرة

ضرب المثل في حبة الخردل لأنها من بين أصغر البذور حجماً. أما بالنسبة لذكر حبة الخردل داخل الصخرة، فتتكون حبة الخردل من نسب كبيرة من ذرات (الكربون والهيدروجين والأوكسجين)، وهي الذرات ذاتها التي تدخل في تركيب الصخور، ولهذا السبب ذكر في الآية وجود حبة الخردل في الصخرة؛ لأنها تتشابه في التركيب الكيميائي مع مكونات الصخور. ولذلك عندما قال تعالى في الآية "يأتي بها الله" يعني أن الله قادر على أن يأتي بأصول مركبات حبة الخردل، وهي ذرات (الكربون والهيدروجين والأوكسجين)، وهذه الذرات وبالتحديد (الهيدروجين والأوكسجين) هما أصل الصيغة الكيميائية لجزيء الماء (H_2O)، والماء أول مادة إحيائية خلقها الله قبل خلق الكون. في هذا السياق يُذكر أن عالم الحفريات والأحياء التطوري الأميركي نيل شوبين اشترك مع جيني كلاك (Jenny Clack) من جامعة كامبردج في اكتشاف برمائيات من الصخور في جرين لاند (Greenland) عمرها يقارب 365 مليون سنة [1]. هذا الاكتشاف ومكانه (الصخور) يدلنا على أن حياة الكائنات الحية أينما وجدت في أي مكان أو زمان في التاريخ منذ نشأة الكون، فإنها تعيدنا إلى المادة الأولى وهي الماء، أول مادة إحيائية خلقها الله قبل خلق

---

[1] نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012)، ص19، 20.

الكون، وبالتالي إلى عناصر أو ذرات الماء وهما ذرتين هيدروجين وذرة أكسجين، وهما أصل موجود في غالبية الاكتشافات.

الآية الثانية: قال تعالى: "وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين" {يونس: 61}.

قال الطبري: "ذلك خبر عن أنه لا يخفى عليه جل جلاله أصغر الأشياء وإن خف في الوزن كل الخفة، ومقادير ذلك ومبلغه، ولا أكبرها وإن عظم وثقل وزنه، وكم مبلغ ذلك. يقول تعالى ذكره لخلقه: فليكن عملكم، أيها الناس، فيما يُرضي ربكم عنكم، فإنا شهود لأعمالكم، لا يخفى شيء منها، ونحن مُحصوها ومجازوكم بها" [1]. يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه، أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" {الأنعام: 59}، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" {الأنعام: 38}. وقال تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم

---

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص223.

مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" {هود: 6} [1]. قال الرازي: "أصل العزوب من البعد. يقال: كلاء عازب إذا كان بعيد المطلب، وعزب الرجل بإبله إذا أرسلها إلى موضع بعيد من المنزل، والرجل سمى عزباً لبعده عن الأهل، وعزب الشيء عن علمي إذا بعد. فإذا قيل: لم قدم ذكر الأرض ههنا على ذكر السماء مع أنه تعالى قال في سورة سبأ (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض)؟

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض إلا أنه تعالى لم ينكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الأرض وأعمالهم، ثم وصل بذلك قوله لا يعزب عنه، ناسب أن تقدم الأرض على السماء في هذا الموضع.

كما قال بعض المحققين "إن العزوب عبارة عن مطلق البعد" وإذا ثبت هذا فنقول: الأشياء المخلوقة على قسمين: قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسماوات والأرض، وقسم آخر أوجده الله بواسطة القسم الأول، مثل: الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العلية والعلوية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله تعالى: "وما يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين"، أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين. وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه، ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالماً بها محيطاً بأحوالها، والغرض منه الرد على من يقول: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات، وهو المراد من قوله "إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون". وقالوا إن كلمة "إلا" في قوله "إلا في كتاب مبين" استثناء منقطعاً لكن بمعنى هو في كتاب مبين، وذكر أبو علي الجرجاني صاحب النظم عنه جواباً آخر فقال: قوله "وما يعزب عن

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص277.

ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" ههنا تم الكلام وانقطع، ثم وقع الابتداء بكلام آخر، وهو قوله "إلا في كتاب مبين" أي وهو أيضاً في كتاب مبين. قال: والعرب تضع "إلا" موضع "واو النسق" كثيراً على معنى الابتداء، كقوله تعالى "لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم" يعني ومن ظلم. وقوله "لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا" يعني والذين ظلموا، وهذا الوجه في غاية التعسف". وأجاب صاحب الكشاف: بوجه رابع: فقال: الاشكال إنما جاء إذا عطفنا قوله "ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" على قوله تعالى: "من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء" إما بحسب الظاهر أو بحسب المحل، لكنا لا نقول ذلك، بل نقول: الوجه في القراءة بالنصب في قوله "ولا أصغر من ذلك" الحمل على نفي الجنس. وفي القراءة بالرفع الحمل على الابتداء، وخبره قوله "في كتاب مبين" وهذا الوجه اختيار الزجاج [1]. وقال الصابوني في تفسيره: "أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجل في اللوح المحفوظ" [2]. نقول: هذه الآية تدل على المراقبة، وذلك في قوله "شهوداً" حيث ألحق الله معه ملائكته الذين يراقبون له كل إنسان خلقه، وكذلك تدل الآية على القدرة أو إبراز قدرة الله تعالى في معرفته وإحاطته بكل شيء. إن الشهادة والقدرة مرتبطتان بميزان ذري في الأرض والسماء مذكور في القرآن الكريم، ويمكن القول إن الرقابة والقدرة وما ينتجان عنهما كله مجموع في اللوح المحفوظ للإنسان.

الآية الثالثة: قال تعالى: "وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يَعزُب عنه مِثقال ذرة في السماوات

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص131.

[2] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، م1، ط4، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981)، ص589.

ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مُبين" {سبإ: 3}.

قال الرازي في تفسيره: "هناك دليل ظاهر في قوله تعالى: "عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة" لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة، وعلى هذا فقوله تعالى "في السماوات والأرض" فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها في الأرض والأرواح في السماء فقوله تعالى: "لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات" إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله "ولا في الأرض" إشارة إلى علمه بالأجسام، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله "ولا أصغر من ذلك" إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد، بل الأصغر منه لا يعزب، وعلى هذا فلو قال قائل فأي حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر؟ فنقول: لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر، لكونها محل النسيان، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال الاثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال "ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم"، ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح [1].
قال الصابوني في صفوة التفاسير: "أي هو جل وعلا العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي "ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها "إلا في كتاب مبين" أي إلا ويعلمه الله تعالى

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص242.

وهو في اللوح المحفوظ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت، ثم يعيدها يوم القيامة" [1]. نقول: إن الآية تدل على أن الغيب ميزانه ذري تماماً، كما أن كل معلوم في السماوات والأرض موزون بذات الميزان، وبالتالي فإن معرفة الساعة وقيامها وما قبلها وما بعدها بالنسبة لله كله يحسب حساباً بمثاقيل الذرات وما هو أصغر منها، ولذلك فإن الآية دالة على سعة وقدرة علم الخالق نسبة إلى سعة وقدرة علم مخلوقاته.

الآية الرابعة: قال تعالى: "قل ادعوا الذين زَعمتهم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير" {سبإ: 22}.

هذا أمر للنبي بأن يقول لكفار قريش، أو للكفار على الإطلاق هذا القول، ومفعولا زعمتم محذوفان: أي: زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. وقوله تعالى: "لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض" أي: ليس لهم قدرة على خير، ولا شر، ولا على جلب نفع، ولا دفع ضرر في أمر من الأمور، وذكر السماوات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفاً للموجودات الخارجية. وقوله تعالى: "وما لهم فيهما من شرك" أي: ليس للآلهة في السماوات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك، ولا بالتصرف "وما له منهم من ظهير" أي: وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السماوات والأرض ومن فيهما" [2]. ويقول تعالى ذكره: "ولا هم إذ لم يكونوا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، منفردين بملكه من

---

[1] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، م2، ط4، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981)، ص545.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج22، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1196.

دون الله، يملكونه على وجه الشركة، لأن الأملاك في المملوكات، لا تكون لمالكها إلا على أحد وجهين: إما مقسوماً، وإما مشاعاً. يقول: وآلهتهم التي يدعون من دون الله، لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، لا مشاعاً ولا مقسوماً، فكيف يكون من كان هكذا شريكاً لمن له ملك جميع ذلك" [1]. قال الرازي في تفسيره: "إن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة: (أحدها): قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماوات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم (إنهم لا يملكون في السماوات شيئاً) كما اعترفتم، قال ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم. (وثانيها): قول من يقول السماوات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه، ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه، ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركاً في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم "وما لهم فيها من شرك" أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب. (وثالثها): قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ما ضرب فلان فلاناً، وإنما الملك أمر بضربه فضرب، فهؤلاء جعلوا السماوات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم "وما له منهم من ظهير" ما فوض إلى شيء شيئاً، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب. (ورابعها): قول من قال إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى

---

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص220.

في إبطال قولهم "ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له" فلا فائدة لعبادتكم غير الله فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله "حتى إذا فزع عن قلوبهم" أي أزيل الفزع عنهم، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب" [1]. نقول: إن الله ينفي عن كل من يدعي الألوهية إمكانية أن يملك مثقال ذرة في السماوات والأرض التي خلقها الله، يعني أي إله من دون الله لا يملك أقل وزن من المادة التي خلقها الله في الكون الذي خلقه الله. كما أن الله ينفي عن نفسه صفة الاسناد لهؤلاء أو الإعانة على خلق شيء بوزن مثقال الذرة.

الآية الخامسة والسادسة من سورة الزلزلة: "فمن يعمل مثقال ذرة خير يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (8).

نقول: إن العمل فيه خيرية وقد ربط الله هذه الخيرية بالثواب والعقاب وفقاً للوزن، بل وجعل أثر ورؤية الإنسان لعمله الخيري مرتبط بالثواب والعقاب بحسب الوزن. بمعنى آخر، ربط الله أعمال بني آدم وذريته بوزن مثقال الذرة باعتبار أنه محاسب على أعماله بحسب التقييم الإلهي لوزن الذرة. قال البيضاوي في تفسيره: "لعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة، أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله تعالى "أشتاتاً" في الآية السابقة "يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم" [2]. ذكر الرازي في تفسيره: "في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة، وإما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر، فما

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص255، 256.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج30، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص559.

معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر؟ وعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه: (أحدها): قال أحمد بن كعب القرظى (فمن يعمل مثقال ذرة) من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة، وليس له فيها شيء، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً، ويدل على صحة هذا التأويل حتى يلقى الآخرة، وليس له فيها شيء، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي أنه (عليه السلام) قال لأبي بكر "يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا ما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاها يوم القيامة". (وثانيها): قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته (وثالثها): أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة، فتقدر تلك الحسنات أحبطت من عقاب كفره، وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية (ورابعها): أن تخصص عموم قوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره"، ونقول: المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خير يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره [1].

كان ابن عباس يقول: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يُثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة شر عُوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويُتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يُقبل منه، ويضاعف له في الآخرة. وفي بعض الحديث: الذرة لا زنة لها. وهذا مثل ضربه الله تعالى: أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة. وهو مثل قوله تعالى: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة". وقد تقدم الكلام هناك في الذر، وأنه لا وزن

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج32، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص61.

له. وذكر بعض أهل اللغة أن الذر: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الذر. وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدلك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة. وقال محمد بن كعب القرظِي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير. ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس عند الله شر. دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس: أن هذه الآية نزلت على النبي وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال: "أرأيت ما تكره، فهو مثاقيل ذر الشر، ويُدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تُعطره يوم القيامة". قال أبو إدريس: إن مصداقه من كتاب الله في الآية 30 من سورة الشورى: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير". وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: "ويطعمون الطعام على حبه" {الإنسان: 8}، كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر، وتحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جبير. والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء. وقال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن، وصدق. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره". قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره". قال: في الحال قبل المال. وفي "الموطأ: أن مِسكيناً

استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت: أتعجب! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة. وروي عن سعد بن أبي وقاص: أنه تصدق بتمرتين، فقبض السائل يده، فقال للسائل: ويقبل الله منها مثاقيل الذر، وفي التمرتين مثاقيل ذر كثيرة [1]. قال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله، ونفسه، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر، والزول أولى. قال مقاتل: نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين [2].

الآيات التي ورد فيها كلمة "ذريّة" واشتقاقاتها

إن كلمة "ذرية" هي من نفس الاشتقاق اللغوي لكلمة "ذرة"، أي "ذرر". وقد ذُكرت كلمات تشير إلى الذرية وهي كلمة "النسل" التي وردت ثلاثين مرّة في القرآن. إذا أدركنا معنى كلمة "الذرة" في القرآن، وأن الحساب الإلهي يوم القيامة يكون وفقاً لحساب ذري، فإننا سندرك أن "الذرية" لا تحاسب بشكل جماعي أو عام، بل بشكل دقيق وخاص، ومن بين أحد أهم الإشارات على خصوصية الحساب يوم القيامة قال تعالى: "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج22، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص424.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج30، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1646.

يتساءلون" {المؤمنون: 110} وقوله تعالى: "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون" {الروم: 19} وقوله تعالى: "قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" {الأنعام: 164} وقوله تعالى: "وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً" {مريم: 95}. قيل: الذرية تكون واحداً وجمعاً. فكونها للواحد قوله تعالى: "رب هب لي من لدنك ذرية طيبة" {آل عمران: 38} وقوله تعالى: "فهب لي من لدنك ولياً" {مريم: 5}. وكونها للجمع: "ذرية ضِعافاً" {النساء: 9}. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن: "وذرياتنا". وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى: "وذريتنا" بالإفراد [1]. وكذلك ذكر الشوكاني في تفسيره [2]. كان الحسن والحسين من ذرية رسول الله، لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أنه لا ينتسب إلى إبراهيم إلا بالأم، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله، وإن انتسبا إلى رسول الله بالأم وجب كونهما من ذريته، ويقال: إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف [3]. وأصل ذُرية: فُعلية من الذَّر، إن الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم (عليه السلام) كالذر حين أشهدهم على أنفسهم، وقيل: هو مأخوذ من: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً: خلقهم، ومنه الذرية، وهي نسل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذراري. وقرأ زيد بن ثابت: "ذرية" بكسر الذال و "ذرية"

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج15، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص488.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1050.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص70.

بفتحها؛ قال ابن جنى أبو الفتح عثمان: يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ: أحدها: ذرأ، والثاني: ذرر. والثالث: ذرو، والرابع: ذرى، فأما الهمزة فمن: ذرأ الله الخلق، وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه، وذلك لما ورد في الخبر: "أن الخلق كان كالذر"، وأما الواو والياء، فمن: ذَرَوتُ الحب وذريته، يقالان جميعاً، وذلك قوله تعالى: "فأصبح هشيماً تذروه الرياح" {الكهف: 45} وهذا للطفه وخفته، وتلك حال الذر أيضاً. قال الجوهري: ذرت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذرواً وذرياً، أي: سفته، ومنه قولهم: ذرى الناس الحنطة، وأذريت الشيء: إذا ألقيته، كإلقائك الحب للزرع. وطعنه فأذراه عن ظهر دابته، أي: ألقاه. وقال الخليل: إنما سُمُّوا ذُرية، لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر. وقيل: أصل ذُرية: ذرورة، لكن لما كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء، فصارت ذُرويَة، ثم أُدغمت الواو في الياء، فصارت ذُرية. والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصة، وقد تُطلق على الآباء والأبناء، ومنه قوله تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم" {يس: 41} يعني آباءهم [1]. وقال الأصفهاني: الذُرية أصلها الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف ويُستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع [2]. وذكر أن الذرء بمعنى الخلق [3]. وقيل: ذرأ الله الخلق: أي خلقهم. قال أبو إسحاق النحوي: الذُرية غير مهموز. ومعنى قوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم" أن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم". وقيل: الذُرية:

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص368، 367.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص237.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج1، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص135.

اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى [1]. في الآيات التالية سوف نحلل الأبعاد اللغوية للخطاب القرآني الذي استخدم فيه كلمة ذرية وكافة اشتقاقاتها. فمن هم المقصودون في قوله تعالى: "ذرياتنا" في كل آية وفي مجموع الآيات، ومن هم المقصودون في قوله تعالى: "ذريتهم" في كل آية وفي مجموع الآيات، ومن هم المقصودون في قوله تعالى: "ذريتي" في كل آية وفي مجموع الآيات، وهكذا في كل الكلمات التي ورد فيها جذر كلمة "ذرية" وهي "ذرر".

أولاً: كلمة (ذُرية)

آية مركزية في اصطفاء ذرية الأوائل (آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران)

الآية الأولى: قال تعالى في سورة آل عمران: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (33) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم" (34).

الآية (34) التي وردت فيها كلمة "ذرية" مرتبطة بالآية (33) التي قبلها. قال الشوكاني المراد: بآل إبراهيم إبراهيم نفسه، وبآل عمران عمران نفسه. قوله تعالى: "ذرية بعضها من بعض" نصب ذرية على البدلية مما قبله قاله الزجاج، أو على الحالية قاله الأخفش، وقد تقدم تفسير الذرية، وبعضها من بعض في محل نصب على صفة الذرية، ومعناه متناسلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين [2]. ذكر الكشاف في قوله "ذرية" بدل من آل إبراهيم وآل عمران "بعضها من

[1] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م3، ج17، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1494، 1495.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص214.

بعض" يعني: أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، وموسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض" "والله سميع عليم" يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها [1]. وكذلك قال البيضاوي: "ذرية بعضها من بعض" حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فعليّة من الذر أو فَعُولة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. "والله سميع عليم" بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها. [2] ذكر القرطبي أن: الذرية هي نصب على الحال، قاله الأخفش. أي: في حال كون بعضهم من بعض، أي: ذرية بعضها من ولد بعض. الكوفيون: على القطع. الزجاج: بدل، أي: اصطفى ذرية بعضها من بعض. ومعنى "بعضها من بعض": يعني في التناصر في الدين، كما قال تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض". يعني: في الضلالة، قاله الحسن وقتادة. وقيل: في الاجتباء والاصطفاء والنبوة. وقيل: المراد به التناسل، وهذا أضعفها [3]. يخبر

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص169.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص256.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص98.

تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، (عليه السلام)، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة. "واصطفى نوحاً، (عليه السلام)، وجعله أول رسول (بعثه) إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد (ﷺ)، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، (عليهم السلام). قال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم ابن عزاريا ابن أمصيا بن ياوش بن أجريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان بن رخيعم بن سليمان بن داود، (عليهم السلام). فعيسى (عليه السلام)، من ذرية إبراهيم" [1].

تقول الروايات جاء موسى (عليه السلام) بعد إبراهيم على جهة التقريب بمائتين وخمس عشرة من السنين. إذا هو ابن عمران بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وكلمه بالتوراة "موعظة وتفصيلاً لكل شيء" {الأعراف: 145} وجاء داود (عليه السلام) بعد موسى بخمسمائة عام تقريباً وكلمه بالزبور. وجاء عيسى (عليه السلام) بعد داود بألف عام تقريباً وكلمه بالإنجيل. وجاء محمد (عليه السلام) بعد عيسى بخمسمائة وإحدى وسبعين سنة وكلمه بالقرآن [2]. ذكر الرازي في تفسيره شرحاً طويلاً لمعنى الآيتين، سوف نذكره لأن لنا رأي فيه،

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص33.

[2] فخر الدين الرازي، تحقيق أحمد حجازي السقا، خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة، ط1، (بيروت: دار الجيل، 1992)، ص10، 11.

حيث قال: اعلم أن المخلوقات على قسمين: المكلف وغير المكلف واتفقوا على أن المكلف أفضل من غير المكلف، واتفقوا على أن أصناف المكلف أربعة: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين. أما الملائكة، فقد روي في الأخبار أن الله تعالى خلقهم من الريح، وقد سبق أن ذكرنا من احتج بوجوه عقلية على صحة ذلك (انظر الشرح في الفصل الثالث، ص340)، وأما الشياطين فهم كفرة أما إبليس فكفره ظاهر لقوله تعالى: "وكان من الكافرين" وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدليل قوله تعالى: "وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوهم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" {الأنعام: 121} ومن خواص الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوهم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون، ومن خواص الشياطين أنهم بأسرها أعداء للبشر. قال تعالى: "ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو" {الكهف: 50} وقال تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن" {الأنعام: 112} ومن خواص الشياطين كونهم مخلوقين من النار قال الله تعالى حكاية عن إبليس: "خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12} وقال تعالى: "والجان خلقناه من قبل من نار السموم" {الحجر: 27} فأما الجن فمنهم كافر ومنهم مؤمن، قال تعالى: "وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً" {الجن: 14}، وأما الإنس فلا شك أن لهم والداً هو والدهم الأول، وإلا لذهب إلى ما لا نهاية والقرآن دل على أن ذلك الأول هو آدم على ما قال تعالى في هذه السورة: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59} وقال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها" {النساء: 1}. إذا عرفت هذا فنقول: اتفق العلماء على أن البشر أفضل من الجن والشياطين، واختلفوا في أن البشر أفضل أم الملائكة، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: "اسجدوا لآدم فسجدوا" والقائلون بأن البشر أفضل تمسكوا بهذه الآية،

وذلك لأن الاصطفاء يدل على مزيد الكرامة وعلو الدرجة، فلما بين تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين وجب أن يكونوا أفضل من الملائكة لكونهم من العالمين. فإن قيل: إن حملنا هذه الآية على تفضيل المذكورين فيها على كل العالمين أدى إلى لتناقض لأن الجمع الكثير إذا وصفوا بأن كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من الآخر وذلك مُحال، ولو حملناه على كونه أفضل عالمي زمانه أو عالمي جنسه لم يلزم التناقض، فوجب حمله على هذا المعنى دفعاً للتناقض وأيضاً قال تعالى في صفة بني إسرائيل "وإني فضلتكم على العالمين" ولا يلزم كونهم أفضل من محمد بل قلنا. المراد به عالم زمان كل واحد منهم، والجواب ظاهر في قوله: اصطفى آدم على العالمين، يتناول كل من يصح إطلاق لفظ العالم عليه فيندرج فيه الملك، غاية ما في هذا الباب أنه ترك العمل بعمومه في بعض الصور لدليل قام عليه، فلا يجوز أن نتركه في سائر الصور من غير دليل. أما كلمة (اصطفى) في اللغة اختار، فمعنى: اصطفاهم، أي جعلهم صفوة خلقه، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة، ويقال على ثلاثة أوجه: صفوة، وصفوة وصفوة، ونظير هذه الآية قوله لموسى: "إني اصطفيتك على الناس برسالاتي" وقال في إبراهيم "وإسحاق ويعقوب وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار". إذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان: (الأول): المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً إلى دينهم وشرعهم وملتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف (والثاني): أن يكون المعنى: إن الله اصطفاهم، أي صفاهم من الصفات الذميمة، وزينهم بالخصال الحميدة، وهذا القول أولى لوجهين: (أحدهما): أنا لا نحتاج فيه إلى الإضمار (والثاني): أنه موافق لقوله تعالى: "الله أعلم حيث يجعل رسالته" وذكر الحليمي في كتاب المنهاج أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى

الجسمانية، والقوى الروحانية، وأما القوى الجسمانية، فهي إما مدركة، وإما محركة. (أما المدركة) فهي إما الحواس الظاهرة، وإما الحواس الباطنة، أما الحواس الظاهرة فهي خمسة (أحدها): القوة الباصرة، ولقد كان الرسول مخصوصاً بكمال هذه الصفة ويدل عليه وجهان: (الأول): قوله تعالى: "زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها". (والثاني): قوله تعالى: "وأقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري" ونظير هذه القوة ما حصل لإبراهيم وهو قوله تعالى: "وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض" ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل قال الحليمي رحمه الله: وهذا مستبعد لأن البصراء يتفاوتون فروى أن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلا يبعد أن يكون بصر النبي أقوى من بصرها. (وثانيها): القوة السامعة، وكان أقوى الناس في هذه القوة، ويدل عليه وجهان: (أحدهما): قيل في الحديث: "أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى" فسمع أطيط السماء (والثاني): أنه سمع دوياً وذكر أنه هوى صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن، قال الحليمي: ولا سبيل للفلاسفة إلى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أن فيتاغورث راض نفسه حتى سمع خفيف الفلك، ونظير هذه القوة لسليمان (عليه السلام) في قصة النمل "قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم" فالله تعالى أسمع سليمان كلام النمل وأوقفه على معناه وهذا داخل أيضاً في باب تقوية الفهم، وكان ذلك حاصلاً لمحمد حين تكلم مع الذئب ومع البعير (وثالثها): تقوية قوة الشم، كما في حق يعقوب (عليه السلام)، فإن يوسف (عليه السلام) لما أمر بحمل قميصاً إليه وإلقائه على وجهه، فلما فصلت العير قال يعقوب (إني لأجد ريح يوسف) فأحس بها من مسيرة أيام (ورابعها): تقوية قوة الذوق، كما في حق رسولنا حين قال "إن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم (وخامسها): تقوية القوة اللامسة كما في حق الخليل حيث جعل الله

تعالى النار برداً وسلاماً عليه، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامة، وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ، قال تعالى: "سنقرئك فلا تنسى" {الأعلى: 6} ومنها قوة الذكاء، قال علي (عليه السلام) "علمني رسول الله ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب" فإذا كان الحال الولي هكذا، فكيف حال النبي. "وأما القوى المحركة" فمثل عروج النبي إلى المعراج، وعروج عيسى حياً إلى السماء، ورفع إدريس وإلياس على ما وردت به الأخبار، وقال تعالى: "قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك" {النمل: 40}. "وأما القوى الروحانية العقلية" فلا بد وأن تكون في غاية الكمال، ونهاية الصفاء. واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفوس الكمال في الذكاء، والفطنة، والحرية، والاستعلاء، والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة إلى البدن، ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً" معناه: إن الله تعالى اصطفى آدم إما من سكان العالم السفلي على قول من يقول: الملك أفضل من البشر، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم (عليه السلام)، هم شيث وأولاده، إلى إدريس، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شعبتان: إسماعيل وإسحاق، فجعل إسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد، وجعل إسحاق مبدأ لشعبتين: يعقوب وعيصو، فوضع النبوة في نسل يعقوب، ووضع الملك في نسل عيصو، واستمر ذلك إلى زمان محمد (ﷺ)، فلما ظهر محمد نقل نور النبوة ونور الملك إلى محمد، وبقيا أعني الدين والملك

لأتباعه إلى القيامة، ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجيبة. (المسألة الثالثة) من الناس من قال. المراد بآل إبراهيم المؤمنون، كما في قوله تعالى: "أدخلوا آل فرعون" والصحيح أن المراد بهم الأولاد، وهم المراد بقوله تعالى: "إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين". وأما آل عمران فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال المراد عمران والد موسى وهارون، وهو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فيكون المراد من آل عمران موسى وهاون وأتباعهما من الأنبياء، ومنهم من قال: بل المراد: عمران بن ماثان والد مريم (عليهما السلام)، وكان هو من نسل سليمان بن داود بن إيشا، وكانوا من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، قالوا وبين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة، واحتج من قال بهذا القول على صحته بأمور: (أحدها): أن المذكور عقيب قوله تعالى: "وآل عمران على العالمين" هو عمران بن ماثان جد عيسى (عليه السلام) من قبل الأم، فكان صرف الكلام إليه أولى. (وثانيها): أن المقصود من الكلام أن النصارى كانوا يحتجون على إلهية عيسى بالخوارق التي ظهرت على يديه، فالله تعالى يقول: إنما ظهرت على يده إكراماً من الله تعالى إياه بها، وذلك لأنه تعالى اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات العظيمة، فكان حمل هذا الكلام على عمران بن ماثان أولى في هذا المقام من حمله على عمران والد موسى وهارون (وثالثها): أن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى: "وجعلناها وابنها آية للعالمين" واعلم أن هذه الوجوه ليست دلائل قوية، بل هي أمور ظنية وأصل الاحتمال قائم. أما قوله تعالى: "ذرية بعضها من بعض" ففيه مسألتان:

(المسألة الأولى) في نصب قوله (ذرية) وجهان: (الأول): أنه بدل من آل إبراهيم. (والثاني): أن يكون نصباً على الحال، أي اصطفاهم في حال كون بعضهم من بعض.

(المسألة الثانية) في تأويل الآية وجوه: (الأول): ذرية بعضها من بعض في التوحيد والإخلاص والطاعة، ونظيره قوله تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض" وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق (والثاني): ذرية بعضها من بعض بمعنى أن غير آدم (عليه السلام) كانوا متولدين من آدم (عليه السلام)، ويكون المراد بالذرية من سوى آدم. أما قوله تعالى: "والله سميع عليهم" فقال القفال: المعنى والله سميع لأقوال العباد، عليهم بضمائرهم وأفعالهم، وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، ونظيره قوله تعالى: "الله أعلم حيث يعجل رسالته". وقوله تعالى: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين". وفي وجه آخر: وهو أن اليهود كانوا يقولون: المسيح ابن الله، وكان بعضهم عالماً بأن هذا الكلام باطل، إلا أنه لتطيب قلوب العوام بقي مصراً عليه، فالله تعالى كأنه يقول: والله سميع لهذه الأقوال الباطلة منكم، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال فيجازيكم عليها، فكان أول الآية بياناً لشرف الأنبياء والرسل، وآخرها تهديداً لهؤلاء الكاذبين الذين يزعمون أنهم مستقرون على أديانهم" [1]. نقول: تعقيباً على كلام الرازي إن أجسام الملائكة مخلوقة من الريح، وبالتالي من مادة الريح وهي (النيتروجين والأوكسجين). أما أرواحهم فهي مخلوقة من نور، ومادة النور هي انبعاثات أو إشعاعات أو أمواج كهرومغناطيسية، وهذا النور هو نور الله القرآني وشريعته التي أنزلها من خلال الوحي على كل الأنبياء منذ خلق آدم (عليه السلام) والتي انتهت إلى كتاب القرآن الذي جُمعت (نُسخت) فيه كل الشرائع والأحكام والعبادات والقصص التاريخية، وهذا النور هو الذي اشتغلت عليه الملائكة في الحياة الدنيا فجعلهم الله مبصرين بقوة شديدة، ويعرفون دقائق الأمور، ويفهمون كل اللغات

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص20، 21، 22، 23، 24، 25.

ويدركون مصائر الناس، وهم قادرين بأمر الله على الإحياء، والإماتة. وإن في الآية توصيف إلهي دقيق من ناحية تصوير التسلسل الطبيعي في الآية (33) لعلاقة كل نبي بمن بعده من ناحية بيولوجية، ففي البدء كان خلق آدم من تراب/طين، ثم جاء بعده نوحاً وتلاه إبراهيم وهو من ذرية نوح التي هي حام وسام ويافث، وإبراهيم هو من ذرية سام ابن نوح، ثم آل عمران وهو من ذرية إبراهيم، ولكن ليس بشكل مباشر فهناك إسحق ويعقوب وإسماعيل وهم من ذرية إبراهيم وقد جاؤوا قبل عمران في سلسلة الذرية. عموماً وبحسب الآية، كان اصطفاء هؤلاء الأنبياء الأربعة "آدم ونوح وإبراهيم وآل عمران" هو اصطفاء أفقي وعمودي، وهو بالتالي اصطفاء كوني؛ لأن الله تعالى قال: "على العالمين"، ثم قال في الآية التالية (34): "ذرية بعضها من بعض"، وهو ما يشير إلى التناسل التراتبي البيولوجي في سلسلة الذرية، علماً بأن تفضيل الأنبياء الأربعة على العالمين هو تفضيل أيضاً بيولوجي. وهو تفضيل محقق لأنه تفضيل إلهي لأنبيائه على سائر البشر، وهو أيضاً تكريم للإنسان على وجه الأرض، لأن الإنسان هو (على نحو دقيق بيولوجياً) من نسل هذه الذرية تاريخياً. هنا يجب أن نلاحظ ما أشرنا إليه في بداية الكتاب وهو النوعين في مسارات خلق الإنسان، لأن مسار خلق آدم (عليه السلام) من تراب في بدء الخليقة، الذي هو مسار ابتدائي خلقي طبيعي مادي حيوي، يختلف شكلياً، لكنه ينسجم جوهرياً مع مسار التناكح بين الذكر والأنثى الذي يؤدي إلى التناسل والتكاثر نتيجة التفاعل الأنثروبولوجي البيولوجي (علم الإنسان الحيوي) وبالتحديد البيوكيميائي والبيوفيزيائي. عندما ذكر الله أسماء الأنبياء الأربعة في الآية (33)، ثم قال في الآية (34) "ذرية بعضها من بعض"، فهو بذلك لم يفصل بين المسارين المختلفين، أي المسار الخلقي المادي الطبيعي التأسيسي الأول، الذي يحظى بخصوصية إلهية، والمسار البيولوجي الإنشائي التراكمي الثاني، في تأكيد على عدم الانقطاع أو فقدان حلقة الوصل في سلسة الذرية ما بين الخلق

الأول من الطين، والخلق الثاني الإنشائي التكويني في أرحام النساء. وهنا نشير إلى ثلاث ملاحظات جديرة بالذكر لأهمية ما بعدها، وهي تتعلق باختيارنا وتوصيفنا لأهم مسارين في عملية خلق الإنسان، وذلك انطلاقاً من فهمنا للآيات الثلاثة من سورة المؤمنون لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (12) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (13) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" (14).

الملاحظة الأولى: أننا استخدمنا جملة "المسار الخلقي المادي الطبيعي التأسيسي" في رؤيتنا للمسار الأول، وذلك استعارة من فهمنا للمفردات القرآنية الثلاثة في الآية (12) من سورة المؤمنون وهي على التوالي "خلقنا" و "سلالة" و "طين"، لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" (12). ما يعني أن المسار الأول، ينطوي على خلق أول، وهو رغم كونه خلق أول إلا أنه قائم على الاستمرارية أيضاً لأن الآية اشتملت على كلمة "سلالة" مع التعيين أن هذه السلالة مخلوقة من طين ولها ديمومة بفعل الماء وارتباطها بالطبيعة، مع ملاحظة المعنى الطبيعي عند وصف "السلالة" مع كلمة الطين في الآية. كما نستوضح هنا فهمنا للعلاقة بين "السلالة" و "الذرية" من ناحية وراثية جينية، أو على صعيد الرتب/المراتب التصنيفية الحيوية المتمثلة في النوع والجنس والفصيلة والرتبة والطائفة والشعبة والمملكة والنطاق [1].

الملاحظة الثانية: أن الخلق في المسار الأول، حتى وإن كان مساراً خلقياً مادياً طبيعياً تأسيسياً (يعني من تراب/طين) إلا أنه يتفرع منه نوع آخر مساوٍ ومتجانس للخلق من تراب/الطين، لكنه غير متشابه

---

[1] https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2

تماماً في آلية الإعداد، وهو خلق النطفة في رحم الأم، وهذا لا يسمى إنتاجاً خلقياً طبيعياً مادياً بشرياً خالصاً، بل عملية خلق إحيائي حيوي إلهي بامتياز، وأصل النطفة هنا أنها "مخلوقة" بصرف النظر عن طرق أو تعدد آليات إعدادها، ونقول "مخلوقة" لأن موضوع النطفة متصل بالمادة الخام، وهي الخلية (ومنها الخلايا الجذعية الجنينية) باعتبارها الوحدة التركيبية والوظيفية في الكائنات الحية، وتنقسم إلى خلايا نباتية وخلايا حيوانية. وفي هذا الإطار الخاص بموضوع النوع الثاني من الخلق المتفرع من المسار الأول ذكر الله في القرآن طريقة هذا الخلق من خلال إنتاج المني الذي يخرج من العضو الذكري للرجل إلى رحم المرأة وذلك في قوله تعالى في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من الصلب والترائب" (7). إن الاستخدام الإلهي لتعبير "ماء دافق" يدل على وجود مادة لها قوة وطاقة منتجة في هذا الماء، وأن عملية تلقيح البويضة والتخصيب يتم من خلال فاعلية هندسية قوية ناتجة عن جهد وطاقة بدنية وعقلية مولدة لطاقة أخرى بيولوجية تتسبب في عملية إنتاج النسل. شرحنا علاقة أو أصالة الخلية في خلق آدم (عليه السلام) ثم بناء الإنسان، لكننا سنوضح علاقة الذرة بالخلية والنواة في الكائنات الحية من حيث (الحجم والأسبقية). إذا قلنا بأن جزيء الماء مكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، فهذا يعني أن الذرة أصغر من الجزيء (في العنصر الكيميائي)، والجزيء أصغر جسيم في المركب. وتتكون الذرة من النواة كما أن الخلية تتكون من النواة، لذلك تعتبر النواة أصغر من الذرة وأصغر من الخلية. بالتالي تكون (الذرة والخلية) هما الأصل في الخلق. بشكل تفصيلي نقول: إن الذرة أصغر حجر بناء داخل العنصر الكيميائي، والخلية أصغر حجر بناء للكائنات الحية، فكلا الذرة والخلية وحدات بنائية، وأما النواة فهي تقع داخل الخلية وتسمى نواة الخلية وتحتوي على غالبية المادة الوراثية في الخلية سواء كانت خلية سليمة أو غير سليمة وتكون هذه المادة في

النواة على شكل جزيئات (حمض نووي صبغي أو حمض نووي ريبوزي منقوص الأوكسجين DNA) خطية منتظمة في بُنى تسمى الكروموسومات أو الصبغيّات. إذا كانت الخلية مسؤولة أو منتجة لأول مخلوق وهو آدم (عليه السلام) من خلال تفاعل الماء والتراب مع حرارة الشمس وهي المواد التي خلق منهما آدم عليه السلام، فإن النواة داخل الخلية في هذه الحالة تكون سابقة على الخلية باعتبار أن النواة تحتوي على المادة الوراثية التي توجد في ذرية آدم (عليه السلام) نتيجة عملية التناسل التراكمية والمعروفة باسم السلسلة الوراثية أو علم الوراثة لكل النوع البشري على الأرض. **السؤال هنا: كيف نفهم نواة آدم (عليه السلام) ونواة باقي البشر؟**

نواة آدم (عليه السلام) ونواة باقي البشر

بالنسبة لنواة آدم (عليه السلام) فإننا يجب أن ندرك ثلاث حقائق ذكرنا بعضها في شرحنا لسورة {الرحمن: 14} {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص324} وهي:

أولاً: أن العناصر التي دخلت على خلق أو تكوين جسد آدم (عليه السلام) قبل نفخ الروح فيه هي (حركة الريح والحرارة والماء) حيث إن حركة الريح أنتجتها سخونة أو حرارة الشمس الطبيعية، على حين عملت الريح على إنضاج أو استواء جسد آدم (عليه السلام) بفعل وجود الماء في التراب/الطين، حيث جفّ جسده ثم نفخ الله فيه الروح.

ثانياً: إن الله هو الذي قدّر موازين حركة الريح وحرارة الشمس لآدم (عليه السلام) في وقت أو لحظة خلقه، أي أن الطاقة وحركة الريح والحرارة كانت ثابتة بالنسبة لآدم (عليه السلام)، ولكنها ليست ثابتة بالنسبة لذرية آدم (عليه السلام). وقلنا إن معرفة طباع وتصرفات آدم (عليه السلام) يكون من خلال معرفة درجة حرارة الشمس وحركة

الريح ونوعية التربة وكمية الماء في المكان والزمن الذي خلق فيه آدم (عليه السلام)؛ لأن له تأثير على ذرية آدم (عليه السلام).

ثالثا: وجود الهيدروجين والأوكسجين في الفضاء البعيد، وأن اتحاد جزيئاتهما نشأ من خلال عملية تفاعلهما تزامناً مع تصادمهما وانطلاقهما بسرعة الضوء الذي أدى إلى تكون الكون، وأن السرعة مرتبطة بالحركة التي نتج عنها كل شيء. بالتالي فإن فهم نواة آدم (عليه السلام) يكون من خلال فهم نواة الكون، ومنها النواة التي يطلق عليها العلماء اسم "النواة المجرية النشطة" وفقاً للاكتشاف العلمي الحديث المسمى "الثقب الأسود"، حيث إن هذه النواة المجرية النشطة هي عبارة عن أقراص على شكل دوامات مكونة من الغاز والغبار تحاط بالثقوب السوداء، وهذه الأقراص تشع كميات كبيرة من الضوء والإشعاع، بحيث أن هذه الاشعاعات يمكنها أن تدمر الأغلفة الجوية للكواكب المجاورة فتكون منطقة ميتة حول الثقب الأسود [1]. علماً بأن أحد الثقوب السوداء يعد الأكثر سطوعاً والأسرع نمواً في آخر (9) مليارات سنة، وهو أكبر (3) مليارات مرة من كتلة الشمس، ويبتلع جزءاً من المادة بحجم الأرض كل ثانية. مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الثقوب السوداء تمثل نحو 1% من المادة في الكون [2]. نقول: إن حالة (العطش المادي) لهذه الثقوب السوداء تتطابق مع حالة (النهم المادي) لآدم (عليه السلام) من خلال إدراكنا لأصل السبب الذي أنزله الله من خلاله إلى الأرض وهو المساس بالشجرة في الجنة. ولهذا السبب قال علماء هارفارد إن إشعاعات من الثقب الأسود قد تخلق حياة [3]. بالتالي نقول: إن خلق الكون مرتبط بخلق آدم (عليه السلام)، لأن هذه الثقوب تتشكل نتيجة موت نجم ضخم عند استنفاد وقوده النووي، حيث تنهار النواة إلى الحالة الأعلى كثافة للمادة، وهي أكثر

---

[1] https://futurism.com/harvard-radiation-black-holes-life

[2] https://tinyurl.com/yckh2269

[3] https://futurism.com/harvard-radiation-black-holes-life

كثافة بعشرات المرات من نواة الذرة. أي أن الكون يموت مثل الإنسان ويلتهم نفسه نتيجة موت نواته. وكذلك موت الإنسان يتعلق بانهيار نواته داخل الخلية، وإن تقدير نوع العقاب أو العذاب الإلهي متعلق بحالة الجهد والبذل للنواة (أي حركة الإنسان منذ لحظة خلقه) وبالتالي للذرة التي تقع فيها النواة، ومن ثم للخلية التي تتكون من ذرات، والخلية أصلها خلية نباتية وحيوانية. ونقول: هذا كله يعيد الإنسان إلى درجة من درجات حياته الأولى، فإما أن يكون علوياً فوق كل شيء خلقه الله، أي في درجة من درجات جنته، وإما أن يكون سفلياً في أرضه الطبيعية التي خلقها الله عند آخر درجات النار الأرضية أو يكون بين الأرض والسماء. بالتالي تكون النجوم والأجسام النارية الملتهبة المكونة من غاز الهيدروجين، وكذلك المادة المظلمة والمجالات المغناطيسية المروعة في الفضاء الخارجي كلها جزء من هذا العقاب الإلهي الأخروي؛ لأن الأجسام في الكون تكون إما محترقة أو وهاجة أو مشعة ولذلك قال تعالى: "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير" {الملك: 5}.
أما بالنسبة للنواة في باقي البشر، فنقول: إن النواة داخل الخلية عُضَّيةٌ بغشاء مغلق أو تسمى عُضَيات خَلويّة أو عُضات غِشائية، حيث يبلغ قطرها من 5 إلى 10 ميكرو مترات، وهي أجزاء أو أجسام حية موجودة في سيتوبلازم الخلية حقيقية النواة بشكل عام، وتشمل كل من الشبكة البلازمية الداخلية وجهاز جولجي، المايتوكندريا، البلاستيدات، الجسيمات الحالة، هيكل الخلية، الجسيم الحركي والفجوات. فإذا أردنا أن نعرف حقائق السلاسل الوراثية، فيجب أن نفهم أسباب وجود العضيات في الخلايا "حقيقة النوى" فقط، ولا توجد في الخلايا "بدائية النوى"، وكذلك طرائق وأسباب اختلاف توزيع أنواع العضيات في الخلية النباتية عن الخلية الحيوانية. نقول: في الخلايا "حقيقية النوى" لأن "بدائيات النوى" هي وحيدة الخلية ومن ممالكها "مملكة البكتيريا البدائية" و "مملكة البكتيريا الحقيقية". أما "حقيقيات النوى" فمن

ممالكها "مملكة الطلائعيات" و "مملكة الفطريات" و "مملكة النباتات" و "مملكة الحيوانات". مما سبق نفهم عملية "الإحياء" للنطفة، باعتبار "الإحياء" خلقاً، مع القول بأهمية الأسباب التي تؤسس للخصوبة بالمعنى الطبيعي عند الرجل والمرأة، وهذا يتعلق ببنية الجسد وطبيعة الأطعمة التي يتناولها الإنسان، والتي أصل منشأها من التربة، بالإضافة إلى علاقة الخصوبة بالبناء القويم للجسد أو الاعتلال، وهذه مسألة فرعية يطول الحديث فيها، لكن ما يهمنا هنا هو التأكيد على القاعدة الأهم التي تنشأ منها هذه العملية وهي عملية "الإحياء" التي تسمى خلق. والجزء الأهم في عملية "الإحياء" هو نفخ الروح في الجسد، أي تحويل الإنسان من كائن نائم ساكن إلى كائن يقظ ومتحرك.

الملاحظة الثالثة: أننا استخدمنا جملة "المسار الإنشائي التراكمي" في رؤيتنا للمسار الثاني، وذلك استعارة من فهمنا للمفردة القرآنية "أنشأناه" في قوله تعالى: "ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" {المؤمنون: 14}. يعني ذلك أن الخلق الأول قبل النشء مختلف تماماً عن الخلق الآخر، وهذا الاختلاف هو اختلاف شكلي بنيوي، لكنه ليس اختلافاً جوهرياً، بمعنى آخر تبقى المادة الخام الأولى، الطين يليها صناعة الخلية أو النطفة هي الخلق الأول المراد منه قبل النشء، بينما يكون الخلق الآخر هو الصورة الأصلية للاكتمال والخروج من الخلق إلى العناية بالخلق. ويضاف إلى ذلك أن الآية جاءت على ذكر قوله تعالى: "فتبارك الله أحسن الخالقين"، فجُعل الله بوصفه أحسن خالق، وبوصفه محسناً إتقان خلقه، مشمولاً في أداء عمليته، الخلق الأول "من طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة" عندما تصبح مضغة، والخلق الثالث "الإنشاء"، مع النظر إلى الآلية العملية الدقيقة والاعتبارات الموضوعية في مسار تكوين كل خلق، باعتبار أن كافة المسارات هي في الأصل خلق من

ناحية مركزية. نستنتج مما سبق أن الله رسّخ للترابط الطبيعي والبيولوجي ما بين الخلق الأول "من طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"، والخلق الثالث "الإنشاء"، والخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد"، وقد عبّر الله عن الاختلاف بين الخلق الأول "من طين"، والخلق الرابع والأخير "البعث/بعث الروح في الجسد" في قوله تعالى في سورة العنكبوت: "أولم يروا كيف يُبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير (19) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير" (20). قيل إن الآية كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال "أولم يروا" على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بالتبيين، وبعضهم لا يفهمه أصلاً، فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض، أي سيروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل:

(المسألة الأولى): قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر، ما الحكمة فيه؟ نقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين، والرؤية أتم من النظر؛ لأن النظر يفضي إلى الرؤية، يقال نظرت فرأيت والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء، فقال في الأول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية.

(المسألة الثانية): ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام؛ لأن العلم الحدسي يصير الحاصل فكرياً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق، وأما العلم الفكري فهو مقدور، فورد الأمر به.

(المسألة الثالثة): أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدئ الله) وأضمره عند الإعادة وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة، حيث قال (ثم الله يُنشئ)؛ لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يُبدئ الله) ثم قال (ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد، اسمع مني كيف خرج، ولا يظهر اسم زيد، وأما إظهاره عند الإنشاء ثانياً حيث قال تعالى: "ثم الله يُنشئ" مع أنه كان يكفي أن يقول: ثم يُنشئ النشأة الآخرة، فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته، فإن قيل فلم لم يقل "ثم الله يعيده" لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة؟ نقول لوجهين: (أحدهما): أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو في قوله تعالى: "كيف يُبدئ الله الخلق" ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن مذكوراً عند البدء فأظهره (وثانيهما): أن الدليل ههنا تم على جواز الإعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس، كما قال تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم" {فصلت: 53} وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسي الحاصل لهذا الإنسان من نفسه، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله تعالى: "قل سيروا في الأرض" وعندما تم الدليلان، فأكده بإظهار اسمه، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثاني، فلم يقل "ثم الله يعيده".

(المسألة الرابعة): في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف يبدئ) وههنا قال بلفظ الماضي فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم

الحدسي، وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً، ويحصل المطلوب من هذا القدر فإنه يُنشئ كما بدأ ذلك [1]. نقول: إنه يراد من قوله تعالى: "كيف بدأ الخلق" أي الخلق الأول "من طين/تراب" قبل وجود الذرية، ويُراد بقوله تعالى: "ثم يعيده" وجهين: الوجه الأول: إما يعيده عبر الخلق الثاني من خلال ذرية آدم (عليه السلام)، من خلال "الإحياء للخلية/النطفة" ويفيد ذلك بسهولة تكرار النسل، وهو ما عبّر عنه في نهاية الآية بقوله تعالى: "إن ذلك على الله يسير". والوجه الثاني: أن يكون المقصود بقوله تعالى "ثم يعيده"، الخلق الرابع، وهو "البعث/بعث الروح من الجسد" بعد الموت والفناء، ويحدث ذلك يوم قيامة كل إنسان للحساب.

أما قوله تعالى: "فانظروا كيف بدأ الخلق" {العنكبوت: 20} فهو يشير هنا إلى الخلق الأول "من طين/تراب"، وقد ربط الله النظر بذكره كلمة "الأرض" في بداية الآية "قل سيروا في الأرض فانظروا"، كأنه يقول انظروا في الأرض خلال سيركم، وانظروا في هذه الأرض كيف بدأ الخلق، ما يعني أن الله يُريد التأكيد على صلة الإنسان بالمادة التي خلق منها وهي "الطين/التراب" وهي موجودة في الأرض. وبالتالي فالإنسان جزء من هذه الأرض، ولأن الأرض جزء كبير ومهم من الطبيعة، فإن الإنسان خلق منها ويعيش عليها ويدفن فيها. ويُراد بقوله تعالى: "يُنشئ النشأة الآخرة"{العنكبوت: 20}، وجهين: الوجه الأول: أي الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" في أرحام الأمهات، يصبح إنشاءً أخيراً، وهو ما يعني أن عملية نمو الأجنة سوف تتوقف، وسوف ينتهي إنشاء الأجنة في الأرحام، وعليه نفهم قوله تعالى: "وتضع كل ذات حمل حملها.." {الحج: 2}، والوجه الثاني: يقصد به

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص48، 49.

الخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد"، أي أن الله ينشئ آخر نشأة للإنسان من خلال إحياء عظامه بعدما كانت رميم، ويصورها مرة أخرى بهدف القيام للحساب يوم القيامة.

الآية الثانية: قال تعالى: "وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" {الأنعام: 133}.

قال الزمخشري: إن قوله "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" يعني من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح [1]. نقول: إن الخطاب هنا موجه للنبي محمد (ﷺ) وقومه، ولكن لا يعني بالضرورة أن يكون المقصود بالذرية أهل سفينة نوح كما يقول الزمخشري، بل قد يشتمل معنى الذرية على كل من سبق نسل محمد (ﷺ) وقومه، ومنه ذرية كافة الأنبياء السابقين لتعدد أقوامهم، وكل من تفرع منهم. وقال الطبري في تفسير قوله "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين"، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم [2]. أراد الطبري أن يساوي بين معنى الإنشاء من جهة، والإحداث والابتداع من جهة أخرى، والمعنيان صالحان بوصفهما تعبيراً عن حدث وهيئة وتشكيل للخلق البشري، وهذا التشكيل لهيئة البشر في أرحام النساء (ونقصد بالنساء الأمهات، وذلك لأسباب تتعلق بأهمية طبائع العلاقات الشرعية الرسمية بين الأزواج من ناحية جنسية، أي ذكورة وأنوثة) إنما هو المعنى الأصيل الذي يتبع الخلق "من تراب/طين"، ويتبع الخلق الاحيائي "من خلية أو نطفة". ونلاحظ أن الله جعل الاستخلاف للأقوام التالية في قوله "ويستخلف من بعدكم" مساو للإنشاء المتجدد

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج8، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص346.

[2] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص353.

للأقوام المتتالية لقوله "كما أنشأكم من ذرية". ما يعني أن للذرية من ناحية تعيين الخلق بصفته خلقاً إنسياً دور مركزي في عملية الاستخلاف. في هذا السياق، قال القرطبي: إن قوله "إن يشأ يذهبكم" بالإماتة والاستئصال بالعذاب، وقوله "ويستخلف من بعدكم ما يشاء" أي: خلقاً آخر أمثل منكم وأطوع. "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" والكاف في موضع النصب، أي: يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافاً مثل ما أنشأكم، ونظيره "إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين" {النساء: 133}. وقال تعالى: "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم" {محمد: 38}. فالمعنى يبدل غيركم مكانكم، كما تقول: أعطيتك من دينارك ثوباً [1]. نلاحظ أن الله ذكر كلمة "أنشأكم" في قوله تعالى "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين"، ولم يقل "كما خلقكم من ذرية قوم آخرين"، وقد سبق أن قلنا إن "الإنشاء/التصوير" هو الدرجة الثالثة بعد نوعين من الخلق، وهما الخلق الأول "من طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"، ما يعني أن "الإنشاء/التصوير" هنا يقصد به الإتمام بعد وضع الأساسات، وهو للتقريب في تمثيل المعنى نوع من البشر اكتمل نموهم في أرحام أمهاتهم مع أهمية الاحتفاظ بذكر نوعية وأصل هذا النشء الذي هو من تراب أولاً ثم من خلية أو نطفة ثانياً، وهو بهذا المعنى لا يقصد في قوله "أنشأكم" الأصالة في البحث عن أصل وطبيعة الخلق، سواء الخلق الأول "من طين" أو الخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة" أو بتوصيف آخر "التكوين بعد النفخ في الروح"، وإنما يقصد "الإنشاء/التصوير" الناتج عن ماهية وطبيعة التزاوج والنسب، وكأنه يقول إن ذريتكم هذه أصلها ناشئ من أنساب وذريات أخرى مختلفة ومتعددة سابقة بالمعنى البيولوجي، وله تأثير في أشكال وطبائع الذرية. وهو بذلك يشير إلى الانقسامات الاجتماعية

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص34، 35.

التاريخية التي تحدث عند تطور المجتمعات، وهذا خطاب معقول لأنه مرتبط بالإعلان عن القدرة الإلهية صراحة في مسألة الاستخلاف والتمكين للمستخلف حتى بعد تعدد الذريات واختلاف الأقوام لقوله "إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء"، أي أن الله جعل الاستخلاف مرتبط بالتطور الاجتماعي الطبيعي للبشر وطبائع أنسابهم وحصائد ذرياتهم، ولأنه مرتبط بالتطور الطبيعي الاجتماعي منذ الخلق الأول، أي آدم (عليه السلام)، فإنه قد "جعل الاستخلاف منذ عهد آدم (عليه السلام)، ومن ثم أصبح الاستخلاف لكافة البشر" [1].
فمرة يكون "مفرداً" كما في استخلاف داوود لقوله تعالى: "يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب" {ص: 26} ومرة يكون الاستخلاف "جمعاً" بحسب التقديرات الإلهية المختلفة، وأنواع التراتبية الدينية أو الاجتماعية وغيرها لقوله تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم" {الأنعام: 165}. أما فخر الدين الرازي فقال مفسراً الآية: إن قوله (ويستخلف من بعدكم) يعني من بعد ذهابكم. لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل الفائت. وأما قوله تعالى: "ما يشاء" فالمراد منه خلق ثالث ورابع، واختلفوا فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع، وقال أبو مسلم: بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجن والإنس. قال القاضي: وهذا الوجه أقرب؛ لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق، فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة، فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي

[1] إسحاق السعدي، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، ج2، ط1، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2013)، ص833.

النواب، فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبقاهم وأمهلهم، ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم. ثم بين تعالى علة قدرته على ذلك فقال تعالى: "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" لأن المرء العاقل إذا تفكر، علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة، وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها. وقرأ القراء كلهم (ذرية) بضم الذال وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال. قال الكسائي: هما لغتان [1]؛ لأن الرازي فتح باب التأويل بشأن تعدد معاني ودلالة قوله تعالى "ما يشاء"، فنقول: إن المشيئة هنا مرتبطة بالقدرة الإلهية بالدرجة الأولى، ومن ناحية ثانية، هي لا تنفك عن الخطاب الصريح في ثلاث مفاصل هامة في الآية، فالأول قوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم" والثاني قوله تعالى: "يستخلف" والثالث قوله تعالى: "ذرية" بمعنى نوعية النسل، وهو ما يجعل قوله تعالى: "ما يشاء" مرتبطة بإمكانية التخلي عنكم سواء بمنعكم أو هلاككم أو موتكم، أو لأي سبب مقدّر، وهي أيضاً مرتبطة بماهية الاستخلاف وبالذرية. كما أن المشيئة لمن سيأتي فيما بعد مرتبطة حتماً بالاستخلاف لقوله تعالى: "ويستخلف من بعدكم ما يشاء". أما إذا أردنا أن نثبت قول الرازي في قوله إن المراد من القول الإلهي "ما يشاء" يعني خلق ثالث ورابع، في دلالة على القدرة، فإننا نقول: إن القدرة الإلهية لا متناهية، ولكن أي معنى لأي خلق آخر أو أي عملية تجديد لخلق آخر لا يتجاوز حدود المعنى المتكامل والدقيق ذات الجدوى في النص القرآني، ولأن الإنسان، وعلى وجه التحديد آدم (عليه السلام)، هو من النوع الذي كرمه الله في طريقة استخلافه

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص212.

لقوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" {الإسراء: 70}. وهناك آية أخرى تشير إلى عدم تبديل خلق الله، لقوله تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" {الروم: 30}. هذه الآية تدل على ارتباط وثيق بين وجود الدين وأهميته في حياة الإنسان وفطرته التي خلق عليها، بمعنى أن عيش الإنسان بلا دين هي القاعدة الشاذة وليس العكس لما في الدين من ضرورات أخلاقية وإنسانية وحيوية تتعلق بالفطرة البشرية. بناءً على ما سبق، وبالتحديد الآيتين سابقتي الذكر، من غير الممكن أن يقدم الله خطاباً متناقضاً يفيد بإمكانية خلق نوع جديد مختلف عن البشر، بل هو يؤكد إمكانية تغيير النشء المرتبط باستخلاف أو اصطفاء أو تزكية أقوام جديدة وتوفيقها، تماماً كما حدث مع أقوام عديدة في التاريخ قبل قوم النبي محمد (ﷺ)، ومنها قوم آل إبراهيم وآل عمران وغيرهم. ومع ذلك، رغم حجتنا المثبتة بالآيات القرآنية على عدم وجود تنافسية مع خلق آخر مشابه لخلق الإنسان، إلا أننا لا ننفي أي صفات تتعلق بالقدرة الإلهية على خلق بشر بصور مختلفة أو مشابهة لآدم (عليه السلام)، مع تحقق الشروط الإلهية فيها، والتي ورد ذكرها في القرآن، وهي أن تكون أكثر تكريماً من الإنسان، وكذلك وفق شريعة مماثلة في المعنى وغير مخالفة للشرع والمنهاج الإلهي.

الآية الثالثة: قال تعالى: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب" {الرعد: 38}.

قيل: إن اليهود عابوا على النبي الأزواج، وعيّرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" أي: جعلناهم

بشراً يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا. كما أن هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال رسول الله في الحديث: "تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم". وقال: "من تزوج فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الثاني. ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله عليهما الجنة، فقال: "من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة، ما بين لحييه وما بين رجليه" خرجه الموطأ وغيره [1]. وذكر الرازي: أن القوم كانوا يذكرون أنواعاً من الشبهات في إبطال نبوة النبي محمد (ﷺ)، فقالوا: الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: "لو ما تأتينا بالملائكة" {الحجر: 7} فأجاب الله تعالى عنه ههنا بقوله تعالى: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" يعني أن الأنبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فإذا جاز ذلك في حقهم فلم لا يجوز أيضاً مثله في حقه [2]. وقال الخوارزمي: كانوا يعيبون النبي محمد بالزواج والأولاد، كما كانوا يقولون "ما لهذا الرسول يأكل الطعام" {الفرقان: 7}. فقيل: كان الرسل قبله بشراً مثله ذوي أزواج وذرية [3]. وذكر البيضاوي في تفسير قوله "وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" أي: نساء وأولاداً [4].

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص84، 85.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص64.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج13، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص542.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص210.

نقول إن الآية فيها ثلاث مسائل:

أولاً: تؤكد على أن نوع الرسل من ناحية كونهم بشر عاديون، مخلوقون من ماء مهين، لكن وجه الاختلاف الوحيد هو أنهم مصطفون ومكلفون من الله بنقل تعاليم كل رسالة سماوية أمروا بنقلها عبر الوحي، وكذلك هم بمثابة المعلمين والناصحين والمرشدين للناس.

ثانياً: إن ذكر كلمة "أزواجاً" لها دلالة على وجود الاختلاف الجنسي البيولوجي لنوعين من الناس وهما الذكر والأنثى، فكلمة "رسلاً" في الآية تعبير عن النوع الجنسي وهو الذكورة، وكلمة "أزواجاً" تعبير عن النوع الجنسي وهو الأنوثة، أي جعلنا إناثاً للرسل.

ثالثاً: يلاحظ أن كلمة "أزواجاً" سبقت كلمة "ذرية" في الآية لقوله تعالى: "وجعلنا لهم أزواجاً وذرية" وهو ما يدل على أن الذرية المذكورة في الآية تخص الرسل أولاً لأنها من أصلابهم، وهي ذرية ناتجة عن تزاوج الرسل من النساء، أي هي ذرية نتيجة علاقات وروابط جنسية اجتماعية صحية وشرعية بين الرسل وزوجاتهم كل حسب دوره الوظيفي.

رابعاً: أراد الله أن يميز بين طبيعة النوع الذي عليه الرسل، وهو النوع الإنسي، وبين التكليف، ففي حال التكليف قال في الآية "وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله" أي أن التكليف للقيام بمهمة النبوة مرتبط بضرورة توضيح ماهية الخلق، ولأن مهمات الرسل والأنبياء مهمات تكليفية سماوية في الوقت الذي يصنفون به كبشر، فهذا له عبرة تدل على أن الله وضع قواعد الممكن في توضيح أساسات عملية الاتصال بين السماء والأرض، أي الاتصال بين البشر والإله جل في علاه. وقد دل القرآن على ذلك وحاجج الناس بإنسية الرسل في بعض الآيات ومنها:

- قوله تعالى: "وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً" {الإسراء: 94}.

- وقوله تعالى: "لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم" {آل عمران: 164}.
- وقوله تعالى: "فقالوا أبشر منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر" {القمر: 24}.

خامساً: أما كلمة "وجعلنا" في قوله تعالى: "وجعلنا لهم أزواجاً"، فالجعل هنا يقصد به الخلق.

الآية الرابعة: قال تعالى: "ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً" {الإسراء: 3}.

هذه الآية تتعلق بما قبلها وهو قوله تعالى: "وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً" {الإسراء: 2}. قيل: "ذرية من حملنا" نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي، يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح" [1]. وقال ابن كثير: إن قوله "ذرية من حملنا مع نوح" تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم، "إنه كان عبداً شكوراً" فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً. وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً، (عليه السلام)، كان يحمد الله تعالى على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سُمي عبداً شكوراً [2]. وفي نصب ذرية وجهان: الأول: أن يكون نصباً على النداء، يعني: يا ذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لأنه قال: هذا نداء. قال الواحدي: كأنه قيل لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة. قال

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج15، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص590.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص46.

قتادة: الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين: سام وحام ويافث. فالناس كلهم من ذرية أولئك، فكان قوله يا ذرية من حملنا مع نوح، قائماً مقام قوله تعالى: "يا أيها الناس". والوجه الثاني: في نصب قوله (ذرية) أن الاتخاذ فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: "واتخذ الله إبراهيم خليلاً" والتقدير: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، ثم إنه تعالى أثنى على نوح فقال تعالى: "إنه كان عبداً شكوراً" أي كان كثير الشكر، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أكل قال "الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني" وإذا شرب قال "الحمد لله الذي أسقاني ولو شاء أظمأني" وإذا اكتسى قال "الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني" وإذا احتذى قال "الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني" وإذا قضى حاجته قال "الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه" وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجاً آثره به [1]. وقيل المعنى: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا. وذكر نوحاً ليذكرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً، فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال. وقيل: المعنى: أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله تعالى من ذرية نوح. وقيل: يجوز أن يكون "ذرية" مفعولاً ثانياً لـ "تتخذوا"، ويكون قوله: "وكيلاً" يُراد به الجمع، فيسوغ ذلك في القراءتين جميعاً، أعني الياء والتاء في "تتخذوا". ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون "ذرية" بدلاً من قوله: "وكيلاً"؛ لأنه بمعنى الجمع، فكأنه قال: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح [2]. تشير هذه الآية إلى أن ذرية من

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج20، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص155.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17، 18.

حُمل مع نوح في السفينة ليسوا بمقام الألوهية وهم ليسوا وكلاء نيابة عن الله، وفي ذلك تأكيد على أن الذرية التي كانت قبل نوح ثم رافقته ليست إلا ذرية إنسية. ومعنى الذرية المقصودة في الآية ناتجة عن النوع الثاني من الخلق، وهو "الإحياء للخلية/النطفة"، وهو خلق إنشائي تكويني في أرحام النساء، لأن الذرية التي اصطحبت نوحاً لم تخلق من طين/تراب مباشرة، وذلك لأن بين نوح وآدم (عليه السلام) الذي خلق من تراب/طين حوالي عشرة قرون على الأقل، وذلك بحسب نص الآية في قوله تعالى: "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون" {العنكبوت: 14}. الآية تشير إلى أن الألف سنة (أي عشرة قرون إلا خمسين عاماً) هي مخصصة لقوم نوح الذي لبث فيهم يدعوهم إلى رسالة الله، ما يعني أن قوله "ذرية من حملنا مع نوح" تشير إلى تعدد الذرية وتنوعها، وهي ثلاثة أنواع (كما سيأتي توضيحه) سواء كانت من ناحية القرب أو البعد الزمني أو البيولوجي من نوح (عليه السلام)، ومنهم ذريته السابقة أو النسل المأصول، "ومن بينهم إدريس وهو جد نوح" كما قال الطبري [1]، أو الذرية التي من صلبه مباشرة مثل أبناءه أو الذرية التي عاشت تحت كنفه، وهي قومه الذين هم ليسوا من نسله مباشرة أو من الذرية اللاحقة القريبة والبعيدة زمنياً. ومن هذه الذرية داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وذلك وفق نص الآية في قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين" {الأنعام: 84}. نقول: إن قوله تعالى "ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً" هو بمثابة مثال لتذكير بني إسرائيل كي لا يتخذوا من دون الله وكيلاً، وهو مؤكد في الآية الثانية التي سبقتها في قوله تعالى: "وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص165.

وكيلاً" {الإسراء: 2}. كما نلاحظ في الآية أن الله تعالى قال: "ذرية من حملنا مع نوح" ولم يقل "ذرية نوح"، وهذا يشير إلى مسألتين، **الأولى**: أن تكون هذه الذرية تابعة "للمحمولين" مع نوح، كأنه يقول "ذرية الأشخاص الذين حملناهم مع نوح"، فيصير النسب في الذرية لمن حملناهم مع نوح، وليس بالضرورة لذرية نوح مباشرة، أي ليست من صلب نوح رأساً، بل من صلب من كانوا معه أو قبله.

والثانية: أن تكون هذه الذرية تابعة لنوح مباشرة، أي من صلبه، وحُملت معه على سبيل النجاة والإخلاص لنوح لأنه كان عبداً شكوراً كما جاء في وصفه بالآية. وبالتالي فهي تشمل أبناء نوح من صلبه مباشرة، وهم "سام وحام ويافث"، وهذا يعني أن ذرية نوح المباشرة مشمولة أو مشار إليها في هذه الآية صراحة. وهذا يشمل بعضاً من قومه أو نسله، مثل الأنبياء الوارد ذكرهم في قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون" {الأنعام: 84}، أي من "ذرية نوح"، وهذا على وجه الذكر والتبعيض، وليس التخصيص للذرية القريبة في النسل من الدرجة الأولى. ومع ذلك نقول بوضوح إن المقصود في كل من جاء ذكره مع نوح من الذرية يشمل القريب والبعيد في النسل، وهم ثلاثة أنواع: **الأول:** نسل سابق مأصول النسب لغير نوح. **والثاني:** نسل مباشر من صلب نوح. **والثالث:** نسل لاحق قريب وبعيد زمنياً، والأنبياء المذكورة أسماءهم في سورة {الأنعام: 84} هم من النسل اللاحق البعيد زمنياً. كما أن معنى "حملنا" في قوله "ذرية من حملنا مع نوح" يأتي على وجهين، فهو إما حمل مادي أو معنوي، أي أن النجاة مع نوح، قد تكون مادية أو معنوية أو كلاهما معاً، أي النجاة وفق دعوة نوح إلى الله تعالى، وهي دعوة مخصوصة بعدم الشرك بالله، وهو واضح في شرح الآيتين (172) و (173) من سورة الأعراف {انظر الشرح في هذا الفصل، ص431 -468} كأن الله يقول: إن نوحاً الذي كان عبداً شكوراً عاصر ذرية، وقد حُملت معه في السفينة، وهذه

الذرية هي المثال الواضح على عدم اتخاذ أي وكيل من دون الله، ولأن نوحاً كان عبداً شكوراً فقد نجاه الله وذريته التي حملناها معه، لأنها لم تتخذ من دون الله وكيلاً، وهكذا الحال مع بني إسرائيل الذين آتيناهم موسى بالكتاب وجعلناه هدى لهم، يجب ألا تتخذوا (كما في الخطاب القرآني) من دون الله وكيلاً تماماً مثل نوح. وبالتالي فإن الاحتجاج كان مخصوصاً للذرية التي حُملت مع نوح بشكل مادي واقعي في الفترة التي كان لهذه الذرية وجود في الوقت المذكور في سورة {العنكبوت: 14} وهو عشرة قرون أو أكثر، بعد زمن آدم (عليه السلام) لأسباب تتعلق بعدم معرفة كافة الأزمان الدقيقة بين كل نبي ومن تبعه باستثناء بعض الأزمان الخاصة بالدعوة والتي ورد ذكرها في القرآن، فإنه يصعب معرفة المحمولين مادياً مع نوح للنجاة إلا بشكل تقريبي. لذلك قال الطبري إنه "عني بالذرية: جميع من احتج عليه جل ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم، عربهم وعجمهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم، فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة [1]. وفي بعض الروايات، كما عند المهدوي وقد ذكره القرطبي، يُراد بالذرية في قوله "ذرية من حملنا مع نوح" كل من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع من على الأرض" [2]. نقول: إن الحجة بالإشارة إلى أن كلمة "ذرية" واشتمالها على نسل كافة سكان الأرض، وكل من احتج عليهم القرآن كما ورد سابقاً، هي حجة ضعيفة باعتبار أن الذرية ناتجة عن أربعة أنواع من الخلق، وهي التي قسّمناها وأوضحناها في هذا الكتاب، نسبة إلى الخلق الأول "من طين/تراب"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة وانطلاق التكوين"، والخلق الثالث "الإنشاء والتصوير"، والخلق

---

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص9.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص17.

الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد". نقول: إن كلمة "ذرية" لا تشتمل على كل من احتج عليهم القرآن بسبب تخصيص حادثة النجاة وقتها لفئة معينة ولأسباب واضحة معلنة، وبسبب حدوث الانقطاع بين نسل وآخر، وهو انقطاع مستمر إلى يوم القيامة، فهو يحدث في وقت تحقق الخلق الرابع "أي البعث/بعث الروح في الجسد"، وذلك بوصف الآية القرآنية: "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" {المؤمنون: 101}.

الآية الخامسة: قال تعالى: "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً" {مريم: 58}.

قال القرطبي: "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم" يريد إدريس وحده. "وممن حملنا مع نوح" يريد إبراهيم وحده. "ومن ذرية إبراهيم" يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب. "وإسرائيل" أي من ذرية إسرائيل" أي موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى. فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم [1]. يريد القرطبي الإشارة إلى وحدوية الذرية، وأنه إن تعدد نسلها فهي تبقى كلها من ذات الأصل والصلة إلى الآباء، فالجميع لآدم وآدم من تراب. كما تشير الآية إلى أن نعمة النبوة كانت في الأصل لكامل ذرية آدم (عليهم السلام)، ولم تنقطع حتى وفاة النبي محمد (ﷺ) بعد اكتمالها. ولذلك كي لا يغفل الله عن هذه الذرية وتعددها قال في القرآن: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر {آل عمران: 110}، والأمة هنا تشمل الذرية التي جاء منها نسل النبي

---

[1] المصدر السابق، ص470.

محمد (ﷺ) والأنبياء كلهم لأنهم مشمولون في معنى الأمة نسبة للنسب إلى معنى النبوة، تماماً كما هو نسبة للنسب إلى معنى الدين الإسلامي، وتماماً كما هو نسبة للنسب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال ابن جرير: ولذلك فرّق الله ذكره أنسابهم، وإن كان آدم يجمع بينهم جميعهم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جد نوح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد من أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: "لا إله إلا الله" ويعملوا ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله عزوجل. ومما يؤيد أن المراد بهده الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم (83) ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (84) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (85) وإسماعيل وإليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين (86) ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم" (87). وقال تعالى: "منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" {غافر: 78} [1]. ونشير إلى أنه جاء في آيتين قبل الآية (58) قوله تعالى: "واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً (56) ورفعناه مكاناً علياً" (57). قيل: "إن إدريس هو أول من أعطي النبوة من بني آدم" [2]. ولذلك جاء القرآن متسلسلاً في الذكر والإشارة إلى أصل الذرية. أما الآيات التالية من (83) حتى (87) فهي توضح سلسلة الذرية التي جاءت بعد إبراهيم باعتباره

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص242.

[2] محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص892.

مكرماً ومرفوعاً درجات عند الله، ثم أوضحت الآية أن نوحاً جاء قبل إبراهيم، وذلك في قوله "ونوحاً هدينا من قبل"، وأشار إلى ذريته وهي " داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون". ما يعني أن نسل موسى الذي بُعث نبياً لبني إسرائيل ينحدر من النبي نوح وفق سلسلة الذرية بحسب وصف الآية. وأما قوله في نهاية الآيات "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم" فإننا هنا نشير إلى أهمية ذكر "آبائهم" قبل "ذرياتهم" وهذا يدل على دقة وأهمية القرآن في توصيف جذر وأصل النسل أنه يأتي من الآباء، وقد كان أول الآباء آدم (عليه السلام) ولهذا السبب فهو معروف وموصوف بأنه أبو البشر، وهذه الآية تؤكد ذلك. وذكر "إخوانهم" بعد كلمة "ذرياتهم" في إشارة إلى أن الإخوة هم الأصل في تعدد النسل، تماماً مثلما كان لآدم ابنيه هابيل وقابيل، وهما أخوين، والأخوة أو النسل الأخوي درجة ثانية في الذرية بعد النسل الأبوي، فالناس تُعرّف نسل الأب فتذكر أبناءه، ثم تُعرّف وتعدد نسل الابن الذي هو تابع للأب وتُعرّف أبناءه. وقيل: إن "من" في قوله "من ذرية آدم" للتبعيض "وممن حملنا مع نوح" أي: من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح "ومن ذرية إبراهيم" وهم الباقون، "وإسرائيل" أي: ومن ذرية إسرائيل، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى، وقيل: إنه أراد بقوله: "ومن ذرية آدم" إدريس وحده، وأراد بقوله: "وممن حملنا مع نوح" إبراهيم وحده [1]. نقول: إذا كانت "من" للتبعيض في قوله "من ذرية آدم" فذلك يعني أن المقصودين هم فقط مشمولي الذكر في الآية من الأنبياء لأنه قال أيضاً في الآية (58) بعدها "ممن هدينا واجتبينا" وهذا يعني أن المقصود بقوله "من ذرية" هم "ممن هدينا واجتبينا" أي كل الذين جاء على ذكرهم في الآيات لاحقاً. وأما قوله "وممن حملنا مع نوح"

[1] المصدر السابق، ص892.

فالبعض قال إنه إدريس مثل قول ابن جرير الذي ذكره ابن كثير [1]، والبعض قال إنه إبراهيم كما سبق وأشار القرطبي [2] في تفسيره للآية (58)، ولكني أوضحت هذه المسألة في سورة {الإسراء: 3} التي شرحناها في الآية السابقة، والتي ورد فيها قوله تعالى: "ذرية من حملنا"، وأما هنا في هذه الآية فيقول تعالى: "وممن حملنا مع نوح"، وهما يأتيان على معنى الحمل، وقد سبق أن أشرت إلى أن للحمل معنيان مادي ومعنوي، والنجاة مادية ومعنوية، فيكون معنى "وممن حملنا مع نوح" للنجاة هو إشارة إلى ما هو مادي أو معنوي أو كلاهما معاً.

للتثبيت نقول: إن هناك ثلاثة أنواع من الذرية التي حُملت مع نوح بالمعنيين المادي والمعنوي، وهي ذرية سابقة "أي نسل قومه المأصول والمعروف النسب"، ومباشرة "أي من صلبه"، ولاحقة "أي من أصلاب أبناءه ومن تبعهم".

أولاً: بالنسبة للذرية السابقة، أو النسل المأصول، كان معه إدريس من الذرية السابقة التابعة لآدم (عليه السلام)، والتي يعتبر نوح من نسلها. قال الرازي: "الذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام" [3]. وقيل إن إدريس "هو سبط شيث وجد نوح عليهما السلام" [4]. وشيث هو من أبناء آدم (عليه السلام)، ما يعني أن إدريس هو من الذرية القريبة نسبياً لآدم ونوح (عليهما السلام)

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص242.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص470.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص235.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج16، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص371.

بالمفهوم القديم للمعنى الزمني آنذاك. كأن النجاة مع نوح في قوله "وممن حملنا مع نوح" هي نجاة لذرية آدم المباشرة، وذلك إذا قلت إن معنى الآية محل الشرح {مريم: 58} هكذا "وممن حملنا مع نوح من ذرية آدم بما فيها من النبيين الذين أنعم الله عليهم"، وهذا مبرر في صيغة التتابع المتعلق بتسلسل الذرية الزمني في لغة النص القرآني لقوله تعالى في سورة آل عمران: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (33) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم" (34).

ثانياً: الذرية المباشرة التي هي من صلبه، وقد كان معه "سام وحام ويافث". "قال قتادة: الناس كلهم ذرية نوح؛ لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين: سام وحام ويافث" [1].

ثالثاً: كان معه الذرية اللاحقة على المستوى القريب والبعيد زمنياً، ومنهم على وجه الذكر لا الحصر كما جاء في الآية من قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين" {الأنعام: 84}.

الآية السادسة: قال تعالى: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" {الأعراف: 173}.

هذه الآية مرتبطة بالآية التي قبلها لقوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" {الأعراف: 172}. يقول تعالى ذكره لنبيه محمد (ﷺ): واذكر يا محمد، وبك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج20، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص155.

على بعض شهادتهم بذلك واقرارهم به [1]. بعدما أثبت الله منبع الذرية في كل خلق من بني آدم (عليه السلام)، أراد أن يبين علاقة الذرية بالزمن الماضي والحاضر والمستقبل، مستخدماً خطاب الكفر والإيمان مع إثبات علاقته بالذرية. وذكر الذرية يتعلق بالتمييز في العلاقة بين الآباء والأبناء، وما كان من قبل، وما هو كائن فيما يتعلق بخطاب الشرك والإيمان.

الآية السابعة: قال تعالى: "فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين" {يونس: 83}.

قال ابن عباس: لفظ الذرية على وجوه: الأول: أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد. الثاني: قال بعضهم: المراد أولاد من دعاهم، لأن الآباء استمروا على الكفر، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف. الثالث: أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل. الرابع: الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها. أما الضمير في قوله "من قومه" فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون، لأن ذكرهما جميعاً قد تقدم والأظهر أنه عائد إلي موسى، لأنه أقرب المذكورين [2]. وقال البيضاوي في تفسير قوله "إلا ذرية من قومه" يعني إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، وهم مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص221.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج17، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص150.

وزوجته وماشطته [1]. وقال الزمخشري: "إلا ذرية من قومه" يعني إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه [2]. وذكر الطبري أن "الذرية" في هذا الموضع، أُريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل [3]. وأورد القرطبي أن "الذرية": هي أعقابُ الإنسان، وقد تكثر. وقيل: أراد بالذرية مؤمني بني إسرائيل. قال ابن عباس: كانوا ست مئة ألف، وذلك أن يعقوب (عليه السلام) دخل مصر في اثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ست مئة ألف. وقال ابن عباس أيضاً: "من قومه" يعني: من قوم فرعون، منهم مؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأته، وماشطة ابنته، وامرأة خازنه. وقيل: هم أقوام آباؤهم من القبط، وأمهاتهم من بني إسرائيل، فسُموا ذرية كما يُسمى أولاد الفرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء؛ لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم؛ قاله الفراء. وعلى هذا فالكناية في "قومه" ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات، وإلى فرعون إذ كانوا من القبط [4]. قال ابن كثير: الذرية وهم من الشباب. وقال العوفي: إن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، ومنهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه [5]. نقول: إن الآية فيها قصر وحصر يقوم على أداة الاستثناء في الجملة وهي "إلا"

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج11، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص112، 113.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج11، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص471.

[3] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص234.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج11، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص31، 32.

[5] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج4، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص287.

والمحصور عليه في الآية هو الاسم الواقع بعد أداة الحصر وهو في هذه الحالة "ذرية من قومه". والذرية جزء مخصوص من القوم ما يعني أنه يشير إلى عدد قليل من القوم لهم صفات القرب من موسى باعتبارهم من ذريته وهم الأكثر صلة به. ونلاحظ في هذه الآية أن ذكر كلمة "الذرية" ارتبط بالإيمان، أي الإيمان بالله وبأن موسى رسول الله، وهذا يُضاف إلى الآيات الأخرى التي ارتبط فيها ذكر كلمة "الذرية" بالإيمان أو الإسلام أو الشهود بوحدانية الله وربوبيته، ومن هذه الآيات على سبيل المثال ما يلي:

- قال تعالى في سورة الأعراف: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (172) أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" (173).
- قال تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" {الطور: 21}.
- قال تعالى في سورة البقرة: "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم" (128).
- قال تعالى: "وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين" {الأحقاف: 15}.
- قال تعالى: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" {إبراهيم: 40}.

الآية الثامنة: قال تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه

الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" {البقرة: 266}.

روي عن ابن عباس وغيره: أن هذا مثل ضربه الله تعالى للكافرين والمنافقين، كهيئة رجل غرس بستاناً، فأكثر فيه من الثمر، فأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء (يريد صبياناً، بنات وغلماناً) فكانت معيشته ومعيشة ذريته من ذلك البستان، فأرسل الله على بستانه ريحاً فيها نار فأحرقته، ولم يكن عنده قوة فيغرسه ثانية، ولم يكن عند بنيه خير فيعودون على أبيهم. وكذلك الكافر والمنافق إذا ورد إلى الله تعالى يوم القيامة ليست له كره يُبعث فيرد ثانية، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية، ولم يكن عند من افتقر إليه عند كبر سنه وضعف ذريته غنى عنه [1]. وقال الشوكاني في تفسير قوله: "وله ذرية ضعفاء" هي حال من الضمير في أصابه، أي: والحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السن، وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة [2]. وذكر البيضاوي في معنى قوله تعالى: "وله ذرية ضعفاء" أي صغار لا قدرة لهم على الكسب [3]. نقول: إن الذي "أصابه الكبر" والذي "له ذرية ضعفاء" كما جاء في الآية يعود إلى قوله "أحدكم" في بداية الآية، أي "أحدكم الذي أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء"، وقوله تعالى: "أحدكم" تعود إلى "الذين ينفقون أموالهم" الوارد ذكرها في الآية السابقة في قوله تعالى: "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌ والله بما تعملون

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج4، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص342.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص184، 185.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص225.

بصير" {البقرة: 265}. تشير الآية إلى العلاقة بين ما يملكه الإنسان وكسبه وإنفاقه، وعلاقة ذلك بعمره وحال ذريته. لقد جعل الله في هذا المثل تشبيهاً بين عجز الإنسان في قوله تعالى: "وأصابه الكبر" وضعف الذرية في قوله تعالى: "وله ذرية ضعفاء" من جهة، وانفعال وإصابة الطبيعة وأحوالها بالضرر بما فيها من ثمر كالنخيل والأعناب والأنهار من جهة أخرى، وذلك في قوله تعالى: "فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت". إن هذا التصوير الإلهي لهذه العلاقة بين الإنسان وما يملكه في الطبيعة، يدل على أن الطبيعة مسخرة للإنسان وأنها قد تهرم وتصاب بالعجز مثله، إما كنتيجة طبيعية أو ابتلاء من الله، وذلك كمثال ضربه الله للمنفقين أموالهم رياء الناس.

الآية التاسعة: قال تعالى: "وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً" {النساء: 9}.

هذه الآية اختلف العلماء في تأويلها؛ فقالت طائفة: هذا وعظ للأوصياء، أي: افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم؛ قاله ابن عباس. وقالت طائفة: المراد جميع الناس، أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حُجورهم، وأن يُسددوا لهم القول كما يريد كل واحد أن يفعل بولده بعده. وقول ثالث؛ قال جمع من المفسرين: هذا في الرجل يحضره الموت، فيقول له من بحضرته عند وصيته: إن الله سيرزق ولدك، فانظر لنفسك، وأوص بمالك في سبيل الله، وتصدق وأعتق. حتى يأتي على عامة ماله أو يستغرقه، فيضر ذلك بورثته، فنُهوا عن ذلك. فكأن الآية تقول لهم: كما تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم، ولا تحملوه على تبذير ماله. قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد. روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: إذا حضر الرجل الوصية فلا ينبغي أن يقول: أوص بمالك، فإن الله تعالى

رازق ولدك، ولكن يقول: قدّم لنفسك واترك لولدك، فذلك قوله تعالى: "فليتقوا الله". وقال مِقسم وحضرمي: نزلت في عكس هذا، وهو أن يقول للمحتضر من يحضره: أمسك على ورثتك، وأبق لولدك، فليس أحد أحق بمالك من أولادك. وينهاه عن الوصية، فيتضرر بذلك ذوو القربى، وكل من يستحق أن يوصي له. فقيل لهم: كما تخشون على ذريتكم، وتسرون بأن يُحسن إليهم، فكذلك سددوا القول في جهة المساكين واليتامى، واتقوا الله في ضررهم [1]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة. وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنه، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. قال: فالشطر؟ قال: لا. قال: فالثلث؟ قال: "الثلث، والثلث كثير". ثم قال رسول الله: "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" [2]. في الآية مسائل، منها أن قوله في الآية يوجب الاحتياط للذرية الضعاف، وللمفسرين فيه وجوه: الأول: أن هذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون: إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئاً، فأوص بمالك لفلان وفلان، ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى ألا يبقى من ماله للورثة شيء أصلاً، فقيل لهم: كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم في الضعف والجوع من غير مال، فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج6، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص87، 88، 89.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص222.

الضعفاء من ماله. وحاصل الكلام أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك، فلا ترضه لأخيك المسلم.

والقول الثاني، قال حبيب بن أبي ثابت: سألت مقسماً عن هذه الآية فقال: هو الرجل الذي يحضره الموت ويريد الوصية للأجانب، فيقول له من كان عنده: اتق الله وأمسك على ولدك مالك، مع أن ذلك الإنسان يحب أن يوصي له، ففي القول الأول الآية محمولة على نهي الحاضرين عن الترغيب في الوصية، وفي القول الثاني محمولة على نهي الحاضرين عن النهي عن الوصية، والأول أولى، لأن قوله "لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً" أشبه بالوجه الأول وأقرب إليه.

والقول الثالث، يحتمل أن تكون الآية خطاباً لمن قرب أجله، ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته ضائعين جائعين بعد موته، ثم إن كانت هذه الآية إنما نزلت قبل تقدير الوصية بالثلث، كان المراد منها ألا يجعل التركة مستغرقة بالوصية، وإن كانت نزلت بعد تقدير الوصية بالثلث، كان المراد منها أن يوصي أيضاً بالثلث، بل ينقص إذا خاف على ذريته والمروي عن كثير من الصحابة أنهم وصوا بالقليل لأجل ذلك وكانوا يقولون: الخمس أفضل من الربع، والربع أفضل من الثلث، وخبر سعد يدل عليه. والقول الرابع، أن هذا أمر لأولياء اليتيم، فكأنه تعالى قال: وليخش من يخاف على ولده بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذي هو ذرية غيره إذا كان في حجره، والمقصود من الآية على هذا الوجه أن يبعثه سبحانه وتعالى على حفظ ماله، وأن يترك نفسه في حفظه والاحتياط في ذلك بمنزلة ما يحبه من غيره في ذريته لو خلفهم لهم مالاً. قال القاضي: وهذا أليق بما تقدم وتأخر من الآيات الواردة في باب الأيتام، فجعل تعالى آخر ما دعاهم إلى حفظ مال اليتيم أن ينبههم على حال أنفسهم وذريتهم إذا تصوروها، ولا شك أنه من أقوى الدواعي والبواعث في هذا المقصود

[1]. نقول: لأن الآيات السابقة والتالية لهذه الآية تتحدث عن الورثة والنصيب والقسمة والوصية، فإن هذه الآية جاءت لتؤكد على أهمية العلاقة المادية بين الإنسان وذريته، وفيها تثبيت لأهمية الأولوية والتراتبية في عملية التكافل المالي الاجتماعي. وترسخ هذه الآية لعلاقة الإنسان المتوفي أو الذي على وشك الوفاة بذريته، وفي الأمر دليل على جدوى وأهمية علاقة كل إنسان بمن سيبقى بعده حياً من ذريته. وأما قوله تعالى: "فليخش" في بداية الآية ففيه تحذير ضمني بصيغة الأمر من التنكر لحقوق الذرية وبالتحديد في حال كانوا ضعفاء. يعتبر هذا الخطاب جزءاً من الخطاب الإلهي الطبيعي الذي يجمع بين علاقة النشء والذرية بالأمن الغذائي، الذي أشار إليه القرآن في مواضع متعددة سواء في وجود الرزق عند مريم (عليها السلام) كما في قوله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37} أو حتى في علاقة ابني آدم (عليه السلام) هابيل وقابيل الذين قربا كل واحد منهما قرباناً في قضية التناكح والتناسل، لما ورد ذكره في القرآن لقوله تعالى: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين" {المائدة: 27}. في هذه الآية سوف نشرح ما يتعلق بالقربان ودلالة قبول أحدهما ورفض الآخر، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية دلالة ورود كلمتي "نبأ" و "الحق" وقد شرحنا معنى كلمة النبأ في قوله تعالى: "ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر" {القمر: 28} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص113}. قيل: القربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة. وتقدير الكلام وهو قوله تعالى: "إذ قربا قرباناً"

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج9، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص205، 206.

قرب كل واحد منهما قرباناً إلا أنه جمعهما في الفعل وأفرد الاسم، لأنه يستدل بفعلهما على أن لكل واحد قرباناً. وقيل: إن القربان اسم جنس فهو يصلح للواحد والعدد، وأيضاً فالقربان مصدر كالرجحان والعدوان والكفران والمصدر لا يُثنى ولا يجمع [1]. أما بخصوص تفاصيل القصة فسوف أذكر أهم ما جاء في تفسيرها ثم نقدم رأينا. قال الرازي: واتل عليهم: أي على الناس. والثاني: واتل على أهل الكتاب، وفي قوله تعالى "ابني آدم" قولان: الأول: أنهما ابنا آدم من صلبه، وهما هابيل وقابيل. وفي سبب وقوع المنازعة بينهما قولان: أحدهما: أن هابيل كان صاحب غنم، وقابيل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قرباناً، فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً، وطلب قابيل شر حنطة في زرعه فجعلها قرباناً، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل، فعلم قابيل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله. وثانيهما: ما روى أن آدم (عليه السلام) كان يولد في كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر، فولد له قابيل وتوأمته، وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توأمة قابيل أحسن الناس وجهاً، فأراد آدم أن يزوجها من هابيل، فأبى قابيل ذلك وقال أنا أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى، وإنما هو رأيك، فقال آدم (عليه السلام) لهما: قربا قرباناً، فأيكما قبل قربانه زوجتها منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن أنزل الله تعالى على قربانه ناراً، فقتله قابيل حسداً له [2]. نقول: إن قوله تعالى: "ابني آدم" يعني من نسله أو صلبه أو ذريته وجميعها جائز، لكن الأصح أن نقول نسله، الأبناء درجة أولى في النسل، والأخوة درجة ثانية في النسل، والذرية هي كل النسل. أما عن سبب المنازعة، فإننا نجزم أنها تتسق مع الصراع على الغذاء، أي أنه استكمال لخطيئة آدم (عليه السلام)

---

[1] المصدر السابق، ص210.

[2] المصدر السابق، ص209.

ولهاثه نحو شهوته، حيث ظهرت هذه النزعة في أبنائه، أي أنها صارت متوارثة منذ الزمن الأول لحياة آدم (عليه السلام) وزوجته. ويشار إلى أن الآية وردت في سورة "المائدة" وهذه دلالة بالغة على أن شهوة الطعام لها شريعة متكاملة في الإسلام.

النباتات (الغذاء الأول) والحيوانات (الغذاء الثاني)

بالاستناد إلى ما سبق، سوف نسمي النباتات (بالغذاء الأول) والحيوانات (بالغذاء الثاني) لأن النباتات أسبق من الحيوانات، علماً بأن نوع خلية كلاهما هي "حقيقية النوى" وليست "بدائية النوى"، أي أنهما ليسوا من ممالك البكتيريا البدائية أو البكتيريا الحقيقية. نقول ذلك لأن (الغذاء الأول، أي النباتات) هو ضمن مملكة النباتات، مثل الحزازيات، (والغذاء الثاني، أي الحيوانات) هو ضمن مملكة الحيوانات، مثل دودة الأرض، ومنها نشأت الحيوانات لقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {النور: 45}. نقول: إن مملكة النباتات أسبق لأنها وجدت كغذاء للحيوانات. بالتالي عندما أنزل الله آدم (عليه السلام) إلى الأرض جعل مركز شهوته الأول في النباتات، أي الشجرة التي نهي عن المساس بها في الجنة، ثم شهوته الثانية في الحيوانات.

لذلك نعتقد أن الحيوانات شهوة متقدمة على النباتات. وزيادة على ذلك، فإن حادثة صراع "شهوة الغذاء" لم تتوقف عند هذا الحد، ولكن تعدتها إلى الشعور بالحسد ثم نزعة القتل، حيث قتل قابيل أخيه هابيل. فأضيف إلى الشهوة نزاع وجريمة، ثم تلاحقت النزاعات والجرائم في حياة بني البشر. ولما قيل في الخطاب القرآني "لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك" قصد بها أن "هابيل" كان أقوى من القاتل "قابيل" وأبطش منه، ولكنه تحرّج عن قتل أخيه واستسلم له

خوفاً من الله، لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت، كما قال مجاهد وغيره [1]. في حين قال الشوكاني: هذا استسلام للقتل من هابيل، كما ورد في الحديث: "إذا كانت الفتنة فكن كخير ابني آدم، وتلا النبي هذه الآية "لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك". قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ ألا يسل أحد سيفاً وألا يمتنع ممن يريد قتله. وقيل: هذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله: "يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزداد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه، ومثله قوله تعالى: "وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم" {العنكبوت: 13}. وقيل المعنى: إني أريد ألا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم" {النحل: 15} أي: ألا تميد بكم [2]. لقد شرحنا أبرز ثلاث آيات متعلقة بالقتل في القرآن {انظر الشرح في الفصل الأول، ص35}. **نسأل هنا، إذا كان قابيل الذي كان يملك الشهوة المتدنية "وهي النباتات" هو الذي ارتكب جريمة القتل، فلماذا؟**

علاقة جريمة القتل بالشهوة المتدنية (النباتات)

نقول: هو تأكيد على أن الصراع على الشهوات الغذائية هو ليس صراعاً من أجل البقاء، ولكنه صراع متعدد الأوجه، فهو صراع عضوي ونفسي وأخلاقي، وفي هذه الحادثة ارتكبت جريمة القتل بدافع الحسد، أي بدافع شعور عاطفي بين الإخوة هدفه تمني زوال النعمة عن أخيه بهدف كسبها أو الحصول عليها. وإذا علمنا أن الصراع يكون

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج6، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص286.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج6، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص366.

على الشهوات الكثيرة، وليس الشهوات القليلة، فسوف ندرك أن دخول عامل الحسد الذي أدى إلى قتل هابيل يؤكد أن الفرد الذي يملك من ثروات كثيرة يعتبر مطمعاً لمن لا يملك الثروات، وثروة الحلال، (أي الحيوانات الحلال أكلها) تعتبر ثروة مضاعفة للنباتات أو المزروعات، من حيث حجمها ووفرتها وقيمتها. بالتالي فإن الآية تدل على أن الصراع كان على الشهوات الكثيرة وليس القليلة بسبب دخول شعور الحسد حتى وإن ظهر أن القاتل هو الذي يملك الثروات القليلة "أي النباتات". كما أن نزول النار الإلهية لأكل قربان هابيل (وهو الحيوانات) دليل على أن الله يريد بذلك استعداء كل من تكثر ثروته أو يكثر حلاله دون أن يضحي بجزء منه أو يكثر ماله دون أن ينفقه أو يزكي به، وقد شرحنا علاقة الغذاء بالوسوسة والعذاب الإلهي ومنه "ماء المُهل" المتعلق بالشراب، و "ماء الحميم" المتعلق بالطعام وذلك في سورة {الأعراف: 50} {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص127}. في هذا السياق، من الأمثلة الواقعية المعاصرة أنه في بعض الديانات مثل الهندوسية، يعتبرون البقر أرواح مقدسة. السؤال هنا، هل يمكن القول إن الذين يقدسون الحيوانات هم بمثابة أشخاص لا يقتربون من الشهوة الكبرى، لأنهم لا يذبحونها للأكل، رغم أنهم غير مسلمين؟ **وماذا لو تحوّل أحد هؤلاء الذين يقدسون أرواح البقر (أي الحيوانات) إلى الإسلام؟** نقول: هذا سؤال في صلب العقيدة الإسلامية، أي عقيدة التوحيد، ويتطلب اجتهاداً فقهياً، لكننا نعتقد وبدون شك أن تقديسهم للحيوانات قبل دخول الإسلام لا يعني شيئاً للإسلام، بل يثبت كفرهم بالله. من ناحية أخرى، نجزم وبشكل عقلاني أن عدم اقترابهم من الشهوات الكبرى (أي الحيوانات) بعد إسلامهم سوف يقابل بالجزاء الحسن شرط ألا يصاحب ذلك تقديساً للحيوانات، وخلو النية من هذا التقديس أو التشريف، علماً بأنه مسموح أكل الحلال من الحيوانات في الإسلام، فتخرج علاقتهم مع البقر من دائرة التقديس وعدم الأكل منها، وتدخل في دوائر أخرى لها علاقة بالنهي عن الهوى

والامتناع عن الشهوات الكبرى أو الإقلال منها، ويعني ذلك أن الله يبدل سيئاتهم حسنات كما جاء في قوله تعالى: "إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً" {الفرقان: 70} **وهنا نسأل، إذا كانت النباتات (الغذاء الأول) شهوة صغرى، والحيوانات (الغذاء الثاني) شهوة كبرى، فهل تتكافأ شهوتي الغذاء الأول والثاني (الصغرى والكبرى) مع شهوة الجنس (النكاح)؟**

علاقة النباتات والحيوانات (الشهوة الصغرى والكبرى)، بشهوة الجنس (النكاح)

نقول: لا يتكافآن؛ لأن شهوة الجنس أقدم من شهوتي الغذاء الأول والثاني (الصغرى والكبرى)، وشهوة الجنس أبقى للنوع وأطهر وأشرف منهما، لسببين:

السبب الأول: أن آدم (عليه السلام) كان في الجنة مع زوجته حواء، قبل المساس بالشجرة (أي النباتات) والتورط في (الغذاء الأول) الشهوة الصغرى، ما يعني أن شهوة الجنس قبل المساس بالشجرة كانت مشروعة وكافية بالنسبة لهم وفق الأوامر الإلهية، ولم تكن تخرجهم من الجنة إلى الأرض، فعلى ذلك يصبح النكاح مقدساً في الجنة، ودليل ذلك في القرآن قوله تعالى: "قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة.." {البقرة: 35}. وقد شرحنا معنى "السكن" في بحث بعنوان: فهم تأويلي لمسألة تعدد الزوجات [1]. في هذا السياق، فإن كل الموارد الطبيعية التي أوجدها الله في الطبيعة منذ خلق الكون تعتبر ملكيتها لله وحده، ولا يحق لأي إنسان على الأرض في أي جغرافيا سواء كانت مقدسة أم مدنسة أن يدعي ملكيته لأي ثروات وأن

---

https://tinyurl.com/3466c3v3[1]

يخصصها لنفسه ولعائلته أو فصيلته أو مجتمعة أو أمته، بل هي حق مملوك لكل إنسان وفق ضوابط الشريعة التي أنزلها الله في القرآن، وقبل ذلك أن يكون مؤمناً بالله وحده لا شريك له وبقدرته على خلق الكون وخلق المادة وعناصرها قبل خلق الكون، وبقدرته على الخلق والإحياء والإفناء، وبعد ذلك أن يكون لديه مسؤولية روحية وشرعية للتصرف بهذه الثروات، لأن وجود الثروات والموارد الطبيعية في يد شخص أو عائلة أو مجتمع أو أمة لا تنطبق عليها الشروط السابقة يجعلها عرضة للإفساد في الأرض، والفساد ضد التعمير والإصلاح، والإصلاح ليس كله بناء وترفيه لأن بعض البناء والترفيه قد يكون نوعاً من الفساد المادي والأخلاقي.

السبب الثاني: أن شهوة الجنس تتعلق بالخلق، وهو نوعين كما يلي:

الخلق الأول: خلق آدم وحواء في الجنة قبل نزولهما إلى الأرض. وهنا نقول إن آدم وحواء (عليهما السلام) اللذين في الجنة غير آدم وحواء اللذين في الأرض، أي أنهما مخلوقان بهيئة جديدة غير التي كانا عليها في الجنة، لأن هيئة آدم (عليه السلام) الذي في الجنة غير هيئة آدم (عليه السلام) الذي في الأرض، لأنه من غير المعقول أن يسقط آدم (عليه السلام) من الجنة إلى الأرض بجسده، وهذا غير ثابت بالنص القرآني. ولكن روح آدم (عليه السلام) في الجنة هي نفس روحه في الأرض لأنه نزل إلى الأرض بسبب رغبته ومساسه بالشجرة التي نُهي عن المساس بها فكان ذلك جزاءً له، فكان أولى أن يضع الله في جسده الدنيوي نفس الروح التي ارتكبت الخطيئة في الجنة عند المساس بالشجرة، والدليل على اختلاف خلق آدم وحواء (عليهما السلام) بين الجنة والأرض آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" {البقرة: 35}. نلاحظ أن الخطاب في الآية الأولى فيه

إشارة إلى "آدم وحواء" فقط وفيه لغة أمر في قوله "اسكن أنت وزوجك" ولم يقل "اسكني" لحواء، بل ألحق حواء به، وفي ذلك دليل على أن الخطاب لآدم (عليه السلام) أولاً باعتبار أنه المسؤول الأول عن الأسرة، وقوله "زوجك" تلحق به في الخطاب، وأما كلمة "السكن" فهي للاستقرار النفسي والبيولوجي ثم للتناكح. كما أن في الآية لغة أمر أخرى في قوله تعالى: "كُلا" أي تناولا الطعام، وإذا قال "كُلا" بصيغة المثنى فهذا يعني أن الشهوة الغذائية في الجنة كان مسموحاً بها لكن وفق معايير الضوابط الإلهية، ومن هذه المعايير أنه نهي في الآية عن الاقتراب من الشجرة، ونقول هي تمثل الشهوة الزائدة عن الحاجة أو أنها الشجرة الشيطانية المكروهة أو لسبب لا يعلمه إلا الله عز وجل.

الآية الثانية: قوله تعالى: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" {البقرة: 36}. نلاحظ أن الخطاب الوارد في الآية بصيغة المثنى، أي آدم وحواء (عليهما السلام) كما في المفردات التي وردت في الآية وهي: "فأزلهما" و "أخرجهما" و "كانا"، ما يعني أنهما لم يكن لديهما أولاد أو نسل أو ذرية. وعموماً، ذلك يؤكد أنه "لا يوجد حجة أنطولوجية تدعم وجود (آدم وحده من دون حواء) كوجود بدئي" [1]. كما أن وجود الإنسان (سواء أكان ذكراً أو أنثى) هو وجود متساوٍ زمنياً، فلا آدم وجد قبل حواء، ولا حواء وجدت قبل آدم، والحجة التي تقول بخلق حواء من ضلع آدم هي حجة غير متماسكة أنطولوجياً" [2]. وإن أي اعتقاد بأن خلق حواء كان من ضلع آدم الأعوج يترتب على ذلك أنطولوجيا، الاعتقاد أولاً: أن وجودها وجود ثانوي ومشتق أو تابع، وأنها سُلبت خصيصتها في منح الحياة، وهذا يعني أن الأصل في الوجود الإنساني هو الرجل وليس المرأة. والاعتقاد الثاني:

---

[1] معاذ بني عامر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015)، ص16.

[2] المصدر السابق، ص17.

أن حواء كانت العامل الأول في خطيئة الرجل وتسببت في طرده من الجنة، ومن هذا الاعتقاد تولدت أسطورة الشر الأنثوي، وأن المرأة بوابة الشيطان، وهي كلمة أطلقها "ترتوليان" في وقت مبكر من التأريخ المسيحي. أما الاعتقاد الثالث: إن المرأة خلقت للرجل، فوجودها ذرائعي، ولا قيمة جوهرية لها وهذه أساطير لا أثر لها في النص القرآني، بل جاءت من سفر التكوين. أما آدم (عليه السلام) في النص القرآني فلا يمثل البشرية إلا بعد وجود حواء (عليها السلام)، إذ منهما حصلت الذرية ولولاهما معاً لكان آدم مخلوقاً منفرداً غير قابل لاستخلاف الله سبحانه وتعالى في الأرض. وبحسب النص القرآني فإن الله قد خلقهما معاً في الآن نفسه، وبالطريقة نفسها، وإنهما خُلقا من نفس واحدة. قال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً" {النساء: 1}. ولم يذكر القرآن بأن حواء أغوت آدم أو خدعته، أو أنها كانت سببا في خطيئته وطرده من الجنة، بل إن فكرة عصيان آدم ليست (وفقاً للقرآن) آتية من مفهوم الخطيئة، وإنما من الوضع الأول للإنسان وهو أنه يشتهي الاستحواذ الواعي على حرية الإرادة الجديرة بأن تجعله ذا كفاية في الشك والعصيان [1]. نقول: إن الإخراج من الجنة كان إخراجاً لهما معاً، فلم ينزل آدم (عليه السلام) وحده من الجنة، بل نزلت معه حواء لأنه قال "فأخرجهما". وبالتالي بما أننا شرحنا في "الخلق الأول" كيف أن خلق هيئة آدم (عليه السلام) كانت مختلفة في الأرض باختلاف مادة خلقه عما كان عليه في الجنة، فإن حواء هي الأخرى يختلف خلقها في الجنة عن خلق هيئتها في الأرض، نقول باختلاف الهيئة لاختلاف الجنة عن الأرض، فوجب أن تكون

---

[1] فرح الفاضلي، الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم، ط1، (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2018)، ص129، 130.

الهيئة مناسبة لطبيعة المكان. وإذا قيل: **لماذا لم يذكر اسم حواء في القرآن ولم يأت على ذكر خلقها؟**

دلالة عدم ذكر اسم (حواء) في القرآن

نقول: لأن آدم (عليه السلام) في الشريعة العلوية (الأخروية) والسفلية (الدنيوية) هو المسؤول عن إنشاء الذرية، وبالتالي استحق أن يتفرد بلقب "الزوج" أو "المكلّف بالتأسيس" ودليل ذلك أن إلحاق حواء بآدم (عليهما السلام) كان إلحاقاً جنسياً اجتماعياً شرعياً بوصفها شريكة له في بناء الأسرة في قوله تعالى: "أنت وزوجك" وذلك مرتين في سورة {البقرة: 35} وسورة {الأعراف: 19}. **السؤال هنا: لماذا قال في الآية "اهبطوا" بصيغة الجمع؟**

دلالة قوله "اهبطوا" وليس "اهبط" لآدم من الجنة

نقول: يجوز إطلاق صيغة الجمع على الاثنين. كما أنه تعبير عن العقاب لهما ولذريتهما اللاحقة، فكأنه قال: "اذهبوا ومسّوا كل الشجر الأرضي، ثم تناكحوا وتكاثروا" فكانت اهبطوا، أي أنتم ونسلكم الذي سيأتي فيما بعد كنتيجة للوقوع في غريزة شهوة الغذاء. والعداء في قوله تعالى: "بعضكم لبعض عدو" سيكون عداءً شهوياً غرائزياً شاملاً، وهذه حقيقة.

الخلق الثاني: خلق النوع البشري باستخدام الخلية الأولى، وهو نوعين:

النوع الأول: خلق أول: خلق آدم (عليه السلام) باستخدام التراب/الطين والماء والرياح والحرارة. **خلق ثان:** خلق عيسى (عليه السلام) بواسطة الغذاء الجيد الذي أنتج خلية سليمة. وكلاهما أي آدم

وعيسى (عليهما السلام) من النوع البشري ودليل ذلك قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59} نقول "المثل" هنا يدخل فيه النوع البشري من الخلق، وسوف نشرح هذه الآية بالتفصيل في خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص554}.

النوع الثاني: خلق بالنطفة (أي خلق نسل وذرية آدم وعيسى عليهما السلام وكافة الأنبياء والرسل والإنس جميعاً). والخلق من نطفة الرجل غرساً في رحم المرأة تتعلق بالنظام الغذائي في حياة البشر عموماً. مما سبق نستنتج أن النباتات (الغذاء الأول) كشهوة صغرى، والحيوانات (الغذاء الثاني) كشهوة كبرى، بالإضافة إلى شهوة الجنس (النكاح) كلها تعتبر رغبات مادية، "وهذه الرغبات المادية للبشر تعتبر مفتاحاً لفهم التاريخ، وبالتالي، فإن مفتاح التاريخ هو معدة الإنسان وجشعه للحصول على الاشباع المادي [1].

الآية العاشرة: قال تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}.

هذه الآية سوف نشرحها في موضوع خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق. {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص548}.

ثانياً: كلمة (ذُريتنا)

[1] إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998)، ص28.

الآية الأولى: قال تعالى: "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم" {البقرة: 128}.

نقول الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: نقول: إن كلمة "واجعلنا" لها دلالة في الآية، فالجعل هنا يتعلق بتثبيت ثلاثة أمور وهي قوله تعالى: "واجعلنا مسلمين" وهذا جعل بصيغة التمكين في الدين، وقوله تعالى: "ومن ذريتنا" أي واجعل لنا من ذريتنا، وهذا جعل بصيغة ضرورة تثبيت الذرية وأصلها، وقوله تعالى: "أمة مسلمة" وهذا جعل بصيغة تقوية وحدة حال الأمة، أي "واجعلنا أمة مسلمة". قال الرازي: احتج أصحابنا في مسألة خلق الأعمال بقوله "ربنا واجعلنا مسلمين لك" فإن الإسلام إما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد، أو الاستسلام والانقياد وكيف كان فقد رغبا في أن يجعلهما بهذه الصفة: وجعلهما بهده الصفة لا معنى له إلا خلق ذلك فيهما فإن الجعل عبارة عن الخلق، قال الله تعالى: "وجعل الظلمات والنور" فدل هذا على أن الإسلام مخلوق لله تعالى. ولا نسلم أن الجعل عبارة عن الخلق والإيجاد، بل له معاني أخرى سوى الخلق (أحدها): جعل بمعنى صيّر، قال الله تعالى: "هو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً" {الفرقان: 47}. (وثانيها): جعل بمعنى وهب، نقول: جعلت لك هذه الضيعة وهذا العبد وهذا الفرس (وثالثها): جعل بمعنى الوصف للشيء والحكم به كقوله تعالى: "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً" {الزخرف: 19}. وقال تعالى: "وجعلوا لله شركاء الجن" {الأنعام: 100}. (ورابعها): جعله كذلك بمعنى الأمر كقوله تعالى: "وجعلناهم أئمة" {الأنبياء: 73} يعني أمرناهم بالاقتداء بهم، وقال تعالى: "إني جاعلك للناس إماماً" {البقرة: 124} فهو بالأمر (وخامسها): أن يجعله بمعنى التعليم كقوله: جعلته كاتباً وشاعراً إذا علمته ذلك (وسادسها): البيان والدلالة تقول: جعلت كلام فلان باطلاً إذا أوردت

من الحجة ما يبين بطلان ذلك [1]. قال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحصني القرشي، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عبد الكريم: "واجعلنا مسلمين لك" قال: مخلصين لك، "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" قال: مخلصة [2]. وقال القرطبي: "ربنا واجعلنا مسلمين لك" أي: صيّرنا، و "مسلمين" مفعول ثان، سَألا التثبيت والدوام [3]. لقد جاء معنى "الجعل" في سياق يتعلق بالخلق للأعضاء، وهذا الخلق هو جزء فرعي من الخلق الثالث "الإنشاء/ والتصوير". وقلت إن الجعل مرتبط بالالتزام الإلهي الضمني بالتوفيق والتسهيل لعملية النكاح، ما يعني أن الذرية المقصودة في الآية ناتجة عن النوع الثاني من الخلق الذي قدمنا له تصورنا في هذا الكتاب، وهو "الإحياء للخلية/النطفة"، وهو خلق إنشائي تكويني في أرحام النساء. هذه الآية {البقرة: 128} تثبت مرّة أخرى أن "الجعل هنا هو المقابل الموضوعي لمعنى علاقة الدين أو رسالة التوحيد بالذرية، وعلاقة ذلك بالحياة والفناء على وجه الأرض".

والمسألة الثانية: نقول: إن لفظ "مسلمين" في الآية هو للمثنى، أي إبراهيم وابنه إسماعيل. وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابي: "مسلِمِين" على الجمع [4]. نقول: إنها تجوز على الوجهين وهذا من بلاغة القرآن، فإذا قلت "مسلمَين" للمثنى فإن المقصود هو الأب إبراهيم والابن إسماعيل، وهذا يحمل معنى الأسرة ويصبح لمعنى

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص64، 65.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج1، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص442.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص396.

[4] المصدر السابق، ص396.

كلمة "مسلمين" بعداً اجتماعياً في الإشارة إليهما، لاسيما أنه جاء على لفظ الذرية فيما بعد بقوله "ومن ذريتنا". وإذا قلت "مسلِمِين" للجمع فإن المقصود هو التعبير عن صفة إبراهيم وإسماعيل بصيغة مجموع المسلمين، وهذا يجوز لأنه قال عن المجموع في الآية إنه "أمة مسلمة". كما أن ذلك يعطي مكانة لمركزية الأب والابن في البناء الإسلامي والأسري، وهو دال على أصل الذرية. وإن قوله في الآية "واجعلنا مسلمين" ثم قوله تعالى: "ومن ذريتنا أمة مسلمة" يراد به تقديم الدين "الإسلام" وأتباعه، على "الذرية" وعلى "الأمة المسلمة" وذلك في صلب عقيدة التوحيد. والإسلام في هذا الموضع كما يقول القرطبي: "هو الإيمان والأعمال جميعاً" ومنه قوله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام" {آل عمران: 19}. وفي هذا دليل لمن قال: إن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى في سورة الذاريات: "فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (35) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين" (36) [1].

والمسألة الثالثة: جاءت الآية على ذكر إبراهيم وابنه إسماعيل، ولذلك فإن الخطاب فيه تخصيص على ضرورة جعل "الأمة" في ذرية إبراهيم وإسماعيل من دون المسلمين، لكننا نقول إن قوله تعالى: "ذريتنا" وليس "ذريتي" يعني أن الخطاب هنا عام، فقوله تعالى: "ذريتنا" يجوز أن تعود على كليهما، أي ذرية إبراهيم "الأب" وذرية إسماعيل "الابن" ومن جاء بعدهم من نسلهم، ويجوز أن تعود على كل الأمة. قال الخوارزمي: "ومن ذريتنا" أي واجعل من ذريتنا، وقوله تعالى: "أمة مسلمة لك" ومن للتبعيض أو للتبيين [2]. وكذلك أورد الشوكاني أن "من" للتبعيض والتبيين [3]. حكى الطبري أنه أراد بقوله:

[1] المصدر السابق، ص396.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص96.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

"ومن ذريتنا" العرب خاصة. وقال السهيلي: وذريتهما العرب؛ لأنهم بنو نَبْتِ بن إسماعيل، أو بنو تيمن بن إسماعيل، ويقال: قَيدَر بن نبت بن إسماعيل. أما العدنانية فمن نَبْت، وأما القحطانية فمن قَيدر بن نبت بن إسماعيل، أو تيمن على أحد القولين [1]. وقال السدي: "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" يعنيان العرب [2]. وأورد الشوكاني في "فتح القدير" قول ابن جرير: أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به [3]. قال الرازي: في زمان أجداد محمد لم يكن أحد من العرب مسلماً، ولم يكن أحد سوى العرب من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. قال القفال: إنه لم يزل في ذريتهما من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ولم تزل الرسل من ذرية إبراهيم، وقد كان في الجاهلية: زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، ويقال عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله، وعامر بن الظرب كانوا على دين الإسلام يقرون بالإبداء والإعادة، والثواب والعقاب، ويوحدون الله تعالى، ولا يأكلون الميتة، ولا يعبدون الأوثان [4]. وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" أي خصّا بذلك بعض الذرية، لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله قبل مسألته هذه، أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره، فخصّا بالدعوة بعض ذريتهما

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص396.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج1، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص442.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص67، 68.

[1]. عموماً يُراد بالآية القول "واجعل من ذريتنا أمة مسلمة كما جعلتنا مسلمين"، وهذا يفيد أن قوله تعالى: "واجعلنا مسلمين" عامة لكل الناس في العالمين، وقوله تعالى: "من ذريتنا" خاصة بإبراهيم وذريته إسماعيل. وقال القرطبي في معنى "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" أي: ومن ذريتنا فاجعل [2]. وهنا نقول: إن من خصوصية معنى الذرية في اقترانها بإبراهيم وإسماعيل أنها جاءت لتثبيت معنى وعلاقة الذرية بالأمة. فإما نقول إن "الأمة" من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وهذا أمر مأصول وحقيقي، أو نقول إن "الأمة" مقترنة بالدين ورسالة التوحيد التي نزلت على كافة الأنبياء والرسل والأقوام، أو نقول ما ذكره الرازي: أنها أمة محمد (ﷺ) بدليل قوله: "وابعث فيهم رسولاً منهم" {البقرة: 129} [3]. وذكر الشوكاني: إن الأمة: الجماعة في هذا الموضع، وقد تطلق على الواحد إذا كان يُقتدى به في الخير، ومنه قوله تعالى: "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله" {النحل: 120} وتطلق على الدين ومنه: "إنا وجدنا آباءنا على أمة" {الزخرف: 23} ومنه قوله تعالى: "إن هذه أمتكم أمة واحدة" {الأنبياء: 92} وتطلق على الزمان، ومنه: "وادَّكر بعد أمة.." {يوسف: 45} [4].

ثالثاً: كلمة (ذُريته)

---

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج1، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص387.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص396.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص67.

[4] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص93.

الآية الأولى: قال تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين" {الأنعام: 84}.

قال الزمخشري: الضمير في قوله تعالى: "ومن ذريته" لنوح أو لإبراهيم [1]. وقال الشوكاني: أي: من ذرية إبراهيم، وقال الفراء: من ذرية نوح [2]. وقال البيضاوي: "الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا الكلام فيه، وقيل لنوح (عليه السلام) لأنه أقرب، ولأنه يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم" [3]. على حين قال الطبري: "لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم، فهما ليسا من ذرية إبراهيم" [4]. قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لم تلحقه ولادة من جهته من قبل أب ولا أم؛ لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم. والعرب تجعل العم أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: "نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق" {البقرة: 133}. وإسماعيل عم يعقوب. وعدّ عيسى من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن البنت. فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرية النبي. وبهذا تمسك من رأي أن ولد البنات يدخلون في اسم الولد [5]. وقال ابن كثير: إن لوطاً ليس من ذرية "إبراهيم"، بل هو ابن أخيه

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج7، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص36.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج7، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص432.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج7، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص502.

[4] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص296.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج8، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص447.

مادان بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليباً [1]. وقال الرازي: إن قوله تعالى: "ومن ذريته داود وسليمان" قيل المراد "ومن ذرية نوح"، ويدل عليه وجوه: الأول: أن نوحاً أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب. الثاني: أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته، بل كان من ذرية نوح (عليه السلام)، وكان رسولاً في زمان إبراهيم. الثالث: أن ولد الإنسان لا يقال إنه ذريته، فعلى هذا إسماعيل (عليه السلام) ما كان من ذرية إبراهيم، بل هو من ذرية نوح (عليه السلام). الرابع: قيل إن يونس (عليه السلام) ما كان من ذرية إبراهيم (عليه السلام)، وكان من ذرية نوح (عليه السلام) [2]. وأوضح الرازي أن المراد بقوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل" أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب. وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحاق، ويعقوب. وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح، وإدريس، وشيث. فالمقصود بيان كرامة إبراهيم (عليه السلام) بحسب الأولاد وبحسب الآباء [3]. قالوا: ولم لم يذكر إسماعيل (عليه السلام) مع إسحاق، بل أخر ذكره عنه بدرجات؟ قلنا: لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب. وأما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد، ولا يجوز ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في هذا المقام [4]. نقول: إن هذه الآية مرتبطة بالآيتين التاليتين لقوله تعالى: "وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (85) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص298.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص68.

[3] المصدر السابق، ص67.

[4] المصدر السابق، ص67.

العالمين" (86). نلاحظ أنه جاء ذكر عدد من الأنبياء مع ذكر قوله "ومن ذريته" ما يعني أن كل هؤلاء الأنبياء هم من ذرية النبي نوح، وقيل إبراهيم المذكور في الآيات السابقة في نفس السورة. أراد إبراهيم (عليه السلام) بقوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" ولكنه أراد نوحاً عندما قال "ومن ذريته"، لأنه أشار إلى جملة "من قبل" في قوله تعالى: "ونوحاً هدينا من قبل" ما يعني أن نوحاً أسبق من إبراهيم في الإشارة داخل الآية. وبالتالي يعتبر إبراهيم وابنه إسحاق وولد إسحاق وهو يعقوب مشمولين في الذرية التي تتبع إلى نوح. وبالتالي نحن لا نتفق مع قول الرازي بأن "ولد الإنسان لا يقال إنه ذريته" [1]. بل نقول إن الولد ذرية بالاستناد إلى فهمنا البيولوجي الحيوي لعلاقة الذرة بالذرية، وكذلك بالاستناد إلى ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" {العنكبوت: 27}، قال: "هما ولدا إبراهيم"، فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد [2].

الآية الثانية: قال تعالى: "قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً" {الإسراء: 62}.

قال الرازي: إن التعبير في الآية "لأحتنكن ذريته إلا قليلاً" هو قول إبليس، وهي قصة إبليس مع آدم، وقد ذكرها الله تعالى في سور سبعة، وهي البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص [3]. وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: "قال أرأيتك" أي: قال إبليس: والكاف

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص68.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص275.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص3.

لتوكيد المخاطبة. "هذا الذي كرّمت عليّ" أي: فضلته عليّ. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة. وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ، لم فضّلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحُذف لعلم السامع. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي: أترى هذا الذي كرمته عليّ لأفعلن به كذا وكذا. ومعنى "لأحتنكن" في قوله ابن عباس: لأستولين عليهم. وقاله الفراء. مجاهد: لأحتوينهم. ابن زيد: لأضلنهم. والمعنى متقارب، أي: لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم. وروي عن العرب: احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله. وقيل: معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت [1]. وقال الواحدي في معنى قوله "لأحتنكن ذريته إلا قليلاً": أصله من احتناك الجراد الزرع، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً [2]. نقول: إن في الآية دلالة بالغة التعبير في الربط بين كلمة "ذريته" في إشارة إلى نسل آدم (عليه السلام)، وكلمة "لأحتنكنه" باعتبار أن الاحتناك مرتبط بالقدرة على التأثير بهدف الاستئصال، لكن مع إيضاح إبليس بأن هذا التأثير إنما يكون للجميع إلا قليل من الناس، وقيل هؤلاء هم المعصومين [3] أو الذين لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم [4]. وقيل: المحتنك: هو الذي تم عقله وسنه [5]. بهذا المعنى نفهم

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص116، 117.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج15، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص832.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص117.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص309.

[5] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج1، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص366.

أن إبليس أراد التعبير عن قدرته في الاستيلاء على ذرية آدم (عليه السلام) من خلال قيادة عقولهم بهدف إغوائهم وإهلاكهم واستئصالهم. لكن بما أن كلمة "الذرية" مرتبطة بأنواع الخلق التي ذكرناها في الكتاب، **فهل يمكن لإبليس استئصال الخلق باعتبار أنه يعبر عن قدرته في استئصال الذرية؟**

نقول: أولاً: إن هذا التحدي الإبليسي لله ناتج عن كفر إبليس ورفضه السجود لآدم (عليه السلام). وثانياً: لا يمكن لإبليس استئصال الخلق، ولكن التأثير على الخلق، وثمة فرق بين التدخل في عملية الخلق، والتأثير فيها بعد إنشائها، والمُراد أن فعل إبليس يأتي بعد الإرادة والقوة الإلهية. فمثلاً، نعلم أن الله سيبعث الأرواح في الأجساد يوم القيامة وسوف يحاسب الناس حساباً ذرياً دقيقاً على صراط مستقيم، وهذا هو النوع الرابع من الخلق وهو "البعث/بعث الأرواح في الأجساد". ولذلك ورد في القرآن تعبير إبليس عن محاولاته للتأثير على ذرية آدم في قوله تعالى: "قال فبما أغويتني لأقعدن لهم على صراطك المستقيم" {الأعراف: 16}.

الآية الثالثة: قال تعالى: "وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً" {الكهف: 50}.

نقول: إن اعتبار الجن بأن لهم ذرية يعني أن الجن خلق، وهذا لا يتناقض مع وصفهم في القرآن باعتبارهم خلق، لأن آيات كثيرة أشارت إليهم بوصفهم خلق، لكن مع التأكيد على اختلاف نوعية خلق الجن، أي أنهم خلقوا من نار لقوله تعالى: "وخلق الجان من مارج من نار" {الرحمن: 15}. وقوله تعالى في التمييز بين خلق الإنسان وخلق الجن في آيات متتالية من سورة الحجر: "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون (26) والجان خلقناه من قبل من نار السموم" (27). ذكر ابن كثير في تفسير قوله "فسجدوا إلا إبليس كان من الجن"

أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله، أنه قال: "خُلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم". ونبه تعالى ههنا على أنه "من الجن" أي: إنه خلق من نار، كما قال: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" {الأعراف: 12} {ص: 76} [1]. اختلف أهل التأويل في معنى قوله: "وكان من الجن"، فقال بعضهم: إنه كان من قبيلة يقال لهم الجن. وقال آخرون: بل كان من خُزان الجنة، فنُسب إلى الجنة. وقال آخرون: بل قيل من الجن، لأنه من الجن الذين استجنوا عن أعين بني آدم. وقال آخرون: كان اسم قبيلة إبليس الجن [2]. قال الرازي: ثبت أن إبليس ليس من الملائكة، ولكن الله تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية وهو قوله "أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني" والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب ألا يكون إبليس من الملائكة [3]. وقال البيضاوي: إن قوله تعالى: "وذريته": أي أولاده أو أتباعه، وسماهم ذريته مجازاً [4]. وقف عزوجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله: أفتتخذونه يا بني آدم وذريته أولياء وهم لكم عدو، أي: أعداء، فهم اسم جنس. وقوله تعالى: "بئس للظالمين بدلاً" أي: بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله. أو بئس إبليس بدلاً عن الله. واختُلف هل لإبليس ذرية من صلبه؟ فقال الشعبي: سألني رجل فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عُرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله: "أفتتخذونه وذريته أولياء" فعلمت أنه لا تكون ذرية

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج5، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص167.

[2] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص109.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج21، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص137.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج15، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص343.

إلا من زوجة، فقلت: نعم. وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات، فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً، وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشرُ بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة. وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر على نقل صحيح. وذكر مجاهد: أن ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدهم:

زلنبور: صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أول من يفتح وآخر من يغلق. وثبر: صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب. والأعور: صاحب أبواب الربا. ومِسْوَط: صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً. وداسم: الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يُسلم ولم يذكر اسم الله بصَّره من المتاع ما لم يرفع، وما لم يُحسن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله، أكل معه. قال الأعمش: إني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلم، فرأيت مطهرةً فقلت: ارفعوا هذه، وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم! أعوذ بالله منه.

زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد:

والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء.

وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان (عليه السلام).

والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها.

والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها.

ومُرة وهو صاحب المزامير وبه يُكنى.

والهفاف يكون بالصحاري يُضل الناس ويُتيهُهم، ومنهم الغيلان.
وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يُسمى الولهان.
وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه. وفي "مسند" البزّار عن سلمان الفارسي قال: قال النبي: "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها؛ فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته" [1].

الآية الرابعة: قال تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين" {العنكبوت: 27}.

تتعلق هذه الآية بالنبي إبراهيم وبذريته، والإشارة إليه في قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" وكذلك الإشارة إليه في قوله تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب". قال الشوكاني: الضمير في قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" إلى إبراهيم. وكذا في قوله تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب". وهذه الضمائر لإبراهيم بلا خلاف: أي منّ الله عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولداً له، ويعقوب ولداً لولده إسحاق، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه [2]. وكذلك قال القرطبي، وأضاف: التوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج13، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص301 – 303.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1118.

ولده، والفرقان على محمد من ولده [1]. وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: "وجعلنا في ذريته النبوة" أي فكثر منهم الأنبياء. "والكتب" يُريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة [2]. وكذلك قال الخوارزمي: قصد به جنس الكتاب حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن [3]. وأجمل ابن كثير الرأي بقوله: لم يوجد نبي بعد إبراهيم (عليه السلام) إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم (عليه السلام)، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، عليهم السلام: ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه [4]. وكان لوط أول من صدّق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً. قال ابن إسحاق: آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته، وآمنت به سارة وكانت بنت عمه [5]. نلاحظ في الآية أن الله استخدم كلمة "وجعلنا" والجعل مرتبط بالخلق، وهو عندما أشار إلى خلق الذرية، فهو أشار إلى خصوصية الذرية الإنسية في عملية الخلق منذ خلق آدم (عليه السلام)، وهذا فيه اصطفاء وتشريف لذرية إبراهيم، ومن هم قبل إبراهيم، أي الذرية التي يتبع إليها، وأيضاً من هم بعده.

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص356.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج20، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص34.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج20، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص818.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص275.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج16، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص355.

الآية الخامسة: قال تعالى: "وجعلنا ذريته هم الباقين" {الصافات: 77}.

الإشارة هنا إلى نوح الذي تقدم ذكره في الآيات السابقة والتالية لهذه الآية، لقوله تعالى: "ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون" {الصافات: 75} وقوله تعالى بعدها: "سلام على نوح في العالمين" {الصافات: 79}. قال ابن عباس: لما خرج نوحٌ من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه؛ فذلك قوله تعالى: "وجعلنا ذريته هم الباقين" {الصافات: 77}. وقال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك والأبر والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك [1]. وقال البيضاوي في معنى بقاء ذرية نوح: "أي إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة، إذ روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم" [2]. وقال الشوكاني: "وذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر، فإن الله أغرقهم، فلم يبق لهم ذرية" [3]. إن عنصر الربط بين ذكر كلمة "ذريته" و "الباقين" يدل على الخلق، فمعنى الذرية يشير إلى الأصل والتسلسل عن أصل الخلق وهو في هذه الحالة نوح الذي يعتبر قريباً زمنياً من آدم (عليه السلام). أما معنى "الباقين" فهو تعبير عن حالة النجاة والاستمرارية وصيرورة الحياة على وجه الأرض، أي لا انقطاع لذرية نوح التي استمرت حتى يومنا هذا. ونشير مرة أخرى إلى ضرورة النظر في استخدام كلمة "وجعلنا"،

---

[1] المصدر السابق، ص47.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص151.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1243.

أي "وخلقنا"، ونلاحظ أهمية ذكر تلك الكلمة مصاحبة لمعاني الذرية والبقاء.

رابعاً: كلمة (ذُرِيَّتَها)

الآية الأولى: قال تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" {آل عمران: 36}.

سوف نشرح قصة مريم وابنها عيسى (عليهما السلام) وخصوصية معنى الخلق في قصة النبي عيسى (عليه السلام)، وقصة ولادة أمه مريم (عليها السلام) من أمها العاقر حنة بنت فاقوذ، زوجة آل عمران، في الفصل الخامس بعنوان "خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) في عملية الخلق". {انظر الشرح في الفصل الخامس، ص465} تشير الآية إلى رغبة حنة بنت فاقوذ بإنجاب ذكر، ولكنها أنجبت أنثى وهذه قصة لها شرح طويل، لكن ما يهمنا هنا هو قولها: "وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم". قال الطبري: أصل "المعاذ" المَوئِل والملجأ والمعقل [1]. وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: "وإني أعيذها بك" أي: أجيرها بحفظك. وقوله: "وذريتها من الشيطان الرجيم" أي: المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي قال: "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها". ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة الاستعاذة [2]. وروى من حديث قيس، عن الأعمش، عن أبي

---

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص247.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص257.

صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم" [1]. قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: "وإني سميتها مريم" هو عطف على "إني وضعتها أنثى" ومقصدها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي، وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات. وقوله تعالى: "وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" عطف على قوله تعالى: "إني سميتها مريم"، والرجيم المطرود، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعاذة لها، ولولدها من الشيطان وأعوانه [2]. نلاحظ أن قوله تعالى: "وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" معطوف على ما قبله، وما قبله مخصوص بمريم (عليها السلام) في قوله: "وإني سميتها مريم" وما قبله أيضاً مخصوص لجنسها كأنثى حيث ورد في الآية قوله تعالى: "إني وضعتها أنثى". إذا كان الأمر كذلك من ناحية الخصوصية فإن كلمة "وذريتها" منعت أن تكون الخصوصية لمريم (عليها السلام) وحدها، بل تشمل ذريتها، فتصير الإعاذة من الشيطان لها ولذريتها معاً، أي عيسى (عليه السلام). وهكذا قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: "وإني أُعيذها بك" يعني مريم (عليها السلام). وقوله تعالى: "وذريتها" يعني عيسى (عليه السلام). وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة [3].

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص35.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص215.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص103.

خامساً: كلمة (ذُريَّتهم)

الآية الأولى: قال تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" {الأعراف: 172}.

قال البيضاوي: "أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن" [1]. وقال قوم: معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض. وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها [2]. قال مقاتل: إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك" [3]. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمرة الضبعي، عن ابن عباس، قال: أخرج الله ذرية آدم (عليه السلام) من ظهره كهيئة الذر، وهو في آذى من الماء [4]. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث رواه عمر [5]. وروى عبد الله بن عمرو عن النبي أنه قال: "أُخذوا من ظهره

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص581.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص375.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص50.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص502.

[5] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج9، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص581.

كما يؤخذ بالمشط من الرأس" [1]. قال أصحاب النظر وأرباب المعقولات: إنه تعالى أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات، وجعلها علقة، ثم مضغة، ثم جعلهم بشراً سوياً، وخلقاً كاملاً ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه [2]. وقال الزمخشري: "معنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: أي إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم {.....} وإن قلت: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ قلت: عني ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيراً ابن الله، وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله من أخلافهم المقتدين بآبائهم، والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله تعالى في الآية التالية: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل" (173) [3]. فسر الحسن البصري الآية بذلك، فأشار إلى أن الله قال: "وإذ أخذ ربك من بني آدم"، ولم يقل: "من آدم"، وقال "من ظهورهم"، ولم يقل: "من ظهره"، وقال "ذرياتهم"، أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض" {الأنعام: 165}، وقال: "ويجعلكم خلفاء الأرض" {النمل: 162}، وقال: "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" {الأنعام: 133} [4]. يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص377.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص53.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج9، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص395.

[4] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج3، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص506.

لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه [1]. وقوله تعالي: "ألست بربكم قالوا بلى شهدنا" من باب التمثيل والتخبيل، ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك [2]. وقيل "إن الله جعل لهم عقولاً كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض. قال أُبي بن كعب: وأشهد عليهم السماوات السبع، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أُخذ عليه العهد" [3]. **اختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أو عامة؟** فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال: "من بني آدم من ظهورهم". فخرج من هذا من كان من ولد آدم لصلبه. وقال عزوجل: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل"، فخرج منها كل من لم يكن له آباء مشركون. وقيل: هي مخصوصة فيمن أُخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء. وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلاً فغُذي ورُبي، وأن له مدبراً وخالقاً. فهذا يعني "وأشهدهم على أنفسهم" [4]. روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: إن رسول الله قال: "لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها {من ذريته} إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل رجل منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: يا رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى

---

[1] المصدر السابق، ص500.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج9، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص395.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج9، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص377.

[4] المصدر السابق، ص379.

رجلاً منهم فأعجبه وبيصُ ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، فقال: رب، كم جعلت عُمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عُمري أربعين سنة، فلما انقضى عُمر آدم (عليه السلام)، جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تُعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته" [1]. وفي رواية أخرى أوردها الرازي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أبصر آدم في ذريته قوماً لهم نور، فقال يا رب من هم؟ فقال الأنبياء، ورأى واحداً هو أشدهم نوراً فقال من هو؟ قال داود، قال فكم عمره، قال: سبعون سنة. قال آدم: هو قليل، وقد وهبته من عمري أربعين سنة، وكان عمر آدم ألف سنة، فلما تم عمر آدم تسعمائة وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فقال آدم: بقي من أجلي أربعون سنة، فقال ملك الموت: ألست قد وهبته من ابنك داود؟ فقال آدم: ما كنت لأجعل لأحد من أجلي شيئاً، فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها. أما المعتزلة: فقد أطبقوا على أنه لا يجوز تفسير هذه الآية بهذا الوجه، واحتجوا على فساد هذا القول بوجوه. سوف ننقل بعض هذه الوجوه والحجج.

الحجة الأولى: قالوا: إن قوله تعالى "من بني آدم من ظهورهم" لا شك أن قوله "من ظهورهم" يدل من قوله "بني آدم" فيكون المعنى: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم. وعلى هذا التقدير: فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً.

الحجة الثانية: أنه لو كان المراد أنه تعالي أخرج من ظهر آدم شيئاً من الذرية لما قال "من ظهورهم" بل كان يجب أن يقول: من ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد، وكذلك قوله "ذريتهم" ولو كان آدم لقال "ذريته".

---

[1] المصدر السابق، ص376، 377.

الحجة الثالثة: أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا "إنما أشرك آباؤنا من قبل" وهذا الكلام يليق بأولاد آدم؛ لأنه (عليه السلام) ما كان مشركاً.

الحجة الرابعة: أن جميع الخلق الذين خلقهم الله من أولاد آدم عدد عظيم وكثرة كثيرة، فالمجموع الحاصل من تلك الذريات يبلغ مبلغاً عظيماً في الحجمية والمقدار وصلب آدم على صغره يبعد أن يتسع لذلك المجموع.

الحجة الخامسة: قال الكعبي: إن حال أولئك الذرية لا يكون أعلى في الفهم والعلم من حال الأطفال، ولما لم يكن توجيه التكليف على الطفل، فكيف يمكن توجيهه على أولئك الذوات؟

وأجاب الزجاج عنه فقال: لما لم يبعد أن يؤتي الله النمل العقل كما قال (قالت نملة يا أيها النمل) وأن يعطي الجبل الفهم حتى يسبح كما قال (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) وكما أعطى الله العقل للبعير حتى سجد للرسول، وللنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت فكذا ههنا.

الحجة السادسة: أن أولئك الذر في ذلك الوقت إما أن يكونوا كاملي العقول والقدر أو ما كانوا كذلك، فإن كان الأول كانوا مكلفين لا محالة وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم في ذلك الوقت عن أحوالهم في هذه الحياة الدنيا، فلو افتقر التكليف في الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف في وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر ولزم التسلسل وهو محال، وأما الثاني: وهو أن يقال إنهم في وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملي العقول ولا كاملي القدر، فحينئذ يمتنع توجيه الخطاب والتكليف عليهم [1] . نقول: إن لفظ الذرية يقع للواحد وللجمع، لأن الإنسان عندما يكون له

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج15، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص50، 51.

ذرية فإن الواحد من ذريته يستطيع ضمناً أن يكون له هو الآخر ذرية، وإن إثبات وجود القدرة على إنشاء الذرية يعني أن كلمة الذرية تشتمل على المفرد والجمع. وإن قوله في الآية "أشهدهم على أنفسهم" تعود إلى ذرية آدم (عليه السلام)، وهي الذرية التي يمتد نسلها منذ خلق آدم (عليه السلام) إلى يومنا هذا، وبالتالي فالخطاب الإلهي حيوي ودال على الاستمرارية؛ لأنه يتعلق بالاعتراف بالربوبية والوحدانية الإلهية، وهذه مسألة موجبة لبني آدم (عليه السلام) كلهم. وعلى ذلك، فإن المقصود بالذرية ليست الذرية المباشرة من نسل بني آدم (عليه السلام) فحسب، بل أيضاً الذرية المتتالية، لأن كل إنسان من هذه الذرية يلزمه التفكر في موضوع الخلق كي يصل إلى مرحلة النضج العقلي الهادف إلى الإقرار بربوبية ووحدانية الله.

الآية الثانية: قال تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون" {يس: 41}.

نقول: إن فهمنا للآية يتعلق بفهم ثلاث مسائل فيها وهي قوله تعالى: "وآية لهم" ثم قوله تعالى: "حملنا ذريتهم" ثم قوله تعالى: "في الفلك المشحون". أما قوله تعالى: "وآية لهم" فإن الشوكاني قال: إن الضمير في قوله "وآية لهم" يرجع لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد [1]. وقيل: إن الضمير يرجع إلى العباد المذكورين في نفس سورة يس لقوله تعالى: "يا حسرة على العباد" {يس: 30} لأنه قال بعد ذلك: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها" {يس: 33} ثم قال: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار" {يس: 37} ثم قال: "وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم" {يس:41} فكأنه قال: وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1225.

البعض منهم، وبالضمير الآخر البعض الآخر، وهذا قول حسن [1].
وقال القرطبي إن قوله: "وآية لهم" يحتمل ثلاثة معان: أحدها: عبرة لهم؛ لأن في الآيات اعتباراً. الثاني: نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاماً. الثالث: إنذاراً لهم؛ لأن في الآيات إنذاراً [2]. أما قوله تعالي: "إنا حملنا ذرياتهم" فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، وهذا حكاه النحاس عن عليّ بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران في قوله تعالى: "وآية لهم" وقوله تعالى: "حملنا ذرياتهم" لكفار مكة، ونحوهم. والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم، وضعفائهم على الفلك، فامتن الله عليهم بذلك: أي: إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرية الآباء، والأجداد، والفلك هو: سفينة نوح: أي إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد: قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية، لأن منهم ذرية الأبناء، وقيل: الذرية النطف الكائنة في بطون النساء، وشبه البطون بالفلك المشحون [3]. وقال القرطبي: إن الذرية هي النطف، حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون؛ قاله عليّ بن أبي طالب؛ ذكره الماوردي [4]. أما تفسير قوله تعالى: "في الفلك المشحون" فقال ابن كثير، أي فيها دلالة على تسخير البحر ليحمل السفن، ومن ذلك (بل أوله) سفينة نوح، (عليه السلام)، التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يتبق على وجه

---

[1] المصدر السابق، ص1226.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص452.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1225.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص453.

الأرض من ذرية آدم غيرهم، ولهذا قال تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم" أي: آباءهم. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد: هي سفينة نوح (عليه السلام) [1]. وقال الرازي: إما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى: "والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون" {الزخرف: 12}. وقوله تعالي: "وترى الفلك مواخر" {النحل: 14}. وقوله تعالى: "فإذا ركبوا في الفلك" {العنكبوت: 65} إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس، فإن كان المراد سفينة نوح (عليه السلام) ففيه وجوه: (الأول): أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب، وعلى هذا فقوله تعالى: "حملنا ذريتهم" بدل قوله "حملناهم" إشارة إلى كمال النعمة، أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة، هذا ما قاله الزمخشري، ويحتمل عندي أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أي لم يكن الحمل حملاً لهم، وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين. (الثاني): هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء، وقد نهى النبي عن قتل الذراري، أي النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه، يقال ذرارينا أي أمثالنا، فقوله "أنا حملنا ذريتهم" أي أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث): هو أن الضمير في قوله تعالي: "وآية لهم" عائد إلى العباد حيث قال "يا حسرة على العباد" وقال بعد ذلك "وآية لهم الأرض" وقال "وآية لهم الليل" وقال تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم"، إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص579.

ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصاً معينين. وكذلك في قوله تعالى: "وآية لهم" أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم، أو ذرية بعض منهم. وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر؛ لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها، فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، وقوله تعالى في سفينة نوح "وجعلناها آية للعالمين" أي بوجود جنسها ومثلها [1]. نقول: إن قوله تعالى: "وآية لهم" لها معنى رابعاً يُضاف إلى ما ذكره القرطبي وهو "رسالة لهم" و "صورة لهم"، والصورة التي نقصدها هنا هي صورة الخلق وتحمل معنيين، فإما أن تكون "صورة لهم" أي صورة الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. وقد وقعت الآية (41) بين آيات قبلها وبعدها تشير إلى الأنواع الثلاثة الأخرى من الخلق، فالآيات التي قبلها جاء قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" {يس: 36}، وذكر بعدها الآيات الطبيعية الأخرى في الكون مثل وجود الليل والنهار والشمس والقمر مع الإشارة إلى تتابعهما، وذلك يؤكد على أن المشار إليه في الآية (36) هو الخلق الأول "من تراب/طين" والخلق الثاني "أي عملية الإحياء للخلية/النطفة" لأن في الآية إشارة ضمنية إلى بدء الخلق وتتابع الخلق. قال البيضاوي في معنى "سبحان الذي خلق الأزواج كلها" أي الأنواع والأصناف، وقوله تعالى: "مما تنبت الأرض" أي من النبات والشجر وقوله تعالى: "من أنفسهم" أي الذكر والأنثى [2]. أما الرازي فقد كان أكثر وضوحاً حيث قال: ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات، فقوله تعالى: "مما تنبت الأرض" يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص78، 79.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص132.

والثمار وقوله "ومن أنفسهم" يدخل فيها الدلائل النفسية، وقوله تعالى: "ومما لا يعلمون" يدخل ما في أقطار السماوات وتخوم الأرضين، وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا في المثال [1]. نقول: الآية تحتمل معنيين، المعنى الأول: أن يكون قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" وقوله "ومن أنفسهم" وقوله تعالى: "ومما لا يعلمون" كلها معطوفة على قوله تعالى: "خلق الأزواج كلها" فيصبح ذكرها على سبيل المثال لا الحصر، أي أن يكون هناك أزواج مخلوقة مما تنبت الأرض، وأزواج مخلوقة من الأنفس البشرية وهي الذكر والأنثى، وأزواج غير معلوم طبيعة خلقها للبشر. والمعنى الثاني الذي نرجحه، أن يكون خلق الأزواج كلها في قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها" يقصد به الأزواج الإنسية، أي الذكر والأنثى، على أن يكون القصد من قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" إشارة إلى طبيعة المادة الأولى والأصل الذي خلق منه الإنسان وهي التراب/الطين، فيصير خلق هذه الأزواج كان أصله من الطين/التراب وهو ذات الأصل الذي تنبت منه الأرض النبات، وعليه تكون "مما" في قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" إشارة إلى نوع وأصل المادة التي خلق منها آدم وعيسى (عليهما السلام)، وقوله تعالى: "من أنفسهم" فيه إشارة إلى النوع الثاني والثالث من الخلق، فالثاني هو "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، والثالث هو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وهو يحدث لكل جنين في رحم أمه، وبالتالي ينطبق قوله تعالى: "من أنفسهم" على هذين النوعين من الخلق، أي يحدث الخلق من ذات نفس الرجل، أي من صلبه، ومن ذات نفس المرأة، أي في رحمها، وكأنه أراد القول سبحان الذي خلق الأزواج من تلقاء أنفسهم

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص69.

عبر النوعين التاليين من الخلق، وهما "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، و "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. أما قوله تعالى: "ومما لا يعلمون" فإنها إشارة إلى النوع الرابع والأخير من الخلق وهو "البعث/بعث الأرواح في الأجساد"، وهذا خلق مذكور في القرآن، ولكن لا يعلمه إلا الله من ناحية الكيفية والهيئة والمضمون والأداء. أما بالعودة إلى الآيات التي بعدها، أي بعد قوله تعالى: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون" (41) فقد جاء قوله تعالى: "ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون (51) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون" (52) ، وهذه الآيات تشير إلى الخلق الآخر، الرابع والأخير في سلسلة الخلق التي تناولناها في الكتاب، وهو خلق "البعث/بعث الأرواح في الأجساد"، وهذا النوع من الخلق لا يعلم البشر عنه شيئاً بصرياً إلا ما ورد ذكره توصيفاً في القرآن الكريم، وهو خلق إلهي بامتياز دال على القدرة الإلهية في إبداعه الأخروي وحياة ما بعد الموت. ومن آيات الله التي تعددت في وصف علاقة الطبيعة بالإنسان وبالتحديد علاقة الأرض ومادته التراب أو الطين باستمرارية الحياة والبقاء على الأرض، قوله تعالى: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون" {يس: 33} إن إعطاء وصف الإحياء لمادة الأرض فيه إشارة دقيقة إلى الإمكانية الحيوية والإحيائية في المادة التي خلق منها الإنسان وهي التراب/الطين. نقول: إن الآية (41) (محل الشرح) تشير إلى نجاة الذرية من خلال حملها في الفلك المشحون، والنجاة دالة على استمرارية خلق الله، واستمرارية الاصطفاء للذرية المقصودة التي أراد الله أن يكتب لها النجاة كي تعمر في الأرض وتصبح خليفة الله في أرضه، وهذه الذرية يمثلها آدم (عليه السلام) باعتباره أصل الخلق، ومن ثم يمثلها عباد الله بحسب اصطفائهم واستخلافهم في الأرض.

الآية الثالثة: قال تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" {الطور: 21}.

إن الآية لا تخص الذرية كلها، بل نوع مخصوص موصوف وينطبق عليهم ثلاثة شروط كما جاء في الآية وهي:

الشرط الأول: أن يكون الذي ستلحق به ذريته مؤمناً هو وذريته، أي يتساوى أو يتوازن الإيمان عنده وعند ذريته، لقوله تعالى: "الذين آمنوا". قيل: المراد بـ "الذين آمنوا" المهاجرون والأنصار فقط، وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب [1]. وقيل إن قوله تعالى: "الذين آمنوا" معطوفة على قوله تعالى: "إن للمتقين" في الآية (17) التي سبقتها [2]، وذلك في إشارة إلى علو مرتبة الإيمان وارتباطها بالتقوي، وقوله تعالى: "واتبعتهم ذريتهم بإيمان"، أي أن إيمان الذرية يصح أن يكون قدوة أو إتباعاً وتقليداً أو غير ذلك. قال الشوكاني: إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا مؤمنين، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار [3]. وقال الرازي: ما الفائدة في تنكير الإيمان في قوله تعالى: "وأتبعهم ذرياتهم بإيمان؟" نقول: هو إما التخصيص أو التنكير كأنه يقول: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلص كامل أو يقول أتبعناهم بإيمان ما، أي شيء منه. ويحتمل أن يكون المراد غير هذا وهو أن يكون التنوين للعوض عن المضاف إليه،

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1413.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص251.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1413.

وبيانه هو أن التقدير أتبعناهم ذرياتهم بإيمان أي بسبب إيمانهم لأن الاتباع ليس بإيمان كيف كان وممن كان [1]. نلاحظ أنه وصف في الآية الاتباع للذرية في الدنيا بقوله تعالى: "واتبعتهم" بينما وصف الالتحاق بالذرية في الآخرة بقوله تعالى: "ألحقنا بهم" [2]. يدل ذلك على أن الاتباع أمر دنيوي يتعلق بالفعل البشري وهو في حال الآية مرهون بالذرية، أي أن الأبناء يلتحقون بالآباء في الاقتداء بإيمانهم عندما يكون الآباء قدوة للأبناء، أو الكبار قدوة للصغار فتتبعهم ذريتهم بالتقليد أو الريادة. أما فعل الإلحاق في قوله "ألحقنا بهم" فهو فعل إلهي بامتياز وهو يتعلق بالقرار الأخروي وقت الحساب، أي أن الله يلحق الأبناء الذين آمنوا مثل آبائهم يلحقهم بآبائهم يوم القيامة جزاء لفعل الإيمان. قال الخوارزمي في تفسير قوله تعالى: "ألحقنا بهم ذرياتهم"، أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم وعلى آبائهم كي نتم سرورهم ونكمل نعيمهم [3]. وإن الضمير في قوله تعالى: "بهم" راجع إلى "الذين آمنوا" المذكورة في أول الآية، أي ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم التي اتبعتهم بإيمان، أي أبناءهم مباشرة، وإذا قلنا إن قوله تعالى: "بهم" راجع إلى ذريتهم الأولى في الآية، فيصير المعنى: ألحقنا بذريتهم (أي الأبناء) المتبعة لآبائهم بإيمان، ذريتهم (أي أبناء الأبناء). قيل: إن الذرية تطلق على الكبار والصغار، كما هو المعنى اللغوي، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذرياتهم وكبارهم، ويكون قوله

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص252.

[2] المصدر السابق، ص251.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1056.

تعالى: "بإيمان" في محل نصب على الحال، أي: بإيمان من الآباء [1]. وقال البيضاوي: قرأ ابن عامر ويعقوب ذرياتهم بالجمع وضم التاء للمبالغة في كثرتهم والتصريح، فإن الذرية تقع على الواحد والكثير، وقرأ أبو عمرو وأتبعناهم ذرياتهم أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقيل بإيمان حال من الضمير أو الذرية أو منهما [2]. على حين قال الرازي: قرئ (ذرياتهم) في الموضعين بالجمع، وذريتهم فيهما بالمفرد، وقُرئ في الأول (ذرياتهم) وفي الثانية (ذريتهم) فهل للثالث وجه؟ نقول نعم معنوي لا لفظي، وذلك لأن المؤمن تتبعه ذرياته في الإيمان، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف لكانوا أتباعه في الإيمان حكماً، وأما الإلحاق فلا يكون حكماً إنما هو حقيقة وذلك في الموجود، فالتابع أكثر من الملحوق، فجمع في الأول وأفرد في الثاني [3].

الشرط الثاني: ألا ينتقص من أعمالهم شيء، وذلك في قوله تعالى: "وما ألتناهم من عملهم شيء". قيل "وما ألتناهم": وما نقصناهم، يعني وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل: معناه وما نقصناهم من ثوابهم شيئاً نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، وإنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل [4]. نقول: إن الإلحاق لا يكون على سبيل التفضل كما قال الخوارزمي، ولكن على سبيل الرحمة، ورحمة الله وسعت كل شيء، لكن ذلك لا يمنع من تأكيد القول إن إلحاق الأبناء أو الذرية بآبائهم الموصوفين بالإيمان مبنيٌ على إيمان الأبناء أيضاً، فيكون

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج27، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1413.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج27، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص330.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص252.

[4] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج27، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص1056.

الإلحاق جزاءً بما آمن به الأبناء، ثم رحمة من الله في حال كان هناك نقص في إيمان الأبناء، لأن الإيمان يزيد وينقص، وقد لا يتساوى الإيمان عند الآباء والأبناء، وقد يكون الإيمان تقليداً أو على سبيل الاتباع، فلذلك لا نستخدم تعبير الأفضلية، بل الرحمة. كما أن قوله تعالى: "وما ألتناهم من عملهم شيء" فيه إشارة ضمنية دقيقة إلى صفات العدل الإلهي، أي أن الله سيجعل لكل عمل لهم في الدنيا خير لهم في الآخرة، وهذا تمثيل لقوله تعالى: "إنما يوفى الصابرون أجرهم" {الزمر: 10} أي أن المكافأة على قدر العمل وأكثر.

الشرط الثالث: ترسيخ معنى المسؤولية الشخصية عن الأعمال في الدنيا من دون ربط تلك المسؤولية بأحد سواء كان قريباً أو بعيداً وذلك في قوله تعالى في آخر الآية: "كل امرئ بما كسب رهين" يقول: كل نفس بما كسبت وعملت من خير وشر مرتهنة لا يؤاخذ أحد منهم بذنب غيره، وإنما يعاقب بذنب نفسه [1]. قال ابن كثير: إنه تعالى لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد [2]. نقول: تعقيباً على قول ابن كثير إن مقام الفضل في رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء مشروط ولا يحق أن نقول إنه من غير عمل، ولذا ذكرنا هذه الشروط الثلاثة الوارد ذكرها في الآية. إن الشروط الثلاثة تتوافق مع المنهج القرآني عموماً، وبالتحديد الآيات التي تؤكد على نوعية الحساب يوم القيامة سواء كان فردياً أو جماعياً، فالجماعي يأتي بصيغة الشهادة المتعلقة بالمسلمين والأمة الإسلامية في علاقتها مع غير المسلمين من الأمم والجماعات الأخرى والأفراد في قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون

---

[1] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج7، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص132.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص434.

الرسول عليكم شهيداً" {البقرة: 143}، والحساب الفردي جاء بصيغة شخصية في قوله تعالى: "وكلهم آتيهم يوم القيامة فرداً" {مريم: 95}. وقوله تعالى: "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً" {الإسراء: 15}. عموماً أورد القرطبي في تفسيره أحاديث عن موضوع إلحاق الذرية بآبائهم يوم القيامة، ولكن مجملها أحاديث ضعيفة، وهي لا تنسجم مع الآيات ذات الصلة في النص القرآني، من هذه الأحاديث، قيل عن ابن عباس عدة روايات: منها أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية". وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفع درجة؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذرية. وعن ابن عباس أيضاً يرفعه إلى النبي قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال لهم: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يا رب، إني عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به" [1]. قد تكون هذه الأحاديث داخلة في معنى باب التسويات المتعلقة بوقت الحساب، بمعنى أن إلحاق الأبناء بالآباء والعكس قائم على النتيجة النهائية لمسألة الثواب والعقاب ويشتمل ذلك على عدم قبول الكفر والشرك بالله، فلا يعني ذلك أن يكون الابن كافراً فيلحق بأبيه لمجرد أنه مسلم أو مؤمن، ولا يعني إلحاق الأب الكافر بابنه لأنه مسلم أو مؤمن، وهكذا. فلا يلحق النبي إبراهيم ضرراً في الآخرة لكفر أبيه، ولا يلحق نبي الله نوح ضرراً لعدم اتباع ابنه أو سماعه له. نقول: إن صفات الاقتداء أو الاتباع أو الالتحاق إما أن تكون مسألة تتعلق بالتدارس أو التعليم وينتج عنها قناعة، وإما أن تتعلق بالتقليد فينتج عنها التزام. إن

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص524، 525.

الإيمان بالله ينطوي على الاثنين، القناعة أولاً والالتزام ثانياً، لكن القناعة أولى من الالتزام. إن الالتزام في كثير من الأحيان يكون محفوفاً بالمخاطر؛ لأنه يحوّل الدين إلى ظاهرة ثقافية ويقوم على التمسك بها كظاهرة. أما القناعة فهي نابعة من التمحيص والتدقيق في الأدلة (النص) وممارستها في الواقع.

سادساً: كلمة (ذُرِّيتهما)

الآية الأولى: قال تعالى: "وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين" {الصافات: 113}.

إن قوله تعالي: "ومن ذريتهما" فيها إشارة إلى ذرية إبراهيم، أي أبنائه إسماعيل وإسحاق، وكذلك فيها إشارة إلى ذرية إسحاق وهم يعقوب وعيصو. قال البيضاوي: "وباركنا عليه" أي على إبراهيم في أولاده. "وقوله تعالى: "وعلى إسحاق" بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا. "ومن ذريتهما محسن" في عمله أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة. وقوله تعالى: "وظالم لنفسه" بالكفر والمعاصي [1]. وقال الشوكاني: إن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين، والعرب، وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام [2].

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص157.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1247.

الآية الثانية: قال تعالى: "ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون" {الحديد: 26}.

نلاحظ في الآية أنه قدّم نوحاً على إبراهيم تماشياً مع التسلسل التاريخي المتعلق بالنسل لأن نوحاً أقدم من إبراهيم. كما أن الله استخدم كلمة "أرسلنا" مع ذكره نوح وإبراهيم، واستخدم كلمة "جعلنا" مع ذكره ذريتهما، أي ذرية نوح وإبراهيم مع التمييز بينهم في قوله تعالى: "فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون". نقول: إن الإرسال يكون بالتوكيل لحمل الأمانة أو التوكيل بالتبليغ، وقد كان ذلك لنوح وإبراهيم بالنظر إلى خصوصيتهما وخصوصية الظروف التي عاشها قومهما عندما حملوا رسالة النبوة، لا سيما أن إبراهيم بعث في قوم يعبدون الأصنام ومن بينهم أبيه، إذ ورد قوله تعالى: "إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُغني عنك شيئاً" {مريم: 42}. وقد ذكر الله صفات إبراهيم من قبل أن يكون نبياً وقبل أن يبدأ رسالة التبليغ، وذلك في قوله تعالى: "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين" {الأنبياء: 51} وقوله تعالى: "واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً" {مريم: 51}. وقد سبق أن شرحت في كتابي (الجلي النقي في معرفة الوحي) لماذا سبقت صفة الصدق النبوة في كل الآيات التي ورد فيها صدق الأنبياء "إبراهيم ويوسف وإسماعيل وإدريس وعيسى" وذلك في دليل على أهمية صفة الصدق وفضيلته التي جعلت اصطفائهم كأنبياء ممكناً [1]. أما الجعل فمعناه "الخلق" ما يعني أن مجمل الأنبياء الذين جاءوا بعد نوح وإبراهيم، ومن ذريتهم، كانوا جميعاً مخلوقين مجبولين على النبوة، ولأجل رسالة التبليغ السماوية. ولأن الجعل يعني الخلق، فإن الآية لم تستثني أي نوع من الخلق. وهذا يعني بالضرورة أن الآية لم تستثني عيسى (عليه السلام) الذي اجتمع

[1] حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023)، ص284

فيه كل أنواع الخلق، وهو من الذرية التي جعلت فيها النبوة والكتاب، لأنه من الذرية خلقت من تراب مثل آدم (عليه السلام)، ونسلت من نوح وبعده إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وعمران وموسى وهارون وداوود وسليمان وغيرهم، وصولاً إلى عيسى (عليه السلام). قال ابن كثير: "كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر بعده بمحمد" [1]. وقال القرطبي: إنه فصّل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل النبوة في نسلهما، أي: جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أُمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان [2].

سابعاً: كلمة (ذُريتي)

الآية الأولى: قال تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين" {البقرة: 124}.

قيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي: ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصياً وظالماً لا يستحق الإمامة في قوله "ولا ينال عهدي الظالمين" [3]. قال الرازي في قوله "ومن ذريتي" ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الذرية: الأولاد وأولاد الأولاد للرجل وهو من ذرأ الله الخلق، {......} وفيه وجه آخر وهو أن تكون منسوبة إلى الذر.

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج8، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص28.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج20، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص270.

[3] المصدر السابق، ص367.

المسألة الثانية: قوله "ومن ذريتي" عطف على الكاف في قوله تعالى "إني جاعلك" كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي. كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً؟

المسألة الثالثة: قال بعضهم: إنه تعالى أعلمه أن في ذريته أنبياء فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلهم أو في بعضهم وهل يصلح جميعهم لهذا الأمر؟ فأعلمه الله تعالى أن فيهم ظالماً لا يصلح لذلك وقال آخرون: إنه (عليه السلام) ذكر ذلك على سبيل الاستعلام ولما لم يعلم على وجه المسألة، فأجابه الله تعالى صريحاً بأن النبوة لا تنال الظالمين منهم، فإن قيل: هل كان إبراهيم (عليه السلام) مأذوناً في قوله "ومن ذريتي" أو لم يكن مأذوناً فيه؟ فإن أذن الله تعالى في هذا الدعاء فلم رد الله دعاءه؟ وإن لم يأذن له فيه كان ذلك ذنباً من إبراهيم، قلنا: قوله "ومن ذريتي" يدل على أنه (عليه السلام) طلب أن يكون بعض ذريته أئمة للناس، وقد حقق الله تعالى إجابة دعائه في المؤمنين من ذريته كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وجعل آخرهم محمداً من ذريته الذي هو أفضل الأنبياء والأئمة عليهم السلام [1]. نقول: إن إبراهيم أراد من خلال سؤاله "ومن ذريتي؟" الحماية لهذه الذرية وضمان مستقبل الاستخلاف لهم في الأرض من بعده دون الشرك بالله كما قال: "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" {إبراهيم: 35}. لكن موضوع هذه الآية يرتكز بشكل أساسي على "الإمامة" "والعهد" المذكورين في الآية، وكيف أن الظالمين هم الاستثناء من موضوع الإمامة والعهد الإلهي. لقد شرح المفسرون موضوع الإمامة والعهد شرحاً مستفيضاً، وأبرزهم الرازي، وكذلك القرطبي الذي قال إنه اختلف في المراد بالعهد، فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوة،

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص44.

وقاله السُّدي. وقال مجاهد: الإمامة. وقال قتادة: الإيمان. وقال عطاء: الرحمة. وقال الضحاك: دين الله تعالى. وقيل: عهده أمره [1]. نقول: إن الآية جاءت على ذكر كلمتين هامتين وهما "جاعلك" مع إبراهيم، و "عهدي" مع الظالمين. وبالتالي فإن الكلمة هنا توحي بأن الله شرّف إبراهيم في عملية خلقه فكان من الذين اصطفاهم لمهمة النبوة، أي أن هناك علاقة بين الخلق الإلهي والاصطفاء لمهمة النبوة، وهذا ما يؤكده قصة أهم نبيين ارتبط اسماهما بالنبوة قبل وأثناء لحظة ولادتهم، بل إن طريقة ولادتهم كانت تدل على اختيارهم أو اصطفاءهم لمهمة النبوة، وهما عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا (عليهما السلام). طبعاً كان هناك أنبياء تم اصفاؤهم في صغرهم مثل يوسف (عليه السلام)، لكننا نتحدث عن عيسى ويحيى (عليهما السلام) لأهمية طريقة خلقهم وولادتهم، وعلاقة طريقة خلقهم باصطفائهم كأنبياء. **لقد حدث اصطفاء لخلق النبي إبراهيم، رغم أنه لم يولد بنفس طريقة الخلق التي ولد بها عيسى ويحيى (عليهما السلام)، فما الفرق؟**

نقول: إن اختيار كلمة "جاعلك" للنبي إبراهيم بمعنى خالقك للتشريف كإمام. أما بالنسبة لكلمة "عهدي" فإن الله تعالى استخدامها مع الظالمين في وصف حالهم، وحال منع العهد عنهم لعدم التزامهم بميثاق العدل، ولكنه لم يقل لإبراهيم: "لا ينال عهدي ذريتك" ولم يقل: "لا ينال عهدي الظالمين من ذريتك" بل قال: "لا ينال عهدي الظالمين" فجعل الظلم عاماً موجوداً في نسل إبراهيم كافة إلى قيام الساعة، وليس مخصوصاً بذرية إبراهيم القريبة، أي أبنائه وأبناء أبنائه، ما يعني أن هناك علاقة حيوية بين الخلق والاصطفاء للنبوة، فطبائع الخلق ليست واحدة، والأنبياء ليسوا كبقية البشر، وإن الله إذا أراد بعبده خيراً سهل له الطريق، فكان الخلق الإلهي (وخاصة خلق

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص369.

الأنبياء) مجبولاً على العدل الذي هو في فطرة الدين وفي أساس الخلق، وهو أول خواص النبوة، وإن ذكر الظالمين في هذا الموضع هو تعبير عن إنكارهم للفطرة ولحقيقة الدين ولأول خواص النبوة، وبالتالي إنكارهم طبيعة خلقهم التي جبلهم الله عليها وأصلها التراب/الطين، وكأن الله يريد الجزم بالقول، إن الظلم يتعارض مع طبيعة الخلق والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وخير تعبير عن علاقة الخلق بالفطرة والدين والعدل والذرية قوله تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" {الروم: 30}. جاء قوله "فأقم" للإشارة إلى ضرورة اتباع الشرع والاستقامة فيه وإقامة الدين عندما يتبين الأمر وتظهر الوحدانية دون اهتداء المشرك إلى شيء، وقوله تعالى: "خلق الله" تعبيراً عن الدين. **السؤال هنا: لماذا قال عن الدين إنه "خلق الله"؟**

دلالة وصف الدين بأنه "خَلق الله"

نقول: إن الدين هو اعتقاد أولاً ثم إنه نظام شرعي أو تشريعي أو أخلاقي ثانياً. بالنسبة للإسلام فإن الشرعي فيه هو نظام تشريعي، والأخلاقي فيه هو نظام تربوي، والأهم من ذلك أن الإسلام فيه نظام طبيعي مادي خلقي وإحيائي وروحي، وهذه المسألة لم يطرق بابها بتدقيق صريح في التاريخ الإسلامي، أي ارتباط الخلق (الكائنات الحية) بالمادة، وارتباط كلاهما بالروح، والروح من أمر الله. بالتالي يصبح معنى كلمة "فأقم" بلغة الأمر، أي أقم روحك بأمر الله على الدين القيّم من خلال إبصار وجهك لشرائع (تشريعات) وأخلاقيات (تربويات) ومادية وطبيعية (الخلق والإحياء) في هذا الدين الإسلامي. بالتالي فإن هناك ارتباط بين الدين والفطرة وخلق الله، وذلك من خصوصية علاقة الاصطفاء بالأنبياء، وهذا جزء مهم من تنزيه

الأنبياء والرسل عن الذنوب والمعاصي، حيث كانت عصمتهم منذ اللحظة الأولى لخلقهم، وليس فقط منذ أن أمرهم الله بتلقي وأداء واجب رسالة النبوة من السماء، ولذلك فإن هذه الآية تدل على عصمة الأنبياء من الزلل، بل هي تؤكد على إقامتهم للعدل الذي هو نقيض الظلم. وإذا قيل: "إن يونس (عليه السلام) قال: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" {الأنبياء: 87}. وقال آدم: "ربنا ظلمنا أنفسنا" {الأعراف: 23} رد عليه الرازي: إن المذكور في الآية هو الظلم المطلق، وهذا غير موجود في آدم ويونس (عليهما السلام) [1]. وقال الرازي: الآية دالة على أنه تعالى سيعطي إبراهيم بعض ولده ما سأل لهم، ولولا ذلك لكان الجواب: لا، أو يقول: لا ينال عهدي ذريتك يا إبراهيم، فإن قيل: أفما كان إبراهيم (عليه السلام) عالماً بأن النبوة لا تليق بالظالمين، قلنا: بلى، ولكن لم يعلم حال ذريته، فبين الله تعالى أن فيهم من هذا حاله وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم [2]. وقال سعيد بن جبير: الظالم هنا المشرك. وقال ابن خُويزمنداد: وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً، ولا إمام صلاة، ولا يُقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تُقبل شهادته في الأحكام [3].

الآية الثانية: قال تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" {إبراهيم: 37}.

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج4، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص46.

[2] المصدر السابق، ص45.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص369، 370.

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي" أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي، فحذف المفعول وهم إسماعيل ومن وُلد منه فإن إسكانه متضمن لإسكانهم [1]. وقال الفراء: من للتبعيض، أي: بعض ذريتي. وقال ابن الأنباري: إنها زائدة، أي: أسكنت ذريتي، والأول أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده [2]. وقال القرطبي: أسكنت بعض ذريتي، يعني: إسماعيل وأمه؛ لأن إسحاق كان بالشام. وقيل: هي صلة، أي: أسكنت ذريتي [3]. وأشار الرازي "أن اللام في قوله "ربنا ليقيموا الصلاة" متعلقة بأسكنت، أي أسكنت قوماً من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة" [4]. ارتبطت الذرية في الآية بأمرين متتابعين إلى جانب الإحياء الإنسي من ذرية إبراهيم، وهما أولاً: العيش، وثانياً: العبادة. أما العيش فجاء في صيغة طلب النجدة في شرح إبراهيم لربه: "بواد غير ذي زرع" والعبادة جاءت بصيغة الأمر لإقامة الصلاة في قول إبراهيم: "ليقيموا الصلاة"، ثم بعد ذلك أفاد بأهمية الشكر على توفير العيش في قوله: "وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". نقول: والشكر يكون من خلال إقامة الصلاة. ونشير بأن "الواد غير ذي زرع" هو موضع الزرع وهو الأرض، كأنه قيل، إن الأصل أن تكون الأرض في خدمة الإنسان وأن يسخرها الله لذرية إبراهيم، وهذا ما فعله الله تأكيداً على أهمية تسخير الأرض التي هي موضع الزرع

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص226.

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج13، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص750.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص150.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص139.

والنبات للإنسان، وثانياً: بالصلاة، وإقامتها في الأرض التي هي موضع الخضوع لله في السجود. نقول: إن قوله تعالى: "أسكنت من ذريتي" هي إشارة ظاهرية إلى بعض الذرية، أي إسماعيل وأمه، لكنها إشارة ضمنية حياتية أنثروبولوجية إلى كل ما سيأتي لاحقاً من ذرية إسماعيل، أي أن دعوة إبراهيم عبر تكراره كلمة "ربنا" مرتين في الآية بصيغة الدعاء، هي في محل طلب الحماية والحفاظ على نسله ونسل ابنه إسماعيل، وهذه دعوة تخص إحياء الحياة للإنسان عامة، وإحياء الجنس البشري من ذرية إبراهيم خاصة، وهذا الإحياء الإنسي مقترن بالإحياء الطبيعي من خلال توفير سبل العيش للإنسان من أجل استمرارية بقاءه خليفة في الأرض.

الآية الثالثة: قال تعالى: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" {إبراهيم: 40}.

قال البيضاوي: "رب اجعلني مقيم الصلاة" أي مُعْدِلاً لها مواظباً عليها. "ومن ذريتي" عطف على المنصوب في اجعلني [1]. وقال القرطبي: "رب اجعلني مقيم الصلاة" أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. "ومن ذريتي" أي: واجعل من ذريتي من يُقيمها [2]. وكذلك قال الرازي [3]. نقول: إن هذه الآية جاءت بعد آيتين من الآية السابقة رقم (37) وقد ورد فيها تأكيد على الدعاء الذي سبق أن دعاه إبراهيم مرتين في قوله "ربنا" في الآية السابقة (37) من نفس السورة.

---

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص228.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص156.

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص142.

وهو في هذه الآية كرر الدعاء أيضاً مرتين، فقال إبراهيم في الأولى "رب اجعلني مقيم الصلاة" متحدثاً عن نفسه، وقال في الثانية "ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء"، وهو دعاء على لسان الذرية، أي ربنا تقبل إقامتهم للصلاة.

الآية الرابعة: قال تعالى: "ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين" {الأحقاف: 15}.

قال الشوكاني: أي اجعل ذريتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه [1]. قيل إن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه؛ لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه [2]. وقال ابن عباس: فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده. وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلهم لي خَلَف صِدق، ولك عبيد حق. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً [3]. نقول: إن الآية ابتدأت بذكر الإنسان في قوله تعالى: "ووصينا الإنسان" وهي هنا عامة لكل بني آدم (عليه السلام)، وخاصة لنسل بني آدم (عليه السلام)، وحجتنا في ذلك أن الآية ترسخ لنوعين من الخلق، أي "عملية الإحياء للخلية/النطفة"،

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج26، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1364.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج26، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص278.

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج19، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص198.

بالإضافة إلى النوع الثالث من الخلق، وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وقد عبّرت الآية عن هذين النوعين من الخلق في قوله تعالى: "حملته أمه كُرهاً" والحمل هنا ينتج عن عملية التلقيح للبويضة في رحم الأم، يليه إنشاء وتصوير شكل الجنين، ثم بعد ذلك، أشارت الآية إلى مرحلة النمو خارج الرحم، أي بعد الولادة في قوله تعالى "ووضعته كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً"، ثم تلاه مرحلة الشدة والبلوغ في قوله تعالى "إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة"، وبعد ذلك حصل دعاء الشكر من قبل الإنسان على كل ما تقدم منذ لحظة خلقه، وذلك في قوله تعالى: "قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين". نقول: إن الدعاء بالتوبة والإصلاح هو خاص بالإنسان، وأما الدعاء بإصلاح الذرية فهو يشتمل على طلب الإصلاح منذ لحظة الخلق الثاني والثالث، أي "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، وكذلك "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، أي أن طلب الإصلاح للذرية يشتمل على معالجة جذرية أنثروبولوجية، وهي دعوة إنسية تهدف إلى ضرورة الحفاظ على النسل الإنساني.

ثامناً: كلمة (ذُرّياتنا)

الآية الأولى: قال تعالى: "والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً" {الفرقان: 74}.

نقول في الآية ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: في الآية دعاء لقوله تعالى "ربنا هب" وهو دعاء مخصوص للأزواج والذرية، وهذا الدعاء بذات الصيغة، أي استعمال كلمة "ربنا" أو "رب" تكرر في عدة آيات سابقة في سياق الحديث عن الذرية وذلك في قوله تعالى: "قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك" {الأحقاف: 15}. وقوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير

ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة" {إبراهيم: 37}. وقوله تعالى: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" {إبراهيم: 40}. نقول: إن وجود الذرية في الأرض من خلال استمرار نسل آدم (عليه السلام)، أي بقاء الجنس البشري أو وجود الأزواج والذرية بحسب وصف الآية مرتبط أيضاً باستمرارية العيش من خلال توفير نعمة الله، أي الزرع والنبات، أو بمعنى أدق الأمن الغذائي الذي أنعمه الله على عباده، ومرتبط أيضاً بضرورة إقامة الصلاة أو العبادة عموماً، وبالإمامة. قال ابن كثير في تفسيره: الذين يسألون الله أن يُخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة. وقال الحسن البصري (وسُئل عن هذه الآية) فقال: أن يُرى الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله. لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخاً، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل. وقال ابن جُريج: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام [1].

المسألة الثانية: إن قوله تعالى: "هب لنا من أزواجنا وذرياتنا" تدل على أن الأزواج غير الذرية، علماً بأن كل زوج أو زوجين هما في الأصل ذرية. نقول: إن هذه الآية تؤكد على أن الذرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنسل وعملية الإنجاب. إن ذكر كلمة "أزواجنا" في الآية تشير إلى النوع الثاني والثالث من الخلق، وهما "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، وكذلك "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وهذا ما قصده في قوله تعالى: "هب لنا من أزواجنا". أما قوله "وذرياتنا" فهي إضافة إلى أزواجنا في إشارة إلى عملية تتابع النسل الناتج عن النكاح

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج6، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص132.

الذي هو سنة في الإسلام. كما أن هناك اتساق بين الهبة والجعل في قوله تعالى: "هب لنا" وقوله تعالى: "واجعلنا" فالهبة في هذا المعنى الخاص بالذرية والأزواج هي الإكرام بالإنجاب، وهي من المنح والعطاء والإغاثة. وإن كلمة "هبْ" بسكون الباء، وكلمة "هبَّ" بتشديد الباء هما من نفس الجذر اللغوي، وتستخدم الأخيرة، أي "هبَّ" بتشديد الباء في مسائل تخص الحركة والطبيعة. يقال: هبَّت الريح تهب هبوباً [1]. وإن الحركة والطبيعة هما في صلب عملية الإنجاب؛ لأنها تقوم على حركة الجسد التفاعلية، وأما إنتاج النسل فهو يتشكل من حصيلة النظام الغذائي الذي يتبعه الإنسان في حياته. أما الجعل فالمقصود به الخلق. **السؤال هنا، لماذا سبقت الهبة الجعل، أي لما قال "هب" أولاً ثم "واجعلنا" ثانياً، ولماذا جاءت الهبة مع الأزواج والذرية؟ بينما جاء الجعل/الخلق مع الإمامة؟**

إن الهبة التي يمنحها الله للإنسان قد تكون ذكراً أو أنثى أو لا شيء، أي عقيماً كما قال في القرآن لقوله تعالى: "ويجعل من يشاء عقيماً" {الشورى: 50}، لكن الجعل جاء مع الإمامة باعتباره مذكراً، فجُعلت صفة الخلق في موضوع الإمامة للذكورة ما دون الأنوثة. أما قوله تعالى: "واجعلنا" بصيغة الجمع فإنها خطاب يعود للمؤمنين جميعاً، وكل من لهم صفات أعلى من صفات المتقين أو تلك الصفات التي تؤهلهم للإمامة، فتصبح الإمامة للعموم، وإذا كانت للخصوص فهي لخصوص من يتصفون بالصفات الأخلاقية، وهذا ما عبر عنه القرآن في بعض المواضع التي جاء فيها ذكر الأئمة بصيغة الجمع، وذلك في قوله تعالى: "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين" {القصص: 5}.

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج4، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص284.

المسألة الثالثة: إن جعل الإمامة أو "خلق صفة الإمامة" في البشر في قوله تعالى: "واجعلنا للمتقين إماماً" لا يكون للأزواج والذرية المذكورين في الآية الذين يُرجى أن تنتقل لهم الإمامة، وإنما يعود إلى لسان القائل "واجعلنا" إلى ذكره تعالى: "والذين يقولون" وهؤلاء هم "عباد الرحمن" وهم المؤمنون الذين تم ذكرهم في الآية (63) من نفس سورة الفرقان. نلاحظ هنا أن "عباد الرحمن" لهم صفات تكررت في الآيات من {63 – 74} وتكررت الإشارة إليهم ست مرات في هذه الآيات بقوله تعالى: "والذين". ومن صفاتهم مثلاً أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، وأنهم يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، وأنهم إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا، وأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر، وأنهم لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأنهم لا يزنون، وأنهم لا يشهدون الزور، وأنهم إذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً، وأنهم إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُماً وعُمياناً. هذه الصفات تؤهل عباد الرحمن المؤمنين للإمامة إذا اتصفوا بها، وأن يكون الإنسان إماماً على المتقين في قوله تعالى: "واجعلنا للمتقين إماماً"، فهذه درجة عليا من الإمامة، ما يعني أن واحدة من صفات الإمام هنا أن يكون أكثر تقوى من المتقين كي ينال صفة الإمامة على المتقين. يتسق ذلك مع معنى قوله "واجعلنا" أي "واخلقنا" باعتبار أن الجعل هو الخلق، فإذا كان الأمر كذلك، أي إذا اجتمعت الصفات الأخلاقية العليا للإمامة مع وجوب تحققها في خلق الله، فإن ذلك لا يكون أو يتحقق إلا للأنبياء أو الأتقياء الصالحين الذين يتصفون بصفات الأنبياء، ولكن في حال الآية فإنها لـ "عباد الرحمن" ولسانهم في الآية "والذين يقولون" كما ذكرنا. كما أن هذه الآية تتسق مع مضمون قوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين" {البقرة: 124} وقد سبق شرح هذه الآية، وبالتحديد المقصود بالجعل باعتبار أن الجعل هو الخلق في قوله تعالى: "جاعلك للناس إماماً" والمقصود بالعهد في قوله تعالى: "لا

ينال عهدي"، أي علاقة الإمامة والعهد بالذرية. إن الآيتين {البقرة: 124} و {الفرقان: 74} تدلان على أن الإمامة تكون في نوع مخصوص من الخلق، وهو خلق يتم اصطفاؤه بتدبير وتوفيق من الله، وهذا قائم إلى يوم القيامة.

تاسعاً: كلمة (ذُرياتهم)

الآية الأولى: قال تعالى: "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم" {الأنعام: 87}.

إن هذه الآية تتبع الآيات التي سبقتها، وإن تفسيرها لا ينفك عما قبلها، وقد ورد قبلها ذكر الله تعالى أولاً أربعة من الأنبياء، وهم: نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء: داوود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوطاً، والمجموع ثمانية عشر [1]. أما قوله تعالى: "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم" يفيد أحكاماً كثيرة: الأول: أنه تعالى ذكر الآباء والذريات والإخوان، فالآباء هم الأصول، والذريات هم الفروع، والإخوان فروع الأصول [2]. نقول: إن ما أشار إليه الرازي بأن الذريات هم الفروع، فذلك بالمعنى الاجتماعي لكلمة الذريات. أما بالمعنى الأنثروبولوجي فإن كلمة "ذرياتهم" تعتبر أصولاً وفروعاً، فالأصول لأنها وحدة كلية تشتمل على أصل الذرية السابق واللاحق منها من ناحية أصل حركة المادة التي تشكلت سابقاً منذ خلق آدم (عليه السلام) ثم تآلفت من وحدات ذرية متناثرة عدة مرات على مدار

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج13، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص68.

[2] المصدر السابق، ص70.

التاريخ، والفروع لأنها جزء من الكل، أي أن فرع الذرية هو تابع للأصل وجزء مأصول منها، لأن في الآية اجتباء وهداية لهؤلاء الآباء والذرية والإخوة، فبالتالي يصح أن يكون هناك خصوصية أيضاً في نوع الذرية أو الخلق، يعني أنه خلق يشتمل على النوع الأول من الخلق "من تراب/طين".

الآية الثانية: قال تعالى: "جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب" {الرعد: 23}.

قال الزجاج: بيّن تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة [1]. وكذلك ذكر القرطبي: يجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم، أي: من كان صالحاً، ولا يدخلونها بالأنساب [2]. نقول: إن الآية تشير إلى نوعين أو أكثر من الآباء ومن الأزواج، وكذلك إلى نوعين أو أكثر من الذرية، والذي يميز بين هذه الأنواع هو الصلاح، أي أن هناك آباء وأزواج وذرية فاسدون وآخرون صالحون. بالتالي يكون الثواب المذكور في الآية، أي عقبى الدار ودخول الجنة، مخصوص لمن صلح من هؤلاء جميعاً، ومنهم الذرية. **والسؤال هنا، هل يكون صلاح الذرية من خلال صلاح نوعية الخلق؟**

نقول: نعم، إن هذا النوع من الصلاح مشمول مع كافة أنواع الإصلاح الأخرى وهو أولها وأهمها، وبالتحديد صلاح النوع الثاني من الخلق، أي "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، وكذلك النوع الثالث

---

[1] المصدر السابق، ص46.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص60.

من الخلق، وهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة. نقول: صلاح "عملية الإحياء للخلية/النطفة" لأن صلاح الذرية يشتمل على صلاح الجانب الحيوي البيولوجي على قاعدة اختيار المناسب من الناس للتزاوج، على سبيل المثال: يتم اتباع تلك القاعدة الإرشادية من خلال الفحص الطبي الذي يجريه المقبلون على الزواج؛ وذلك لمعرفة ما إذا كان هناك إصابات ببعض أمراض الدم الوراثية أو بعض الأمراض المعدية، أي أن العامل الوراثي المتعلق بالنسل والنسب داخل في ضرورة عملية الإصلاح، لأنها إصلاح للذرية. أما صلاح النوع الثالث من الخلق، أي "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، فهو يتم من خلال اتباع الإرشادات الطبية في حراسة وحماية الجنين من التشوهات وإتباع نظام غذائي صحي، والحفاظ على نظام يهدف إلى تكامل صورة الجنين وهيئته. بالإضافة لما سبق، ورد معنى مقارب لهذه الآية من ناحية الصلاح من جهة الإيمان، كما شرحنا في تفسير قوله تعالى: "والذين آمنوا وأتبعناهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين" {الطور: 21}. {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص479}.

الآية الثالثة: قال تعالى: "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم" {غافر: 8}.

إن هذه الآية نظير الآية السابقة من سورة الرعد، وينطبق عليها حال الذرية وصلاحها وفق شروط الإصلاح ونوعيته. قال الشوكاني: المراد بالصلاح ها هنا: الإيمان بالله، والعمل بما شرعه الله، فمن فعل ذلك، فقد صلح لدخول الجنة، ويجوز عطف، ومن صلح على الضمير في وعدتهم، أي: ووعدت من صلح، والأولى عطفه على الضمير الأول في وأدخلهم، قال الفراء، والزجاج: نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في أدخلهم. وإن شئت على الضمير في وعدتهم. قرأ

الجمهور بفتح اللام من صلح. وقرأ ابن أبي عيلة بضمها، وقرأ الجمهور "وذرياتهم" على الجمع، وقرأ عيسى بن عمر على الإفراد .[1]

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج24، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1295.

الفصل الخامس

خصوصية وتشريف النبي عيسى وأمه مريم في عملية الخلق

شرحنا كل ما يتعلق بالذرة والذرية للوصول إلى جدوى العلاقة بين خلق آدم (عليه السلام) من تراب، وخلق عيسى (عليه السلام) في رحم أمه من غير أب، وهو ما عبّر عنه القرآن بوضوح غالباً في ثلاث سور مركزية في القرآن وهي (آل عمران، والمائدة، ومريم). كما أن قصة ولادة عيسى (عليه السلام) من غير أب لها دلالة متصلة بامتداد سلالة بني آدم منذ بداية الخلق إلى خلق عيسى (عليه السلام) ومن بعده، وهو ما يستحق الإشارة هنا إلى خصوصية نسل آل عمران وزوجته حنة بنت فاقوذ، التي أنجبت مريم (عليها السلام) رغم أنها كانت عاقراً، وإنجاب مريم لعيسى (عليهما السلام) فيما بعد. نقول: إن ولادة عيسى (عليه السلام) من أمه مريم (عليها السلام) من دون أب، لها أسبقية "في الذرية" دالة على القدرة الإلهية في إتمام عملية الخلق بأنواعه الأربعة، سواء كان الخلق الأول "من طين/تراب"، أو الخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"، أو الخلق الثالث "الإنشاء/التصوير"، أو الخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد" يوم القيامة، وهذه الأسبقية تتمثل في ولادة مريم (عليها السلام) من رحم أمها حنة بنت فاقوذ وهي عاقر، وتحقق في عملية تكوينها، الخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"، والخلق الثالث "الإنشاء/التصوير". لقد تجلت الأنواع المتعددة من الخلق في حالة عيسى (عليه السلام) في عدد من الآيات القرآنية التي سنشرح من خلالها ولادة مريم (عليها السلام) أولاً، ثم ولادة عيسى (عليه السلام)، ثم المعجزات التي مكَّنه الله منها، وسوف نذكر علاقة كل ما سبق بالمادة التي خلقت منها مريم وعيسى (عليهما السلام)، ونفخ الروح فيهما.

الآيات المركزية هي عشر آيات كما يلي:

- **الآية الأولى:** قوله تعالي: "إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني مُحرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم" {آل عمران: 35}.

- **الآية الثانية:** قوله تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" {آل عمران: 36}.

- **الآية الثالثة:** قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37}.

- **الآية الرابعة:** قوله تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}.

- **الآية الخامسة:** قوله تعالى: "قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" {آل عمران: 47}.

- **الآية السادسة:** قوله تعالى في سورة مريم: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً (20) قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً" (21).

- **الآية السابعة:** قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}.

- **الآية الثامنة:** قوله تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرئ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}.

- **الآية التاسعة:** قوله تعالى: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تُكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتُبرئ

الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مُبين" {المائدة: 110}.

- **الآية العاشرة:** قوله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" {المائدة: 116}.

عملية إنجاب مريم من أمها العاقر (حنة بنت فاقوذ، جدة النبي عيسى عليه السلام)

توصيف أنثروبولوجي حيوي لجنس وحرية مريم

الآية الأولى: قوله تعالى: "إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني مُحرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم" {آل عمران: 35}.

في الآية ثلاث كلمات هامة تستحق الشرح وهي "نذرت" و "بطني" و "مُحرراً". أما النذر فهو للعبادة خالصاً لله، وفيه تضحية نفسية وروحانية لله. قيل: النَّذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر، يقال: نذَرت لله أمراً. قال تعالى: "إني ذرت للرحمن صوماً" {مريم: 26}. وقال تعالى: "وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر" {البقرة: 270} [1]. وقوله تعالى: "بطني" فهو إشارة إلى بطن حَنة ابنة فاقوذ، امرأة عمران، وفيه دلالة على أن حمل وولادة مريم (عليها السلام) كانت طبيعية بإذن الله. أما كلمة "محرراً" في الآية فإن لها دلالات مختلفة، وأرجح واحدة منها:

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص630.

أولاً: ذكر فخر الدين الرازي أن "المحرر الذي يجعل حراً خالصاً، يقال: حررت العبد إذا خلصته عن الرق. والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحمأة والعيوب. وقال الشعبي: محرراً: أي مُخلصاً للعبادة. وقيل: خادماً للبيعة، وقيل: عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله. وقيل: في انتصاب قوله تعالى "مُحرراً" وجهان: (الأول): أنه نصب على الحال من (ما) وتقديره: نذرت لك الذي في بطني مُحرراً (والثاني): وهو قول ابن قتيبة أن المعنى نذرت لك أن أجعل ما في بطني مُحرراً [1]. على حين ذكر القرطبي في تفسيره أن "مُحرراً" نعتٌ لمفعول محذوف، أي: إني نذرت لك ما في بطني غلاماً مُحرراً" [2]. وأشار: أن "مُحرراً" مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية. ورُوي عن عِكرمة ومجاهد: أن المحرر الخالص لله عزوجل، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. وفي اللغة يقال لكل ما خَلَص: حُر. وطين حُر: لا رمل فيه [3]. نقول: إن اللفظ "مُحرراً" يتعلق بموضوع النسل والذرية، ولأنه كذلك فإن الكلمة لها دلالة على التكوين البيولوجي للإنسان، وأصل خلقه من تراب/طين. كأن بنت عمران تقول: تقبل مني يا الله هذا الخلق الذي في بطني وأنت تعلم ما في الأرحام لأنك أنشأت هذا الكون وخلقت فيه الإنسان كائناً حياً من صلصال كالفخار، ثم جعلت له حياة يتزاوج فيها، ثم جاءت منها هذه الذرية التي اصطفيتها. نقول: إن تأكيد الحرية في الآية هو استنكار العبودية ويدل ذلك على أن الإنسان يتعلم الحرية من عملية تراكم المعرفة عبر التعلم منذ ما بعد الولادة، ولهذا السبب فإن أهم ثورة لخلق الحرية هي "ثورة الوعي والمعرفة".

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص27.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص100.

[3] المصدر السابق، ص101.

الآية الثانية: قوله تعالى: "فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" {آل عمران: 36}.

نقول: هذه الآية مرتبطة بما جاء على لسان أم مريم (عليها السلام)، وهي حنة بنت فاقوذ التي وصَفت حالة ولادتها لمريم (عليها السلام)، وأشارت إلى علاقة نوع الجنس بولادة ابنتها مريم (عليها السلام)، وهي دلالة ابتدائية على أصالة ذرية مريم (عليها السلام)، أي ابنها عيسى (عليه السلام). وفي الآية مسائل سوف أوردها مع نقل آراء المفسرين حول خصوصية جنسي "الذكورة والأنوثة" في قوله تعالى: "وليس الذكر كالأنثى"، وسبب الإشارة إلى جنس المولودة أنها أنثى، كما يلي:

المسألة الأولى: إن جنس الأم التي حملت بمريم هي امرأة عمران (حنة بنت فاقوذ) وهي أم مريم (عليهما السلام)، وتُعرف هي وذريتها في الأدبيات القرآنية كعائلة معروفة باسم (آل عمران)، وهي العائلة الوحيدة التي سُميت سورة باسمها في القرآن، وهي سورة (آل عمران)، وقد ذكرت إلى جانب عائلات أخرى مثل: آل إبراهيم وآل موسى وآل فرعون. قال ابن كثير: "امرأة عمران هي حنة بنت فاقوذ، قال محمد ابن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله عزوجل أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون "محرراً" [1].

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص33.

المسألة الثانية: لا يمكن إدراك المعاني النفسية والاجتماعية والتاريخية الكاملة للآية بدون الرجوع إلى الآيتين السابقتين لها بغرض الاستدلال على دلالة المعنى الذي يتضمن توجيهاً إلهياً يخص الضرورات الجنسية التي تُبنى عليها الأسرة في الشريعة السماوية. ورغم أن خطاب بنت عمران يشبه الشكاية في إنجابها مريم (عليها السلام) كأنثى وليس ذكراً كما رغبت، إلا أن الحُكم والقدرة الإلهية ظلت فوق شكايتها من ناحية اختيار الله لجنس مريم (عليها السلام)، أي أنه لم يكن هناك تفضيل إلهي بين جنسي الذكورة والأنوثة، بل كان التفضيل قائماً على ماهية وأصالة الذرية، حيث وقعت المساواة بين الجنسين لعدة أسباب:

أولاً: أن الله أقر صراحة أن الاصطفاء يكون لآدم، ونوح، ثم لذرية آل إبراهيم، وذرية آل عمران من بين العالمين لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" {آل عمران: 33} {انظر الشرح في الفصل الرابع، ص396}. واصطفاء الذرية يشتمل على اصطفاء الجنسين ذكراً أو أنثى.

ثانياً: ورود كلمة "آل" فيه إشارة إلى عائلة إبراهيم، وعائلة عمران، وليس إلى أفراد، ما يعني أن الاصطفاء كان عائلياً للزوجين أو أحدهما ثم للنسل أو الذرية، وآل عمران هو أهم وأبرز اصطفاء عائلي غير فردي في القرآن، لأنه الاصطفاء الذي تحقق فيه أهم خلق إحيائي روحي بعد خلق آدم (عليه السلام)، وهو خلق عيسى (عليه السلام).

ثالثاً: إن التأكيد الإلهي على اصطفاء مريم بنت عمران (عليها السلام) وذريتها، هو اصطفاء ضمني يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وهو تثبيت لاصطفاء عيسى (عليه السلام) الذي سيولد من أمه مريم (عليها السلام) المولودة الأنثى التي لن يكون لها زوج، وسوف تلد النبي عيسى (عليه السلام) من غير أب فيما بعد. لذلك ذكر القرطبي في تفسيره أن قوله تعالى: "وإني أُعيذها بك"، يعني: مريم.

"وذريتها" يعني عيسى. وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة [1].

رابعاً: إن التأكيد على أصل نسل عيسى (عليه السلام) من خلال الإشارة إلى لفظ "الذرية" يدلل على أنه معروف النسب، وليس كما يقال إن عيسى (عليه السلام) هو ابن الله، لأن نسبه إلى الله دون معرفة الحقائق عن الله وعن أصل وحقيقة التكوين العائلي لآل عمران يعتبر جهلاً بالحقيقة، ولأن ذلك يتعارض مع أبسط قواعد الألوهية التي تؤكد وحدانية الله، أي تنفي عنه الطبائع البشرية وأبرزها النكاح.

المسألة الثالثة: لأن أم عمران سمَّت مولودتها باسم مريم (عليها السلام)، فقد كان من الطبيعي أن يكون عيسى (عليه السلام) رسولاً، أي أنه من طبع أمه في العبادة، حيث سُميت مريم (عليها السلام) بهذا الاسم لأنها (كما يقول البيضاوي) تعني: "العابدة" [2]، لذلك يستحق أن يوصف عيسى (عليه السلام) بالنبي العابد.

المسألة الرابعة: أدركت بنت عمران ماذا وضعت لأنها قالت صراحة "فلما وضعتها"، والإشارة هنا للأنثى في كلمة "وضعتها"، ولو أنه مولود ذكر لقالت "وضعته" وليس "وضعتها"، ثم إنها أوضحت جنسها عندما أكملت تقول "رب إني وضعتها أنثى". قال البيضاوي في تفسيره: "جاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيثها عُلم منه فإن الحال وصاحبها بالذات واحداً" [3]. بالتالي فإن قولها في القرآن: "والله أعلم بما وَضَعَت" يعني أن معرفة الله سابقة على معرفة مريم (عليها السلام) فيما يتعلق بجنس المواليد وما تحمله الأرحام. لقد تكرر هذا البيان في آيات أخرى مثل قوله تعالى: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص103.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص257.

[3] المصدر السابق، ص257.

وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار" {الرعد: 8} وقوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" {لقمان: 34}. ذكر القرطبي أن دلالة جملة (إني وضعتها أنثى) في الآية تعني "لا تصلح لخدمة الكنيسة؛ قيل: لِمَا يصيبها من الحيض والأذى، قيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذكراً، فلذلك حررت [1].

المسألة الخامسة: جاء التمييز واضحاً لناحية جنس المولود في قوله تعالى: "ليس الذكر كالأنثى". "ليس" هي من أخوات كان، تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الأول اسماً لها وتنصب الثاني خبراً لها، ولأن الأنثى هي المولودة وهي المُخبر عنها في الآية، ذُكرت ثانياً، ولأنها عنوان حدث الولادة فقد صارت خبر ليس. ذكر فخر الدين الرازي عدداً من المسائل في تفسير قوله تعالى: "وليس الذكر كالأنثى" أن فيه قولان (الأول): أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه (أحدها): أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث (والثاني): أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان (والثالث): الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة (والرابع): أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى". والقول الآخر عند الرازي: أن المقصود من قوله تعالى: "ليس الذكر كالأنثى" هو ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهده الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله،

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص100.

وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه" [1].
نقول: إن التمييز بين جنسي المواليد في قول بنت عمران "ليس الذكر كالأنثى" يُعتبر متجانساً مع لفظ "الذرية" في قوله تعالى: "ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم" {آل عمران: 34} قال الأخفش في تفسير معنى "بعضها من بعض" هي في محل نصب على صفة الذرية، ومعناه متناسلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين [2].
هذا يعني أن أصل الذكر والأنثى هو من الذرية التي اصطفاها الله، ومن ثم تكاثرت وانتشرت في الأرض، حيث يشير الله إلى جملة: "بعضها من بعض" وكذلك في قوله تعالى: "خلقكم من نفس واحدة" {النساء: 1} أي جعل نسل الإنسان كله من النفس الواحدة التي خلقها الله وقرر أن يكون منها الأزواج الذين حدد طباعهم وجنسهم في قوله "رجالاً" و "نساءً" لأنه حدد منشأ وأصل تكوين هذين الجنسين في لفظ "والأرحام" بحسب الآية. إن قوله تعالى: "بعضها من بعض" {آل عمران: 34} هي نفس الميزان الأنثروبولوجي التقديري لقوله تعالى: "من نفس واحدة" {النساء: 1}. بالتالي لم يكن التفضيل بين جنسي الذكورة والأنوثة لصالح ماهية عمل الذكر والأنثى بالدرجة الأولى، بل هو توضيح إلهي أنثروبولوجي لماهية الإنسان وأصله الحيوي، وامتداد وتعدد وتشعب نسله. كذلك فيه تأكيد على أهمية التدقيق والتمييز في أصل النسل بين الذكورة والأنوثة عند لحظة الولادة، أي من ناحية بيولوجية أصيلة، وليس التمييز في النسل من ناحية الأفضلية النفسية والاجتماعية. كأنه يقول "ليس الذكر كالأنثى أو هكذا يجب أن يكون عند لحظة الولادة"، ما يعني أن الأصل هو

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص28، 29.
[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص214.

الفرق الجنسي الحتمي المُقرر سلفاً، وكل ما دون ذلك، أقصد أي اختلال جنسي في جنس الذكر أو الأنثى هو ناتج عن عبث الإنسان في نفسه وفي الطبيعة. لذلك فسّر البيضاوي واصفاً طلب بنت عمران: "ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهبت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون الكاف للجنس" [1]. بالتالي ليس التفضيل كما ذكر الرازي له علاقة بتحديد خدمة الذكر والأنثى، ولا حتى الطبري الذي أشار أن "الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة، لما يعتريها من الحيض والنفاس" [2] بل لأن الرؤية الإلهية الكونية أكثر دقة من حيث وصف طبائع وأصالة الجنس البشري، وأكثر شمولية من حيث تبرير أصل النسل أو الذرية وطبيعة التكوين الإنساني كما أنشأه الله أول مرة.

مصدر ونوعية (الرزق/الغذاء) لمريم

الآية الثالثة: قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37}.

قبل شرح هذه الآية، نشير إلى مسألتين: الأولى: "أن المرأة الوحيدة المسماة باسمها وباسم أمومتها في القرآن الكريم هي مريم (عليها السلام). وتنادى باسم "يا مريم" في الآية 27 من سورة مريم، والآيات 37 و 42 و 43 و 45 من سورة آل عمران. وبأخوّتها "يا أخت

[1] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص257.

[2] الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج2، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994)، ص246.

هارون" {مريم: 28} وبنوّتها "ابنة عمران" {التحريم: 12}. أي تظهر مريم كشخص مستقل لذاته وأيضاً كشخص مرتبط بعلاقاته الأسرية، أي كأم وأخت وابنة" [1]. الثانية: يجب الإشارة إلى أن كلمة "الترائب" في سورة الطارق لقوله تعالى: "فلينظر الإنسان مم خلق (5) خلق من ماء دافق (6) يخرج من بين الصلب والترائب" (7) تذكّرنا بالحقيقة القائلة بارتباط النشء القويم السليم بسلامة النظام الغذائي وبالتحديد النباتي باعتباره مكون أساسي في الخلق، وذلك في الإشارة إلى مريم (عليها السلام) وتكوينها ونظامها الغذائي قبل وبعد ولادتها للنبي عيسى (عليه السلام) كما هو موضح في الآية عبر الإشارة إلى أربع مسائل كما يلي:

أولاً: القبول الحسن.

ثانياً: النبات الحسن.

ثالثاً: وكفالة زكريا.

رابعاً: الرزق من عند الله.

قبل أن تتحقق ولادة عيسى (عليه السلام) من رحم أمه مريم (عليها السلام)، كانت مريم (عليها السلام) مؤهلة لهذه الولادة أو عملية خلق عيسى (عليه السلام)، وذلك من خلال الإشارة إلى هذه المسائل الأربعة التي ذكرناها وسنشرحها كما يلي:

ماهية القبول الحسن لمريم

أولاً: القبول الحسن:

وردت الإشارة إلى هذه المسألة في قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن". قال القرطبي: المعنى: سلك بها طريق السعداء كما قال ابن

---

[1] حُسن عبود، السيدة مريم في القرآن الكريم، قراءة أدبية، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2010)، ص104.

عباس. وقال قوم: التقبّل: التكفل في التربية والقيام بشأنها [1]. أما الرازي: فقال إن في موضوع القبول مسألتين: المسألة الأولى: أنه قال "فتقبلها ربها بقبول" ولم يقل: "فتقبلها ربها بتقبل" لأن القبول والتقبل متقاربان. قال تعالى: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً" {نوح: 17} أي إنباتاً، والقبول مصدر قولهم: قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضيه. وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصبر والتجلد ونحوهما، فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول. فإذا قيل: فلم لم يقل: فتقبلها ربها بقبول حسن حتى صارت المبالغة أكمل؟

(الجواب) أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل ليفيد الجد والمبالغة، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع، بل على وفق الطبع، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها، وهذا الوجه مناسب معقول. المسألة الثانية: أنه تعالى عصمها وعصم ولدها عيسى (عليه السلام) من مس الشيطان [2]. نقول: إذا كان القبول وفق الطبع وليس على خلافه، فإن ذلك يشير إلى الإقرار الإلهي بالقبول وفق الطبع، وأن هناك علاقة بين القبول الإلهي والطبع، وهي تفيد بقبول الله لأمور ورد ذكرها في الآية السابقة (36) وهي: أنها أنثى، وأن اسمها مريم (عليها السلام)، وأنها معاذة وذريتها من الشيطان لقوله تعالى: "وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص104.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص29، 30.

مريم وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم" (36). والأهم من ذلك أن الله قَبِلَ أهم طبع، وهو قبوله لأصل خلقها، وخلقها كان من أمها حنة بنت فاقوذ التي كانت عاقر، فأراد الله أن يطمئن على طبيعة خلقها باعترافه أنه متقبلٌ قبولاً حسناً لطبيعة خلقها. والطبع: هو ما يقع على الإنسان بغير إرادة، وقيل: الطبع الجبلّة التي خلق الإنسان عليها [1]. إن ذلك يشير إلى العدل الإلهي في النظر إلى حقيقة خلقه وطبيعة منشأه، وإن منشأ خلقه من تراب وطين وماء. هكذا فالأصل في القبول المذكور في الآية أنه يقوم على قاعدة أصلية تتعلق بالحقائق البيولوجية. أما بالنسبة لخصوبة مريم (عليها السلام) فهي لم تحدث منذ لحظة ألم المخاض وخوفها من الجوع والعطش اللذين يُلجئانها إلى جذع النخلة وقتما تمنت الموت [2]، ولكن الخصوبة بدأت منذ لحظة إعدادها بدنياً ونفسياً عند تناولها للطعام الصحي الذي عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}. بمعنى آخر، لم تبدأ رعاية خصوبة مريم (عليها السلام) كحدث طارئ لحظة الولادة، ولكن من خلال عملية التمهيد التي سبقت الولادة، أي لحظة بداية الحمل، بل وقبل لحظة الحمل، أي نوعية وجودة الطعام الذي دفع نحو أن يكون المولود ذكراً وليس أنثى. إن "الأنثى والشجرة والمياه" أقدم صورة من صور الخصوبة في الحضارات القديمة [3]، بل أكثر من ذلك، حيث أن آدم وحواء (عليهما السلام) والشجرة والمياه هما صورة الجنة وصورة خلقهما وخصوبتهما في الأرض. "والنخلة والمياه هما عنصران من عناصر الحياة، يتصلان مباشرة بخصوبة الأرض" [4].

---

[1] العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص119.

[2] حُسن عبود، السيدة مريم في القرآن الكريم، قراءة أدبية، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2010)، ص109.

[3] المصدر السابق، ص109.

[4] المصدر السابق، ص120.

ثانياً: النبات الحسن:

هناك "استعارة تمثيلية" في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" حيث شبه مريم (عليها السلام) في طريقة نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو رويداً رويداً. وهذا ارتباط وثيق ما بين نوع الجنس والنظام الغذائي، وهي هنا أنثى، أي مريم (عليها السلام). بالتالي فإن الأنثوية مرتبطة بالطبيعة النباتية وهي أولى وأقدم من الطبيعة الحيوانية، وهذا تشريف وأصالة للبناء الجسدي لمريم (عليها السلام)، **لماذا؟**

نقول: إن تشبيه نموها بالنبات دلالة على وجود خواص متشابهة بين النبات والإنسان، مثلاً النباتات كائنات حية والإنسان كائن حي، والنباتات تحتوي على الخلايا والألياف والأوعية والأنسجة (كالنسيج الخلوي والليفي والوعائي) وكذلك جسم الإنسان يحتوي على خلايا وألياف وأوعية وأنسجة [1]. فنطفة الرجل التي يلقح بها بويضة المرأة وقت عملية الإخصاب أصلها خلية حية. كما أن أول ما يوجد من النبات هو أيضاً خلية صغيرة وهي عبارة عن حويصلة صغيرة من غشاء داخلها سائل لزج يسمى البروتوبلازما سابحاً في وسط نواة [2]. وأيضاً النباتات لا تتحرك بإرادتها، بل تحركها الرياح، والإنسان كذلك في سن الصغر وحتى عام من ولادته، وفي كبره أيضاً عندما يشيخ ويصبح كهلاً لا يتحرك بإرادته أو تقل وتكثر حركته وتصبح بطيئة أو سريعة أو بطيئة وسريعة بحسب عمره. ويقال: ما أحسن نابتتهم" أي ما أحسن ما نشأ عليه أولادهم. ويقال: "إنهم نابتة شر" أي نشء شر [3]. إن للأنثى دور أساسي في إدارة عملية التخصيب، فمريم (عليها

---

[1] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص4.

[2] المصدر السابق، ص4.

[3] المصدر السابق، ص3.

السلام) عندما ولدت عيسى (عليه السلام) من غير وجود أب أو سائل منوي لرجل، كانت قد لعبت دوراً مركزياً في إدارة الخلية الحية التي لقحت البويضة لديها. فمن المعروف أن "هناك انسجام بين الحيوان المنوي (الخلية الحية في حالة مريم) وجسد المرأة وقد خلقا بحيث يكمل أحدهما الآخر، وكأن جسد المرأة يعرف أن الحيوان المنوي الذي دخل في هذا الجسد يشكو من نواقص فيدرك هذه النواقص ويقوم بتكملتها وإفراز ما يلزم لهذه التكملة. وكأنه يدرك أي تركيب كيميائي يمكنه ثقب غلاف بويضته، وأن هناك بعض النواقص عند الحيوان المنوي بسبب الكوليسترول الذي حمله، فيقوم بإفراز مادة لتخفيف نسبة الكوليسترول لتهيئة الجو لثقب غلاف البويضة بسهولة. وهو يعمل كل هذا بسبب القابلية التي يتمتع بها" [1]. بشيء من التفصيل، يعرف الكروموسومان الأنثوي (X) والذكري (Y) باسم كروموسومي الجنس، وذلك لدورهما الواضح في تحديد جنس الكائن تحديداً حتمياً شبه تام. يحصل كل شخص على الكروموسوم (X) من والدته، وإذا ورث كروموسوم (Y) من والده يصير ذكراً، أما لو ورث الكروموسوم (X) من والده فيصير أنثى [2]. بسبب امتلاك الإناث لكروموسومي (X) وامتلاك الذكور كروموسوم (X) وآخر (Y)، فإن ثلاثة أرباع كروموسومات الجنس هي كروموسومات (X)، أما الربع فقط فهو كروموسومات (Y) [3].

ولأن الحقيقة تقول إن مريم (عليها السلام) أنجبت ذكراً وهو عيسى (عليه السلام) وإن لذلك علاقة بنشئها النباتي، فهذا يعني أن طبيعة الغذاء الذي كانت تأكله مريم كان يحمل كرموسوم (Y)، وهذا يأخذنا إلى محاولة فهم علاقة النباتات بالكروموسومات (الصبغيات الوراثية)

---

[1] هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان، ص44.

[2] مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص124.

[3] المصدر السابق، ص126.

وعلاقة الكروموسومات بالخلايا والحمض النووي (DNA). إن "الكروموسوم بالأساس عبارة عن جزيء دي أن إيه (DNA) طويل للغاية يشفِّر مئات أو آلاف الجينات. والدي أن إيه (DNA) الخاص بالكروموسوم يتَّحِد مع جزيئات بروتينية تساعد على حَزْم الدي أن إيه (DNA) في لفائف منتظمة داخل نواة الخلية (وهذه الجزيئات البروتينية تشبه الربطات التي تعمل على تجميع أسلاك الكمبيوتر على نحو منظَّم). في حقيقيات النوى الأعلى، كالبشر، تحتوي كل خلية على مجموعةٍ واحدة من الكروموسومات مأخوذةٍ من الأم عن طريق نواة البويضة، ومجموعةٍ أخرى مأخوذةٍ من الأب عن طريق الحيوان المنوي. وتحمل الكروموسوماتُ المعلوماتِ المطلوبةَ لتحديد تتابعات الأحماض الأمينية التي تُحدد أي البروتينات ستُنتَج بواسطة خلية الكائن [1]. إن مجمل الخصائص الوراثية للخلية، مخزّن في الجينات (المورثات) التي تتجمع في نواة الخلية مشكلة الكروموسومات (الصبغيات الوراثية) التي يمكن رؤيتها بالمجهر تحت شروط معينة [2]، والتي يتم بمساعدتها توجيه بناء الخلية وتمثلها العضوي وجميع وظائفها الأخرى استناداً إلى مخطط محدد ينتقل وراثياً [3]. لا تحتوي الكروموسومات على معلومات عن الحياة النباتية فحسب، بل تم اختيارها أيضاً على مدى ملايين السنين لنقلها واستدامتها وإدارتها. منذ الخمسين عاماً الماضية من الاستثمار العالمي، أصبح العلماء قادرين على تقدير الكروموسومات (الصبغيات الوراثية) باعتبارها كيانات معلوماتية وظيفية متكاملة [4]. تشير الباحثة البريطانية ديبورا

---

[1] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص35.

[2] هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190)، ص115.

[3] المصدر السابق، ص135.

[4] https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC8133586/#kiaa108-B12

تشارلزوورث من معهد علم الأحياء التطوري، بجامعة إدنبره، بأن كروموسومات (Y) النباتية غالباً ما تكون أكبر من نظيراتها (X)، ومن الواضح أن (Y) هو متماثل (X) [1]. وتمتلك النباتات أيضاً مجموعة كبيرة جداً من الكروموسومات (الصبغيات الوراثية) في خلاياها. فقد تحتوي الأنواع النباتية على ما بين نسختين إلى 96 نسخة من كل كروموسوم. يحتوي أحد أنواع السرخس المكونة من 96 نوعاً على أكثر من 1400 كروموسوم لكل خلية، وهو أعلى عدد كروموسوم معروف علمياً [2]. كما أن البطاطس بها 48 كرموسوم، [3]، بينما تحتوي الفراولة على 56 كروموسوم [4]، وقصب السكر على 80 كروموسوم [5]. أما سمك الشبوط (نوع من الأسماك) فيحتوي على 104 كروموسوم [6]، والحمام [7]، والدجاج الرومي يحتوي على 80 كروموسوم [8]. وهذه كلها لديها كروموسومات أكثر من كروموسومات الإنسان التي هي 23 كروموسوم [9]. هنا يجب الاعتراف بأن التعديلات الوراثية على الجينات النباتية باستخدام عوامل فيزيائية أو كيميائية أدى إلى حدوث خلل في الشيفرة الوراثية للنباتات والتي تؤثر

---

[1] https://www.annualreviews.org/doi/10.1146/annurev-arplant-043015-111911#:~:text=Although%20plant%20Y%20chromosomes%20are,been%20discovered%20in%20sex%2Dlinked

[2] https://www.darwintreeoflife.org/news_item/genomes-great-and-small-the-diversity-of-plants/

[3] https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC4374561

[4] https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3261831

[5] https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2882929

[6] https://www.thetech.org/ask-a-geneticist/articles/2017/chromosome-number-not-correlated-complexity/

[7] https://teach.genetics.utah.edu/content/pigeons/build-a-bird.pdf

[8] https://web.archive.org/web/20150924050114/http://www.biomedcentral.com/content/pdf/1471-2164-11-647.pdf.

[9] مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص35، 36.

سلباً على نقص في المعرفة عن نوع وعدد كروموسومات النباتات. من ناحية أخرى، تؤثر العوامل الخارجية على كمية الحمض النووي داخل الخلايا النباتية وعلى كيفية عملها. وقد يؤثر أيضاً على قدرة النبات على التكيف والتطور، خاصة في فترات التغير البيئي السريع [1]. خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، ألقى (مايكل بينيت) وآخرون بعض الضوء على الوظائف أو التأثيرات المحتملة للحمض النووي المتكرر وبالتالي حجم الجينوم من خلال ربط محتويات الحمض النووي بحجم الخلية وزمن دورة الخلية وتطور النبات. يرتبط إجمالي محتوى الحمض النووي "النمط النووي" بحجم الخلية وحجم أعضاء معينة، مثل حبوب اللقاح، في جميع أنحاء المملكة النباتية. ويرتبط محتوى الحمض النووي أيضاً بالحد الأدنى من وقت دورة الخلية للثنائيات الصبغية. بشكل عام، يؤدي المزيد من الحمض النووي إلى إبطاء دورات الخلايا وزيادة الحد الأدنى من معدلات النمو. إذا تجاوزت محتويات الحمض النووي قيمة معينة تصبح النباتات معمرة إلزامية [2]. من المهم الإشارة هنا إلى أن النباتات تتلقح في عملية إخصاب مشابهة للتخصيب عند بقية الكائنات، ولكن النباتات تتلقح بفعل الرياح التي تحمل حبوب اللقاح الذكرية إلى البذور الأنثوية. إن عملية حمل مريم (عليها السلام) بولدها عيسى (عليه السلام) كانت (للتقريب) أشبه بـ (وليس مثل) عملية الاستنساخ وليس الاستنساخ نفسه، ونرجح مسألة أن يكون النبات قد ساعد على استخدام حمض نووي (DNA) من خلية نباتية (كائن حي نباتي) في جهازها التناسلي، ووصل إلى خلية بويضة (Egg Cell). في عملية الاستنساخ تتم هذه العملية بين كائن حي وآخر من نفس النوع، **وهنا نسأل هل مريم والنباتات كائنان من نفس النوع؟** نقول: لا من حيث

---

[1] https://www.darwintreeoflife.org/news_item/genomes-great-and-small-/the-diversity-of-plants

[2] https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC8133586/

الشكل، ولكن نعم من حيث التكوين الكيميائي، حيث إن العناصر التي تلزم نمو النباتات هي ذاتها التي تلزم نمو الإنسان، وبالتحديد الماء والأوكسجين وبعض الأملاح المعدنية. يحتاج النبات كي يعيش بصحة جيدة إلى عناصر رئيسية مثل النيتروجين والفسفور والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيزيوم والكبريت. وبينما تستطيع النباتات أن تأخذ معظم هذه المواد المباشرة من التربة فإن الوضع يختلف مع النيتروجين الذي يشكل 80٪ من الهواء، ومع ذلك لا يمكن للنباتات الخضراء الحصول عليه مباشرة من الهواء فتأخذ حاجتها من التربة عن طريق امتصاص النترات الممتزجة ببكتيريا التربة [1]. ونلاحظ أن "النباتات تحتاج إلى ثلاثة عناصر رئيسية للبناء وهي الأوكسجين والهيدروجين والكربون وتحصل عليها من ثاني أكسيد الكربون" [2]. "فالحياة، تقريباً، تتكون من كيمياء ثلاث من الذرات هي الهيدروجين والكربون والأوكسجين، التي فيما بينها تؤلف ثمانية وتسعين بالمائة من كل الذرات الموجودة في الكائنات الحية" [3].

انظر الجدول التالي [4]:

العنصر العناصر اللافلزية	المصدر	الوظائف الرئيسية للعنصر
الأوكسجين	الهواء	يوجد في أغلب جزيئات المواد العضوية

[1] هارون يحيى، مراجعة أورخان محمد علي، معجزة النبات، ص75، 76.
[2] المصدر السابق، ص76.
[3] مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص27.
[4] هارون يحيى، مراجعة أورخان محمد علي، معجزة النبات، ص77.

الهيدروجين	التربة	يوجد في أغلب جزيئات المواد العضوية
الكربون	الهواء	يوجد في جميع جزيئات المواد العضوية

بينما أكثر الذرات في جسم الإنسان هي لأربعة عناصر فقط: الأوكسجين، والهيدروجين، والنيتروجين، والكربون [1]. نلاحظ أن أبرز العناصر التي يحتاجها جسم الإنسان والنبات هي الأوكسجين والهيدروجين والكربون. وعلى سبيل المثال، تؤدي كثرة النيتروجين في التربة إلى نمو هش خاصة في درجات الحرارة العالية، بينما القليل منه يؤدي إلى الاصفرار وظهور بقع حمراء أرجوانية، ونقص في البراعم الجانبية ويؤدي إلى نمو متأخر. ويتسبب نقص الفسفور في خلل في النمو، وتتحول ألوان بعض النباتات إلى البني والأرجواني وتكون سيقانها نحيلة، كما تكون براعمها هشة وأوراقها السفلية ضعيفة، كما أن أزهارها تكون ذابلة. ولو أن النباتات لم تمتلك آلية انتقاء الأيونات ولو أنها أخذت جميع أنواع المعادن وليس فقط ما تحتاجها أو أخذت الكثير جداً أو القليل جداً من المعادن في هذه الحالة يختل نظام التوازن بشكل تام في العالم [2]. هذه التوازنات في طبيعة ما تتحصل عليه النباتات تجعل هناك بيئة سليمة وبيئة معطوبة للنباتات، وبالتالي عندما يقول الله تعالى: "وأنبتناها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} في إشارة لمريم (عليها السلام) فهذا يدل على أن بيئة النباتات، وما تحصلت عليه هذه النباتات من معادن وغازات كان سليماً جداً، وهذا الغذاء السليم كان طعاماً لمريم (عليها السلام)، وقد كان لذلك دور في حمل وتكوين عيسى (عليه السلام) في بطنها. عموماً إن

[1] https://davidson.weizmann.ac.il/en/online/orderoutofchaos/body’s-elements

[2] هارون يحيى، مراجعة أورخان محمد علي، معجزة النبات، ص78، 79.

دراسة حياة النباتات، وعملية امتصاص المواد الغذائية المنحلة بالتربة، وإنتاجها للتفاعلات الكيميائية وأهمية ضوء الشمس في التركيب الضوئي للنباتات وعلاقته باليخضور (صبغة الكلوروفيل الخضراء) ووجود الأنزيمات في خلايا النباتات، والظروف المناسبة لكي يحدث التركيب الضوئي، الذي وصفه البرفيسور علي ديميرسوي بأنه حدث معقد، وأنه يبدو من المستحيل حدوثه في جزء صغير من الخلية [1]، وغير ذلك من المهام والتفاعلات سوف يؤكد لنا بالضرورة هذه العلاقة المتينة بين النشء الذي نشأته مريم والغذاء الذي تناولته. إن تشبيه نمو مريم (عليها السلام) البدني والعناية بها في صغرها بنمو النبات والعناية به، فيه إشارة إلى أصل المادة المشتركة التي أنبتت النبات وجعلته يعيش ويكبر، وهي إضافة الماء إلى التراب/الطين، ومن الماء أو بفعله تتكون الخلية التي هي أصل خلق آدم (عليه السلام) وذريته، والتي خلقت منها مريم (عليها السلام) وذريتها. وفي ذلك دليل على أصالة الطبيعة أو التراب/الطين والماء بشكل أساسي في خلق الإنسان والبشر عموماً. بمعنى آخر، كان وجود الماء أساسياً في إنبات النبات وتقويم البناء الجسدي لمريم (عليها السلام)، وجعل جسد مريم (عليها السلام) مؤهلاً لإنتاج الخلية التي مهَّدت وعملت على خلق عيسى (عليه السلام)؛ لأنه بدون الماء لن يكون هناك خلق، وذلك عملاً بقوله تعالى: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً" {الفرقان: 54} وهذا ما يجعل عيسى (عليه السلام) من حيث النوع بشراً مثل آدم (عليه السلام) وليس إلهاً أو ابناً لله. ولذلك ذكر القرطبي في معنى قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" يعني سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان [2]. وقال الشوكاني: أصله إنباتاً،

---

[1] Prof. Dr. Ali Demirsoy, Kalitim ve Evrim, Ankara, Meteksan Yayinlari, p. 80.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص104.

فحذف الحرف الزائد، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف، أي: فنبتت نباتاً حسناً. وقيل: هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها [1]. وهذا ما قاله البيضاوي [2] والزمخشري [3]. علي حين قال ابن الأنباري: منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين. أما الأول فقالوا: المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة [4]. في حين قال الجرجاني: النبات: هو كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولَّد ويزيد ويتغذى [5]. نقول: إن جهة ما يتولد ويزيد ويتغذى منه النبات هو التربة والماء، وإن طباع الإنسان من طباع التربة والماء. ونقول: إن الذي ساعد على خلق مريم (عليها السلام) هو خلية نباتية وليست حيوانية في نظامها الغذائي؛ لأن النبات أسبق من الحيوان، والحيوانات تتغذى على النباتات. ولهذا السبب بعدما وضعت مريم (عليها السلام) ابنها عيسى (عليه السلام) أمرها الله في القرآن بتناول الرطب في قوله تعالى: "وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً" {مريم: 25} والنخيل نباتات، وقد كان أول غذائها بعد ولادة عيسى (عليه السلام) متسق مع الخلية الأولى في بنائه داخل رحم مريم (عليها السلام). لهذا السبب نقول: إننا نصرف الجملة في

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص215.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص170.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص31.

[5] العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004)، ص201.

قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" إلى ما يتعلق بالمادة الموجودة في الطبيعة وأولها وأبرزها الماء لأهميته في عملية الخلق والنشء معاً. لقد ورد ذكر إنبات البشر أو الأزواج من الأرض في آيتين كما يلي:

الآية الأولى: قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" {يس: 36}. نقول: في الآية أربع مسائل وهي: "خلق الأزواج" ثم "مما تنبت الأرض" ثم "من أنفسهم" ثم "مما لا يعلمون". أما كلمتي "خلق وكلها" فهما تشيران إلى تعدد الخلق، وأما "الأزواج" فهذا يدل على أن تعدد الخلق وإن كان يشمل كل شيء إلا أن كل شيء هو ثنائي في الأصل وليس فردي في عملية الخلق من ذكر وأنثى، علماً بأن آدم (عليه السلام) كان مع زوجته في الجنة ولم يكن وحده، أي كانت حالة ثنائية من ذكر وأنثى وهو ما ورد ذكره في القرآن لقوله تعالى: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة.." {البقرة: 35}. أما عيسى (عليه السلام) فهو ابن مريم بنت عمران وهما من سلالة آدم (عليه السلام). بالتالي فإن الخلق الثنائي محصور في معنى كلمة "الأزواج". قال الزمخشري: "الأزواج" يعني: الأجناس والأصناف [1]. على حين قال البيضاوي: الأنواع والأصناف [2]. وهذا ما قاله الشوكاني [3]. وكذلك القرطبي: أنواع وأصناف، وزاد عليه القرطبي فقال كل صنف زوج؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو ازدواجها [4]. نلاحظ أن كل المفسرين متفقين على أنها أنواع وأصناف،

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج23، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص895.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص132.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1224.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص441.

باستثناء البيضاوي استثنى الأنواع وقال هي أجناس وأصناف، فأضاف الجنس واستثنى النوع، وهو بذلك تخلى عن الأصل وهو النوع الإنسي لصالح الفرع وهو الجنس، وما ينتج عن التزاوج. نقول: إن الآية تدل عليها كلها، أي "النوع والجنس والصنف". بالنسبة للنوع فإن دلالته في الآية قوله تعالى: "مما تنبت الأرض" وهذا متعلق بأصالة النبات كأساس للنظام الغذائي في بناء الكائنات الحية وأهمها الإنسان، وفي بناء مريم (عليها السلام) كما تقدم ذكره في معنى "وأنبتها نباتاً حسناً"، والنوع منه الإنسان العاقل بحسب المراتب التصنيفية [1]، فيكون عقل الإنسان وبناؤه الجسماني مرتبطاً بطبيعة نظامه الغذائي وأصله من النبات أو من الحيوانات التي تتغذى على النباتات أو من الماء، وهو أصل كل الكائنات الحية. أما قوله تعالى: "من أنفسهم" فقيل: أي: خلق الأزواج من أنفسهم، وهم: الذكور والإناث [2]. وكذلك قال البيضاوي: أي الذكر والأنثى [3]. على حين قال الرازي: يدخل فيها الدلائل النفسية [4]. ونحن نميل إلى قول الرازي ونقول إن "أنفسهم" وردت بصيغة الجمع ومعناه من التزاوج الذي يتم بين الذكر والأنثى، لكن **لماذا اختار كلمة "أنفسهم"**؟ نقول: لأن فيها إشارة إلى أهمية النفس في الخلق وهي الأصل فيه قبل عملية التزاوج، حيث وردت جملة "من نفس واحدة" في القرآن ثلاث مرات في ثلاث آيات كما يلي:

---

[1] https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2

[2] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج23، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1224.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج23، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص132.

[4] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص69.

- قال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً" {النساء: 1}.

- قال تعالى: "وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" {الأنعام: 98}.

- قال تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتينا صالحاً لنكونن من الشاكرين" {الأعرف: 189}.

نقول: إن موضوع النفس له خصوصية، ولكننا نختصره في الإشارة إلى ما جاء في قوله تعالى: "إن النفس لأمارة بالسوء" {يوسف: 53} فنقول اختصاراً إن السوء يدخل في دائرته سوء استخدام النظام الغذائي والإفساد في الأرض والطبيعة. أما قوله تعالى في الآية: "مما تنبت الأرض" يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار. وقوله تعالى: "ومما لا يعلمون" يدخل ما في أقطار السماوات وتخوم الأرضين، وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم [1]. على حين قال الزمخشري: "ومما لا يعلمون" يعني ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون [2]. في حين قال القرطبي: أي: من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء

---

[1] المصدر السابق، ص69.

[2] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج23، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص895.

والأرض، ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة، ويجوز ألا يعلمه مخلوق، ووجه الاستدلال في الآية: أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يُشرك به [1].

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة نوح: "والله أنبتكم من الأرض نباتاً (17) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً" (18).

قال النحويون: قوله تعالي: "نباتاً" موضوع موضع الإنبات وهو مصدر "أنبت إنباتاً" وقال غيرهم: قوله: نباتاً حالٌ لا مصدر، ونبه بذلك أن الإنسان هو من وجه نبات من حيث إن بدأه ونشأه من التراب، وإنه ينمو نموّه وإن كان له وصف زائد على النبات [2]. قال الشوكاني: يعني: آدم خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات لكونه أدل على الحدوث والتكوين [3]، وهذا ما قاله البيضاوي أيضاً [4]. **نقول إن في الآية تعيين لعدد من المسائل وهي:**

- **الفعل: "أنبتكم".**
- **المكان: "الأرض".**
- **التشبيه في الوصف: "نباتاً".**

المسألة الأولى: معنى "أنبتكم" يُحمل على معنى خلقكم أو أنشأكم، وتشبيه النبات بآدم (عليه السلام) باعتباره أول الخلق له علاقة بالخواص التي تجمع بينهما وبالمادة الخام التي نتج عنها النبات وخلق

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص441.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكة: مكتبة نزار الباز)، ص621.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج29، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص1535.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج29، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص452.

آدم (عليه السلام). فالمادة الأصل هي الماء، والماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، والنواة هي الجزء المركزي من الذرة. كما أن النواة هي الجزء الأساسي في الخلية النباتية والخلية الحيوانية. فأول ما يوجد من النبات خلية صغيرة وهي عبارة عن حويصلة صغيرة من غشاء داخلها سائل لزج يسمى (البروتوبلازما) سابحاً في وسط نواة. هذه الخلية في حالة الحياة تكون ممتعة بقوة امتصاص ونمو فإذا وضعت في بيئة رطبة امتصت مما حولها من السوائل التي تناسبها فازدادت حجماً ثم انقسمت إلى خليتين متلاصقتين وهما بالامتصاص يكبر حجماهما وينقسمان وهلم جرا فيتألف من مجموع هذه الخلايا جسم النبات. كما تحتوي الخلايا النباتية على حبيبات مختلفة الطبائع كالنشا والدقيق والزيوت أو شحوم أو مواد متبلورة. وأجساد الحيوانات تتكون من هذه الخلايا المتناهية في الصغر [1]. نقول: إذا كان الماء هو الأصل الذي يعمل على إحياء خلايا النبات والحيوان، وبالتالي يعمل على تكوين النواة، وإذا فهمنا أن النواة هي جزء مركزي من الذرة التي يتكون منها الماء، فإن الماء يكون أسبق من الذرة والنواة، وإن الله أعظم من النواة ومن الذرة ومن الماء الذي خلقه، وبالتالي أعظم من المادة التي لا يتساوى معها، فقوله تعالى: "أنبتكم" يعني خلقكم من نواة أساسية في خلية نباتية أصلها من الماء.

المسألة الثانية: اختيار المكان "الأرض" يعود إلى أصل البيئة الحاضنة التي خلق منها آدم (عليه السلام)، والأصل أنه اختار الأرض كبيئة حاضنة لنمو النباتات، فهو لم يقل "أنبتكم من التراب" لأن الأرض خلقها الله وهي أعم وأشمل، فتكون الأرض كلها مكاناً للزراعة أو يوصى بأن يتم زراعتها أو استصلاحها وفق الشريعة الإلهية في الأرض. وقد سبق أن شرحنا في سورة {فصلت: 39}

[1] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص4.

علاقة المادة (أي الماء) بالأرض وعلاقة ذلك بالخشوع، والفرق بين خشوع الأرض وموتها والفرق بين الإحياء والإخراج، وعلاقة الإنسان بالإحياء {انظر الشرح في الفصل الثاني، ص118- 121}.

المسألة الثالثة: التشبيه في الوصف "نباتاً". نقول: إن التشبيه يعني أن كثير من أعضاء ومكونات جسد الإنسان تشبه أعضاء جسم النبات، فجسد الإنسان فيه أنسجة وأغشية وأوعية وأحماض وقصبات هوائية، وكذلك من أجزاء النباتات المكونة لها ما يسمى القصبات وهي أغشية أسطوانية متضامنة ومبطنة بخيط حلزوني، ومنها الأوعية اللبنية وهي عبارة عن مجموعة أنابيب، بالإضافة إلى التركيب الكيماوي للأنسجة الخلوية التي تقاوم المؤثرات الكيماوية مقاومة عظيمة وبذلك يمكن فصله بسهولة من المواد الغريبة والحصول عليه في غاية النقاء وهو يتكون من السليلوز (أي الخلوين)، ولأجل الحصول على هذه المادة تعامل أجزاء النباتات المختلفة بمحلول البوتاسا، أو الصودا ثم بمحلول حمض الكلورايدريك حتى تنفصل المواد الخشبية والجواهر الغريبة المختلطة بالسليلوز الخلوين ثم يغسل الباقي بالماء ثم الكحول أو الإيثر لرفع المواد الدسمة. فالخلوين المتحصل بهذه الطريقة يكون أبيض شفافاً عادم الذوبان في الماء والكحول والأثير والمحاليل القلوية الضعيفة ومحاليل الحوامض الضعيفة لا تأثير لها عليه. وحمض الكبريتيك والفسفوريك المركز يحيلانه إلى دكسترين ثم إلى جيليكوز. وحمض الأزوتيك البخاري يتحد به ويتكون منهما جسم قابل للاشتعال والفرقعة يسمى بالقطن البارودي. الخلوين مركب من كربون وأوكسجين وأيدروجين. أما تركيب المادة الخشبية فغير معلوم كما يجب أن يكون ولا يعلم إن كان تركيبها الكيماوي واحداً في جميع النباتات بل وفي الأعضاء المختلفة من النبات الواحد [1].

---

[1] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج10، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص5.

ثالثاً: كفالة زكريا:

تمت الإشارة إلى الكفالة في الآية بقوله تعالى: "وكفلها زكريا". قال الرازي في موضوع الكفالة: الكافل هو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، وفي الحديث "أنا وكافل اليتيم كهاتين" وقال تعالى: "فقال اكفلنيها" {ص:23}. واختلفوا في كفالة زكريا (عليه السلام) إياها متى كانت، فقال الأكثرون: كان ذلك حال طفوليتها، وبه جاءت الروايات، وقال بعضهم: بل إنما كفلها بعد أن فُطمت، واحتجوا عليه بوجهين (الأول): أنه تعالى قال: "وأنبتها نباتاً حسناً" ثم قال (وكفلها زكريا) وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن (والثاني): أن الآية تدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب، فلعل الإنبات الحسن وكفالة زكريا حصلاً معاً [1]. على حين قال القرطبي: "وكفلها زكريا" أي: ضمّها إليه. وقال أبو عبيدة: ضَمِنَ القيام بها. وقرأ الكوفيون: "وكفلها" بالتشديد، فهو يتعدَّى إلى مفعولين؛ والتقدير وكفَّلها ربُّها زكريا، أي: ألزمه كفالتها، وقدَّر ذلك عليه، ويَسَّره له. وفي مصحف أُبي: "وأَكْفَلَها"، والهمزة كالتشديد في التعدي. وأيضاً فإن قبْله : "فتقبَّلَها، وأنبتها" فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها، فجاء "كفَّلها" بالتشديد على ذلك. وخفَّفه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا، فأخبر الله تعالى عنه أنه هو الذي تولّى كفالتها والقيام بها، بدلالة قوله: "أيهم يكفل مريم". قال مكِّي: وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا بأمر الله،

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص31، 32.

ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان [1]. وقال ابن كثير: قدّر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما. وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: "فإذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة"، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: "الخالة بمنزلة الأم" [2]. نقول: إذا صحَّت صلة القرابة، فذلك يعني أن قلة الإنجاب في الكبر أو عدم الإنجاب مطلقاً متوارث أيضاً في هذه الذرية بالنظر إلى أن زوجة زكريا التي كانت عاقراً وقد طلب من الله أن يهبه ذرية طيبة لقوله تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}، كما سنشرح في الآية التالية {انظر الشرح في هذا الفصل، ص548}. كما أن موضوع الاصطفاء الإلهي للنبوة متوارث في نسل العائلة، وذلك يدل على أن الذرية التي اختارها الله لتمثيل النبوة معروفة النسل والأصل وهي مختارة بعناية ورعاية إلهيتين. كما أن ذلك يعني أن هذه الصلة دالة على أن تربية مريم (عليها السلام) لم تكن تربية رجولية ذكورية من خلال مسؤولية زكريا المباشرة عليها، بل من خلال خالتها إيشاع بنت عمران (زوجة زكريا)، وذلك لسبب أساسي وهو أن الكفالة لها شروط فيما يتعلق بالرجل كما المرأة، وهذا ينطبق على حالة مريم (عليها السلام). بالإضافة إلى ما سبق، نقول: إن الآية جاءت على ذكر كلمة "محراب" في قوله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب"، وهذا من ضرورات أداء ودور زكريا في

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص106.

[2] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص35.

كفالتها، ما يعني أن تربيتها وتنشئتها ونموها البدني البيولوجي كان في هذا المحراب، وإن قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} يعني أن ذلك الإنبات والاستواء والنضوج كان في المحراب. كما أن ذكره فعل الإنبات في إشارته إلى قوام مريم (عليها السلام) البدني والنفسي لا يتعارض مع ذكره للمكان، وهو المحراب، بل هو تأكيد على صلة كل ما له بالعبادة والنمو في بيئتها التي هي بيئة عبادة، ومن فاعليتها وديمومتها وصيرورتها التي يحدث فيها تحول نوعي وليس تراكما كمياً فقط. قيل: إن زكريا بنى لها محراباً في المسجد، أي: غرفة يصعد إليها بسلّم [1]، وهذا ما ذكره الرازي [2]. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّمتها؛ كأنّها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تُسمى المحاريب، وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب [3]. على حين قال البيضاوي: سُمي محراباً لأنه محل محاربة الشيطان [4]. وقال عدي بن زيد:

ربَّةُ محراب إذا جئتها ..... لم أدن حتى أرتقي سُلما [5]، نقول: إن رأي الخوارزمي في قوله "كان لا يدخل عليها إلا هو وحده" يخالف حقيقة ما قيل عن صلة مريم (عليها السلام) بزوجة زكريا باعتبارها خالتها، وبالنظر إلى وجودها في ذات المكان. كما أن قوله بتسمية

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص170.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص32.

[3] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص170.

[4] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص108.

المساجد محاريب يخالف ما ورد في القرآن من تسميات صريحة ومباشرة لأماكن العبادة واللقاء بين الناس باسم "المساجد" أو "المسجد" كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى، كقوله تعالى: "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة" {التوبة: 18}. وقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" {الإسراء: 1}.

مكان سكن مريم وعلاقة المحراب بالمسجد

إن "المحراب" لم يذكر في القرآن سوى أربع مرات في آيات منفصلة، كانت واحدة منها تشير إليه صراحة كمكان للصلاة في موضوع زكريا عندما كان ينتظر بشرى ولادة ابنه النبي يحيى (عليه السلام)، وذلك في قوله تعالى: "فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يُبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين" {آل عمران: 39}. نقول: من الواضح لنا أن هذا المحراب قد يكون هو ذات المحراب التي نشأت فيه مريم (عليها السلام)، أي أن بُشرى الملائكة تحققت لزكريا لولادة ابنه النبي يحيى (عليه السلام) في ذات المحراب الذي كان الغذاء يصل إلى مريم (عليها السلام)، وتتناول فيه طعامها، وهو ما يرجح أن يكون للملائكة دور في إنزال الرزق إلى مريم (عليها السلام) في ذات المكان. كما أن المحراب مكان للعبادة، ولكنه أيضاً مكان للخلوة، وقد يكون موجوداً داخل البيت في أحد أركانه أو في أحد أركان المسجد، ونحن نرجح الأول، أي أنه مكان للعبادة داخل البيت ويُسمى محراباً. كما أن هذا المحراب المذكور في الآية، والذي كان يصلي فيه زكريا قد يكون هو ذاته المحراب الذي كانت تتعبد وتسكن فيه مريم (عليها السلام)، والذي قيل فيه "كلما دخل عليها زكريا المحراب"، إذا سلمنا بالقول

إنهما (أي مريم ومتكفلها زكريا) كانا يعيشان في ذات البيت الذي كان فيه محراباً. قيل: كانت مريم (عليها السلام) إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون عند خالتها، {....} وكانت إذا طَهُرت من حيضتها واغتسلت ردَّها زكريا إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مُطهَّرة من الحيض [1]. نقول: إن ما سبق ذكره هو موضع تحقيق، بالنظر إلى صلة القربى ومكان وجود المحراب الذي كانت تعيش وتتعبد فيه، لقوله تعالى في الآية: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً" {آل عمران: 37} لأنه إذا كان المحراب بعيداً عن البيت فهذا يعني أن مريم (عليها السلام) نشأت وحيدة بعيدة عن بيت زكريا في غالبية الأوقات، وهي في عمر صغير، وهذا لا يُحتمل لأمرين:

أولاً: لأنها في كفالة ورعاية زكريا، وبالتالي في رعاية خالتها (زوجة زكريا).

ثانياً: لأنها تتطلب أن تكون واقعة تحت مسؤولية من يكبرها لأسباب كثيرة، وهو في هذه الحالة زكريا بعدما وقع عليه الاختيار بحسب ما يشير إليه قوله تعالى: "أيهم يكفل مريم" {آل عمران: 44} وهذا يدل على أن الكفالة كانت مشرعة قبل الإسلام، وقبل عهد النبي عيسى (عليه السلام). إن السبب الوحيد الذي يقودنا إلى القول بأن نشأتها كانت وحيدة في محراب مشيد خارج البيت أو على مقربة منه هو القدرات التي تملكها، وأنها كانت تقوى على فعل كل شيء بمفردها لأسباب تتعلق باصطفائها، وهذا يشتمل على طهارتها الكاملة من الحيض وأي نجاسات بحسب ما ورد في قوله تعالى: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" {آل عمران: 42}. نقول: إن الاصطفاء والطهارة تتوافق مع ما ذكره البيضاوي (ونحن نؤيده) في قوله بأن المحراب سُمي

[1] المصدر السابق، ص108.

محراباً؛ لأنه محل محاربة الشيطان، ما يعني أنها كانت مصونة ومحفوظة بعناية إلهية.

رزق مريم من عند الله

رابعاً: الرزق من عند الله.

تمت الإشارة إلى هذه المسألة في الآية بقوله تعالى: "وجد عندها رزقاً" و "إن الله يرزق". نقول: إن "الرزق" عموماً له معاني متعددة، وقد يكون رزقاً مادياً أو معنوياً، فالمادي يكون رزقاً في الأولاد أو المال وما يشتمل عليه من الموارد أو الأعمال، وكذلك المطر يسمى رزقاً وهو مادي، والمعنوي يكون رزقاً في الصحة أو في العلم ويحمل معنى الاعتماد والتوكل على الله. وقيل: الأرزاق نوعان: ظاهرةٌ للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم" [1]. نقول: في هذا الموضع من الآية يحتمل معنى واحد وهو الغِذاء، أي الأرزاق الظاهرة للأبدان وفق إشارة زكريا (عليه السلام) إلى الرزق/الغذاء متسائلا كما في الآيةً: "قال يا مريم أنى لك هذا؟" أي: من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء [2]. وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: "إن الله يرزق من يشاء بغير حساب": تعليلية لما قبلها، وهو من تمام كلامها، ومن قال إنه من كلام زكريا، فتكون الجملة مستأنفة [3]. على حين قال الرازي: هذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم (عليها

---

[1] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م3، ج17، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1636.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص258.

[3] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص215.

السلام)، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى، وقوله "بغير حساب" أي بغير تقدير لكثرته، أو من غير مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله "ويرزقه من حيث لا يحتسب" [1]. ويجوز أن نقول بأن سؤال زكريا عن كثرة الطعام عند مريم (عليها السلام)، وردها عليه بالقول "إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" يتعلق بمسألة بيولوجية عضوية خاصة بمريم (عليها السلام) لا سيما أن "دوام الأكل في الإناث أعم منه في الذكور" [2]. نقول: إن تثبيتنا للطعام كمعنى وحيد لكلمة "الرزق" المشار إليها في الآية هو إشارة ضمنية إلى العناية الإلهية بالنظام الغذائي لمريم (عليها السلام) منذ صغرها. كما أن الإقرار بولادة مريم (عليها السلام) من أمها العاقر يجيز إقرار وجود كرامات دالة على القدرة الإلهية، وسوف تتحقق لها لاحقاً مراراً وتكراراً، ومنها توفر الرزق/الغِذاء بتسهيل ورعاية ورقابة من الله، وكرامة حملها وولادتها لابنها عيسى (عليه السلام). والسؤال هنا: **هل هناك ربط بين الرزق/الغِذاء، وولادتها لعيسى (عليه السلام) ككرامة من الله؟**

نقول نعم، إن الكرامة هنا مرتبطة بثلاث مسائل:

أولاً: مصدر الرزق

ثانياً: نوعية الرزق

ثالثاً: استمرارية الرزق

سوف نشرح هذه المسائل الثلاثة كما يلي:

أولاً: مصدر الغذاء/الرزق:

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص34.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج1، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص112.

نقول: إن مسألة وجود الرزق عند مريم (عليها السلام) وكونه من عند الله، أثارت قريحة العلماء. **فالسؤال هنا حول كيفية وصول الرزق إليها، أي هل يصل إليها بتيسير من الله، أي من خلال تسخير جنود من الله في الأرض لخدمة مريم (عليها السلام) أم نزول الطعام مباشر من السماء من خلال وحي مرسل بإرادة الله، أم غير ذلك؟**

أولاً: سأقدم ما ذكره العلماء، ومن ثم سوف نقدم رأينا في هذه المسألة شديدة الخصوصية. لقد احتج بعض العلماء على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية، {......} وقيل إن حصول الرزق عندها إما أن يكون خارقاً للعادة، أو لا يكون، فإن قلنا: إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة وجوه: (الأول): أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم (عليها السلام) دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى (والثاني): أنه تعالى قال بعد هذه الآية: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة" والقرآن دل على أنه كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته، فلما رأى انخراق العادة في حق مريم (عليها السلام) طمع في حصول الولد فيستقيم قوله "هنالك دعا زكريا ربه"، أما لو كان الذي شاهده في حق مريم (عليها السلام) لم يكن خارقاً للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سبباً لطمعه في انخراق العادة بحصول الولد من المرأة الشيخة العاقر (الثالث): أن التنكر في قوله "وجد عندها رزقاً" يدل على تعظيم حال ذلك الرزق، كأنه قيل: رزقاً، أي رزق غريب عجيب، وذلك إنما يفيد الغرض اللائق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة (الرابع): هو أنه تعالي قال: "وجعلناها وابنها آية للعالمين" ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق، وإلا لم يصح ذلك. {......} (الخامس): ما تواترت الروايات به أن زكريا (عليه السلام) كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.، فثبت أن الذي ظهر في حق مريم (عليها السلام) كان فعلاً خارقاً للعادة، فنقول: إما أن يقال: إنه كان معجزة

لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك الزمان هو زكريا (عليه السلام)، ولو كان ذلك معجزة لكان هو عالماً بحاله وشأنه، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم "أنى لك هذا" وأيضاً فقوله تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه" مشعر بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ثم أنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشيخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بإخبار مريم (عليها السلام)، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا (عليه السلام) فلم يبق إلا أن يقال: إنها كانت كرامة لعيسى (عليه السلام)، أو كانت كرامة لمريم (عليها السلام)، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل، فهذا وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء [1]. على حين قال أبو علي الجبائي: يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم (عليها السلام) رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء، وكان زكريا يسألها عن ذلك حذراً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره. وقال لا نسلّم أنه كان قد ظهر على مريم (عليها السلام) شيء من خوارق العادات، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقاً على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات، فكان زكريا (عليه السلام) إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي، فكان يسألها عن كيفية الحال، هذا مجموع ما قاله الجبائي في تفسيره، وقال الرازي هو في غاية الضعف [2]. نقول: إن هناك مصدر ثانوي تابع للمصدر الأساسي، فيكون الأصل هو المصدر الأساسي وهو الله. لكن المصدر الثانوي هو الذي يجب فهمه من خلال فهم عملية أو طريقة وصول

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص32، 33.

[2] المصدر السابق، ص33، 34.

الرزق إلى مريم (عليها السلام) من خلاله أو كيفية تسخير هذا المصدر الثانوي بهدف إيصال الرزق إلى مريم (عليها السلام). هذا المصدر الثانوي يكون من خلال ثلاث طرق:

الطريقة الأولى: من خلال كفالة زكريا، أي أن الغذاء يصل إليها ضمن كفالته، ولكن هذا غير ممكن ولا نرجح ذلك بسبب حالة الاستغراب التي كان يبديها زكريا وحالة الاستفهام التي كان يطرحها على مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: "قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" {آل عمران: 37} إن سؤال زكريا: أنى لك هذا؟ يدل أو ينفي أن يكون هو نفسه مصدر هذا الرزق. وقد شرحنا هذه الآية في موضوع "كفالة زكريا". {انظر الشرح في هذا الفصل، ص531}.

الطريقة الثانية: أن يكون المصدر الثانوي مباشراً "من عند الله" من خلال جنوده في الأرض والسماء سواء كانوا بشراً أم ملائكة، وذلك بسبب الاصطفاء لما جاء على لسان الملائكة في قوله تعالى: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" {آل عمران: 42}. نقول: إن الاصطفاء والطهارة يشتمل على ضرورة خدمتها وتقديم طعام طاهر مضمون في جودته؛ لأنه سوف ينعكس على ولادة عيسى (عليه السلام) فيما بعد. كما أن جزءاً من فهم المصدر هو فهم طبيعة المكان، وهو المحراب، أي أن المصدر لا يكون من خلال سقوط طعام من السماء كما يتخيل البعض، بل يُقصد به أن الغذاء كان يصلها بتدخل من الملائكة بأوامر الله، بالتالي فهو محفوف بالعناية الإلهية، بالتالي فالملائكة تأتيها بالطعام من خلال الصالحين والعابدين والزهاد من الناس.

الطريقة الثالثة: نقول: إن المصدر يعود إلى ما أوجده أو خلقه الخالق في الأرض، فيكون مصدراً غير مباشر، أي ثانوي دال على نوعية الطعام الذي كانت تتحصل عليه. كما أن النبات يأخذ فترة طويلة في النمو، ويمر في عدة مراحل، كإنبات البذرة أو التخصيب أو التلقيح

أو التطور أو الوفرة، ويتطلب ذلك توفر الماء والهواء والتربة والمغذيات ودرجة الحرارة، وكذلك الإنسان يتطلب ما يتطلبه النبات، ولكن بشكل ومراحل مختلفة، فالإشارة إلى الإنبات في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً" يعود إلى الرزق/الغِذاء الذي وفّره الله لمريم (عليها السلام). وعلى إثر ذلك، يكون معنى الرزق دالاً على الغِذاء، ومعنى الغذاء دالاً على الإنبات (وهو مصدره)، ومعنى الإنبات دالاً على مرحل النمو في الطبيعة، ومعنى مراحل النمو دالة على كافة العناصر التي يتكون منها النبات، ومنها: الكربون – الأيدروجين – الأوكسجين – النيتروجين – الفوسفور – البوتاسيوم – الكالسيوم – المغنيسيوم – الكبريت – الحديد – الزنك – المنجنيز – النحاس – البورون – المولبيديوم – الكلور، وهذه العناصر تعتبر دالة على مصادر الإنبات وهي الماء والهواء والأرض، وهي الأصل في عملية الإنبات، تماماً كما هي الأصل في إمداد مريم (عليها السلام) بالرزق/الغِذاء، وهي كذلك الأصل في عملية الخلق بكافة أنواعه. **واستكمالاً للإجابة على سؤال هل هناك ربط بين مصدر الرزق (الغذاء)، وولادة مريم (عليها السلام) لابنها عيسى (عليه السلام) من غير أب ككرامة من الله؟**

نقول: إن "مصدر الغذاء" كان عاملاً أساسياً مساعداً في خلق عيسى (عليه السلام) ونموّه في رحم أمه مريم (عليها السلام). ومصدر الغذاء مرتبط بأمرين وهما: أولا: إرادة وقدرة وقوة الله. وثانياً: موارد الطبيعة التي أوضحتها في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}. إن هذين الأمرين هما اللذان جعلا الرزق/الغذاء ممكناً، وهما اللذان جعلا خلق عيسى (عليه السلام) بالطريقة التي صورها الله وأرادها له. وندرك هنا أن أصل كل الصفات الإلهية المتعلقة بالإرادة والقدرة والقوة الإلهية سابقة على وجود الموارد الطبيعية، وأبرزها أربعة موارد متصلة بخلق الإنسان من خلية أو من نطفة، وتعتبر أساس بقائه حياً على الأرض، وهذه الموارد هي: "التراب – والماء – والرياح/الهواء –

والحرارة/الطاقة"، وما ينتج عنها جميعاً من تفاعل يؤدي إلى الحرارة التي هي عنصر أساسي في إنتاج النبات أو خلق الإنسان. صحيح أننا ذكرنا بأن الإرادة والقدرة والقوة الإلهية سابقة على وجود موارد الطبيعة، لكنها أيضاً لاحقة، بمعنى أنها قوة فيها استمرارية وهي لا نهائية، ويدل على ذلك اسم الرَّزاق: وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المفيض بالنعم نعمة بعد نعمة، والمُكثر المُوسع على عباده [1]. وقد ورد في القرآن قوله تعالى: "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" {الذاريات: 58}. قيل: تعليلاً لما تقدم من الأمرين، فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى: "ذو القوة" تعليل لعدم طلب العمل، لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ومن يطلب عملاً من غيره يكون عاجزاً لا قوة له، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق ولا أعمل فإني قوى [2]. نقول: إن الله ربط الرزق أو الأسباب الشرعية الجالبة للرزق بقوته ومتانته بحسب وصف الآية: "ذو القوة المتين"، فالقوة جاءت قبل المتانة لإظهار القدرة على جلب الرزق، والمتانة جاءت بعدها لتثبيتها. فثقة الإنسان بالله والتوكل على الله والإقبال عليه يحتم أن يقابل بإظهار الله لقوته ومتانته في جلب الرزق لعباده. ومن الإشارات الإلهية على سابقة ولاحقة الموارد الطبيعة كمصدر للرزق، ذكر الماء والأرض. وقد يسمى المطر رزقاً [3]. في كثير من الآيات يترافق ذكر الماء (الرزق) مع المطر والسماء، وذكر الأرض مع التربة والطين والنبات كما في الآيات التالية:

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص884.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج28، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص235.

[3] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م3، ج17، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص1637.

- قوله تعالى: "وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها"{الجاثية: 5}.

- وقوله تعالى: "هو الذي يُريكم آياته ويُنزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب" {غافر: 13}.

- وقوله تعالى: "وفي السماء رزقكم وما توعدون" {الذاريات: 22}.

- وقوله تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً" {النحل: 73}.

- وقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" {هود: 6}.

قال مجاهد: الرزق: هو المطر، وهذا اتساع في اللغة، كما يُقال التمر في قعر القليب، يعني به سقى النخل [1]. نقول: إذا أدركنا هذا المصدر، أي الماء والأرض، وفهمنا علاقة الأرض بالماء/المطر والإنبات، وفاعلية الحركة بما تنتجه من حرارة أو طاقة، فإننا سوف نستدل على أن الله ليس له خوارق غير مفهومة أو غير مبررة أو غير منطقية، بل إننا سنفهم أن لخالق هذا الكون قدرات يمكن الاستدلال عليها والإعجاب بتكوينها وحركتها وانتظامها وإبداعها، وكل ذلك من أسرار الخالق.

ثانياً: نوعية الرزق/الغذاء:

نقول: إن النوعية دلَّت عليها كلمة "حسناً" في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} وهو وصف لبناء مريم (عليها السلام) الجسدي وتشبيه لسلامة بنيتها وهيئتها ونموها وبيئتها بسلامة بنية وهيئة ونمو وبيئة النباتات. والحَسَن ضد القبيح، وعلى هذا فإن الحسن هنا له علاقة بالجمال. والحسن ضد الاعوجاج، وعلى هذا فإن الحسن

[1] المصدر السابق، ص1637.

هنا له علاقة بالاستقامة. والحسن ضد السفاهة، وعلى هذا فإن الحسن هنا له علاقة بالتخلق والأدب. وإذا كانت النوعية تدل على الشيء الحسن، فإن النوعية يمكن أيضاً أن تدل على الجودة. وإذا كان وصف "الحسن" جاء للنبات وطريقة الإنبات معاً، فإنه أيضاً يكون وصفاً للرزق/الغذاء. وقيل: الرزق الحسن: ما يصل إلى صاحبه بلا كد في طلبه [1]. نقول: هذا متحقق في حالة وصول الرزق إلى مريم (عليها السلام)، ما يعني أن الكد للحصول على الغذاء بما يشتمل عليه من زروع وثمار يكون بفعل فاعل غير الشخص الذي يحصل عليه. وإذا كان للنبات أثر في الإنسان وهو موصوف بأنه حسن لقوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37} والرزق هو في الأصل نبات، بالتالي فإن الحسن يكون للرزق والنبات معاً، وفي ذلك دليل على القدرة في الكمال الإلهي لإتمام أحسن النبات والرزق للنوع البشري.

لقد ورد ذكر الزرق/الغذاء أو ما يدل عليه مع التوصيف بأنه حسن في ثلاث آيات كما يلي:

- قال تعالى: "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون" {النحل: 67}.
- قال تعالى: "قد أحسن الله له رزقاً" {الطلاق: 11}.
- قال تعالى: "قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" {هود: 88}.

إذا ربطنا مسألة نوعية ومصدر الغذاء بالاستمرارية الدالة على تكرار وجوده عندها، فإن ذلك يدل على أن إنبات مريم (عليها السلام) نباتاً حسناً كان بفعل التيسير والرعاية الإلهية في مدّها بالرزق/الغذاء لفترة طويلة منذ صغرها فكان الاصطفاء حاصلاً منذ الصغر حتى

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص885.

تحقق إنجاب عيسى (عليه السلام). كما أنه رغم وجود كفالة زكريا لمريم (عليهما السلام)، إلا أن الله جعلها (وهي تحت كفالته) في غنى عن كفالته من خلال كفالة إمدادها بالرزق/الغذاء، وهذا يدل على كثافة الرعاية الإلهية لمريم (عليها السلام)، ويعتبر ذلك جزءاً هاماً من التمهيد لعملية خلق عيسى (عليه السلام). وهناك آية قرآنية تشير إلى التفضيل في نوعية الأكل، وذلك في قوله تعالى: "وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحدٍ ونفضّل بعضها على بعض في الأُكُل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" {الرعد: 4}. يهمنا في الآية جملة (ونفضل بعضها على بعض في الأكل). قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن في قوله: "ونفضل بعضها" ولم يقل: بعضه. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعتُ النبي (ﷺ) يقول لعلي: "الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة"، ثم قرأ النبي: "وفي الأرض قطع متجاورات" حتى بلغ قوله: "يُسقى بماء واحد" [1]. وقرأ حمزة والكسائي "يفضل" بالياء عطفاً على قوله تعالى (يدبر) و (يفضل) و (ويغشى) وقرأ الباقون بالنون على تقدير: ونحن نفضل [2]. وقال البيضاوي "التفضيل في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار [3]. نقول: إن التفضيل يعني اختيار الأكثر جودة والمهيأ للأكل، وهذا يتطابق مع نشأة مريم على أكل الغذاء عالي الجودة في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}،

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج12، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص12.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج19، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص9.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج13، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص197.

فالإنبات هنا يكون في شكل القوامة، ويكون من ناحية التناول لنوعية النبات الجيد. وإن قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" تحمل ذات المعنى القائم على علاقة الإنسان أولاً: بالنظام الغذائي (وهو نفسي وبدني) وثانياً: بالأمن الغذائي (وهو اجتماعي واقتصادي) وكلاهما كان أساسياً عند ذكر الإنسان والأزواج في القرآن عموماً، وكذلك ذكر الأماكن كالأرض والقرى وغيرهما، مع الإشارة إلى أهمية ذكر أربع كيانات اجتماعية على وجه الخصوص في موضوع النظام الغذائي والأمن الغذائي، وهي مريم (عليها السلام) كما شرحنا هنا، وإبراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي في واد غير ذي زرع عند بيتك المحرم" {إبراهيم: 37}، وقريش في قوله تعالى: "لإيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (2) فليعبدوا رب هذا البيت (3) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (4). وسبأ في قوله تعالى: "لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" {سبإ: 15}. إن الأمور الأربعة سابقة الذكر، أي "القبول الحسن" و "النبات الحسن" و "وكفالة زكريا" و "والرزق من عند الله" تشير إلى أن النبي عيسى (عليه السلام) كان بالضرورة قوي البنية ومعافى في بدنه نتيجة هذا النشء الحسن والسليم لأمه مريم (عليها السلام). وبعد كل ما سبق شرحه، فإن الماء الدافق في الترائب بالنسبة لمريم (عليها السلام) الذي تسبب في خلق عيسى (عليه السلام) (إذا ما أردنا القياس على مريم (عليها السلام) وترائبها لتبيان حقيقة وحدة النص القرآني) فإنه، أي الماء الدافق من الترائب، يتعلق بأهمية وجود الشروط الأربعة الصحية لمريم (عليها السلام) وهي "القبول الحسن" و "النبات الحسن" و "كفالة زكريا" و "الرزق من عند الله"، وهذه كلها حقائق تشتمل على صحة مريم (عليها السلام) واستعدادها البيولوجي الحيوي في إنجاب النبي عيسى (عليه السلام)، أي أن النظام الغذائي،

والرعاية الإلهية (من الله) والرعاية البشرية (من زكريا) ساعدت ومهّدت جميعها لعملية إنجاب عيسى (عليه السلام).

ثالثاً: استمرارية وجود الرزق/الغذاء:

نقول: إن "الاستمرارية" دلت عليها كلمة "كلَّما" في قوله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً". ورد في معجم اللغة المعاصرة أن "كلَّما": هي كلمة وظيفية: ظرف زمان يفيد الشرط [1]. وقيل: هي لفظ مركب من "كل" اتصلت بها "ما" المصدرية الظرفية. وبعضهم يُسمي "ما" نكرة موصوفة بمعنى: "وقت". وتفيد معنى التكرار في كل وقت، ولا تدخل إلا على الفعل الماضي [2]. إذا أدركنا أن "كلما" الوارد ذكرها في الآية لا تدخل إلا على الفعل الماضي، وأن زكريا (عليه السلام) كرر كلماته في الآية بصيغة الماضي في قوله "دخل" و "وجد" و "قال" في إشارة إلى موضوع الرزق/الغذاء، عندها سوف نفهم أن الاستمرارية كانت متطابقة مع الوفرة في وجود الرزق. بالتالي يصبح معناها في الآية: "في كل وقت دخل عليها وجد عندها رزقاً/غذاءً" أو "ما من وقت دخل عليها إلا وجد عندها رزقاً/غذاءً". أي أن "الاستمرارية" دالة على عدة أمور منها الكثرة والوفرة والتتالي، أي عدم الانقطاع. كما أن "الاستمرارية" دالة على التراكمية، وهي تفيد وجود العافية والصحة من خلال تناول نوع غني ومخصوص وذات جودة عالية من الطعام دلت عليه كلمة "كلما". كما أن الاستمرارية دالة على الأثر الذي أحدثه الطعام ونوعيته وجودته في جسد مريم (عليها السلام) وهو ما أدى إلى حدوث أثر العافية والسلامة قبل وأثناء وبعد ولادة عيسى (عليه السلام).

---

[1] المصدر السابق، ص1953.

[2] عزيزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ج2، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص834.

الآية الرابعة: قال تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" {آل عمران: 38}.

لما كفل زكريا مريم (عليهما السلام)، ولما رأى زكريا كيف وُلدت مريم مع أن أمها حنة بنت فاقوذ كانت عاقراً، أراد أن يكون له ذرية بالمثل، ولذلك دعا ربه كما جاء في الآية "هنالك دعا زكريا ربه". بالتالي فإن جملة "ذرية طيبة" في الآية المراد بها التشبيه، وهي تعود على مريم (عليها السلام). قال القرطبي: "هنالك" في موضع نصب؛ لأنه ظرف يُستعمل للزمان والمكان، وأصله للمكان. وقال المُفَضَّل بن سَلَمة: "هنالك" في الزمان، و "هناك" في المكان، وقد يُجعل هذا مكان هذا [1]. نقول: إن كلمة "هنالك" على لسان زكريا فيها إشارة إلى المكان الوارد ذكره في سورة {آل عمران: 37} لقوله تعالى: "كلما دخل عليها المحراب" أي كلما دخل زكريا على مريم (عليها السلام) في المكان الذي رزقت فيه الطعام، وبالتالي "هنالك" بمعنى في ذاك المكان الذي رزقت فيه مريم (عليها السلام). وبعدما عملت على كفالتها واضطلعت على الحقيقة، "هنالك" بالتحديد خاطب زكريا ربه ودعاه أن يرزقه ذرية طيبة كمريم (عليها السلام)، وذهب بعدها للسؤال عن حاله وحال زوجته معاً كما في الآية: "رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني من الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء" {آل عمران: 40} وفي ذلك دليل على أن البيئة التي نشأت فيها مريم (عليها السلام) لم تكن غريبة عنها، أي لم يكن غريباً أن تولد من أمها حنة بنت فاقوذ وهي عاقر، لأن ذلك سيحدث لزوجة زكريا الذي كفل مريم (عليها السلام) في صغرها. أي كأن زكريا طلب أن يكون له ذرية طيبة مثل مريم (عليها السلام)، وطيبة هي وصف زكريا لمريم

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص108.

(عليها السلام) باعتبار أنه كان كافلها، وأيضاً ذُرية متقبلة عند الله، وإنشاءها بشكل حسن كما وُصف سابقاً في قوله تعالى: "فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}. عموماً، تدل الآية على استعداد زكريا للتربية إذا ما رزق بمولود، وهو الذي طمع في الولد وقال: إن الذي يأتي مريم (عليها السلام) بالرزق قادر على أن يرزقني ولداً وفقاً لسؤاله الموجه إلى مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: "يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله" {آل عمران: 37} [1]. في إشارة للرزق الذي يأتيها، وقد دعا زكريا ربه بعدما ما شاهد من كرامة لمريم (عليها السلام)، فتحققت دعوته ورزق بالنبي يحيى (عليه السلام) لاحقاً. وهذا الاستعداد للتربية بائن الأثر ويُراد به أن يكون مشابهاً لنشوء وقوامة مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: "وأنبتها نباتاً حسناً" {آل عمران: 37}؛ لأن ذلك مرتبط بالتربية والنمو البيولوجي ضمن كفالة زكريا، وهو تشبيه بالنمو النفسي والطبيعي للنبات. وقد أراد زكريا من الله أن يهب له مولوداً ويسويه من غير زيادة ولا نقصان تماماً مثل مريم (عليها السلام). إن قوله تعالى: "ذرية طيبة" أي: نسلاً صالحاً. والذرية تكون واحداً وتكون جمعاً، ذكراً وأنثى. وقد أنّث "طيبة" لتأنيث لفظ الذرية [2]. وروي من حديث أنس قال: قال النبي: "أي رجل مات وترك ذرية طيبة، أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً" [3]. وفي حديث النبي "إذا مات أحدكم، انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" [4]. نقول: إن دعوة الولد الصالح لا تنقطع لأن فيها دليل على ترسيخ أهمية النسل وضرورات الخلق وفاعلية الذرية. إن ذرية النسل، هو لفظ يقع على الواحد، والجمع،

---

[1] المصدر السابق، ص108.

[2] المصدر السابق، ص109.

[3] المصدر السابق، ص110.

[4] المصدر السابق، ص111.

والذكر والأنثى، والمراد منه ههنا: ولد واحد، وهو مثل قوله تعالى: "فهب لي من لدنك ولياً" قال الفراء: وأنّث (طيبة) لتأنيث الذرية في الظاهر، فالتأنيث والتذكير تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى، وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس، أما في أسماء الأعلام فلا؛ لأنه لا يجوز أن يقال جاءت طلحة، لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص، فإذا كان ذلك الشخص مذكراً لم يجز فيها إلا التذكير [1].

عملية خلق عيسى (عليه السلام) (جُمع في خلقه كل الأنواع).

قدرة الله على (خلق ما يشاء) و (القضاء في الأمر) و (تثبيت مشيئته)

الآية الخامسة: قوله تعالى: "قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" {آل عمران: 47}.

إن القول في الآية يعود إلى لسان حال مريم (عليها السلام) لأن قولها "قالت رب" أي: خطابها لجبريل؛ لأنه الرسول المكلف من الله بالتحاور معها، لأنه لما تمثّل لها قال لها: "قال إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً" {مريم: 19}. فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد، فقالت: أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ أي: بنكاح. وقولها "لم يمسسني بشر" يشمل الحرام والحلال [2].
نقول: هذا التعجب والاستفهام من مريم (عليها السلام) في خطابها مع

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص36، 37.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص141.

رسول الله، أي جبريل، فيه اعتراف صريح بأنها لم تتزوج رجلاً شريكاً في حياتها لا من قبل ولا من بعد. وفي الخطاب علم تام من مريم (عليها السلام) أن الولد يأتي عن طريق الزواج والنكاح، أي أن له طرق شرعية، وهي تدرك ذلك. ولكن لماذا قالت "يكون لي ولد" أي كيف عرفت أنه ولد ذكر وليس أنثى؟ نقول: لأن خطاب الوحي "الرسول" من الله بشرها بجنس المولود في قوله تعالى: "قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً" {مريم: 19}. كما نلاحظ أن قولها "ولم يمسسني بشر" تكرر مرتين في القرآن، الأولى في هذه الآية محل الشرح، والمرة الأخرى في قوله تعالى: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً" {مريم: 20}. وفي هذا الأمر تأكيد على نفي وجود أي نوع بشري شريك لها في أي نكاح لإنجاب عيسى (عليه السلام). كما أنها نفت عن ذاتها أن تكون قد وقعت في الحرام أو من خلال الزنا في قولها: "ولم أك بغياً". لذلك جاء التأكيد الإلهي لتثبيت خطاب مريم (عليها السلام) واستفهامها وتعجبها في ثلاثة ردود متتالية دالة على قدرته وهي قوله تعالى في الآية: "الله يخلق ما يشاء" ثم قوله تعالى: "قضى أمراً" وقوله تعالى: "يقول له كن فيكون" {47: آل عمران} وهو تثبيت لثلاثة أمور: الأول: تثبيت لمشيئة الله. الثاني: تثبيت للأمر الإلهي وفيه دلالة على علو شأنه وقضائه الأعلى فوق الخلق. الثالث: علمه وحده بقدرته على إتمام الخلق لأن "كن فيكون" تعبير عن مطلق تلك القدرة وخصوصيتها واختصاصها لله وحده، من خلال عملية التيسير في خلق أو إنتاج الخلية النباتية التي أحيت عيسى (عليه السلام) في بطن أمه مريم (عليها السلام). ونلاحظ أنه بعد إنكار مريم (عليها السلام) أن يكون قد مسها بشر وأنها لم تك بغيا في سورة مريم، تسلسل الخطاب القرآني تمهيداً لتصوير عملية المخاض والإنجاب وحتى إطعام الجنين من رزق الله، وذلك في الآيات الأربع المتتالية: "فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً (22) فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل

هذا وكنت نسياً منسياً (23) فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً (24) وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً (25). إن أولوية ذكر السري (المياه) مع تكرار كلمة "تحت" في "من تحتها" (بطن مريم) أو "قد جعل ربك تحتك سرياً" (بطن الأرض) يشير إلى الداخل (إلى رحم الأم ورحم الأرض) أي إلى مفهوم الأمومة التي تتحكم في الجسمين، جسم الأنثى وجسم الأرض معاً. فتظهر "التحت" الأولى كرحم مريم الذي سيلد غلاماً، بينما تظهر "التحت" الثانية كرحم الأرض الذي سيفجر المياه مما يُحيي الأرض [1]. نقول إن هذه المقابلة بين تولّد مريم (عليها السلام) على المستوى نفسه مع تولّد الأرض يعطي مريم (عليها السلام) صورة تتعلق بأصل مادة خلق آدم (عليه السلام)، وأن أصل الخلق والخصوبة وإعادة الخلق وإعادة الخصوبة ومكان الطعام كلها متشكلة في دورة طبيعية حيوية واحدة منذ خلق آدم (عليه السلام) وهي من الأرض.

الفرق بين (الغلام) و (الولد) في تسمية عيسى

الآية السادسة: قوله تعالى في سورة مريم: "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً (20) قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً" (21).

لقد سمّت مريم ابنها عيسى (عليهما السلام) في هذه الآية بـ "الغلام" وفي الآية السابقة سمّته بـ "الولد"، **فما الفرق؟**

نقول: إن تسميته بالغلام أيضاً وردت في الآية (19) السابقة من سورة مريم أيضاً في قوله تعالى: "غلاماً زكياً"، وهذا لسان حال الوحي هو الذي قال لها "لأهب لك غلاماً زكياً". قيل: المراد بالزكي

---

[1] حُسن عبود، السيدة مريم في القرآن الكريم، قراءة أدبية، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2010)، ص120.

النبي [1]. قيل: الغلام الطار الشارب، يقال غلام بين الغُلومة والغلومية. قال تعالى: "وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين" {الكهف: 80} وقوله تعالى: "وأما الجدار فكان لغلامين" {الكهف: 82}. واغتلم الغلام إذا بلغ حد الغلومة ولما كان من بلغ هذا الحد كثيراً ما يغلب عليه الشبق قيل للشبق: غلمه واغتلم الفحل [2]. وقال الكسائي: الاغتلام أن يتجاوز الإنسان حد ما أمر به من الخير المباح، أي الذين جاوزوا الحد [3]. أما الولد: فيقال غلام مولود وجارية مولودة، أي حين ولدته أمه، والولد اسم يجمع الواحد والكثير والذكر والأنثى. ولدته أمه ولادة، فهي والدة على الفعل، ووالد على النسب. والوليد: المولود حين يولد [4]. نقول: إن اختلاف التسمية هي من إبداعات الخطاب القرآني، وهو من دقة وعلم مريم (عليها السلام) الشرعي والبيولوجي في الوصف؛ لأنها لما قالت "ولد" قصدت بذلك المولود الذي يولد من رحمها، فيكون ذلك بإرادتها وهو منها وتابعاً لها، أي لذريتها. ولأن كلمة "ولد" جاءت في الآية منسجمة مع الحديث عن الخلق وتوكيده في ثلاث جمل وهي "يخلق ما يشاء" و "قضى أمراً" و "يقول له كن فيكون". أما قولها "غلام" في آية أخرى فقد جاء ذلك تأكيداً على أن الغلام يكون مولوداً بغير إرادة منها، بل بإرادة الله أو دون علم ابتدائي منها، بل بعلم الله، ولذلك قالت في الآية: "لم أك بغياً". أي أنها لم تقع في الحرام أو الزنا، وبالتالي قصدت ألا يكون الغلام قد ولد منها أو تربى بعيداً عنها أو دون علمها من خلال وقوع زنا قد تكون شريكة فيه. أما الآية التي

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج16، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص886.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج2، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص472.

[3] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م6، ج36، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص3289.

[4] المصدر السابق، ص4914.

تليها: "قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً" {مريم: 21} فقد ذكر فيها خمسة أمور، وهي قوله تعالى: "قال ربك" أي على لسان الملك الذي أوحى إلى مريم (عليها السلام). وقوله تعالى: "عليّ هيّن" أي سهل في الخلق. وقوله تعالى: "آية للناس" أي أنه إعجاز فيه توكيد دال على قدرة الله تعالى. وقوله تعالى: "رحمة منا" يجوز أن تكون معطوفة على قوله تعالى "لنجعله آية" لكننا نقول إن الرحمة هنا تتعلق بتعدد خلق الله، حيث أراد الله أن يرحم النوع البشري، ولذلك جعل نسلهم من آدم (عليه السلام) ومن عيسى (عليه السلام)، وهذا تجديد وتنوع للخلق مع ثبات في المصدر، ونقصد بالمصدر الخالق "وهو الله" ومادة الخلق "وهي إما التراب/الطين في حالة آدم (عليه السلام) وإما الخلية في حالة عيسى (عليه السلام)".

الخلية أم النطفة في رحم مريم العذراء "أم النبي عيسى" (عليه السلام).

أصبح من إلزاميات الحقائق العلمية والأخلاقية والدينية فهم عملية خلق عيسى (عليه السلام) من خلال فهم عملية خلق آدم (عليه السلام).

أدوات التشبيه، وصيغة المماثلة، وبلاغة الوصف في خلق آدم وعيسى (عليهما السلام)

الآية السابعة: قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}.

نقول: إن المماثلة في تكرار كلمة "مثل" مرتين في قوله تعالى: "مثل عيسى" ثم قوله "كمثل آدم" لا تتعلق بكل أنواع المماثلة

والمشاركة في كل الأوصاف، ولكن في نوعين من المماثلة تم ذكرهما في الآية، وهما "خلقه من تراب" أولاً، "ثم قال له كن فيكون" ثانياً. قال الرازي: "إن قوله تعالى: "خلقه من تراب" ليس بصلة لآدم ولا صفة، ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم. قال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا" [1]. نقول: هو خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم وعيسى معاً، وذلك لوجود أداتي التشبيه في الآية التي جاءت على ذكر كلمتي "مثل" و "كمثل" فكانت الأولى "مثل" أداة تشبيه تشير إلى عيسى (عليه السلام)، بينما الثانية "كمثل" أداتين للتشبيه وهما "الكاف" و "مثل" وتشيران إلى آدم (عليه السلام)، وإن استخدام "الكاف" كأداة من أدوات التشبيه، و"مثل" أيضاً كأداة من أدوات التشبيه هو صيغة مبالغة في التشبيه، وذلك يعني الملاءمة والمماثلة في الشبه، ولكن لا يعني التساوي في الشبه، "والتماثل يكون في الكمال والجودة" [2]. "ويكون المثل بمعنى الآية" [3]. "والفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس، لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين" [4]. قال الخوارزمي: إن الله شبه عيسى بآدم: أي: خَلَقَ آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم، فكذلك حال عيسى. فإن قلت: كيف شُبه به وقد وُجد هو بغير أب "أي عيسى" على حين وُجد آدم بغير أب ولا أم؟ قلت: هو مثيله في أحد الطرفين،

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص83.

[2] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، (مكتبة نزار مصطفى الباز)، ص335.

[3] محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، م6، ج46، (القاهرة: دار المعارف، 1998)، ص4134.

[4] المصدر السابق، ص4132.

فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به؛ لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه [1]. كما أن استخدام أداتين من أدوات التشبيه يتناسب مع بلاغة الوصف والنوع في التشبيه لأمرين اثنين وهما: "خلقه من تراب" و "ثم قال له كن فيكون". إن المماثلة بين عيسى وآدم (عليهما السلام) هي في نوع الخلق ومادته وهي التراب، والمعنى كما قال البيضاوي: خلق قالبه من التراب ثم كوّنه [2]، ثم في عملية الإحياء التي أوجدته في الحياة من خلال النفخ في الروح والتي عبّر عنها بصيغة الأمر "قال له كن فيكون"، أي أنشأه بشراً. أما قوله تعالى في الآية: "قال له" أي لعيسى، وإذا كان عيسى مثل آدم (عليهما السلام)، فذلك يعني أن الله قال لعيسى ولآدم (عليهما السلام)، أي قال لهما لأنهما يشتركان في صيغة المماثلة التي عبّر عنها القرآن في تكرار قوله تعالى: "مثل" و "كمثل". إن التماثل في عملية خلق آدم وعيسى (عليهما السلام) تؤكد أن الله أراد أن يجعل عيسى (عليه السلام) من حيث النوع بشراً كآدم (عليه السلام) وليس إلهاً أو ابناً لله. رغم ذلك قد يكون آدم (عليه السلام) أكثر تشريفاً من ناحية وجودية عند الله من عيسى (عليه السلام)؛ لأن خلق آدم (عليه السلام) في الأرض كان من العدم، وذلك من خلال عملية إحياء لا يوجد قبلها أي جنس بشري. أما عيسى (عليه السلام) فإن عملية إحيائه تمت من خلال وجود أمه مريم (عليها السلام) وباقي أفراد سلالته، ما يعني أن

---

[1] أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009)، ص174.

[2] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص265.

كل الذين يمنحون صفة الالوهية للنبي عيسى (عليه السلام)، إنما يعبرون عن إهانة لآدم (عليه السلام) وأصالته باعتباره أصل الخلق الذي نسل منه كل الذكور والإناث ومنهم مريم (عليها السلام)، وباعتباره أب هذه البشرية أو النوع الإنسي ومؤسس الحياة الآدمية على كوكب الأرض، أي أن الذي يشرك عيسى (عليه السلام) مع الله كابن، كأنه يشرك آدم (عليه السلام) مع الله كابن، وبالتالي يصبح كل البشر أبناء الله وهذا شرك وضلال والأهم أنه جهل بالحقيقة. وإن قوله تعالى في الآية: "عند الله" في الإشارة إلى عيسى (عليه السلام)، يعني وفق المعايير والموازين الإلهية في صناعة الخلق وبدء الروح التي هي أمر من أوامر الله، ولأنها أمر فهي إرادة وقرار، والإرادة والقرار هنا إلهيين بامتياز، ولا يمكن معارضة أو منع إرادة أو قرار الله لأنهما نافذان.

هنا نطرح ثلاثة أسئلة حيوية مستحقة متعلقة بآلية خلق عيسى (عليه السلام) كما يلي:

- **السؤال الأول: كيف خلق الله عيسى (عليه السلام) من تراب وهو في رحم أمه، بمعنى آخر هل يعقل أن يوجد أي تراب في رحم أمه مريم ابنه عمران، وما سبب ذكر كلمة "تراب" في الآية؟**
- **السؤال الثاني: هل وجدت خلية أم نطفة في رحم أمه مريم (عليها السلام) أم لم توجد؟**
- **السؤال الثالث: كيف كانت آلية التدخل الإلهي في عملية خلق عيسى (عليه السلام)؟**

معقولية التعبير القرآني: "إن عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب"

إجابة السؤال الأول:

نقول: جعل الله خصوصية في خلق عيسى (عليه السلام)، وشرَّفه في عملية الخلق بأن جمع فيه الأنواع الأربعة من الخلق، وهي الخلق الأول "من تراب/طين"، والخلق الثاني "الإحياء للخلية/النطفة"، والخلق الثالث "الإنشاء/التصوير"، والخلق الرابع "البعث/بعث الروح في الجسد". قال القرطبي: "إن التشبيه واقع على عيسى أنه خُلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب. والشيء قد يشبه بالشيء (وإن كان بينهما فرق كبير) فإن آدم خُلق من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شَبَّهُ ما بينهما أنهما خُلقا من غير أب، ولأن أصل خلقهما كان من تراب؛ لأن آدم لم يُخلق من نفس التراب، ولكنه جَعَل التراب طيناً، ثم جعله صلصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أب [1]. يُريد القرطبي لنا أن نفهم مكانة خلق عيسى (عليه السلام) من ناحية بيولوجية باعتبارها عملية متسلسلة من نسل آدم (عليه السلام)، وأن التراب هو المادة الأصلية لعملية خلق آدم (عليه السلام) التي انتقلت إلى عيسى (عليه السلام) تلقائياً باعتباره ينتمي بيولوجياً إلى سلسلة ذرية آدم (عليه السلام). يعني نشير هنا إلى أن آدم (عليه السلام) هو الأصل، لأنه وُجد في الأرض كأول الخلق، أما عيسى (عليه السلام) فقد وُجد في بطن أمه مريم (عليه السلام)، فكان ناتجاً عن سلسة الذرية التابعة لآدم مع خصوصية خلق عيسى (عليه السلام) في تماثل خلقه مع "مادة خلق" آدم (عليه السلام) وهي التراب على سبيل تبرير مسألة عدم وجود أب، وهي في حد ذاتها تبرير للقدرة الإلهية من خلال إيضاح طبيعة الاشتراك في أصل المادة، وهي على سبيل إرجاع الإنسان إلى أصل وطبيعة خلقه، ولكن دون التماثل في مكان الخلق أو آليته بين آدم وعيسى (عليهما السلام). نقول: إن عيسى

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص156.

(عليه السلام) يتبع سلسلة ذرية آدم (عليه السلام) بالاستناد إلى قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12} والسلالة كما يقول الرازي "بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من ألطف أجزاء الطين، ثم إنه أثبت من صفات الخلق ثلاثة أنواع: (أحدها): أنه من صلصال، والصلصال: اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. (الثاني): الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير لونه إلى السواد. (والثالث): تغير رائحته لقوله تعالى: "فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه" {البقرة: 259} أي لم يتغير [1]. وهذه الآية الأخيرة تتناول علاقة الطعام والشراب بالإحياء بعد الموت، أي لهما علاقة بالخلق، ونحن نعلم أن النظام الغذائي للإنسان له تأثير على حركة الإنجاب والنسل عموماً. بهذا المعنى تتجلى القدرة الإلهية في إتمام وتسلسل عملية الخلق بكل أنواعها في فترات زمنية متباعدة، وذلك فيه تأكيد على خلق عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) بوصفهما ذرية آل عمران، وبالتحديد حنة بنت فاقوذ، امرأة عمران، ووالدة مريم العذراء، وجدة عيسى بن مريم (عليهم السلام). كما أن آل عمران من ذرية آدم (عليه السلام) وفقاً للتسلسل التاريخي وخصوصيته الاجتماعية بالمعنى البيولوجي الذي يؤشر إلى حيوية وجدوى الاتصال بين السلالة في قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" {المؤمنون: 12}. ولذلك قال الرازي: إن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم (عليه السلام) كما في هذه الآية لقوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها" {النساء: 1} وقوله تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1981)، ص83.

واحدة وجعل منها زوجها" {الأعراف: 189} [1]. كما أن قوله تعالى "من تراب" في الآية فيه إشارة إلى نوعية المادة المستخدمة في الخلق الأول "من تراب/طين"، وقوله في نفس الآية "ثم قال له كن فيكون"، هو الخلق الثاني، أي "عملية الإحياء للخلية/النطفة"، وأما الخلق الثالث فهو "الإنشاء/التصوير" في رحم المرأة، وهو يحدث لكل جنين في رحم أمه، لأنه الاستكمال الطبيعي لعملية الخلق الأول والثاني، ويعتبر خلقاً للأعضاء واستكمالاً لنموها، وهو ما عبر عنه القرآن في أكثر من موضع في القرآن لقوله تعالى: "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم" {آل عمران: 6}. وقوله تعالى: "قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون" {الملك: 23}. نلاحظ أن الله قال في سورة {آل عمران: 6} "يصوركم في الأرحام كيف يشاء"، بينما قال في سورة {الملك: 23} "أنشأكم وجعل لكم"، وهناك تقارب بين التعبيرين، لكنه تصوير دقيق لتتابع ودقة عملية الخلق، ففي قوله تعالى: "يصوركم في الأرحام كيف يشاء" يعني بها مرحلة الخلق الثالث "الإنشاء/التصوير" وهي المرحلة التي تلي الخلق الأول، أي إحياء الروح في "الخلية/النطفة". أما قوله تعالى: "أنشأكم وجعل لكم" فهو يعني بها أيضاً مرحلة الخلق الثالث وهو "الإنشاء/التصوير" للخلق، لا فرق، فقوله "يصوركم" في سورة {آل عمران: 6} تقابل قوله "أنشأكم" في سورة {الملك: 23}، **لكن السؤال هنا، لماذا قال في سورة {الملك: 23}، جملة "وجعل لكم" بعد قوله "أنشأكم"؟ وما معنى قوله "جعل لكم" في وصف تكوين السمع والأبصار والأفئدة؟**

نقول: إن الجعل هنا المقصود به الخلق، وهو الخلق للأعضاء، وهذا الخلق هو جزء فرعي من الخلق الثالث "الإنشاء/ والتصوير"، لكنه سُمي خلقاً لأنه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان روحاً خاصة

---

[1] المصدر السابق، ص83.

به، فجعل السمع خلقاً، والبصر خلقاً، والفؤاد خلقاً من ناحية البناء البيولوجي. ومن مجموع الخلق الذي جمعه الله في عيسى (عليه السلام)، وهو أهم أنواع الخلق وأكثرها حساسية، الخلق الرابع، وهو "البعث/بعث الروح في الجسد"، وهو الخلق الجديد المرتبط بيوم القيامة بعد فناء الجنس البشري وقيام الروح والملائكة بأمر الله، وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً" {النبأ: 38}. وقوله تعالى: "يوم يقوم الناس لرب العالمين" {المطففين: 6}. والآيات الأهم التي ارتبطت بالمسيح وتعبر عن مفصل حيوي وهام في قضية بعثه وإحيائه من جديد، وهي:

– قوله تعالى في سورة مريم: "والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً" (33).

– وقوله تعالى في سورة النساء: "بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً (158) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" (159).

– وقوله تعالى في سورة آل عمران: "إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة" (45).

لهذه الآيات شرح طويل ومفصل في مجمل تفاسير القرآن، لكننا سننظر في الجزء الذي يخص موضوع وسياق الشرح في الكتاب، وبالتحديد، الخلق الرابع وهو "البعث/بعث الروح في الجسد". ورد في الآية {33: مريم} قوله تعالى: "ويوم أبعث حياً" وهذا القول هو دليل على أن النبي عيسى (عليه السلام) يعود حياً مبعوثاً بعدما يعيده الله في نهاية الزمان حين يتقرر في الميزان السماوي وقوع يوم القيامة، وهذا أمره عند الله. كما ورد في قوله تعالى: "ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" {159: النساء} أي على قومه "أهل الكتاب" الذين أمنوا به وبرسالته السماوية قبل موته، وهو في هذا الحال يعود

كي يشهد عليهم كنبي مرسل من السماء على ما فعلوه وقتذاك. كما ورد في قوله تعالى: "وجيهاً في الدنيا والآخرة" {آل عمران: 45}، وذلك يفيد بأن للنبي عيسى (عليه السلام) بشرى في وقت ولادته وبشرى في الآخرة، أي يوم القيامة. كل الآيات السابقة تدل على أن المسيح يبعث حياً مثلما يُبعث الخلق جميعاً، وإن بعثه يؤكد أن موته كان محققاً مثله مثل البشر، مع الاختلاف في الطريقة التي مات بها وهي بالمعيار الإلهي لها خصوصية قدسية، من حيث حماية الله له من الصلب ووقوع الجريمة بحقه، كيف لا، وهو رسول الله.

خلية وليس نطفة في رحم مريم العذراء

إجابة السؤال الثاني:

نقول: إن النطفة لم تكن موجودة في رحم مريم (عليها السلام)، رغم أن النطفة هي الضرورة التي من خلالها تبدأ مرحلة إنشاء الجنين، لكن الذي وُجد شيئاً آخر وهو أولاً: الخلايا التي يمكن أن تتطور إلى أعضاء جنينية وهذا مثبت علمياً، أي أن الله أنشأ عيسى (عليه السلام) من هذه الخلايا ونفخ فيها الروح وهي مضغة. وثانياً: الأرضية الخصبة التي أنتجت عيسى (عليه السلام) باعتباره من سلالة آدم (عليه السلام)، أي أن المادة الأصلية "نواة الخلية" موجودة أصلاً في جسد مريم (عليها السلام) ضمن السلسلة الوراثية لآدم (عليه السلام). ولذلك قال الطبطبائي: إن خلقة عيسى كانت خلقة بشرية، وإنما خرقت العادة في التناسل فتمّت من غير نطفة الذكور، كما تمت خلقة آدم من غير نطفة [1].

[1] محمد حسين الطبطبائي، تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، ج2، ط1، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 2006)، ص219، 220.

كيفية التدخل الإلهي في خلق عيسى

إجابة السؤال الثالث:

نقول: إن الله أشرف بذاته على خلق عيسى (عليه السلام) من خلال طريقة النوع الثاني من الخلق وهو "الإحياء للخلية من دون النطفة" في رحم مريم (عليها السلام)، وذلك من خلال لغة الأمر في قوله تعالى: "ثم قال له كن فيكون" {آل عمران: 59}. مع مراعاة الزمن الذي ألقى الله به صيغة الأمر، سواء كان في لحظة نشوء أو بناء الخلية أو بعد اكتمال بنائها وتكوينها، أي أن الله جعل البديل لعملية الماء الدافق من جسم الرجل إلى رحم المرأة، هو قوله تعالى: "كن فيكون" {يس: 82} في دلالة على أن القوة والقدرة الإلهية تجلت بوضوح في لغة الأمر، وما يندرج تحتها من إرادة إلهية تماثل قدرته على إنتاج الخلق الأول "من تراب/طين"، وليس من خلال أي عملية جنسية لمريم (عليها السلام) مع أي رجل. قال ابن كثير: أراد الله أن يُظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى [1]. نقول: إن الله جعل الخلق البشري كله ذكر وأنثى وهذا هو الأصل قبل نزول آدم وحواء (عليهما السلام) إلى الأرض، حيث كانا يعيشان في الجنة كجنسين مختلفين، أي ذكر وأنثى، ولما نزلا إلى الأرض بقيا ذكراً وأنثى. أما نزولهما إلى الأرض فقد كان نزولاً إحيائياً لآدم (عليه السلام)، حيث إن الله خلقه وسواه على هيئة غير التي كان عليها في الجنة، وكذلك الحال بالنسبة للتدخل الإلهي في حالة عيسى (عليه السلام)، كان إرادة إلهية ثم قراراً ثم فعلاً.

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج2، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص49.

التمكين الإلهي لعيسى في الاقتدار على الخلق

الآية الثامنة: قوله تعالى: "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرئ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين" {آل عمران: 49}.

نقول هذه الآية فيها نقاش لخمس مسائل، وهي:

المسألة الأولى: خلق كائنات حية غير آدم (عليه السلام) وذريته عموماً.

المسألة الثانية: لماذا قال "أنفخ فيه" ولم يقل "أحيي فيه الروح"، ولماذا قال أخلق "كهيئة الطير" ولم يقل "أخلق الطير"؟

المسألة الثالثة: مهمة الخالق (الله عز وجل) كمسؤول أول وأخير عن كافة الخلق بما فيها آدم (عليه السلام) وبقية الكائنات الحية.

المسألة الرابعة: تثبت معيار أو صفة النبوة للرسل، وأهم صفة لنبوة عيسى (عليه السلام) تتعلق بتسميته رسولاً وتمكين الله له في القدرة على الخلق.

المسألة الخامسة: منح الله القدرة لعيسى (عليه السلام) على الإحياء والإخراج لقوله تعالى في الآية "وأُحيي الموتى بإذن الله"، على حين قال في الآية التالية "تُخرج الموتى بإذني"، فما الفرق بين الإحياء والإخراج؟ وهل هو إحياء يشبه الإحياء الإلهي؟

المسألة الأولى: فيما يتعلق بخلق الكائنات الحية غير آدم (عليه السلام) فهو في الآية أقر بخلق الطير، وهو نوع من الكائنات الحية، وذلك في قوله تعالى: "أخلق لكم". وقيل معناها: أصور وأقدّر لكم،

قاله القرطبي [1]. وهذا ما قاله الرازي [2]. نقول: لما ذكرنا أنواعاً أربعة في مسارات خلق آدم (عليه السلام) وذريته، فإن واحداً منها ينطبق على معنى قوله تعالى: "أخلق لكم" وهي الخلق الأول (من تراب/طين) ثم يأتي بعدها النفخ في روح الطير وهو عملية الإحياء من نطفة/خلية نشأت من طين وماء الأرض، ما يعني أن أصل الطير من الأرض، (أي من الماء والتراب/الطين) وهو نفس أصل النبات من الماء والتراب/الطين، وبالتالي نقول بأهمية النظر في أن أصل الحيوانات كلها هو من الزواحف، وأصل الزواحف من الأرض (أي من الماء والتراب)، فإذا كان لا بد من النظر، فيجب أن يكون في حقيقة أن أصل الكائنات الحية كلها مخلوقة من الماء، وهذا ما قاله الله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" {النور: 45}. بشكل عملي وعلمي، إذا دققنا في الحيويات الإدياكارية وهي كائنات حية قديمة يرجع أصولها وتاريخها إلى أول العصور التي ظهرت فيها أحياء على الأرض، سنجد أنهم وجدوا آثار دهون في أحفورة اسمها ديكنسونيا ويبلغ عمرها 558 مليون سنة، وتشير التقارير إلى أنها حيوان وليس فطراً أو نباتاً أو أحادي الخلية [3]. هذه الدهون التي وجدوها في الأحفورة عادة ما تكون ناتجة عن كائن حي سابق ميت، لأن الكائنات الحية الدقيقة مثل هذه الأحفورة ديكنسونيا تتغذى على الجثث من خلال أكل بقايا الكائنات الحية الميتة من خلال عملية تحلل

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص61.

[3] https://www.smithsonianmag.com/smart-news/worlds-earliest-known-animal-may-have-been-blob-undersea-creature-180970379/

الدهون. كما وجدوا أن جزيئات من دهن الأحفورة، تحتوي على الكوليسترول المعقّد الذي لا يوجد في الأنماط العليا من الكائنات الحيَّة، والتي ينحدر منها البشر.

نسأل هنا، ثلاثة أسئلة ونجيب عليها باختصار كما يلي:

السؤال الأول: ما علاقة الدهون بالكوليسترول؟

السؤال الثاني: هل للدهون علاقة بالخلية التي خلق منها آدم (عليه السلام) والخليتين النباتية والحيوانية؟

السؤال الثالث: هل تعتبر هذه الدهون الموجودة في الأحافير هي بقايا كائنات حية دالة على وجود آدم (عليه السلام)؟

علاقة الدهون بالكوليسترول في الأحافير والكائنات الحية

نقول: يوجد في الخلية النباتية أو الحيوانية (في كافة الكائنات الحية ومنها الإنسان والحيوان والنبات) طبقة من الليبيدات المفسفرة، وتسمى فوسفوليبيد أو دهن فوسفوري (Phospholipid) والتي تتكون من مجموعة من الأحماض الدهنية، وتتكون الأحماض الدهنية من الكربون والأوكسجين والهيدروجين، وتوجد هذه الأحماض على شكلين، أحماض دهنية مشبعة وأحماض دهنية غير مشبعة، أما الأحماض الدهنية المشبعة فتكون نوع الروابط الكيميائية الموجودة بين ذرات الكربون روابط تساهمية أحادية، فيكون المركب غير قادر على التفاعل مع مركب آخر، مثل زيت الزيتون. أما بالنسبة للأحماض الدهنية غير المشبعة فتكون الروابط الكيميائية بين ذرات الكربون روابط تساهمية ثنائية أو ثلاثية، فتكون المركبات قابلة لكسر الروابط الكيميائية القديمة وتكوين روابط كيميائية جديدة مع مركبات جديدة، مثل زيت عباد الشمس. توجد الأحماض الدهنية في الكائنات الحية بنسب طبيعية معينة، فإذا حدث خلل عن هذه النسب يتسبب في العديد من الأمراض مثل النحافة أو السمنة. بالنسبة للسمنة تنتج عن زيادة

غير طبيعية في نسبة الأحماض الدهنية، وبسبب تراكمها في أجسام الكائنات الحية تتحول إلى الكوليسترول (وهو مركب كيميائي معقد) والذي يتعبر دهون دائمة في الجسم ويصعب التخلص منها؛ لأنه يسمى بالدهن المزمن. ولأننا تحدثنا عن الدهن الفوسفوري (Phospholipid)، يمكن الإشارة هنا إلى عملية كيميائية تسمى "الفسفرة" ربما ساهمت في المراحل المبكرة من تكوين الخلايا الأولية على الأرض بحسب ما كشف عنه فريق من علماء معهد "سكريبس" للأبحاث في كاليفورنيا [1]. وتعرف "الفسفرة" في الكيمياء الحيوية بأنها عملية إضافة مجموعة فوسفات إلى جزيء بروتين، أو إدخال مجموعة فوسفات إلى جزيء عضوي بشكل عام، وتعمل الفوسفات على تغيير الشكل التركيبي للبروتين فتعدل من صفاته أو وظيفته وتلعب هذه العملية دور مهم في عمليات الأيض (الأيض عبارة عن تفاعلات كيميائية تحدث في خلايا الكائن الحي للحفاظ على حياته مثلاإتمام النمووالتغذية والتنفس والإخراج..). وأجرى الفريق محاكاة في المختبر لظروف وعمليات قد تتطابق مع تلك التي وقعت في الأيام الأولى للأرض، ودمج مواد كيميائية معاً، مثل الأحماض الدهنية والغلسرين، لإنشاء حويصلات أكثر تعقيداً (هياكل كالفقاعات تشبه الخلايا الأولية التي تسهل العمليات الخلوية). وقال الكيميائي سونيل بوليتيكورتي "كانت الحويصلات قادرة على الانتقال من بيئة الأحماض الدهنية إلى بيئة الدهون الفسفورية خلال تجاربنا، ما يشير إلى أنه كان من الممكن وجود بيئة كيميائية مماثلة قبل أربعة مليارات سنة" [2]. عموماً نقول: إذا كان أصل الدهون من الطعام المتحلل من الجثث، والجثث (أي الأجسام قبل موتها) تغذت على النباتات والحيوانات، وهذه الكائنات الحية يوجد بها خلايا، والخلايا أصلها من العناصر المكونة لجزيء الماء، وهما ذرتا الهيدروجين وذرة

---

[1] https://www.cell.com/chem/abstract/S2451-9294(24)00069-X

[2] المصدر السابق.

الأوكسجين، بالتالي فإن الماء هو أصل كل المواد والعناصر المكونة للكائنات الحية. قيل: إنه ليس شيء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خُلق من ماء [1]. بالتالي نقول: إذا قالوا بأن أحفورة ديكنسونيا هي حيوان أو قالوا بأن أصلها زاحف، فهذا أيضاً لا يتناقض مع الآية {النور: 45}، وإذا قالوا ليست نباتاً فهذا صحيح لأن نوع النبات غير نوع الحيوان من حيث آلية التفاعل. أما إذا قالوا إنها ليست أحادي الخلية، فذلك ليس صحيحاً لأن الله خلق الماء، وإن وجود الأوكسجين في الماء ضروري لإحياء الكائنات الحية وهو سبب لوجودها. قيل إن الأرض في مرحلة ما خضعت لما يسمه العلماء حدث الأكسدة العظيم (Great Oxidation Event) "جي أو إي" (GOE)، حيث تطورت ميكروبات المحيطات لإنتاج الأوكسجين عبر عملية التمثيل الضوئي [2]. نقول: إن تطور الميكروبات لإنتاج الأوكسجين حدث ناتج عن إحياء هذه الميكروبات من خلال الماء، وهذا مؤكد في قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" {الأنبياء: 30}. كما أن الدليل على أن تلك الكائنات الحية سابقة على بقية الكائنات وتعتبر أصلها في الخلق، وأنها جميعاً من خلق الله لقوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً" {البقرة: 29}. وكلمة "خلق" ههنا إشارة إلى الماضي [3]. بالتالي لما ذُكر الماء في الآية، كان يُقصد بها مادة خلق الكائنات، ويشتمل ذلك على أحفورة ديكنسونيا قبل 558 مليون سنة وغيرها من الأحافير. فلما كان خلق الطير وآدم (عليه السلام) من نفس المادة، اشتمل ذلك على وجود صفات أخرى متشابهة مع آدم (عليه السلام) ومنها الروح على سبيل المثال. قيل: الضمير

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص141.

[2] https://www.nature.com/articles/s41467-021-23286-7

[3] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص61.

في قوله تعالى: "كهيئة الطير" راجع إلى الكاف، وقيل: الضمير راجع إلى الطير، أي: الواحد منه، وقيل: إلى الطين [1]. ولكننا نقول: إن الضمير راجع إلى مادة الخلق وهي الطين. قال القرطبي: الطير يُذكّر ويؤنث [2]. نقول: إن الحيويات الإدياكارية ككائنات حية قديمة تفاعلت مع الماء فتطورت إلى زواحف ثم إلى طيور وبعدها إلى حيوانات وجميعها ضمن مملكة الحيوانات، وتوصف بأنها ثنائية التناظر، وفيها شعب متعددة، مثل الحبليات والرخويات، والديدان، والشوكيات، وهذا مثبت بنص القرآن؛ لأن الله تعالى قال: "فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" {النور: 45}. على سبيل المثال، تعتبر "الثعابين من أقدم الزواحف التي يرجع ظهورها إلى العصر الترباسي من عصور زمن الحياة الوسطى Mesozoic منذ (200 مليون سنة)" [3]، وهذا يدل على أن أول الكائنات هي التي كانت تمشي على بطنها.

الطائر المنقرض (أركيوبتركس) يجمع بين صفات الزواحف والطيور

قبل الحديث عن الطائر، لا بد من ملاحظة حول الحفريات. السجل الحفري هو مصدرنا الوحيد للمعلومات بشأن تاريخ الحياة، ومن أجل تفسير هذا السجل بشكل صحيح، يجب فهم الكيفية التي تكوَّنت بها الحفريات، والكيفية التي يدرس العلماء بها تلك الحفريات. حين يموت

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص219.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

[3] عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983)، ص22.

نبات أو حيوان أو ميكروب، تتحلل الأجزاء الرخوة من جسده بسرعة. فقط في البيئات غير المعتادة، مثل المناخ الصحراوي الجاف أو المواد الحافظة الموجودة في قطعة من الكهرمان، تكون الميكروبات المسئولة عن عملية التحلل عاجزة عن تفتيت الأجزاء الرخوة؛ لقد تمَّ العثور بالفعل على حالات استثنائية حُفِظَت فيها أجزاء رخوة، في بعض الأحيان لعشرات الملايين من السنوات في حالة الحشرات المحبوسة داخل مادة الكهرمان، لكنها تمثل الاستثناءَ لا القاعدة. وحتى البنى العظمية، مثل مادة الكيتين الصلبة التي تغطي أجساد الحشرات والعناكب، أو عظام الفقاريات وأسنانها، تتحلل في نهاية المطاف، إلا أن معدل تحللها البطيء يقدِّم فرصة كي تتخللها المعادن، وفي النهاية تستبدل بالمادة الأصلية نسخة معدنية طبق الأصل (أحياناً يحدث هذا للأجزاء الرخوة أيضاً)؛ ومن الممكن أيضاً أن تصنع قالباً لأشكالها بينما تترسب المعادن حولها. أكثر الأماكن التي يُرجح فيها حدوث التحفير هي البيئات المائية؛ حيث يحدث تراكم للرواسب الصخرية والمعدنية في قيعان البحار والبحيرات ومصبات الأنهار، حينها يمكن للبقايا التي تغرق للقاع أن تتحول إلى حفريات، بالرغم من أن فرص حدوث ذلك لأي كائن بعينه ضئيلة للغاية. ولهذا السبب يتسم السجل الحفري بالانحياز؛ فالكائنات البحرية التي تعيش في البحار الضحلة؛ حيث تتكون الرواسب باستمرار، لها أفضل سجل حفري، بينما الكائنات الطائرة لها أسوأ سجل [1]. حدد العلماء فئتين رئيسيتين من الحفريات: تضم الفئة الصغرى (الحفريات البسيطة) آثار الأقدام، مثل آثار الأقدام التي يبلغ عمرها 3,6 ملايين سنة، وعُثر عليها في منطقة لايتولي في تنزانيا. والفئة الكبرى (الحفريات الحقيقية) فتتكون من

[1] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص55، 56.

بقايا فعلية لحيوانات أو نباتات [1]. اكتشف الطائر (أركيوبتركس) وهو طير منقرض قبل ملايين السنين، وهو من أنواع الطيور التي تجمع بين صفات الزواحف والطيور، وهو من أوائل الطيور التي يظهر لها ريش في الجسم، وهذا الطائر موجود في متحف التاريخ الطبيعي البريطاني [2]. حفريات الأركيوبتركس نادرةٌ (فلا يوجد منها سوى ستِّ عينات). وهي تأتي من الحجر الجيري الجوراسي البالغ عمره نحو 120 مليون عام، الذي ترسَّبَ في بحيرةٍ كبيرةٍ في ألمانيا. هذه الكائنات لها سمات متباينة، بعضها يشبه تلك السمات الخاصة بالطيور الحديثة، مثل الأجنحة والريش، والبعض الآخر يشبه تلك الخاصة بالزواحف، مثل الفم ذي الأسنان (بدلاً من المناقير) والذيل الطويل [3]. وتشير أحدث الدراسات حول حفريات (الأركيوبتركس) إلى أن هذا الطير ليس شكلاً انتقالياً، إنما هو نوع منقرض من الطيور، لا يوجد بينه وبين الطيور الحديثة أي اختلاف يذكر. وشاعت بين دوائر أنصار التطور الفرضية القائمة أن (الأركيوبتركس) كان "نصف طير" لا يستطيع الطيران على النحو الأمثل. وكان غياب القص (Sternum) أو (عظم الصدر) في هذا الكائن يعتبر أهم دليل على أن هذا الطير لم يكن بمقدوره الطيران كما ينبغي (والقص هو عظمة موجودة تحت الصدر تتصل بها العضلات اللازمة للطيران). وفي الوقت الحاضر، يُلاحظ وجود عظم الصدر هذا في كل الطيور القادرة وغير القادرة على الطيران، بل حتى في الخفافيش، التي هي ثدييات طائرة تنتمي إلى عائلة مختلفة تماماً. وقد دحضت هذه الحجة حفرية (الأركيوبتركس) السابعة، المكتشفة في سنة 1992. ويرجع السبب

---

[1] برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص31.

[2] https://www.nhm.ac.uk/discover/dino-directory/archaeopteryx.html

[3] برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016)، ص57.

في ذلك إلى أنه في هذه الحفرية المكتشفة حديثاً، تبين رغم كل شيء وجود عظم الصدر الذي لطالما اعتقد أنصار التطور أنه كان مفقوداً. لقد انقسم العلماء إلى فئتين، منهم من يعتبره طائراً ومنهم من يعتبره زاحفاً وذلك بالنظر إلى الاستكشافات والدراسات التي أجريت على (الأركيوبتركس) [1]. يقول عالم الحفريات البارز كارل دانبر (Carl Dunbar) "لا ريب في أن يصنف (الأركيوبتركس) تحت فئة الطيور بسبب ريشه" [2]. بينما يقول روبرت كارول (Robert Carroll) في شرح هذا الموضوع "تتطابق هندسة ريش الطيران في (الأركيوبتركس) مع نظيرتها في الطيور الحديثة القادرة على الطيران، بينما تتميز الطيور غير القادرة على الطيران بريش متماثل. كما أن طريقة ترتيب الريش على الجناح تتدرج كذلك في نطاق الطيور الحديثة" [3]. نقول: إن القرآن وبحسب آياته لم يذكر أنواعاً من الكائنات الحية تقع بين الطيور والزواحف، فهي إما أن تكون زواحف لقوله تعالى: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه.." {النور: 45} أو تكون طيوراً لقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" {الأنعام: 38}. بحسب الجاحظ فإن "الطير كله على ثلاثة أضرب: فضرب من بهائم الطير، وضرب كسباع الطير، وضرب كالمشترك المركب منها جميعاً. فالبهيمة كالحمام وأشباه الحمام، مما يتغذى الحبوب والبذور والنبات، ولا يتغذى غير

---

[1] هارون يحيى، هدم نظرية التطور في عشرين سؤالاً، ص57، 58.

[2] Carl O. Dunbar, Historical Geology, John Wiley and Sons, New York, 1961, p. 310

[3] Robert L. Carroll, Patterns and Processes of Vertebrate Evolution, Cambridge University Press, 1997, p. 280-281.

ذلك. والسبع: الذي لا يتغذى إلا اللحم. وقد يأكل الأسد الملح، ليس على طريق التغذي، ولكن على طريق التملح والتحمض" [1].

هذه المسألة تدخلنا إلى قضية أخرى للنقاش نطرح معها مجموعة كبيرة من الأسئلة كما يلي:

- **السؤال الأول: هل نوافق مع تقسيم الطيور عند الجاحظ؟ وما هو التقسيم التاريخي المقترح؟**
- **السؤال الثاني: ما هو نوع الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) وماذا كان جنسه (ذكراً أم أنثى)؟**
- **السؤال الثالث: لماذا قال في الآية: أخلق "كهيئة الطير" ولم يقل "أخلق الطير أو أخلق طيراً"؟**
- **السؤال الرابع: هل توجد خفافيش من جنس الذكور في الطبيعة؟**
- **السؤال الخامس: ما العبرة أو الآية الإلهية في تمكين عيسى (عليه السلام) لخلق جنس الطير أنثى وليس ذكراً؟**
- **السؤال السادس: هل هناك علاقة بين العناصر المكونة لطبقة التروبوسفير (Troposphere) التي تطير فيها الطيور مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم (عليها السلام)؟**
- **السؤال السابع: هل تصح المقارنة بين أنثوية جنس الخفاش بوصفه يحبل ويلد ويحيض، مع حياة مريم (عليها السلام) لحظة ولادتها لابنها عيسى (عليه السلام)؟**
- **السؤال الثامن: ما هي العلاقة بين مادة خلق الخفاش بالملائكة؟**
- **السؤال التاسع: ما هي العلاقة بين هيئة خلق الخفاش ومظهر الملائكة؟**

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، ج5، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943)، ص205، 206.

- السؤال العاشر: ما هو أصل اسم "الخفاش"، ولماذا نقترح اسم "شبيه الطيرائكي"؟

إجابة السؤال الأول: هل نوافق مع تقسيم الجاحظ للطيور؟ وما هو التقسيم التاريخي المقترح؟

تقسيم الطيور عند الجاحظ، وتقسيمنا التاريخي المقترح

سبقت الإشارة إلى تقسيم الطيور عند الجاحظ كما ذكرناها في الصفحات السابقة، ونحن نوافق عليها، ولكننا نقول إن الطير على نوعين تاريخيين خلقيين:

النوع الأول: طيور (كائنات حية) مخلوقة إحيائياً (من العدم).

النوع الثاني: طيور (كائنات حية) مخلوقة روحياً.

الفرق بين النوعين:

أولاً: المخلوقة إحيائياً: هي كائنات حية خلقت في الطبيعة بفعل خلق الله لها (نقصد بالفعل هنا الأمر الإلهي)، وهو إحياء من العدم، أي من دون وجود أثر سابق لها في أي زمان أو مكان، سوى وجود مادة خلقها في الطبيعة، وهذه المادة هي التي خلقها الله، ومادة خلقها الأصلية هي التراب/الطين والماء. وهذا الخلق الإحيائي بدأ بالنوع البشري، أي آدم وحواء (عليهما السلام) عبر تشكيل هيئتهما وإحياءهما من خلال النفخ في روح كل منهما. بالتالي فإن كل أنواع الكائنات الحية (الطيور) التي نراها في الطبيعة لها أصل واحد مخلوق من مادة الخالق الأصلية، وقد صنّفت لاحقاً بأنها مملكة الحيوانات حقيقية النوى مثل دودة الأرض.

ثانياً: المخلوقة روحياً: هي كائنات حية وُجدت في الطبيعة (لاحظ هنا أننا قلنا وُجدت ولم نقل خُلقت لاعتقادنا بأن الطين الذي استخدمه

عيسى (عليه السلام) في خلق الطير كان متكوناً أو يحتوي على الدهون، والتي قلنا سابقاً إنها موجودة في الأحافير وتكون ناتجة عن كائن حي سابق ميت، لأن الكائنات الحية الدقيقة تتغذى على الجثث من خلال أكل بقايا الكائنات الحية الميتة من خلال عملية تحلل الدهون). فإذا أخذنا بعين الاعتبار فارق الزمن بين خلق آدم (عليه السلام) والتحوّلات التي طرأت على الطبيعة، سندرك وجود الكثير من الكائنات الحية الميتة والمتحللة التي أنتجت الدهون في الطين أو التراب الذي استخدمه عيسى (عليه السلام) لخلق الطير. بالتالي فإن قول عيسى (عليه السلام): "جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم" يقصد بها أن الخلق في الأصل هو خلق إلهي خالص، وقوله تعالى: "آية من ربكم" يقصد بها أن في إلقاء الأمر الإلهي مقدرة نسبية لعيسى (عليه السلام) في التمكن من الخلق. أما لماذا قلنا مخلوقة "روحياً" وليس "إحيائياً" فذلك لأن "الإحيائي" متعلق بفعلين (أمرين)، وهما "الإنشاء أو التكوين ثم النفخ في الروح". أما "الروحي" فهو متعلق بفعل واحد (حدث) ملحق أو تابع للإنشاء والتكوين وهو أمر النفخ في الروح، ولذلك قال في الآية "أنفخ فيه" للطير، ولم يقل "أحيي فيه"، والنفخ غير الإحياء للروح، لأن النفخ بالفم البشري أدنى مرتبة من الإحياء الإلهي (عبر الملائكة) للروح. فإذا تساوى (النفخ البشري) مع (النفخ الملائكي) للروح فهذا يعني أن النافخ يجب أن يكون ملاكاً، أي عيسى، وليس بشراً وهذا محال. بالتالي يكون "الروحي" باستتمام الخلق والإحياء "بوصفهما جاهزين مسبقاً وبشكل نسبي للخلق والإحياء" ولا نقول إنهما ناقصين؛ لأن النقص من "المخلوقة روحياً" يعني نقص من "المخلوقة إحيائياً" وهذا غير مقبول البتة لأنه تشكيك في قدرة الخالق "الله" على إتمام خلقه. بالتالي فإن الكائنات الحية بكافة أنواعها "المخلوقة روحياً" تابعة "للمخلوقة إحيائياً"، والأولى "المخلوقة إحيائياً" أمر وإرادة إلهية، والثانية "المخلوقة روحياً" اصطفاء وآية إلهية. ومن الأسباب الوجيهة التي جعلتنا نطلق تأسيساً لهذين النوعين

التاريخيين الخلقيين من الطيور، وبالتحديد "المخلوقة روحياً" هو فهمنا للمخلوق روحياً لدى الإنسان، لأن الإحياء لروح الجنين في رحم الأم مثلاً يكون بعد تحوّل النطفة إلى مضغة بعد مرورها في مراحل متعددة، ثم تُنفخ الروح في المضغة بعد أن يكون قد مضى عليها نحو أربعين يوماً. لذلك فإن هذا الإحياء للمضغة ليس مشابهاً للإحياء للخلية الأولى لآدم (عليه السلام) بعد خلقه من تراب/طين وماء، ولذلك قلت إنه خلق روحي للمضغة وليس إحيائي كخلق آدم (عليه السلام). بناءً على ما سبق، إذا كان خلق الطير "خلقاً إحيائياً" فإن خلقه لا يتطابق مع خلق النوع البشري، أي آدم (عليه السلام) سوى في مادة الخلق، وهي الطين/التراب والماء، وهذا الأمر يثبت أن عيسى (عليه السلام) لم يكن بإمكانه أن يخلق أي خلق يتساوى مع نوع بشري، وأول هذا النوع هو آدم وحواء (عليهما السلام) أو إحياء أي منهما من خلال النفخ في الروح، بل خلق عيسى خلقاً روحياً بأمر الله.

نوع وجنس الطير الذي خلقه عيسى (الخفاش)

إجابة السؤال الثاني: ما هو الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) وماذا كان جنسه ذكراً أم أنثى؟

لما بحثت في الطيور وخصائصها وجدت أن الشوكاني أورد في تفسيره أنه "لم يخلق غير الخُفاش لما فيه من عجائب الصنعة، فإن له ثدياً، وأسناناً، وأذناً، ويحيض، ويطهر، وقيل: إنهم طلبوا خلق الخُفاش لما فيه من العجائب المذكورة، وبوصفه يطير بغير ريش، ويلد، كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير، ولا يبيض، كما يبيض سائر الطيور، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو

يضحك كما يضحك الإنسان" [1]. وهذا ما قاله القرطبي أيضاً: لأن الخفاش أكملُ الطير خلقاً ليكون أبلغ في القدرة [2]. في حين قال الجاحظ إن "الخفاش طائر، وهو شديد الطيران، كثير التكفّي في الهواء، سريع التقلب فيه، وهو ليس بذي ريش، وإنما هو لحم وجلد، فطيرانه بلا ريش عجب. ومن أعاجيبه أنه لا يطير في ضوء ولا في ظلمة، وهو طائر ضعيف قوي البصر، قليل شعاع العين الفاصل من الناظر. ولذلك لا يظهر في الظلمة؛ لأنها تكون غامرة لضياء بصره، غالبة لمقدار {قوى} شعاع ناظره. ولا يظهر نهاراً؛ لأن بصره لضعف ناظره يلتمع في شدة بياض النهار. ولأن الشيء المتلألئ ضار لعيون الموصوفين بحدة البصر [3]. نقول: إن الطير الوحيد الذي ينطبق عليه تقسيمنا لنوع الكائنات الحية (المخلوقة روحياً) هو الخفاش، وهو يقع خارج دائرة الشعبة ويصنف من الفقاريات، والفقاريات تشمل رباعيات الأرجل أو رباعيات الأطراف وهي تشمل: الثدييات، والطيور، والزواحف، والبرمائيات، والديناصورات، علماً بأن الخفاش يجمع بين الثدييات والطيور وهو الحيوان الثديي الوحيد الذي يستطيع الطيران، وتعرف شعبته باسم الخفاشيات. والخفش في اللغة كما ذكر الفراهيدي: هو فساد في الجفون تضيق له العيون من غير وجع ولا قُرح [4]. على حين قال الجواهري: الخفش هو صغر في العين وضعف في البصر خِلقة. وهو الذي يُبصر الشيء بالليل ولا يُبصره

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص219.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط2، ج3، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1965)، ص226، 227.

[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص425.

بالنهار [1]. وقيل: خفش الشخص: ضعف بصره في النور الشديد، فأبصر بالليل دون النهار. أو صغرت عينه وفسدت جفونه بلا وجع. وقيل: خفافيش الظلام: تعني: أصحاب الدسائس [2]. نقول: إن رأي الشوكاني أكثر صواباً من رأي الجواهري ومما ذكر في معجم اللغة العربية المعاصرة لأن الخفاش لا يبصر في الليل إلا نسبياً ولا يكون بصره في الليل تاماً، وبالتالي فإن أقوى درجة إبصار عند الخفاش هي بين الليل والنهار، أي وقت غروب الشمس. نقول: بالنسبة لجنس الطير فهو أنثى. قيل: الطير: اسم جامع مؤنث. الواحد: طائر، وقلما يقال للأنثى: طائرة. ويُجمع الطير على أطيار كما ذكر الجواهري [3]. نقول: إن مفردة الطير تقع بين الطائر والطائرة من ناحية لغوية، لكنها في المعنى تصف الطبائع الأنثوية غالباً، وهي حتماً للكائن الحي "المخلوق روحياً"، وليس هناك كائن مخلوق روحياً سوى الخفاش. فبالتالي كان وصف الطير في موضع الآية، هو وصف للأنثى. ومما ورد في الآية أنه "يُنفخ في هيئته فيكون طيراً"، ولم يسمي جنسه، ثم إنه قال "طيراً" مباشرة، وذلك يعني أنه لم يكن كائناً زاحفاً ثم تحوّل إلى طير، بل هو طير بشكل أصيل، وهكذا هي خلقته الأولى والأخيرة، ولذلك قلنا إنه من الكائنات الحية "المخلوقة روحياً".

---

[1] أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج1، (القاهرة: دار الحديث، 2009) ص331.

[2] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص669.

[3] أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج3، (القاهرة: دار الحديث، 2009) ص70.

لماذا قيل أخلق "كهيئة الطير" ولم يقل "أخلق الطير أو أخلق طيراً"؟

إجابة السؤال الثالث: لماذا قال في الآية: أخلق "كهيئة الطير" ولم يقل "أخلق الطير" أو "أخلق طيراً"؟

نقول: لأن الخلق التام المأصول هو وظيفة إلهية وليست بشرية، والكاف للتشبيه، والتشبيه ينفي وجود كافة صفات المأصول الأول للثاني، فيكون الثاني "التشبيه" صاحب الهيئة تابعاً للمأصول أو ملحقاً به. والتشبيه في جوهر الفعل الخلقي الروحي هو نفي لصفة الألوهية عن الأنبياء والرسل ومنهم عيسى (عليه السلام) وهو يدفع تلقائياً باتجاه نفي القدرة عن الأمر بالخلق التام، لكن **هل نقصد أن خلق عيسى (عليه السلام) للطير خلقاً منقوصاً أم تاماً؟**

نقول: لا، بل هو خلق تام وفق توصيفه في السياق الديني للآية، وفي السياق الأنثروبولوجي لولادة عيسى (عليه السلام)، وفي الظرف الطبيعي التاريخي لوجود هذا النوع من الطيور في الطبيعة، ولكنه ليس خلقاً متفوقاً على كل المخلوقات المأصولات (أصول المخلوقات) في الكون منذ خلق الخليقة، والطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) لم يكن خلقاً من العدم، بل كان من مادة الطين "المخلوقة" التي تمت الإشارة إليها في الآية في قوله تعالى: "أخلق لكم من الطين"، والطين موجود في الأرض قبل الطير، وهو من صنع الله الذي خلق السماوات والأرض، فكان وجود الطين سبباً لوجود الطير، وكان وجود عيسى (عليه السلام) الذي خلق من رحم أمه مريم (عليها السلام) بدون أب، سبباً آخر لوجود الطير. بالتالي لم يكن خلق الطير منقوصاً، بل هو تام، ولكن تمامه وفق الاعتبارات التاريخية والشروط الحيوية البيولوجية والطبيعية وكل ما يتصل بالأوامر الإلهية والتي تهدف إلى تثبيت قدرة الخالق وتصويره لدوائر اكتمال جبروته.

إجابة السؤال الرابع: هل توجد خفافيش من جنس الذكور في الطبيعة؟

نقول: إن الخفافيش الموجودة في البيئات الطبيعية الراهنة هي من جنسين ذكر وأنثى، وليس فقط أنثى، علماً بأن الخلق الأول لهذا الطير كان خلقاً فردياً وليس زوجياً وكان أنثى وليس ذكراً. ومع ذلك اكتشف علماء في نهاية القرن العشرين ذكور من خفاش الفاكهة من نوع دياك (Dayak) في ماليزيا، واكتشفوا أن لها حلمات صغيرة وغدد ثديية تنتج كميات من الحليب، وهذا يعتبر شذوذاً؛ لأن من غير المنطقي أن تقوم الذكور بإرضاع صغارها في وجود أنثى الخفاش. وقد ورد أن هذا النوع من الخفافيش يوجد في ماليزيا وتايلاند والفلبين. عموماً بعض الترجيحات تقول إن هذه المسألة لها علاقة بنوع الأكل مثل تناول الفاكهة [1]. لقد كتب دون إي. ويلسون (Don E. Wilson) عالم الحيوانات الأمريكي المختص في الخفاشيات وعلم الثدييات وعلم الأحياء التطوري كتاباً بعنوان "أنواع الثدييات في العالم: مرجع تصنيفي وجغرافي" وهو أبرز وأهم كتاب على الإطلاق في هذا المجال، باعتباره أهم عمل مرجعي في علم الثدييات يقدم بيانات وتوصيفات ببليوغرافية للأنواع المعروفة من الثدييات في أكثر من ألف صفحة. صدر من الكتاب عدة طبعات بالتعاون مع روسيل اى. ميتيرمير الباحث الأنثروبولوجي وعالم الحيوانات والبيئة والزواحف الأميركي، وكذلك مع ديان ريدير وهي عالمة فيزيولوجيا بيئية تعمل في كل من إفريقيا وأمريكا الشمالية، وتبحث في مجال استكشاف بيئة مرض الخفافيش في أوغندا، والتنوع البيولوجي للثدييات [2]. لاحظنا

---

[1] https://www.batcon.org/article/the-incredible-milk-producing-male-bat /

[2] https://uk.inaturalist.org/taxa/40974-Dyacopterus

من خلال الاطلاع على الكتاب أن هناك أنواع متعددة من الخفاشيات مثل خفاش الفاكهة الشيطاني الأنف (Nyctimene masalai) وهو مستوطن في بابوا غينيا الجديدة، وخفاش الفاكهة ذو الأنف الأنبوبي الجزري، وخفاش فاكهة التنين الأنبوبي (Nyctimene draconilla) هو نوع من الخفافيش الموجودة في غينيا وإندونيسيا، وخفاش الفاكهة ذو الأنف المستدير (Nyctimene cyclotis) وهو نوع من الخفافيش التي توجد في غرب بابوا وجزيرة مانسوار في إندونيسيا. وكذلك خفاش الفاكهة ذو الأنف الأنبوبي الجبلي (Nyctimene certans) وهو نوع من الميغابات في عائلة Pteropodidae وهو مستوطن في جزيرة غينيا الجديدة داخل بابوا غينيا الجديدة (الدولة) وغرب غينيا الجديدة في إندونيسيا؛ وجزيرة بابوا غينيا الجديدة ببريطانيا الجديدة، وخفاش بالاس الأنبوبي (Nyctimene) cephalotes)، المعروف أيضاً باسم الخفاش الأنبوبي Torresian أو الخفاش ذي الأنف الأنبوبي الشمالي، وهو نوع من الميغابات في جنس Nyctimene الموجود في إندونيسيا، وخفاش الفاكهة الأنبوبي الشائع (Nyctimene albiventer) وهو نوع من الميغابات في عائلة Pteropodidae. توجد في جزر شمال أستراليا، وفي إندونيسيا وبابوا غينيا الجديدة والفلبين وجزر سليمان، وخفاش الفاكهة ذو الأنف الأنبوبي العريض (Nyctimene aello)، المعروف أيضاً باسم الخفاش ذو الأنف الأنبوبي الأكبر، وهو نوع من الميغابات في جنس Nyctimene. توجد في غرب بابوا وإندونيسيا وبابوا غينيا الجديدة ووسط الفلبين [1]. بالتالي فإن أول جنس خلق للخفاش كان أنثى لها ثدياً وتلد وتحيض وتطهر، وقد كان خلق هذا

---

[1] Mammal Species of the World: A Taxonomic and Geographic Reference, edited by Don E. Wilson and DeeAnn M. Reeder, 2nd ed, 1993.

الطير بجنسه الأنثوي بعد زمن من ولادة عيسى (عليه السلام)، أي بعدما كبر ثم مكّنه الله من واحدة من آياته كي يخلق طيراً، ما يعني أن الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) لم يكن موجوداً قبل ولادته من رحم أمه مريم (عليها السلام) ولم يكن موجوداً قبل أن يخلقه عيسى (عليه السلام) بنفسه. بالتالي فإن أي بحث في عالم أو بيئة الخفافيش يحتم أن يكون بعد لحظة خلق عيسى (عليه السلام)، وهذا الزمن يُستدل عليه من خلال الآية القرآنية التي بَشّر فيها عيسى (عليه السلام) بولادة النبي محمد (ﷺ) من بعده في قوله تعالى: "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين" {الصف: 6}. بالتالي إذا كان النبي قد ولد في 53 قبل الهجرة (571 ميلادياً) فهذا يعني أن ولادة المسيح تمت في بداية القرن الأول الميلادي، وهذا القرن هو الذي خلقت فيه الطير (أنثى الخفاش). ولأن عيسى (عليه السلام) ولد في مدينة بيت لحم في فلسطين التاريخية بحسب روايات التاريخ، فإن ذلك يعني أن أنثى الخفاش خُلقت وعاشت جغرافياً في الطبيعة الفلسطينية وبالتحديد في الحياة البرية في مدينة بيت لحم. بالتالي فإن جنس الخفاش الأول هو جنس أنثوي، وله أثداء، ويقوم بعملية الإرضاع، لكن السؤال عن الأولاد الذين سيقوم الخفاش بإرضاعهم، هي مسألة تتطلب بحثاً حول كيفية أول عملية ولادة لأنثى الخفاش، وأرجح أن تكون تمّت بنفس العملية التي خلقت بها مريم (عليها السلام) من غير أب أو عملية نكاح، وكذلك الخفاش لا بد أن يكون قد وُلد من غير وجود جنس ذكر أو عملية نكاح، لكن هذه الفرضية تحتاج إلى بحث وإثبات علمي، لا سيما بعد الحديث عن علاقة الخفافيش بالفيروسات في القرن الحادي والعشرين، وأرجح أن يكون ذلك ناتج عن اختلاط جنسي أو شذوذ بين أنواع الخفافيش مع ارتباط ذلك بالبشر أو نوع من البشر الذين لهم صلات فيروسية مع الخفافيش.

العبرة الإلهية في تمكين عيسى خلق طير من جنس أنثى وليس ذكراً

إجابة السؤال الخامس: ما العبرة أو الآية الإلهية في تمكين عيسى (عليه السلام) لخلق جنس الطير أنثى وليس ذكراً؟

نقول: لأن في الأمر حكمة إلهية، وكأن الله أراد أن يبصره بقدرته من خلال التأكيد على أن خلقه من جنس أنثى وهي مريم (عليها السلام) بدون وجود أب (جنس ذكر) هو مسألة علوية خارجية أبعد من تحليق الطير الذي خلقه عيسى (عليه السلام) وذلك لأن الطيور لا تحلّق إلا على ارتفاعات محددة في طبقات الجو الدنيا السفلى وهذا ما عبّر عنه القرآن في آيتين، مرّة بوصفها الطير في "جو السماء" أي الدرجات الدنيا داخل الغلاف الجوي، ومرّة بوصف الطير أنها "فوقهم"، أي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، كما يلي:

- قوله تعالى: "ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" {النحل: 79}.
- وقوله تعالى: "أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير" {الملك: 19}.

بالتالي إذا كانت الطيور في "جو السماء" و "فوقهم" أي فوق رؤوس البشر، فهذا يعني أن بيئة الطيور هي بيئة أرضية دنيوية، فإذا خرجت أو ارتفعت خارج نطاقات بيئتها المعهودة ستموت فوراً، ما يعني أن خالق الطير وهو عيسى (عليه السلام) ليس بإمكانه ضبط حركة حياتها وروحها، سوى أنه تمكن من خلقها بإذن الله. وهذا يدل على أن الله الخالق أعلى وأقوى من رسوله عيسى (عليه السلام) ومن الخلق الذي خلقه وهو الطير.

إن العبرة من خلق جنس الطير أنثى هو تذكير لعيسى (عليه السلام) بخلق جنس أمه مريم (عليها السلام) من جدته حنة بنت فاقوذ وهي

عاقر. كما أراد الله أن يرسل له رسالة من خلال تمكينه بقدرته على خلق الطير من دون وجود ذكر أو أنثى تماماً كما خلقه هو (أي عيسى) من دون وجود أب، وكأن الله أراد أن يطمئنه عن القدرة الإلهية في طريقة خلقه من أمه مريم، تماماً كقدرته هو على خلق الطير.

العلاقة بين العناصر المكونة لطبقة تروبوسفير (Troposphere) مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم.

إجابة السؤال السادس: هل هناك علاقة بين العناصر المكونة لطبقة التروبوسفير (Troposphere) التي تطير فيها الطيور مع مكونات الخلية الأولى في رحم مريم (عليها السلام)؟

نقول: إن هذه الطبقة أولى الطبقات الخمس المكونة للغلاف الجوي للأرض، وهي أدنى الطبقات وأقربها إلى الأرض، والتي تطير فيها الطيور، وهي تناسب الكائنات الحية من الفقاريات داخلية الحرارة، وهي طائفة رباعيات الأطراف، وهذه الطبقة تناسب تنوع أحجام الطيور وكتلتها ووزنها من حيث الضغط الجوي، والأهم أن هذه الطبقة تتألف من أهم غازين وهما النيتروجين (بنسبة 78%) والأوكسجين (بنسبة 21%)، بالإضافة إلى غازات أخرى بأحجام ضئيلة. أما مكونات الخلية فهي تعتمد في إنتاجها في جسم الإنسان (ذكر أو أنثى) على عملية البناء الضوئي وليس على الماء وبيئة التربة اللتان هما هو أول حياة النبات. ويعتبر الضوء والماء مكونان أساسيان في عملية البناء الضوئي، فلا تحدث عملية البناء الضوئي إلا في وجود هذان المكونان مع صبغة الكلوروفيل الخضراء الموجودة في النبات وغاز ثاني أكسيد الكربون الذي تتنفسه النباتات من الهواء الجوي، وهذا التفاعل العلمي الذي سخره الله للنباتات لإنتاج سكر الغلوكوز والأكسجين يحدث دون تدخل بشري لكي تستمر الحياة على وجه الأرض، فلا يصح القول بأن العملية تحدث في وجود الماء وغياب

الضوء والعكس صحيح، فالماء وضوء الشمس خطان يلتقيان لاستمرار الحياة، حتى وإن كانت الشمس تبعد عن الأرض مسافة مئة وخمسون مليون كيلو متر إلا أن أشعة الشمس تصل إلى الأرض وتشارك في التجارب الكيميائية الطبيعية و تعمل على استمرار الحياة لأن طبيعة مادة الضوء هي أمواج كهرومغناطيسية تلك الأمواج التي تنتقل في الفراغ ولا تحتاج لوسط مادي لكي تنتقل من خلاله لذلك تصلنا حرارة وضوء الشمس من مسافة ملايين الكيلومترات بالرغم من بعدها. وخلال عملية البناء أو التمثيل الضوئي تعمل النباتات على تحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية، تنتج عنها مركب سكر الجلوكوز وغاز الأوكسجين، علما بأن سكر الجلوكوز يتكون من ذرات (الكربون والهيدروجين والأوكسجين) التي تعتبر الغذاء الأساسي للكائنات الحية (والهيدروجين والأوكسجين هما الذرات المكونة لجزيئات الماء)، وتقوم النباتات بامتصاصها بمساعدة الطاقة الناتجة عن حرارة الشمس الأرضية وتفاعل حركة الرياح، وكنتيجة لهذه العملية، تُعيد النباتات تدوير عنصر الأوكسجين الذي خلقه الله في الماء قبل خلق الكون، فتطلق النباتات الأوكسجين في الغلاف الجوي عبر الثغور، بينما تستخدم الهيدروجين لصنع طعامها، ولهذا السبب نجد أن الهيدروجين والأوكسجين هما أكثر العناصر الموجودة في جسم الإنسان. إذا أدركنا أن أهم غازين وهما النيتروجين (بنسبة 78%) والأوكسجين (بنسبة 21%) هما العنصران الأساسيان الموجودان في طبقة التروبوسفير (Troposphere) وأن الأوكسجين يوجد بشكل أساسي في الماء وبالتالي في الخلية النباتية، وأن الخفاش خلق خلقاً روحياً من خلال نفخ عيسى (عليه السلام) فيه، فذلك يعني أن الخلية الأولى التي خلقت منها مريم (عليها السلام) من بطن أمها (حنة بنت فاقوذ) كانت غنية بالأوكسجين من مادة الماء والذي انعكس على هيئتها وبنيتها الجسمانية، وذلك نتيجة تناول أمها (حنة بنت فاقوذ) لغذاء صحي. وكذلك الحال مع غذاء مريم (عليها السلام) الذي

كان صحياً بتوفيق من الله فأنتج خلية نباتية سليمة غنية بجزيء الأوكسجين، وهذا الأمر انعكس على ولادة عيسى (عليه السلام) بخلية غير منقوصة من جزيء الأوكسجين. إذا كان الأوكسجين داخل في كل العمليات الإحيائية الروحية بقوة وقدرة الخلق (الله) وفق ضوابط شرعية، وبالاحتكام إلى أصل خلق الله وإلى أصل مادة الماء وهي العناصر الذرية التي خلقها الله قبل خلق الكون والماء، فإن ذلك يعني أن كل العناصر المكونة لطبقة التروبوسفير (Troposphere) التي تطير فيها الطيور، ومكونات الخلايا الأولى في رحم مريم وأمها حنة بنت فاقوذ (عليهما السلام) مرجعها إلى الخالق (الله) عزوجل. بالنسبة للطيور التي تطير في طبقة التروبوسفير (Troposphere) فإن لها إمكانيات وقدرات تؤهلها للعيش في بيئة السماء والتعامل مع مؤثراته مثل سرعة الرياح والبحث عن الطعام، فمثلاً يُلاحظ أن طائر الشاهين (الصقر) يوجد في فتحة أنفه عظمات تسمى الدَّرَنَات ، وهي تساعد على إبطاء دخول الهواء إلى رئة الصقر، وبالتالي تخفف عليه الضغط فينعكس ذلك على توازنه عندما يغير سرعته، أي كأن هذه الدرنات بمثابة لوحة التحكم الخاصة به. أما بالنسبة للخفافيش فقيل إن بعضها يتغذى على الحشرات، وبعضها يتغذى على الدم، وهنا سوف نستنطق مسألة ذات جدوى، سبق أن أوضحت جزء منها وهي علاقة الحشرات بمجتمع الجريمة من خلال غذائها على الدم في بيئات دموية، وكيف كانت عقاباً إلهياً للمجرمين لتشابه النمط الغذائي، وقدمت توصيفاً لعلاقة الدم بالنشاط الإنسي والإجرام في شرحنا لكلمة "الفصيلة" في القرآن. {انظر الشرح في الفصل الأول، ص32} واستكمالاً لهذه المسألة ثبت أن الخفافيش التي تتغذى على الدم تفرز مادة مضادة للتخثر في لعابها، تعمل على إبطاء آثار الجلطات عند البشر [1]. ما يعني أن عيسى (عليه السلام) خلق طائراً غير دموياً باعتبار أن غذاء

[1] https://abcnews.go.com/WNT/story?id=129898&page=1

الخفافيش على الدماء لها سبب وجيه متعلق بالاستشفاء، لكن التغير الذي طرأ على الخفافيش والأمراض التي انتقلت من خلالها للبشر جعل الأمر أكثر تعقيداً، ولا شك أن للجرائم التي يرتكبها الأشخاص غير الأخلاقيين في الأرض والذين ليس لديهم ضوابط شرعية كما هو في الإسلام وتطور هذه الجريمة على يد البشر من (مرتبة) الآدمية إلى (رتبة) البهيمية الحيوانية لها علاقة بطريقة غير مباشرة بتحولات الطبيعة حيث تتجه أفعال وتصرفات البشر غير الأخلاقيين لتصبح أفعالاً مستوحشة، ولهذا السبب بدأ الإنسان باكتشاف سبب علاقة الفيروسات، ومنها فايروس كورونا بالخفافيش.

العلاقة بين أنثوية جنس الخفاش، وحياة مريم

إجابة السؤال السابع: هل تصح المقارنة بين أنثوية جنس الخفاش بوصفه يحبل ويلد ويحيض، مع حياة مريم (عليها السلام) وولادتها لابنها عيسى (عليه السلام)؟

نقول: نعم بشكل نسبي وليس مطلقاً؛ لأن ذلك سيفسر الرابطة المأصولة بشكل أساسي بين المادة الاستشفائية التي تفرزها الخفافيش الأنثوية [1] مع سبب وطريقة ولادة مريم (عليها السلام) من أمها العاقر حنة بنت فاقوذ، وحياتها الصحية، وذلك يدل على أن هناك بُعداً صحياً استشفائياً يتعلق بحياة وصحة حنة بنت فاقوذ وابنتها مريم (عليهما السلام) وقد انتقل بالوراثة إلى ابنها عيسى (عليه السلام) ليكون بذلك سبباً في التمهيد الإلهي بجعله آية متصلة في الخلق داخل الطبيعة من خلال خلق الطير، وبهذا تكتمل الصورة الاستشفائية لآل عمران، وهو تثبيت للكرامة الإلهية لهذه الذرية في الخلق. بمعنى آخر، أراد الله أن يجعل قدرته وتمكينه لعيسى (عليه السلام) في خلق الطير مثل قدرته

[1] https://www.mdpi.com/1424-2818/14/3/179

على إحيائه في رحم أمه مريم (عليها السلام) من غير أب أو عملية نكاح، وذلك من خلال إيجاد عنصر مادي كيميائي إحيائي متعلق بالخلية وحلقة أو سلسلة الغذاء الذي يعود أصله إلى الطبيعة بالنسبة لمريم (عليها السلام). أما بالنسبة للطير فمن خلال الخلق الروحي من جنس أنثوي من دون ذكر أو وجود زوج للأنثى أو عملية جماع بين نوعين من الطيور. بالتالي فإن وجه الشبه بين الطير ومريم (عليها السلام) أن كلاهما من جنس أنثوي، وكلاهما له أثداء، ويقوم بعملية الإرضاع، مع الأخذ بعين الاعتبار كافة التفاصيل المتعلقة بأنواع الكائنات الحية، أي أن الطير كائن حي حيواني، أما مريم (عليها السلام) فهي كائن حي من نوع آدمي، لكن هناك مسألة فارقة وهي أن مريم (عليها السلام) لا تحيض مثل الطير، حيث كانت "مُطهَّرة من الحيض" [1]. والطهارة تشمل كل شيء لقوله تعالى في اصطفاء وطهارة مريم (عليها السلام): "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" {آل عمران: 42}. نقول: الاصطفاء الأول هو الاختيار لشخصها من أجل عبادته ولولادة عيسى (عليه السلام)، والاصطفاء الثاني بعد الطهارة هو لتربية عيسى (عليه السلام). بالإضافة إلى ذلك، ندرك أن الخفافيش منها الذكر والأنثى، ولا تطير في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وأنها قوية البصر، فالخفاش "يتحرى الوقت الذي لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء وهو قريب غروب الشمس" [2]. والإناث هي الوحيدة التي تحبل وتلد وتحيض (علماً بأن الضبع والأرنب هي فقط من الحيوانات التي تحيض)، فإن هذا يدفعنا إلى القول بأن ولادة مريم لابنها عيسى (عليهما السلام) كانت في وقت يتراوح بين غروب الشمس وظلام

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص108.

[2] دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ج3، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971)، ص721.

الليل، وأن ولادتها لم يشهدها أحد في ضوء النهار ولا في ظلام الليل. وعموماً هناك أنواع متعددة من الخفافيش، ومعلوم أنها تعيش في الطبيعة لفترات تزيد عن 20 عاماً، ولهذا السبب إذا كان الخفاش هو الطائر الذي خلقه عيسى (عليه السلام) فيحتم أن يكون نوعاً من الخفافيش مختلف بشكل كبير عن الخفافيش الحالية نسبة إلى الزمن البعيد والمتغيرات البيئية، ولكن ذلك قد يفتح آفاقاً جديدة لفهم علاقة الإحياء الإنسي بالخفاش.

سماد الخفافيش وعلاقته بمادة خلق الملائكة

إجابة السؤال الثامن: ما هي علاقة السماد الذي تنتجه الخفافيش بمادة خلق الملائكة؟

تقوم الخفافيش بتلقيح النباتات، وتنتج سماداً غنياً بالنيتروجين وهو عنصر كيميائي حيوي من أجل الحياة على الأرض فيدخل في تكوين البروتينات وتكوين الأمونيا التي تساهم في زيادة خصوبة التربة ونمو النباتات، والوجه الآخر للنيتروجين هو أنه يصنع منه السموم ويُستخلص منه المواد المتفجرة مثل مادة تي أن تي (TNT) شديدة الانفجار. ذكرت سابقاً أن أجسام الملائكة مخلوقة من الريح التي تتكون من عنصري (النيتروجين والأوكسجين). كما أن النيتروجين موجود في غلاف الأرض الجوي، وهذا ما يفسر وجود أو ظهور أو نزول الملائكة من السماء أو وجودها في هذه البيئة أو الحاضنة الأصلية كحلقة وصل بين السماء والأرض. فإذا كانت مادة النيتروجين عامل مشترك بين السماد الذي تنتجه الخفافيش، وتدخل في خلق أجسام الملائكة، وفي خلق الريح، وفي غلاف الأرض الجوي، فهذا يعني أن العامل المشترك بين كل ذلك هو وجودها في البيئة أو الطبيعة، لكن مكونات مادة النيتروجين التي تنتجها الخفافيش تختلف من ناحية جوهرية وروحية عن المادة التي خلقت منها أجسام الملائكة من ناحية

التركيب والمصدر حتى وإن كان العنصر المادي الكيميائي هو ذاته النيتروجين؛ لأن مصدر تركيب مادة النيتروجين في حالة الخفافيش ناتج عن تحلل مواد عضوية بعد جمع مخلفات الخفافيش، أي هو مصدر بيئي طبيعي حيواني من الخفاشيات وهي فقاريات، والفقاريات تشمل رباعيات الأرجل أو الأطراف ومنها الثدييات. أما مصدر نيتروجين أجسام الملائكة فهو من الله مخلوق في شكله الأول الذي أوجده الله قبل خلق الكون، والخفافيش خلقت على يد عيسى (عليه السلام) في مرحلة بعيدة جداً عن خلق الكون، وبالتالي فإن مصدر وجود النيتروجين في أجسام الملائكة سابق على مصدر وجوده في الخفافيش وسمادها، بل هو سابق على خلق الكون؛ لأن الملائكة موجودة قبل خلق الكون وقبل خلق الكائنات الحية وقبل خلق عيسى (عليه السلام) وقبل خلق عيسى للطير (الخفاش). ومن ناحية مادية نلاحظ هنا أن النيتروجين هو السابع من حيث العدد الذري في الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، وهو يسبق الأوكسجين الذي هو العنصر الثامن بعد النيتروجين في الجدول الدوري، لأنه ينتج طاقة هائلة، ما يعني أن النيتروجين لديه قدرة على تفعيل أجسام الملائكة وجعل طاقتها هائلة وسريعة ومتحركة، وهذا ما يفسر قدراتها المطلقة على حمل عرش الرحمن والقيام بواجبات غير آدمية (بشرية) مثل الخلق (الإحياء) والإماتة والبعث وغير ذلك من المهام الموكلة من الله والتي يأمرها بتنفيذها، وهو ما يدل على أن الملائكة لها قوة جبارة، ومع ذلك فهي ليست كائنات لها رغبات مادية، بل هي كائنات روحية إحيائية.

العلاقة بين مظهر وحال الخفاش بالملائكة

إجابة السؤال التاسع: ما هي العلاقة بين مظهر وحال الخفاش بنظيرها عند الملائكة؟

أشرنا إلى خلق الخفاش بمفردة "الهيئة" بينما أشرنا إلى خلق الملائكة بمفردة "المظهر" لأن الهيئة مفردة قرآنية وردت في الآية لقوله تعالى: كهيئة الطير" وقد شرحنا معنى الجملة في إجابة السؤال الثالث. أما المظهر فهو مرتبط بالحال، لأن ظهور الملائكة يكون بتعدد أحوالها، وتعدد أحوالها مرتبط بالأوامر الإلهية التي تُلقى إليها، والأوامر تلقى إليها لسبب، وفي أوقات معلومة، ولأشخاص محددين. ومن أنواع الملائكة مثلاً: الملائكة التي تستقبل أهل الجنة كما ورد في قوله تعالى: "ولا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون" {الأنبياء: 103} أو ملائكة حملة عرش الرحمن ولها صفات مخصوصة شرحناها في سورة {الرحمن: 14} في إجابتنا على سؤال **هل الملائكة من جنس إنسي أم غير إنسي؟** {انظر الشرح في الفصل الثالث، ص334}. بالتالي نقول: إن المظهر متصل بحال مادة الخلق، والحال يكون غازاً نيتروجينياً بامتياز في حالة الملائكة حيث أن النيتروجين في أجسام الملائكة يكون تشكيلاً ذا قوة فائقة (طاقة) معززة بالأوكسجين ومظهر بهيج، ولذلك يكون مظهر النيتروجين شديد الشفافية والبياض، وهو شكل النيتروجين في حالته السائلة وليس الغازية، وهنا يمكن القول إن الملائكة "مخلوقة إحيائياً". أما الخفاش فمظهره "مخلوق روحياً" وليس "مخلوقاً إحيائياً"، وهو على ثلاثة ألوان أسود أو رمادي أو بني، وليس بينهما تشابه في الهيئة والمظهر مطلقاً من حيث الروح والجوهر، ومن ناحية شكل المادة التي خلق منها أو يظهر عليها الخفاش والملائكة أبداً. أما من ناحية الحجم فإن هيئة الخفاش مصغرة وهي على شكل حيوان يمكن تقييمه بيولوجياً وهو خلق بفعل إنسي بإرادة إلهية، لكن الملائكة خلق إلهي بإرادة إلهية مطلقة، وهيئتها أكبر مما نتخيل من حيث التكوين البصري، ولا يمكن وصفها إلا لمن رآها من الأنبياء والرسل ومنهم النبي محمد (ﷺ)، ولا يمكن تقييم حالها لأن الوحيد القادر على ذلك هو الله، وهي على شكل يثير الإعجاب، وبه تثبت قدرة الله المطلقة،

لأن الملائكة أكثر قوة وأجمل حضوراً، وقد سبقت الإشارة إلى أن رسول الله رأى جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم" [1]. وفي رواية أخرى، قال رسول الله: "أتاني جبريل، (عليه السلام)، في خضُر معلق به الدر" [2]. بمعنى آخر يعتبر الخفاش نموذجاً وتمثيلاً حيوانياً أرضياً مصغراً في السماء الدنيا، بينما الملائكة تعتبر تأصيلاً تطبيقياً إحيائياً روحياً هائلاً في السماوات العليا، أي أن البيئتين، وطرائق الحضور، والحركة مختلفتين تماماً، فالخفاش بيئته في الطبيعة الأرضية، ولا يحضر لأحد بالمناداة، وحركته محدودة في أوقات الغروب غالباً. أما الملائكة فإن بيئتها في كل زمان نهاري أو ليلي، وأي مكان أرضي أو علوي أو ما فوق علوي وصولاً إلى الفردوس الأعلى وحتى عرش الرحمن، وأقصد بطرائق الحضور أن الملائكة لا تنكشف إلا للأنبياء وحدهم، وحركة الملائكة حركة من الأعلى إلى الأسفل لأن وجودها الأصلي هو تحت عرش الرحمن (الله) وهي إذ تتلقى الأوامر فتعود بها إلى الأرض الدنيا. ونعتقد أن أرواح العلماء الصادقين الطاهرين يحدث لها جذب لأرواح الملائكة فتصير أرواحهم أرواح ملائكية، وهذا الجذب أسميه جذب العلم والصدق والجهد والإخلاص لله تعالى وملائكته. أما الشكل فإن التشابه يكون على مستوى الأجنحة، مع الأخذ بعين الاعتبار الفروقات بين الجنسين من ناحية أن جنس الملائكة إحيائي روحي طاهر. أما الخفاش فهو من جنس حيواني أرضي، فالخفاش له أجنحة صغيرة جداً، أي حوالي (150) ملم مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف أحجام الأجنحة نسبة إلى طول الخفافيش الذي يتراوح بين (3) سنتيمتر كخفاش أنف الخنزير وهو أصغر الثدييات حجماً وخفاش الثعلب الطائر الذي يبلغ طوله

---

[1] عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ج7، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999)، ص446.

[2] المصدر السابق، ص452.

(41) سنتيمتر. أما شكل أجنحة الملائكة فهي لا توصف لأنها متعددة والدليل على ذلك قوله تعالى: "الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" {فاطر: 1}. قال القرطبي: الفاطر هو الخالق. والفطر: الابتداء والاختراع [1]. لكننا نخالف قوله؛ لأن الخلق خلاف الابتداء والاختراع؛ لأن الله لم يبتدئ خلقه بخلق الكون أو الكائنات الحية، ولكن بخلق المادة التي خلق منها كل شيء فيما بعد، فالخلق شيء والابتداء شيء آخر. أما قوله تعالى: "جاعل الملائكة رسلاً" فالرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقوله تعالى: "أولي أجنحة": نعت، أي: أصحاب أجنحة. وقوله تعالى: "مثنى وثلاث ورباع": أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرة كذا في وقت واحد، أي: جعلهم رسلاً. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبي رأى جبريل (عليه السلام) له ست مائة جناح. وقوله تعالى: "يزيد في الخلق" أي: في خلق الملائكة. وقال الحسن: "يزيد في الخلق" أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء. وقال قتادة: "يزيد في الخلق ما يشاء" أي: الملاحة في العينين، والحُسن في الأنف، والحلاوة في الفم. وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن؛ ذكره القشيري. وقيل في معنى: "إن الله على كل شيء قدير" من النقصان والزيادة. على حين قال الزمخشري: إن الآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب،

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج17، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص340.

وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأت في مزاولة الأمور [1]. نقول: بالنسبة لقوله تعالى "يزيد في الخلق" هي ليست زيادة في الخلق أو الملائكة أو أجنحة الملائكة، ولكن زيادة في عناصر المادة التي خلقت منها أرواح الملائكة (وهي النور) أو أجسام الملائكة (وهي النيتروجين والأوكسجين)، فإذا زاد الله في مادة الأجنحة زاد خلقها، وإذا زاد في مادة خلق أرواح الملائكة (وهي النور) زاد عدد الملائكة، أو زاد حجم أجسامها بزيادة النيتروجين كما أراد الله، لأنه قال في الآية "ما يشاء"، أي يخلق ما يشاء مما ذكرناه، ولأن النيتروجين مصدر طاقة قوية ونظيفة، والأوكسجين مصدر للإحياء؛ فإن الزيادة تحدث في طاقة النيتروجين وفي الأوكسجين، وهذا ينعكس على تكوين شكل أجسام الملائكة، فأي زيادة في عناصر المادة يعني التأثير على شكل خلق الملائكة وحجمهم وعدد أجنحتهم ودرجة لونهم وشفافيتهم. مما سبق نفهم دلالة كلمة "طائره" في قوله تعالى: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً" {الإسراء: 13} قال ابن عباس: "طائره": عمله وما قُدر عليه من خير أو شر، وهو ملازمه أينما كان. وقال مقاتل والكلبي: خيره وشرّه معه لا يفارقه حتى يُحاسب به. وقال مجاهد: عمله ورزقه. وقال الحسن: "ألزمناه طائره" أي: شقاوته وسعادته. وقيل: أراد به التكليف، أي: قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك [2]. نقول: إن الطائر الذي يلزم العنق هو ملاك من الملائكة يسجل له أعماله في الحياة الدنيا، فإذا كان الإنسان نبياً أو عالماً أو عارفاً أو زاهداً فإنه سوف يلزم عنقه ملاك بحجم عمله في الدنيا، وهكذا فإن الذي يحدد حجم ملاك الإنسان هو الله أولاً ثم أعماله اليومية ثانياً، بداية من الأنبياء الذي يبلغون رسالات الله (وخير مثال على ذلك، علاقة جبريل بالنبي محمد ﷺ)، وصولاً

---

[1] المصدر السابق، ص341، 342.

[2] المصدر السابق، ص40.

إلى العلماء الذين يرشدون إلى الله، وقد عاهدهم الله في قوله تعالى: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير" {المجادلة: 11} ثم تتوالى الدرجات كالشهداء والعارفين والأتقياء والزاهدين والفقراء والمساكين والأيتام وغيرهم، لكن درجاتهم ليست كلها واحدة، وهي مرتبطة بالأعمال الدنيوية، فقد يكون للإنسان الواحد عدد من الملائكة لا تعد ولا تحصى يحيطون به من كل جانب، وقد يكون له ملاك واحد. في حالة الجمع يقول تعالى في سورة الانفطار: "وإن عليكم لحافظين (10) كراماً كاتبين (11) يعلمون ما تفعلون (12)، ويقول الله تعالى: "ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون {الأنعام: 61}، ويقول أيضاً: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" {ق: 18}. وأما في حالة الملاك الواحد مفرداً يقول تعالى: "إن كل نفس لمّا عليها حافظ" {الطارق: 4}.

الفرق بين (منطق الطير) و (أمم الطير)

إجمالاً، إن التوصيف السابق والاختلاف الجذري بين مظهر حال الملائكة وهيئة الخفافيش جعلتنا نفهم معنى الجملتين القرآنيتين "منطق الطير" و "طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم" والوارد ذكرهما في الآيتين التاليتين:

- قوله تعالى: "وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين" {النمل: 16}.
- وقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشرون" {الأنعام: 38}.

قيل في معنى: "علمنا منطق الطير" أي: تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسنا [1]. نقول: في الآية تضمين لفهم الإنسان، (وهو سليمان في هذه الآية) للغة الطير وطرائق الحديث معهم، فيكون الحوار مبني على قاعدة نوع آدمي يتعلم بالتفكر والتأمل والإبصار، مقابل درجة حيوانية لديها فطنة وتتعلم بالإشارة أو التنبيه. والنوع الآدمي الذي يعقل هو البالغ منه غير المنتقص، ومن العقلاء أيضاً الملائكة، والجن. أما الذين لا يعقلون فهم كافة الحيوانات. أما الآية التالية، فقيل إن الدواب والطيور يحشرون، والمقصود: بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل في حق الناس فهو أيضاً حاصل في حق البهائم. وقيل إن الفائدة في قوله تعالى: "يطير بجناحيه" مع أن كل طائر يطير بجناحيه ليبين اختلاف الطيور عن الملائكة. وقوله تعالى: "إلا أمم أمثالكم" قال الفراء: يقال إن كل صنف من البهائم أمة. وقد ذهب طائفة عظيمة من المفسرين وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه. واحتجوا عليه بقوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده" {الإسراء: 44}، وبقوله في أفعال الطيور "كل قد علم صلاته وتسبيحه". وعن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منها لصاحبه. وروي عن النبي أنه قال: "من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من حشاش الأرض". والمراد إلا أمم أمثالكم في كونها أمماً وجماعات وفي كونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً، ويأنس بعضها ببعض، ويتوالد بعضها من بعض كالأنس. وما رواه أبو سلمان الخطابي عن سفيان بن عيينة، أنه لما قرأ هذه الآية قال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه

[1] المصدر السابق، ص114.

من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام تركه وإذا قام الرجل عنه رجيعه ولغ فيه. فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه. ثم قال: فاعلم يا أخي أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذار والاحتراز، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضع. ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى موصوفة بالمعارف الحقة وبالأخلاق الطاهرة، فإنها بعد موتها تنقل إلى الأبدان أبدان الملوك، وربما قالوا: إنها تنقل إلى مخالطة عالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى الأبدان الحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقاً للعذاب نقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعباً، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا: صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالنا، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في جميع الصفات الذاتية. أما الصفات العرضية المفارقة، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة. ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه، وقالوا: قد ثبت بهذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة، وإن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم. ثم إنه تعالى قال "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أرسله الله إليها. ثم أكدوا ذلك بقصة الهدهد، وقصة النمل، وسائر القصص المذكورة في القرآن [1]. نقول: إن الله تعالى ذكر

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج12، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص222، 225.

كلمة "أمة" و "أمم" في عدة مواضع في القرآن، وعندما ذكرت كلمة "أمم" جاءت مصاحبة للجن والإنس في قوله تعالى: "أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين" {فصلت: 25}. لذلك كانت الأمم متعددة بحسب النوع في الخلق ثم المرتبة ثم الرتبة ثم الدرجة ثم الفئة ثم العينة وغيرها. نقول: إن تشبيه "أمم الطير" بأمم النوع الآدمي (الإنسان) يفرض وجود تماثل حتمي.

التماثل بين النوعين الآدمي (الإنسان) والحيواني (الدواب والطيور)

السؤال هنا: ما هو التماثل بين النوعين الآدمي (الإنسان) والحيواني (الدواب والطيور)؟

نقول: إن التماثل هو "الروح" لأن الذي يُحشر عند الله هو الروح إضافة إلى البدن، وإن الله يُحاسب كافة الكائنات الحية بأرواحها وأجسادها، علماً بأن الأجساد لاحقة بالأرواح، أي أن اكتمالها يكون باكتمال الروح وليس قبل وجود الروح، لأن الجسد بلا روح يعني تغلب الكثير المادي وهو الجسد على القليل المادي وهو الروح، والمادي الجسدي إلى الروحي لا قيمة له. ونقول بعلاقة الحشر مع الروح لأن الله بدأ في الآية من الأدنى إلى الأعلى، فقال بالدواب أولاً وهي أرضية، ثم بالطيور ثانياً وهي سماوية، ثم بالبشر ثالثاً وأرواحهم علوية غالباً. فكل الأرواح تصعد من الأسفل إلى الأعلى فتكون روح الدواب روح متسافلة دنيئة في جسدها، ما يضطرها إلى أن تكون روحها متسافلة دنيئة فيها خسة، ولذلك يُضحى بها. أما روح الطيور فتكون شبه علوية، ما يعني أن فيها روح عالية، لكنها روح دنيئة فيها خسة أقل من الدواب، وذلك لصغر أحجام أجسادها. ولذلك لمّا قال أبو سلمان الخطابي عن سفيان بن عيينة أن ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فهذا صحيح، ولكننا نقول: إن الذي يتحكم في

هذه العلاقة هو درجة الارتقاء بالروح، وهي الحد الفاصل بين الغريزة الغذائية والجنسية مع الروح. فالبشر الذين يتصرفون في حياتهم الدنيا بطريقة دنيئة شهوية غير أخلاقية في علاقتهم مع شهوة الطعام وطرائق تناوله، تكون أرواحهم سفلية وليست علوية. أما الأنبياء والعلماء الزاهدين الأتقياء العابدين فإن أرواحهم تزداد في علويتها. أما روح الإنسان فهي روح فوق علوية، ولكن ذلك يتراوح بين إنسان وآخر، فالنبي غير العالم، والعالم غير الشهيد، والشهيد غير الزاهد، والزاهد غير الصادق، والصادق غير العابد، وهكذا تُحفظ وتُصان كل روح في الفردوس الأعلى وفي اللوح المحفوظ، وتبقى روحاً ملائكية خالدة ثم ترتقي الروح بصفاتها الملائكية من خلال الأعمال وتحيا بالصدقية. إن الروح هي طاقة النور الملائكية التي تُحفظ وتظل خالدة.

أصل اسم (الخفاش)، ولماذا نقترح اسم (شبيه الطيرائكي)؟

الإجابة على السؤال العاشر: ما هو أصل اسم الخفاش، ولماذا نقترح اسم "شبيه الطيرائكي"؟

نقول: إن القرآن ذكر اسمه "كطير" دون أن يذكر اسمه، بل نوع طائفته علماً بأن اسم "الخفاش" وتعريفاته لا تليق بالتاريخ الأنثروبولوجي لولادة النبي عيسى (عليه السلام) ولا بالسياق الديني القرآني التي أوجدت فيه هذه الكلمة، ولا حتى الظروف التاريخية والدينية والبيئية الطبيعية الموضوعية الزمانية والمكانية التي وُجد فيها هذا النوع من الطيور في الطبيعة. لذلك فإننا نرجع أصل الكلمة إلى حقيقة الحدث، ونقول: إن اسم الطير عُرف منذ لحظة خلقه الروحي على يد عيسى (عليه السلام)، وبالتالي فإن التسمية والتعريفات تعتبر توصيفاً لشكل وطبائع الخفاش بحسب المعلومات التي وردت عنه باعتباره أقرب الطيور التي تنطبق عليه حالة الخلق على يد عيسى (عليه السلام)، لكن لم يُذكر تاريخياً من الذي أسماه

الخفاش، علماً بأن الجذر اللغوي "خفش" دل على شيء يشبه دلالة الخفش وهو الاختباء أو عدم الظهور في الليل والنهار، ولذلك قيل خفافيش الظلام: تعني: أصحاب الدسائس [1]، ولكننا نقول: إن خفافيش الظلام هم الذين يستترون وراء أفعالهم الشيطانية. ومع ذلك فإن هناك توصيفاً آخر يستوجب أن يوصف به طير عيسى (عليه السلام)، على اعتبار أنه ذكر في القرآن مصحوباً بعملية خلقية روحية لهذا الطير من مادة الطين والنفخ في روحه. بحسب حجتنا في المعاني التي تتعلق بهيئته المشابهة نسبياً لهيئة الملائكة دون أي تطابق في الشبه أبداً بين الملائكة والخفافيش (لا سيما أن للخفافيش علاقة بفيروس كورونا وأصل ذلك يعود إلى بيئات وثقافات ومجتمعات غير المسلمين)، فإنه يستحق أن يكون اسم الطائر المعرفي الذي يجمع بين اللغوي القرآني الروحي والأنثروبولوجي الطبيعي" هو "شبيه الطيرائكي" وهذا أصوب من التوصيف اللغوي لهيئته في تسميته بـ "الخفاش"، لأن كلمة الخفاش تعتبر توصيفاً حركياً ثقافياً شعبياً. وللتبيين نقول إنه من يرى شكلاً يشبه "الخفاش" في منامه فلا يعي أو يصدق بأنه الوحي أو يشبه الوحي، لأن الوحي يختلف كثيراً عن هيئة الخفاش وهو أبهج هيئة وأكثر امتداداً في الآفاق، وهو متكلم وليس حيواناً أو طائراً غير ناطق، فالوحي أصدق قولاً وفعلاً. وإننا نسميه "شبيه الطيرائكي" كنوع من التنسيب اللغوي العربي ليس أكثر، وليس لذلك علاقة في الشبه بين الخفاش والملائكة.

المسألة الثالثة: استكمالاً لشرح آية {آل عمران: 49}. مهمة الخالق في خلق آدم (عليه السلام) وكل الكائنات الحية، وهذه يدل عليها جملتين في الآية، وذلك في قوله تعالى: "جئتكم بآية" وقوله تعالى: "بإذن الله". نقول: إن خلق وإحياء آدم ومريم وعيسى ويحيى (عليهم

---

[1] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، ص669.

السلام) وكذلك إحياء الطير، كلها كانت بأمر الله، ومن روح الله، وآية من الله، وبإذن الله. وذلك يعني أن النفخ في الروح لآدم ومريم وعيسى ويحيى (عليهم السلام) وبقية الخلق كله كان من الله. قال الشوكاني: "بإذن الله" فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى (عليه السلام)، قيل: كانت تسوية الطين، والنفخ من عيسى، والخلق من الله عزوجل [1]. وقال الرازي: "بإذن الله" معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله" أي إلا بأن يوجد الله الموت، وإنما ذكر عيسى (عليه السلام) هذا القيد إزالة للشبهة، وتنبيهاً على إني أعمل هذا التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل [2]. على حين قال البيضاوي: فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه [3]. ولما قال عيسى (عليه السلام) أنه جاء بآية من الله كرسول فقد كان ذلك مؤكداً في آيات أخرى كقوله تعالى: "وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب" {الرعد:38}.

المسألة الرابعة: تثبيت صفة النبوة للرسل في الآية يكون من خلال قوله تعالى: "رسولاً" وتكرار قوله تعالى مرتين في الآية: "بإذن الله". تعتبر تسمية عيسى (عليه السلام) "رسولاً" أهم صفة دالة على تثبيت نبوته وليست ألوهيته، وقد مكّن الله له في القدرة على الخلق. قيل: "ورسولاً": أي: ونجعله رسولاً. أو يكلمهم رسولاً. وقيل: هو معطوف

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج3، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007)، ص219.

[2] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج8، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص63.

[3] ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ج3، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000)، ص262.

على قوله تعالى: "وجيهاً". وقال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله: "ورسولاً" مُقحَمة والرسول حالاً للهاء، تقديره: ويعلمه الكتاب رسولاً. وفي حديث أبي ذر الطويل: "وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى (عليه السلام)" [1].

المسألة الخامسة: منح الله القدرة لعيسى (عليه السلام) على الإحياء والإخراج لقوله تعالى في الآية: "وأُحيي الموتى بإذن الله" بينما قال في الآية التالية: "تُخرج الموتى بإذني"، **فما الفرق بين الإحياء والإخراج؟ وهل هو إحياء يشبه الإحياء الإلهي؟**

نقول: إن الإحياء هنا إحياء لا يتعلق بالخلق، أي أنه لا "يحيي" بمعنى "يخلق" وإنما يحيي بمعنى يسهّل ظروف العيش للناس بهدف إحياءهم لأنه قال بعدها في الآية: "وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم.."، وكذلك الحال مع الإخراج. وقد سميتها سابقاً في سياق مختلف بـ "الإحيائية الإصلاحية" كتوصيف عقلاني أدق من "الانتخاب الطبيعي" و "التكيف"، وهي نوعان من الإحياء: الأول: إحياء خلقي. والثاني: إحياء مادي. وعموماً إن الإحياء والإخراج كفعلين يتعلقان بالحياة الدنيوية، وهما مرتبطان بالزمن وحركة الإنسان والتاريخ.

الآية التاسعة: قوله تعالى: "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تُكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتُبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخرج الموتى بإذني وإذ كففتُ بني

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ج5، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006)، ص143.

إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مُبين" {المائدة: 110}.

هذه الآية مشابهة في شرح أهم تفاصيلها لسورة {آل عمران: 49} (الآية الثامنة السابقة) التي شرحناها وأشرنا فيها إلى الخلق ومادة خلق الطير وهي الطين، ومعنى الإذن من الله، والنفخ في الطير لإحيائها.

الجدل القرآني بشأن ألوهية عيسى وأمه مريم أمام ألوهية الخالق

الآية العاشرة: قوله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" {المائدة: 116}.

قال الرازي: في الآية سؤالان: أحدهما أن الاستفهام كيف يليق بعلام الغيوب؟ الجواب: أنه استفهام على سبيل الإنكار. وثانيهما: أنه كان عالماً بأن عيسى (عليه السلام) لم يقل ذلك فلم خاطبه به؟ فإن قلتم الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم فنقول: إن أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهية عيسى ومريم (عليهما السلام) مع القول بنفي إلهية الله تعالى فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع أن أحداً منهم لم يقل به. والجواب: أن الإله هو الخالق والنصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى ومريم (عليهما السلام) والله تعالى ما خلقها البتة وإذا كان كذلك فالنصارى قد قالوا إن خالق تلك المعجزات هو عيسى ومريم (عليهما السلام)، والله تعالى ليس خالقها، فصح أنهم أثبتوا في حق بعض الأشياء كون عيسى ومريم (عليهما السلام) إلهين له مع أن الله تعالى ليس إلهاً له

فصح بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية [1]. **بالنسبة لنا فإن السؤال الأصح الذي يجب طرحه هو: هل كان الله يقصد في السؤال داخل الآية أن يقول: يا عيسى كان يجب عليك أن تقول للناس اتخذوني وأمي إلهين مع الله؟**

نفي عيسى ادعاء الألوهية أو التفكير فيها

نقول: ليس هذا المقصود، لأن كل الدلائل المادية والعلمية والإرادية والخلقية التي ذكرناها حول طريقة ولادة مريم وخلق عيسى (عليهما السلام)، تنفي صيغة الطرح للجملة في الآية، وبالتالي ينتفي أن يكون المقصود في الآية إشراك مريم أو عيسى (عليهما السلام) كآلهة مع الله. كما أن صفة النوع الإنسي التي تنطبق على كل من مريم وعيسى (عليهما السلام) تحولان دون اعتبارهما آلهة، وبالتالي لا يكون المقصود حقيقياً أو صحيحاً في قوله تعالى: "اتخذوني وأمي إلهين من دون الله". كما أن قول عيسى (عليه السلام) في الآية: "إن كنت قلته" هو بحد ذاته نفي لهذا القول أو نفي لادعاء الألوهية له ولأمه مريم (عليهما السلام) على لسانه. كما أن عيسى (عليه السلام) نفى أصلاً أن يكون قد فكر في ادعاء الألوهية هو وأمه مريم (عليهما السلام) وذلك في قوله في الآية: "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق". وقول عيسى (عليه السلام): "تعلم ما في نفسي" هو في حد ذاته تأكيد لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" {ق: 16}. كما أن اعتراف عيسى (عليه السلام) بنفي علمه بالغيب وتأكيد أنه من علم الله هو تحقيق

---

[1] الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج12، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981)، ص142.

وتثبيت لقوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضُداً" {الكهف: 51}.

مراجع الكتاب

المراجع العربية:

1. عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ج2، (دمشق: دار يعرب، 2004).
2. أبو حامد الغزالي، الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي، (مطبعة الآداب والمؤيد، 1317).
3. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، 2، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1976).
4. جيل كريستيانسن، تعريب مروان البواب، إسحاق نيوتن والثورة العلمية، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2005)، ص30.
5. برتراند راسل، ترجمة رمسيس عوض، الدين والعلم، (دار الهلال)، ص3.
6. أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 2009).
7. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السُنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 2006).
8. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ط1، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1943).
9. طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ط1، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013).
10. أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، تحقيق سعيد زايد، الشفاء، الطبيعيات، السماع الطبيعي (قم المقدسة: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1984).
11. أبو منصور التميمي البغدادي، تحقيق أحمد شمس الدين، أصول الدين، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002).
12. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، (القاهرة: دار الحديث، 2009).
13. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، (القاهرة: عالم الكتب، 2008).

14. إسحاق السعدي، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، ج2، ط1، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2013).
15. الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994).
16. الإمام محمد الرَّازي فخر الدّين ابن العلّامة ضياء الدّين عمر، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط1، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر،1981).
17. عبد العليم خضر، الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ط1، (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1983).
18. جان شالين، تعريب الصادق قسومة، الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، من نظرية داروين إلى مكتشفات العلوم الحديثة، ط1، (دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2005).
19. إريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998).
20. تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005).
21. هويمارفون ديتفورت، ترجمة محمود كبيبو، تاريخ النشوء، ط1، (اللاذيقية: دار الحوار، 1190).
22. برايان تشارلزوورث وديبورا تشارلزوورث، التطور، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد فتحي خضر، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016).
23. برنارد وود، ترجمة زينب عاطف، تطور الإنسان، مقدمة قصيرة جداً، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2016).
24. نيك لين، ترجمة محمد عبد الرحمن إسماعيل، ارتقاء الحياة، الاختراعات العشرة العظيمة للتطور، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2015).
25. مات ريدلي، ترجمة محمد فتحي خضر، الجينوم، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012).
26. أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2005).
27. فرح الفاضلي، الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم، ط1، (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2018).
28. هارون يحيى، مراجعة أورخان محمد علي، معجزة النبات.
29. محمد شحرور، القصص القرآني، قراءة معاصرة، ج1، ط3، (بيروت: دار الساقي، 2015).
30. تشارلز داروين، ترجمة مجدي المليجي، أصل الأنواع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004).
31. الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، تحرير جون كلوفرمونسيما، (بيروت: دار القلم، 2004).

32. سامي العامري، فمن خلق الله، ط1، (لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، 2016).
33. أحمد زويل، عصر العلم، ط12، (القاهرة: دار الشروق، 2010).
34. خالص جلبي، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى الدماغ، ط1، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2010).
35. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003).
36. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط3، (بيروت: دار المعرفة، 1971).
37. الإمام أبي حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، (أميركا، مكتبة الكونغرس، 1998).
38. د. عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط2، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993).
39. القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسدآبادي، تحقيق عبد الكريم عثمان، تثبيت دلائل النبوة، (القاهرة: دار المصطفى للطباعة والنشر، 2006).
40. حمزة البحيصي، الجلي النقي في معرفة الوحي، ط2، (لندن: دار E-Kutub للنشر، 2023).
41. ديزموند موريس، ترجمة: ميشيل أزرق، القرد العاري، دراسة في التطور العضوي والجنسي والاجتماعي للإنسان، ط1، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1984).
42. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (مكتبة نزار مصطفى الباز).
43. طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017).
44. عزيزة فوال بابستي، المعجم المفصل في النحو العربي، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992).
45. محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ج1، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006).
46. أبي حامد الغزالي، بداية الهداية، ط1، (بيروت: دار المنهاج، 2004).
47. أبي حامد الغزالي، تحقيق موسى محمد علي، قواعد العقائد، ط2، (بيروت: عالم الكتب، 1985).
48. حُسن عبود، السيدة مريم في القرآن الكريم، قراءة أدبية، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2010).
49. هارون يحيى، نسخة مترجمة، السلوك الواعي لدى الخلية، (إسطنبول: دار نشر آرافيترما يابنكيلك).

50. العلامة علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، ط1، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 2004).
51. العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، حققه عبد الله الدرويش، مقدمة ابن خلدون، ط1، (دمشق: دار يعرب، 2004).
52. علي جمعة محمد، المكاييل والأوزان الشرعية، ط2، (القاهرة: القدس للإعلان والنشر، 2001).
53. سليمان الشعيلي، وصالح الشيذاني، السماوات السبع بين أقوال المفسرين وعلماء الفلك، (جامعة الأزهر، مجلة كلية التربية، العدد 130، الجزء الأول، 2006).
54. أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، حققه بسام عبد الوهاب الجابي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ط1، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، 2003).
55. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، ط2، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999).
56. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، (القاهرة: 2004).
57. أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي، مفاتيح العلوم، الفصل الثالث، (القاهرة: مطبعة الشرق).
58. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط4، (بيروت: دار المعرفة، 2007).
59. محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير، محمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، ج42، (القاهرة: دار المعارف، 1998).
60. محمد حسين الطبطبائي، تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، ط1، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 2006).
61. حيدر حب الله، مدخل إلى الوحي وبشرية اللفظ القرآني، (بيروت: دار روافد، 2021).
62. محمد شحرور، الكتاب والقرآن، (دمشق، الأهالي للنشر والتوزيع).
63. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، م1، ط4، (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981).
64. هارون يحيى، ترجمة أورخان محمد علي، معجزة خلق الإنسان.
65. معاذ بني جابر، الجسد والوجود، ط1، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015).
66. معجم ألفاظ القرآن الكريم، إعداد أمين الخولي، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، 1968).
67. مهتدي الأبيض، اجتماعية التدين الشعبي، دراسة تأويلية للطقوس العاشورائية، ط1، (بيروت: الرافدين، 2017).
68. هارون يحيى، معجزة البروتين.

69. محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، (الكويت: عالم المعرفة، 1984).
70. جون كولون، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، (العدد 1995).
71. ميشال فوكو، ترجمة محمد هشام، تاريخ الجنسانية، استعمال المتع، الجزء الثاني، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2004).
72. ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد الأطرش، ط1، (بيروت: دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، 2000).
73. هارون يحيى، هدم نظرية التطور في عشرين سؤالاً.
74. نقولا حداد، ذكر وأنثى خلقهم، أو مرشد الشبيبة، (القاهرة: المطبعة العصرية).
75. نيل شوبين، ترجمة حسن غزلان، السمكة داخلك، رحلة في تاريخ الجسم البشري، ط1، (أبو ظبي: مشروع كلمة، 2012).

المراجع الأجنبية:

1. Mammal Species of the World: A Taxonomic and Geographic Reference, edited by Don E. Wilson and DeeAnn M. Reeder, 2nd ed, 1993.
2. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, 1983.
3. Dr. Michael Walker, Quadrant, Ekim 1982.
4. Richard Lewontin, "The Demon-Haunted World", The New York Review of Books, 9 Jan 1997.
5. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970.
6. Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258.
7. Alan Walker, Science, vol. 207, 1980, p. 1103; A. J.
8. Kelso, Physical Antropology, 1st ed., New York: J. B. Lipincott Co., 1970.
9. M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971.

10. Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258.

11. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970.

12. Stephen Jay Gould, Natural History, vol. 85, 1976.

13. Paul J. Steinhardt, Neil G. Turok, Endless Universe: Beyond the Big Bang, (Doubleday, 2007).

14. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, Nov 1982.

15. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, 1986.

16. New Evidence on Evolution of Early Atmosphere & Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, November 1982.

17. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol 87, 1976.

18. Prof. Dr. Ali Demirsoy, Kalitim ve Evrim, Ankara, Meteksan Yayinlari.

19. Carl O. Dunbar, Historical Geology, John Wiley and Sons, New York, 1961.

20. Robert L. Carroll, Patterns and Processes of Vertebrate Evolution, Cambridge University Press, 1997.

21. J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, Dec 1992.

الأبحاث والمجلات والصحف العلمية الإلكترونية:

1. https://academic.oup.com/mnras/article/524/3/3385/7221343?login=false

2. https://www.durham.ac.uk/research/current/research-/news/fetuses-react-to-taste-and-smell-in-the-womb

3. https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2

4. https://web.archive.org/web/20170815101448/http://farsi.khamenei.ir/treatise-content?id=228

5. http://www.pbs.org/wgbh/aso/databank/entries/dp27bi.html

6. https://abcnews.go.com/WNT/story?id=129898&page=1

7. https://futurism.com/harvard-radiation-black-holes-life

8. https://geolougy.com/k/بحث-عن-الرياح-وكيفية-تكونها

9. https://islamqa.info/ar/answers/88746/%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%88%D8%B9%D8%A7%D9%84-%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%B6%D8%B9%D9%8A%D9%81

10. https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/18497290/

11. https://uk.inaturalist.org/taxa/40974-Dyacopterus

12. https://www.aljazeera.net/news/science/2022/6/20/%D8%AB%D9%82%D8%A8-%D8%A3%D8%B3%D9%88%D8%AF-%D8%B6%D8%AE%D9%85-%D9%8A%D9%84%D8%AA%D9%87%D9%85-%D9%82%D8%B7%D8%B9%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%AF%D8%A9-%D8%A8%D8%AD%D8%AC%D9%85

13. https://www.batcon.org/article/the-incredible-milk-
/producing-male-bat

14. https://www.mdpi.com/1424-2818/14/3/179

15. https://www.iapt-taxon.org/nomen/main.php?page=art2

16. https://www.mominoun.com/articles/%D9%81%D9%87
%D9%85-
%D8%AA%D8%A3%D9%88%D9%8A%D9%84%D9%8A-
%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A3%D9%84%D8%A9-
%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%AF-
%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%AC%D8%A7%D8
%AA-%D9%81%D9%8A-
%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5-
%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86%D9
%8A-7323

17. https://www.nature.com/articles/s41467-021-23286-7

18. https://www.nhm.ac.uk/discover/dino-
/ directory/archaeopteryx.html

19. https://www.smithsonianmag.com/smart-
news/worlds-earliest-known-animal-may-have-been-blob-
undersea-creature-180970379

20. https://www.washingtonpost.com/wp-
srv/newsweek/science_of_god/scienceofgod.htm

21. https://pubs.rsc.org/en/content/articlehtml/2015/pp/c
4pp90035a

22. https://www.youtube.com/watch?v=zpkZd6YDtm8

23. https://chem.libretexts.org/Courses/University_of_Arkansas_Little_Rock/CHEM_4320_5320%3A_Biochemistry_1/05%3A_Michaelis-Menten_Enzyme_Kinetics/5.5%3A_Temperature%2C_pH%2C_and_enzyme_concentration_on_the_rate_of_a_reaction

24. https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC8133586/#kiaa108-B12

25. https://www.annualreviews.org/doi/10.1146/annurev-arplant-043015-111911#:~:text=Although%20plant%20Y%20chromosomes%20are,been%20discovered%20in%20sex%2Dlinked

26. https://www.darwintreeoflife.org/news_item/genomes-great-and-small-the-diversity-of-plants

27. https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC4374561

28. https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3261831

29. https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2882929

30. https://www.thetech.org/ask-a-geneticist/articles/2017/chromosome-number-not-correlated-/complexity

31. https://teach.genetics.utah.edu/content/pigeons/build-a-bird.pdf

.32 https://web.archive.org/web/20150924050114/http://www.biomedcentral.com/content/pdf/1471-2164-11-647.pdf

.33 https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC813/3586

.34 https://davidson.weizmann.ac.il/en/online/orderoutofchaos/body’s-elements

.35 https://www.cell.com/chem/abstract/S2451-9294(24)00069-X

دعاء الختام

- اللهم إني أسجد لمنطق عظمتك، ومطلق جبروتك وقوتك، وأسألك أن تجعل روحي في علو دارك ومستقر جنانك، روحاً ساكنة مطمئنة في ملكوتك الأعلى، مقيمة في فردوسك المغمور بأنهار من لبن وعسل مصفى. روحاً تطير مع ملائكتك، من حولك وتحت ظل عرشك، فتسبّح تسبيحاتك وتشكر فضائلك.

- اللهم اعصمني من فتنة المحيا والممات، ومن فتن الشهوات، ومن أذى المشركين والمشركات، وطهّر عقلي وقلبي من سوء الخطايا والتدبير كما نقَّيتَ الثوبَ الأبيضَ من الدَّنس. وباعد بيني وبين الأوهام والشبهات ودسائس شياطين الإنس والجن ومنابت الآفات.

- اللهم اسقني من رحيقك المختوم، وعطرني بشذى المسك وأريج الريحان، فأنظر إليك طاهراً عفيفاً، وطيباً نزيهاً أسكن بروحي على سررك المصفوفة، مزواجاً من الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون، خالداً تحت ظل عرشك خلوداً أبدياً، أرتوي من ريانك رواءً لا أظمأ بعده أبداً.

- اللهم إني أسألك من واسع فضلك العظيم ونور سلطانك السديم أن تبصرني إياك من فوق العرش، فأكون من الوجوه الناضرة التي إلى ربها ناظرة، وأن تجعل لي لسان صدق في الدنيا والآخرة، وأن تدخلني جنات الفردوس الأعلى مع الأتقياء الطاهرين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

- اللهم اجعل روحي مستقيمة كقوامة آدم (عليه السلام) في الجنة، لا ماساً من شجرته، ولا ممسوساً من وسوسة شيطانها أو نار وشرور إبليسها أبداً، وكروح عيسى (عليه السلام) وزهده وطهارته، معززاً بآياته. اللهم اجعل لي روحاً كشجاعة نوح، وقوة وسحر موسى، وتسبيح يونس، وحكمة لقمان، وطهارة لوط، وذكاء زكريا، وغِنى سُليمان، وعفة وجمال يوسف، وصبر أيوب، وأناة وحلم إبراهيم، ولسان إسماعيل، وبشرى يعقوب، وأمانة وأخلاق ونور النبي محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
/Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

فكرت مراراً في هذا السؤال، هل يمكن وضع تفسير مادي تاريخي للقرآن الكريم؟ لكنني عدت وفكرت في أصل ودورة حياة المادة في التاريخ منذ خلقها الأول بأمر الله، وتأملت حركة المادة ودورتها في الكون والطبيعة، وكذلك دلالة معانيها وسياقها التاريخي في القرآن، وإذا قلنا سياق تاريخي، فإننا بذلك نتوقع زمناً محدداً لخلق المادة، وخلق المادة ليس له زمن وفق التقديرات الآدمية الدنيوية. لا يمكن تفسير القرآن تفسيراً مادياً، لأنَّ المادة جزء من موضوعه وليس كل موضوعه، وكذلك الطبيعة، لكن موضوع المادة والطبيعة (ويشكلان الكون معاً) موضوعان مركزيان ومتأصلان في الحياة، ويتلاحق معهما خلق آدم (عليه السلام) باعتباره أول الخلق الإلهي الإحيائي، وكذلك عيسى (عليه السلام) باعتباره آخر الخلق الإلهي الإحيائي. ومع ذلك وجدت إمكانية التأسيس لمقدمة نظرية عن الفلسفة المادية في قراءة نص القرآن، وإن القرآن أسبق من المادة باعتبار أنه كلمة الله المنزلة عبر الوحي، والوحي أسبق من المادة، ومادة خلق الوحي أسبق منه، ولأن خالق المادة هو الله، وكلمته أسبق وأقدم من المادة وخلق الكون والقرآن والوحي، فيكون أصل خلق المادة لغة أمر، وكلمة الله العليا هي أمر.

(المؤلف)

eKutub



آلاف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان